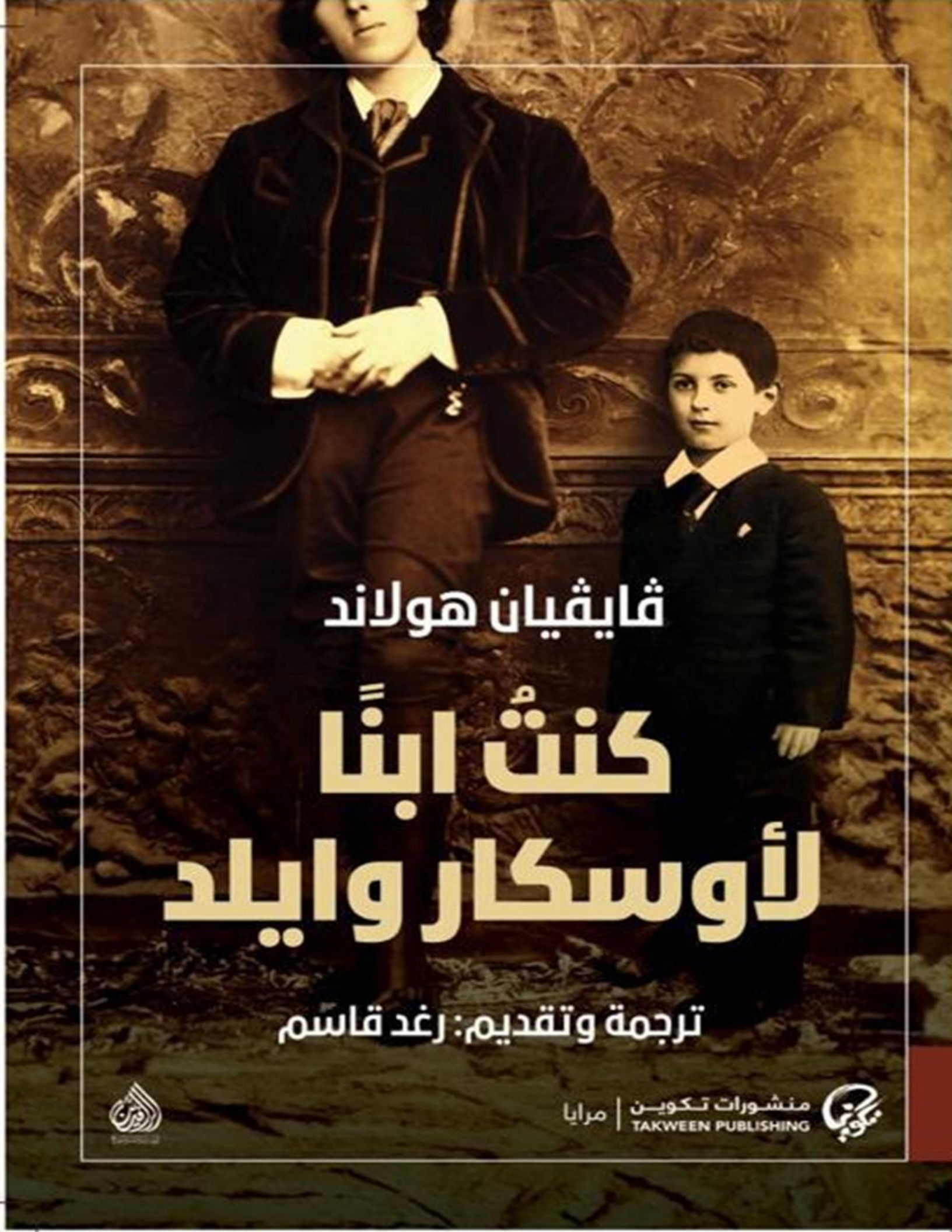

ڤايڤيان هولاند

كنتُ ابنًا لأوسكار وايلد

ترجمة وتقديم: رغد قاسم

منشورات تكوين | مرايا
TAKWEEN PUBLISHING

كنتُ ابنًا لأوسكار وايلد

ڤايڤيان هولاند

ترجمة وتقديم

رغد قاسم

الكاتب: ڤايڤيان هولاند
عنوان الكتاب: كنتُ ابنًا لأوسكار وايلد
ترجمة وتقديم: رغد قاسم
X
تصميم الغلاف: يوسف العبدالله
تنضيد داخلي: سعيد البقاعي
X
ر.د.م.ك: 978-9921-775-96-9
الطبعة الأولى - يوليو/ تموز - 2023
3000 نسخة
X

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

X

منشورات تكوين TAKWEEN PUBLISHING
الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة
تلفون: 40 04 81 98 965 +
بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي
تلفون: 60 58 00 11 78 964 +
takween.publishing@gmail.com
takweenkw
takween_publishing
TakweenPH
www.takweenkw.com
X
لبنان - بيروت / الحمرا
تلفون: 683 345 1 961+ / 980 541 1 961+
بغداد - العراق/ شارع المتنبي، عمارة الكاهجي
تلفون: 07830070045 / 07810001005
daralrafidain@yahoo.com
Dar alrafidain
info@daralrafidain.com
Dar.alrafidain
www.daralrafidain.com
Dar alrafidain

أوسكار وايلد مع زوجته كونستانس وابنِهما الأكبر سيريل

مقدمةُ التَّرجمة(1)

في رسالةٍ من ڤايڤيان هولاند ابن أوسكار وايلد، إلى ألفريد دوغلاس، يقول إنه قد سمع الكثير من التناقضات عن حياةِ والده، رواياتٍ لا حصرَ لها يناقضُ بعضُها بعضًا، حتَّى صارَ يشكُّ بأنَّ رجلاً اسمَه أوسكار وايلد قد عاشَ بالفعل!

هذه الكلمات، هي في الحقيقة، من أصدق القراءات لحياة وايلد، الذي بمجرَّد أن تحاول تقصِّي كم الحكايات عنه، سيُصيبُكَ صداعٌ رهيبٌ لكثرة التناقض بين حكاية وأخرى، فمنهم من يصور الرجل ملاكًا وقع ضحية ظروف غير مواتية، لا أكثر، ومنهم من ينقله إلى النقيض ليحولَه إلى مجرمٍ متهتِّكٍ.

أيًّا كان موقفُ الآخر من وايلد، فلا أحدَ يشكُّ بموهبتِهِ الفذة وقدرته المدهشة على تقصِّي الذات، وتلك النظرة الفاحصة على المجتمع، التي قلَّما وُجِد لها نظيرٌ، وصياغة كلِّ تلك الأفكار في قوالبَ قصصيةٍ أو مسرحيةٍ، في نصوصٍ يبدو ظاهرُها بسيطًا، ويُنسب بعضُها إلى أدب الطِّفل، لكنَّها تحوي في عمقها جوهرًا خالدًا.

توفِّي أوسكار وايلد في السَّادسة والأربعين من العمر، وقد عاشَ سنواته الخمس الأخيرة من حياتِهِ في ظروف قاهرةٍ من محاكمة وحبسٍ وأعمالٍ شاقَّةٍ، حتَّى قضى نَحْبه منفيًّا في باريس، أثَّر كلُّ ذلك عليه بشدَّةٍ فلمْ يعد قادرًا على الكتابة، وآخرُ ما كتبه رسالةً طويلةً وقصيدةً طويلةً من داخل السِّجن.

كانَ قد بلَغَ للتَّوِّ، قبل المحاكمة فحسب، ذُروةَ نضجهِ الأدبي، فمسرحية (أهمية أن تكون أرنست)(2) قُدِّمتْ في ذلك الوقت، والتي يمكن اعتبارُها نقطةَ الذُّروة في أعماله. عند حساب نتاجاته تجد أنه لم يترك خلفه الكثيرَ من الأعمال، إذْ كتب روايةً واحدة فقط هي (صورة دوريان غراي)، وأربعَ عشرة قصةً قصيرة، وتسع مسرحيات وسبعَ مقالات، وديوانَ شِعرٍ وحيدًا كتبه أوَّل شبابه وواجه نقدًا قاسيًا جدًا، وقصيدةً طويلة. وبعد وفاته صدرتْ رسالة (من الأعماق) وعملان نقديان كتبهما وهو لا يزال طالبًا في الكلية، ونُشرت رسائلُه. على الرغم من قلة الإنتاج تلك، فإنَّ هناك من يَعُدُّه أفضل من كتب للمسرح بعد شكسبير! فالرجل مِرآةُ عصره، وإذا أردت دراسة المجتمع الإنكليزي في العصر الفيكتوري فاقرأْ لأوسكار وايلد مسرحيةً فقط. هذا لا يعني أنه محدَّدٌ بعصر دون غيره، والدليل أن أعماله تلْقى رواجًا حتَّى الساعة، وتُترجمُ إلى كل لغات العالم تقريبًا. ويمكن القول إنه واحد من أكثر الكتاب إثارةً للجدل في حياته، وحتَّى بعد مماته، إذْ تطالعكَ عشراتُ المقالاتِ التي تحملُ اسمه في عناوينها كلَّ حينٍ، بل لا تمرُّ سنةٌ دون صدور بضعة كتب عنه، وكلُّ كتابٍ منها يدَّعي أنه بلغَ جوهرَ الرجل وسرَّه!

حين طلبتْ مني الدَّارُ، قبل سنتين تقريبًا، أن أقترحَ عنوانًا لكتاب يمكن عدَّه بمثابة سيرة لأوسكار وايلد من أجل الشُّروع بترجمته؛ صدمتني كثرةُ الخياراتِ أمامي، وبعد أن قرأتُ عددًا كبيرًا من هذه الكتب، وشهدتُ تضارب الآراء بين عملٍ وآخر، وجدتُ أن أي كتاب أختاره سيقع في معسكر المحبين أو الكارهين بلا شك، وهو ما يتنافى مع رغبتي بكتاب يكون شاملاً جامعًا. كتابٌ واحدٌ أثارَ عنوانه انتباهي (كنتُ ابنًا لأوسكار وايلد)، والمؤلف هو ڤايڤيان هولاند ابن أوسكار وايلد، الذي لا يحمل اسمَ والده! لكونه أُجبِر في طفولته على تغيير اسمه وكنيته، بسبب خوف والدته وعائلتها عليه وعلى أخيه من تبعات سمعة والده التي باتت في الحضيض آنذاك. بقيَ الكتاب يشغلني، وقد قرأت بعض المراجعات المشجعة عنه، لكنني لم أتمكن من الحصول على نسخة منه، فالكتاب غير متوفر إلكترونيًّا، حتَّى في أمازون وكندل لا تستطيع العثور على نسخةٍ منه. أبلغتُ مديرَ الدَّار بحيثيات الموضوع، ورغم أنني لم أعِدْه بترجمةِ هذا الكتاب، فإنَّهُ -والحقُّ يقالُ- ظلَّ يبحث لمدةٍ تزيدُ على السَّنة عن نسخةٍ منه، حتَّى عثرَ عليه أحدُ معارفه بمكتبةٍ للكتب المستعملةِ، في الولايات المتحدة، واستغرقنا الأمرُ بعضَ الوقت حتَّى وصل إلى بغدادَ أخيرًا؛ نهاية العام الماضي ٢٠٢١. وبعد قراءته، قرَّ قراري على الفور وشرعتُ بالتَّرجمة.

هذا الكتاب برأيي فريدٌ من نوعه، إذْ لطالما طالعتْنا حكاياتُ الأبطال، سواء أكانوا جنودًا للخير أم للشر، وقرأنا قصصَ الشخصيات التاريخية بتعاطفٍ لا سيما تلك التي تعرضت للظلم، ولكنْ قلَّما رأينا انعكاسَ تلك القصص على مَن هم أقرب الناس للبطل، فما هو وضعُ عائلته؟ وما حال أبنائهم؟ وكيف مضتْ بهم السُّبل؟

رغم أن قضية أوسكار وايلد قضيةٌ شائكة، فمن المعروف أنه لم يحاكم لكونه قد انتهك الحرمات بالفعل، ففي الوقت الذي باتت فضيحةُ وايلد على كل لسان في لندن، وتبدو كخرق لكلِّ المقدَّسات، تجتهد العائلة المالكة للتغطية على اتهام ولي العهد، الأمير ألبرت، بقضية زنا من قبل واحد من أزواج عشيقاته اللائي لا حصرَ لهن. أضف لذلك أن القضيةَ فُتحتْ للمرة الثانية –بعد أن أُغلقتْ أوَّلَ مرةٍ لعدم توصُّل المحلَّفين لقرارٍ جازم- كما يقالُ بضغطٍ مباشر من رئيس الوزراء البريطاني في حينها أرشيبالد بريموز، وهو نفسه كان على علاقة مِثلية مع الأخ الأكبر لألفريد دوغلاس -الذي أُدينَ وايلد بسببِ علاقته به- بل ومتَّهمًا بقتله! لا بد أن القضاء على وايلد وما يمثله من إزعاج ونقدٍ لاذعٍ للمجتمع البريطاني الفيكتوري، المُجتمع الذي ضُربَ بسياط النقد المؤلمة عبر كوميديا ذكية، فالخلاصُ منه أشبهَ بضرب عصفورين بحجر، فقبل ذلك بوقت قصيرٍ حين رفضتِ الرَّقابةُ عرض مسرحية وايلد المسماة (سالومي) بحجة مخالفتها لأعراف المجتمع الإنكليزي، وقفَ يصرخُ علانيةً:

«لستُ إنكليزيًّا، أنا أيرلنديٌّ، وشتَّان ما بين الاثنيْن».

لم يكن رئيسُ الوزراء ليقبلَ مثلَ هذا التَّصريح، وهو المعروفُ برفضِهِ الشَّديدِ لاستقلال أيرلندا. معارضٌ آخرُ لحكم الأيرلنديين لأنفسِهم هو إدوارد كارسون، الذي رغم كونه

أيرلنديًّا إلاَّ أنه رأى مصلحة أيرلندا تتمثَّلَ بالبقاء مع بريطانيا، بل وهدَّد بسفك نهرٍ الدِّماءِ إن حدثَ الاستقلال! تناسى هذا الرجل صداقتَه السابقةَ لوايلد، وقاد الادِّعاءَ العامَّ ضده، وحطمه شر تحطيم في المحاكمة الأولى.

وايلد، الذي وُلدَ لعائلة أيرلندية معروفة بدعمها الواضح لاستقلال أيرلندا عن بريطانيا، لم يكن شديدَ التكتُّم في أوَّلِ شبابه لا سيما خلال فترة بقائه في الولايات المتَّحدة، بل صرَّحَ علنًا بتقديرهِ للكونفدرالية الأمريكية، على أمل أن يحلَّ اليوم الذي تستقل فيه أيرلندا عن سيطرة التاجِ الإنكليزي. كان أوسكار متحمسًا معروفًا للاشتراكية إلى جانبِ مواطنه برنارد شو الذي ثمَّنَ موقفه في التوقيع على طلبٍ للعفو بحق بعض المدانين السياسيين، لكنه لم يكن ليتَّفقَ مع رؤية وايلد للاشتراكية، فقد شَجَّعَ شو الاشتراكية الماركسية بشكلها الكلاسيكي العقلاني، بينما مال وايلد إلى الاشتراكية الأناركية (الفوضوية) التي ترفض كلَّ أشكالِ السلطة، وترفضُ كلَّ أشكال المِلكية، وتدعو لعيشِ حياةٍ كاملة بلا أقنعة. ومن المثير للاهتمام أن مقالته (روح الإنسان) التي لا تزال تُناقَش حتَّى السَّاعة، كورقة مهمة في الأناركية الاشتراكية، نُشرتْ في نسخٍ محدودة من قِبل ناشرٍ مجهولٍ، بعد أيَّامٍ من النُّطق بالحكم عليه، وكأنَّها صرخةُ وايلد الأخيرةُ ضد الطُّغيانِ، وهو الذي في سنوات مجدهِ لم يتورَّعْ عن القول:

«ماتَ الفنُّ الأيرلنديُّ عندما حكمته إنكلترا، لأنَّ الفنَّ لا يزدهرُ في ظلِّ الطُّغيان».

ناقش الشَّاعرُ الأيرلنديُّ، أوستن كلارك، في رسالةٍ له نظريةَ وايلد عن المِثلية الجنسية لدى شكسبير(3)، كلارك، مثله مثل جيمس جويس وكثيرين غيره يمتدحُ النَّظريةَ لألمعيتها، ويؤيدُها بل ويقولُ: «لطالما خُيِّلَ لي أن هذهِ النَّظريةَ هي التي أودتْ به» وربما ليس ذلك خيالاً مَحضًا، فلا شكَّ أنه أثارَ الضَّغائنَ لمحاولته المساس بفتى إنكلترا المُدلَّل!

كلُّ ما ذُكر هو نَزْرٌ يسيرٌ من أسبابٍ كثيرةٍ لإسكاتهِ، لأنَّ الحُكمَ على ما يبدو لم تكن له علاقة بتفاصيل قضيتهِ، حُوكِمَ وايلد -كما نعلمُ- بسببِ المِثلية الجنسيَّةِ، أو ممارسةِ فعلٍ شائنٍ كما أسمته المحكمةُ في السِّجلاتِ الرَّسميةِ. بينما معروفٌ شيوعُ مثلِ تلكَ المُمارساتِ في المجتمعِ الفيكتوريِّ، الذي وإنْ رفضَ المِثليةَ لأسبابٍ دينيةٍ، فقد تَعاطى معها بما يُشبهُ التَّسامُحَ؛ لا سيَّما في أوساطِ الفنَّانينَ والنُّخبةِ الحاكِمة. وفي الحقيقةِ فإنَّ محاكمة وايلد كانت واحدةً من بين أوائل المحاكمات من مثل هذا النوع، وبدايةَ مُلاحقةِ المِثليينَ ومطاردتِهم.

تجدرُ الإشارةُ من باب الإنصاف إلى رفض البعض اعتبار وايلد «شهيدًا» في سبيل حقوق المِثلية -إنْ صحَّ التَّعبيرُ- فمحاكمته قد كشفتْ عن علاقاتِهِ بقاصرينَ كُثُر، أستُغِلَ بعضُهم في شبكاتِ دعارةٍ لمِثليي الجنس. كذلك موضوع هُويَّتِهِ الأيرلنديَّةِ، فما عدا القليل من

الأمثلة الشَّبيهة بما ذكرنا سابقًا، لم يستمر أوسكار وايلد في مواقفه تُجاه بلدهِ الأم، كما أنه لم يزرْها إلاَّ في مناسباتٍ قليلة، منذ غادرها أوَّلَ شبابه.

زِد على ذلك أن نفرًا غيرَ قليلٍ من كُتَّابِ اليوم، لا يزالون ينقدون طيفًا من الصفات التي عرف بها وايلد في ذُروة مجده؛ ومن ذلك الفخرُ والإعجابُ الشديدُ بنفسه حدَّ الغرور، والتطرف في الثناء على عبقريته، وهوسه بكل وسائل الدعاية لنفسه، وسعيه الحثيث للفت الانتباه. لكن حتَّى هذهِ الصفات يراها محبُّوه -كما في الملحق الثاني- هفواتٍ أكثرَ من كونها أخطاء أو عيوبًا قاتلة، أو حتَّى شريرة، فالرجل لم يتورع عن نقد نفسه كنقده المجتمع وأكثر، فقد غاصَ في أعمق أعماق نفسه وأدرك عيوبه، وفهم ما له وما عليه، بل عِبر قراءة دقيقة لبعض أعماله إذا ما توازت مع دراسة حياته سيجدُ المرء أنه تنبَّأ بما سيحدث! فمثلاً في (صورة دوريان غراي)، يعيشُ دوريان حياةً سرية ماجنة لا تنعكس على وجهه، بل تنعكس على لوحةٍ مرسومة له. أفلا يمكن أن يُعَدَّ أوسكار ذلك الدوريان نفسه؟ وخلفَ مظهره حياةٌ ماجنة لا تظهر إلاَّ بين ثنايا أعماله؟ ومثلما أصبحَ هو المسيح ويهوذا في حكايته الشخصية، فقتلَ نفسه وفنَّه وعائلته بيديه، كذلك فإنَّ دوريان غراي قتل رسَّام اللوحة أول الأمر، ثم قتل نفسه، وفي العمل ذاته يقول الرسامُ: «هذا حقٌّ، لقد عبدتك بعواطفَ لا يجب للرَّجُل أن يمنحها لرجُلٍ آخرَ، وأنا لم أحب في حياتي أيَّما امرأة». وكما يقال إن أوسكار وايلد هو الفنان الذي صرعتْهُ أعمالُهُ، فمن هذهِ الرواية بالذات ومن مقدمتها اُقتُبِستْ أسطرٌ من قِبل خصمِهِ؛ شهدتْ عليه في المحكمة وساهمت في نهايته.

عملٌ آخرُ من أعماله؛ مسرحيةُ (الزَّوج المثالي) التي كُتبت عن حالة ابتزازٍ لرجلٍ مهمٍّ بشأن فساده السياسي، تزامنتْ هذهِ المسرحية مع تعرُّضهِ هو نفسه للابتزاز بسبب حياته الأخرى. ومن المثير للاهتمام تركيزُه في هذا العمل، وفي أعمالٍ أخرى صدرتْ في الفترة نفسِها على طلب الصَّفح من الحبيبة والزَّوجة، وذلك بألاَّ تراه مثاليًّا بل أن تحبَّه كما هو بعيوبه وأخطائه، لأنَّ مَن فيهِ غضاضةٌ هو من يحتاجُ الحب وليسَ الإنسانُ الكاملُ المثاليُّ، ويُفتَرضُ أنْ «يَهُبَّ الحبُّ لإسعافِنا إذا ما جُرحنا بأيدينا أو بأيدي الآخرين، وإلاَّ فما الفائدةُ منه؟». وفي كلماتٍ مؤثِّرةٍ نجده يقول: «تعتقدُ النِّساءُ أنهنَّ يصنعنَ المُثُلَ العُليا للرِّجال، لكنهنَّ يصنعنَ أصنامًا مزيَّفةً. لقد جعلتِ مني مَعبودًا مزيَّفًا، ولم تكن عندي شجاعةُ التَّخلِّي عن تلك المنزلةِ، لأُظهرَ لكِ جُروحي، وأخبرَكِ بنقاط ضعفي، كنت أخشى أنْ أفقدَ حبَّكِ، كما فقدتهُ الآنَ». ويمكن للمرء أن يخمِّنَ إمكانية أن تكون هذهِ الكلمات موجَّهةً بشكلٍ غير مباشر لزوجته؛ لكونستانس، المرأةُ الثَّورية صاحبة القلب العطوف، التي لم تكن لتصدِّقَ شيئًا ممَّا قيلَ عن زوجِها، ومن ذلك ذَكرتْ في رسالة منها لبعضِ معارفها، كتبتْها قبل زواجهما، أن عائلتها تهزأ من كون أوسكار يطلق شَعره طويلاً، ويظنون أنها علامة على قلة الرجولة، لكنها ترى أنها موضة سيئة لا غير![(4)]

فكما ترى بدأتْ الشُّكوكُ حول ميول أوسكار منذ زمنٍ طويلٍ، لا سيَّما بسببِ المظهر الغريب الذي اتخذه، حُبًّا للفْتِ الانتباهِ عن طريقِ إرباك النَّاس وتحدي تقاليدِهم. وكذلك بسبب أول

ديوان له، فحين نشرَهُ كان يتشارك منزلاً مع صديقه الفنان فرانك مايلز، وأوسكار، كما تظهِر لنا الرسائلُ في الملحق الأول، لهذا الكتاب، ظلَّ لفترة طويلة على علاقة طيبة بعائلة مايلز، لكن بعد نشر الكتاب جاء والد فرانك إلى أوسكار وطلب منه أن يترك ولده وشأنه، وأجبرَ ابنه على مغادرة المنزل المستأجر، لأنَّ أشعار وايلد أثارتْ فضيحةً! وقال له بصريح العبارة حتَّى لو أن تلك القصائد قد كُتبت في سبيل الفن لا غير، دون أن يكون لها أساس على أرض الواقع، فيجب مع ذلك أن يتركَ صحبةَ ولدهِ لكيلا تُشوَّهَ سُمعتُهُما! وفي العمل الأخير، قبلَ سجنه، كتب أوسكار وايلد في مسرحية (أهمية أن تكون أرنست) كذلك عن موضوع النساء، وكيف أنهنَّ يضعن لأحبابهن وأزواجهن صورةً مثالية لا يستطعن التخلي عنها، لذا يُجبرُ الرجل على أن يعيش حياةً مزدوجة من أجل ألا يخسرهنَّ. والفرقُ بين هذا العمل وبين مسرحية (الزوج المثالي) واضحٌ، فهو هنا أكثر قسوة وأكثر صراحة، ويبدو أنه أكثر ثقةً حتَّى بمكانته في المجتمع، ربما ذلك هو نفسُ السَّبب الذي جعله لا يهرب قبل بدء المحاكمة الثَّانية، فغالبُ الظَّنِّ أنه ظل يعتقد بإمكانية فوزه، وأن تعينَه طراوةُ لسانه ومزجه للواقع بالخيال على تشويش القضاة وإنهاء المحاكمة بلا أضرارٍ بدلاً عن الهرب والعيش متخفِّيًا طَوال حياته، وهو أمر لا يمكن لرجُلٍ مثله أنْ يتحمَّله كما ثبُتَ فيما بعدُ.

«إظهارُ الفنِّ وإخفاءُ الفنَّانِ هو الهدف الأساسُ للعمل الفنِّي»، هكذا كتب أوسكار وايلد في تقديمه لعملهِ (صورة دوريان غراي). لكن ما حدث مع أوسكار مختلفٌ للغاية، فبينما مُنِعتْ أعمالُه وصُودرتْ حقوقُهُ كمؤلِّفٍ بقيَ اسمُهُ يتردَّدُ على كل لسان، بعد أن كُشِفت حياتُه الخاصَّةُ على الملأ، وصار موضوع حديث كل جلسة في إنكلترا الفيكتورية بعد محاكمته. أُدِينَ بسببِ قانون أُقرَّ قبلها بسنوات فقط، وهو قانون أعتُبرَ تقدُّميًّا يَسعى لحماية المُراهقين من أن يغرِّر بهم الرِّجالُ المنحرفونَ سواءً بحلو الكلام أم بالعنف، ولولا السياسةُ وتدخلُّها لتَعذَّرَ اعتبارُ طالبٍ جامعيٍّ مثل اللورد ألفريد دوغلاس «مُراهقًا» أو «غِرًّا»، فقد التقاهُ وايلد وهو في الرابعة والعشرين من العمر، وقد قال أوسكار إنه عَرفَ أكثر من اللازم، فخلف جماله المثير للإعجاب مثل منحوتة إغريقية، ولدٌ مدلَّلٌ عرف كلَّ ملذَّاتِ الحياة باكرًا، وقاده الإسراف إلى أقصى درجات الانحطاط(5)، وسحب معه وايلد الذي كان يشعر بالملل من حياته الزَّوجية، فبدأ يستكشفُ ميوله المِثليةَ للمرَّةِ الأولى(6) إثْر لقائه بروبرت روس عام ١٨٨٦، وهي نفس سنة ولادة ڤايڤيان، الذي تسببت ولادته المتعسرة بمشاكل صحية عديدة لوالدته أثرت على زواجهما.

في السَّابعةَ عشرة من عمرهِ لم يُخفِ روبرت روس، القادمُ من كندا للدراسة في كامبريدج، ميولَهُ ولم يتورَّعْ عن إبداء إعجابه الكبير بالكاتب الذي شغلَ لندن كلَّها، ورغم أن العلاقة بينهما لم تستمر أو ربما لم تحدث حتَّى، فقد بقيا أصدقاء طوال حياتهما. وحتَّى بعدَ وفاة أوسكار بعقدين ظلَّ الرَّجُلُ يكافح ويحفر الصخر لإعادة الاعتبار لاسمِ وايلد وأعمالهِ بكلِّ شكلٍ من الأشكال، حتَّى أنه يوم تُوفي طلبَ أن تُحرقَ جثَّتُه ويذرَّ رمادُه عند قبرِ رفيقهِ!

لم يُدَنْ روبرت روس بالمِثلية، ولم يُدَن الكثيرون غيره رغم صراحتهم بشأن ميولهم، لكنَّ ما تسبَّب في إدانة أوسكار وايلد هو هفوة منه في لحظةِ غضبٍ، تكاد تماثل بشكل عجيب هفوة والدته من قبلُ. تلك الهفوة التي نتجتْ عن الغضب أيضًا وتسبَّبت في محاكمتها وزوجها بشكوىً من فتاةٍ أغواها والد أوسكار لتنجبَ منه طفلاً غيرَ شرعي، تُوفي والد أوسكار مهمومًا مغمومًا. رغمَ أن المحاكمة لم تؤدِّ إلى سجنه أو ما شابهَ، فإنَّها حطمتْ سمعته وقادتِ المجتمعَ لنبذِه، وهو الذي كان واحدًا من أعلام بلده ومكرمًا بينهم بسبب كرمه ورعايته لفقراء دبلن، حتَّى مات دون إرثٍ يذكر، كما لو أن التاريخَ يكرر نفسه بالفعل، لكن بصورةٍ أشد قسوة في حالة أوسكار، الذي لم يدرك مغبَّة الغضب!

غضِب أوسكار وايلد من استمرار مضايقات اللورد كوينزبيري –والد ألفريد- ومحاولته التَّشهير بهِ في إرساله ملاحظة بيد خادمِ النَّادي الاجتماعيِّ الذي يرتاده أوسكار، ودفعه النُّقودَ للخادمِ ليقرأ على الملأ: «إلى أوسكار وايلد، اللُّوطيِّ»، مما جعله يرفعُ قضيةَ تشهيرٍ ضدَّ اللُّورد، بتحريضٍ من ألفريد إذْ توقع أن يربحَ وايلد القضية، ويتخلَّصَ هو من والدهِ، وتقتيرِهِ الشَّديدِ بالمال. كان اللُّورد كوينزبيري سيدًا نَبيلاً متباهيًا برجولتهِ، ولا يؤمن إلاَّ بمبدأ القوة، وكره أكثر ما كره رقَّةَ الطِّباعِ أو قُل الميلَ للتَّخنُّثِ، فهو الذي وضع (قواعد كوينزبيري) للمُلاكمةِ، التي صارتْ قواعدَ للملاكمة الحديثة، ولكنَّ أبناءه مالوا إلى المِثلية ولم تنفع معهم قسوته ومتابعته، فالكبير كما يشاع قُتل على يدِ عشيقهِ رئيس الوزراء، أثناء عملهِ مساعدًا له، بينما تجولَ ألفريد بصحبةِ أوسكار، يسافران من بلدٍ إلى بلدٍ حتَّى هجرا عائلتيْهما. وفي المحاكمة حدثَ أنَّ اللُّورد كوينيزبري في محاولته أن يدفعَ عن نفسه تهمة التشهير، فضحَ كلَّ أوراق أوسكار على الملأ، فاضطرَّ أوسكار إلى إلغاءِ دعوى التشهير بنصيحةٍ من محاميه بعد كشف اللُّورد لكلِّ تلك الأدلَّة.

يا له من سوء حظٍ ذلك الذي جعله يقف بين صبيٍّ مدللٍ وأبٍ مأزومٍ، ليكون الحجرَ الذي يتراشقان بهِ. سوء الحظ الذي جعل من الحكومة ورقةً رابحةً بيد كوينزبيري ليدينه ويحطمَ سمعته أوَّلَ الأمر، ثم ليعودَ وينهبَ ممتلكاته ليسددَ تكاليف أتعاب محاميه، فيتركه مفلسًا يعتمد على حسناتِ الآخرين، وهو الذي أسرفَ ببذخهِ على الجميع بضمنهم عشاقه، ومن ذلك الهدايا الفاخرة التي يشتريها لألفريد (بوزي) ويؤجل سداد ثمنِها، وأجورَ الفنادق والأزياء، حتَّى دخل المحاكمة وهو لا يمتلك أتعاب محاميه، مصدِّقًا وعدًا من ألفريد بأنه سيتكفَّل بدفع المبلغ، الوعد الذي لم يفِ به بالطَّبْعِ، لأنَّه لا يزالُ يتلقَّى مصروفَهُ من والدِهِ.

بعد سحبهِ لقضية التَّشهيرِ نصحَهُ الجميعُ بالسَّفر، عدا والدته التي ربَّما لم تكن تعلم بميول ولدها، فنصحتْهُ أنْ يبقى ويقاتل لأجل سمعته، أما هو فظل مترددًا وبقيَ يقول: «لقد فاتَ الأوان، فاتَ الأوان»، ثم ألقي القبضُ عليه في السَّادس من نيسان/ أبريل ١٨٩٥، لتبدأ محاكمته بتهمة المِثلية في السَّادس والعشرين من الشَّهر نفسهِ. كان روبرت روس في المنزل حينذاك، فاختبأ في قبوٍ، وعمل فورًا على أخذ كلِّ ما يمكنُ حملُهُ من متعلِّقات وايلد المهمَّة، وسافر إلى فرنسا مع العديد ممَّنْ ماثلوه في توجههم الجنسيِّ خوفًا من المحاكمة.

الوحيدُ الذي لم يسافر هو دوغلاس الذي بقيَ يزوره كلّ يومٍ، وطلبَ أن يُستدعى كشاهدٍ، لكنَّ أوسكار خشيَ عليه التَّعرُّض للسَّجن كذلك، وتوسَّلَه أن يسافرَ إلى فرنسا، ففعل. لم تتوصل المحكمةُ لقرار حاسمٍ وعلَّقت جلساتها، وغرِّم أوسكار وايلد ٥ آلاف جنيهٍ بسبب تصريحاته المسيئة للمحكمة. خرج أوسكار من السِّجن وتوارى في منزل الروائية إدا ليفرسون وزوجها أرنست.

ثم عادت المحاكمة الثانية في الخامس والعشرين من الشَّهر التالي، اللُّورد كوينزبيري بعد أن انتشى بنصره الأول، أرادَ ردَّ الصَّاعِ صاعيْنِ لأوسكار، فرفضَ كلَّ محاولاتِ الوساطة للإصلاح بينهما، حتَّى محامي الدِّفاع السابق كارسون، الذي وقف بالضِّدِّ من أوسكار في المحاكمة الأولى طلبَ عدم الاستمرار بمحاكمتهِ، لكنَّ محامي الادِّعاء العام قال بصريحِ العبارة: «أخشى أنَّ القضيةَ أصبحت سياسيةً للغاية، ولا يمكن إيقافُها»، وجاء كوينزبيري محمَّلاً بأدلَّةٍ صادمة لا يعقلُ أنه جمعها بنفسه، فقط، خلال فترة قصيرة كتلك، وانتهت القضية بإدانة وايلد والحكم عليه بالسِّجنِ لسَنتين مع الأعمال الشَّاقة، وهي أقصى عقوبة يسمحُ بها القانونُ لتُهمةٍ كهذهِ. علَّقَ القاضي بعد نطقهِ بالحكم: «إنَّها مدَّةٌ غيرُ كافيةٍ على الإطلاق لجريمةٍ مثل جريمتِك».

تدهورت صحته في السِّجن بسبب الأعمال الشاقة التي امتدت لساعاتٍ طويلةٍ، وتضمَّنت العملَ في الطَّواحين، وفي جَدْلِ حِبال السُّفن السَّميكةِ وفصْلِها، تدهورتْ صحتُهُ باطِّرادٍ، إلى جانب الجوع ومعاناته مع الإسهال والأرق، حتَّى سقطَ مغشيًّا عليه في الكنيسة بسبب سوء التَّغذيةِ، فتسبَّبت تلك السقطةُ بثقب طبلةِ أذنه اليُمنى. قضى بعدَ تلك الحادثةِ شهرين في المشفى، زاره في محنته تلك النائب البرلماني ريتشارد هارلدن وأوصى بنقله إلى زنزانة ريدنك وإعفائه من الأعمال الشاقة، حدث ذلك بطريقة مهينة للغاية، حيث تعمدت السلطات نقله على أعين الملأ من سجنٍ لآخر، ليقفَ بقامته الطويلة وسط محطة القطار تلك منتظرًا لساعتين تقريبًا بينما يمر الناس من حوله ليشتموه ويبصقونَ في وجهه ويتشفَّون منه، وهو الذي كان الجميعُ يسارعُون لتحيته ويسعون لرفقته حتَّى وقتٍ قريبٍ.

أما المحاكمة الثالثة فأُجريتْ بعد الحكم عليه، هذهِ المرة من أجل الإمعان في إذلاله ومطالبته، وهو السجين الذي لا حولَ له ولا قوة، بسداد كلِّ ديونهِ دفعةً واحدة. انتهت القضية بإشهارِ إفلاسه ومصادرة أموالهِ، وطرد زوجته من بيتهما، وبيع كل ممتلكاته في مزادٍ علني، شملَ ذلك حتَّى ألعاب أطفاله!

مُنِع أوسكار وايلد من الكتابة في السِّجن، وحُرِمَ من القراءة، إذْ لا يُسمَح للسجين بقراءة شيء سوى الإنجيل وكتاب رحلة الحاج لجون بريان، وهو كتاب ديني شهير. لكن في آخر المطاف تعاطف معه أحد الحُرَّاس في زنزانة ريدنك بمساعٍ من النَّائب هارلدن، فمُرِّرت له بعضُ الكتب التي طلبها، ومنها (الكتاب المقدَّس) بالفرنسيةِ و(الكوميديا الإلهية) لدانتي وبضعةُ كتبٍ أخرى. كما مُرِّرَ له قلمٌ وبعض الأوراق، وشرعَ يكتب آخر ثلاثة أعمالٍ له؛ الأول

مخطط لمسرحية عنوانها (كونستانس) على اسم زوجته ولم يتمكَّن من إكمالها(7)، والثَّاني قصيدة طويلة بعنوان (أنشودة زنزانة ريدنك)، أما الأخير فرسالة (من الأعماق) موجهةٌ إلى ألفريد دوغلاس، أو بوزي كما يلقبه أوسكار، وهو عملٌ مؤثِّر للغاية يورد فيه تفاصيل علاقته بألفريد، ويدخلُ فيه متبحِّرًا بأعمق أعماق ذاته. الرسالةُ التي تبدو مثل اعترافٍ طويلٍ أو لحظة تجلٍّ دينيةٍ كما يصفُها، إذْ قال إنه رأى المسيحَ في السِّجن! تلك الرسالةُ كما يقرُّ كلُّ من قرأها نقلة نوعيةٍ في حياة أوسكار وتطوره العقلي والنفسي، ومن المفترض أن تكون بدايةً جديدة كما ظنها، وقد أمِلَ خروجه من السِّجن ليرمِّمَ حياته، لكن أيامه الأولى بعد السِّجن كشفتْ له أن أغلب أصدقائه في إنكلترا تخلوا عنه، ومن لا يزال متعاطفًا معه، يخشى تلويثَ سمعتهِ في حال دعمه. أما كونستانس فقد أوشكتْ على الالتحاق به فورًا، غير أن عائلتها هدَّدَتْها بالمقاطعة وحرمانها من أيِّ موردٍ مالي إنْ هي عادتْ إليهِ، ومن المعروف أن النِّساء في ذلك العصر لم تكن لهنَّ شخصيةٌ اعتباريةٌ في نظر القانون، أي لا حقَّ للنِّساء في المِلكية بأيِّ شكلٍ من الأشكالِ، وكلُّ ما لهنَّ يبقى تحتَ وصاية رجال العائلة، لذا تخلَّت عن الفكرة خوفًا على مَصير ولديْها، وأبرقتْ لوايلد تقول إنَّها ستعيلُهُ بالمال ليتمكَّنَ من إعادة تقويمِ حياتهِ، وستلتقي بهِ إنْ أثبتَ حسن نيته وتوقَّف عن اللِّقاء بألفريد... أما الصَّبيانِ فليسَ من الممكن أن يلتقيا بهِ حاليًا. تلك ضربةً قاسيةً له، إذ ظن أنها ستسامحه رغم كلَ شيء مثلما فعلت بطلة مسرحية (الزوج المثالي)! خصوصًا وأن كونستانس قدمت مثالاً كبيرًا عن الحب والإيثار يوم تركت كلَّ شيء وسافرت من إيطاليا إلى إنكلترا لتزورَهُ في سجنه وتبلغه بوفاة والدته.

بعد أيام من إطلاق سراحه غادر إلى فرنسا، التي أنهت تجريم المِثلية الجنسية منذ العام ١٧٩١، وعاش هناك لفترةٍ من الزمن على الإعانات من زوجته والتبرُّعات من المؤيدين له، متخفيًا باسم «السيد مالموث»، لكن شخصيته كُشِفت وتعرَّض لمواقف مؤلمةٍ منها مطاردة بعض الصبيان الإنكليز له في شوارع باريس وهم يسخرون منه. طلب منه مديرُ الفندق الرحيلَ بعد معرفته بهويته وتقديم العوائل الإنكليزية شكاوى ضده. اضطرَّ إثر ذلك للسكن في فندق منعزل على البحر، وهناك عانى الأمرَّيْنِ من الوحدة وإدراكه أنه ما عاد قادرًا على الكتابة، فقد أنهَكَ السِّجنُ نفسَه وعقلَه ولم يكن الإيمان بالمسيح -الذي انبعث في نفسه خلال السِّجن- مُعِينًا له بما يكفي، فعاد مرة أخرى للتواصل مع ألفريد وسافرَ معه إلى نابولي. عودته إلى ألفريد جعلتْ كلَّ من حوله حتَّى من سانده من قبلُ ينفر عنه، هددته زوجته بقطع مصروفه وترَكَه روبرت روس غاضبًا، وكذلك فعل الباقون. لكنه لم يبالِ بهم، فقد باتَ الخراب مستشريًا في كل مفاصل حياته ولم يعد له سوى هذا الحب ليتعزَّى بهِ. لكن الحب غدر به هو الآخر، فبعد أن صرف كل ما في جيبه من مال على متعته ومتعة رفيقه دبَّ الشِّقاقُ وانقطعَ الوصالُ بينهُما. وهناك في نابولي بلغه خبرُ وفاة زوجتهِ التي قضت نحبها بعد سنة فقط من إطلاق سراحه، لم يكن على دراية قبل ذلك بمرضها وسوء حالتها، وهي التي عاشت الأشهر الأخيرة شِبه مشلولة، هذا الخبر جعله يغادر إلى جنوا ليضعَ الزُّهورَ على قبرها شاعرًا بندمٍ عميق، وخامرَهُ الأملُ بلقاءِ وَلدَيْهِ لكن لم يحدثْ ذلك أبدًا.

عاد مرة أخرى إلى فرنسا، وفي هذهِ العودة كان وحيدًا يتسوَّلَ المالَ من هنا وهناك ليعتاش، ويتجوَّل في حانات رخيصة، ويعيش في فندق صغير مَدينًا للمالك بأجرته، وقد ينام في الشارع بضعة أيام هربًا من المالك. حتَّى صادفه روبرت روس مجدَّدًا الذي أشفق على حاله وتعهَّدَهُ بالعناية، إذ وجد أنه على وشك أن يهلك من الجوع والإجهاد؛ ليُكشفَ عن عدوى في أذنه التقطها من السِّجن ولم يتمكَّن من علاجها، فتفاقمتْ وتطوَّرت إلى التهابٍ في الدماغ (السحايا) أدى إلى وفاته بعد ثلاث سنوات من إطلاق سراحه، في الثلاثين من تِشرين الثاني/نوفمبر ١٩٠٠. يُذكر أنَّ أخته (إيزولا) تُوفيت في سن العاشرة، بمرض السَّحايا أيضًا، وقد ظلَّ متأثِّرًا بخسارتها طَوالَ حياته.

في هذا الكتاب يحاول ڤايڤيان هولاند أن يكون أمينًا قدر الإمكان في نقل حياة والده من وجهة نظر مختلفة، وجهة نظر العائلة التي حُرمت منه، وتبعات القضية عليهم اجتماعيًّا ونفسيًّا. ولا يزعم ڤايڤيان امتلاكه كافَّة تفاصيل حكاية والده، فهو على سبيل المثال يمتنعُ عن قراءة الكتب المكتوبة عن سيرة والده، ويظنُّ أن معظمَها مختلَقٌ، بدلاً عن ذلك يروي الحكاية كما عاشها وعرفها.

العمل مميز بلا شك، ويمنحُ حكايةَ وايلد منظورًا آخرَ، فيكملها ويزيدها غنىً ويخرجُ بها عن إطار كُتُب السِّيرةِ التقليدية، إذْ تندمجُ سيرة الأب بسيرة الابن. على سبيل المثال: تراءى لأوسكار طيفُ والدتهِ يومَ وفاتها، يومَ كان في السِّجن كما هو متداول، بينما يبدأ ابنه هذا الكتاب بالحديث عن تجلِّي والدته له، وهي تطلب منه أن يكتب عن والدهِ! وجديرٌ بالذكر أن ميرلين (ابن ڤايڤيان وحفيد أوسكار) الذي قالَ في مقدمةِ هذا العمل إنه يكتبه من أجلهِ، لا يزالُ هو الآخر على درب أبيه في تسليط الضَّوء على حكاية جدَّهِ، باذلاً جُهدًا جبَّارًا في البحوث التي تتناول أوسكار وايلد، ومنها عمله الصَّادر في العام ٢٠٠٣ الذي تمكن فيه من جمع كلِّ أوراق محاكمة جده لتظهرَ كاملةً على الملأ لأول مرة، كما لا يزال يتابع ويكتب ويعلق على كل ما يذكر فيه اسمُ جده.

أخيرًا، أودُّ القولَ إنَّ ترجمة هذا الكتاب رغم مشقَّتها كانت تجربةً ممتعة، وقد اغتنيتُ بكمٍّ هائلٍ من المعلوماتِ والمفردات الأجنبية التي صادفتها في هذا النَّص، ومردها سعة اطلاع ڤايڤيان، وعمله في التَّرجمة لبعض الوقت، لذا حاولتُ نقلَ أكبرِ قدْرٍ ممكنٍ من تلك المعلومات إلى القارئ لتعمَّ الفائدةُ. كذلك، فإنَّ كلَّ الهوامش غيرُ موجودةٍ في النَّص الأصلي، بل هي توضيحاتٌ وتعليقاتٌ مني، ما عدا القليلَ منها أشرتُ لها بكونها [هامش الأصل]. كما ذكرتُ في الهوامش كلَّ العبارات التي ذُكرت بلُغاتٍ أجنبية، ليوفَّرَ ذلك صورةً أوضحَ عن النَّصِّ الأصليِّ. ومن غرائبُ الصُّدف أن أنتهي من هذا الكتاب في ٢٥ أيَّار/ مايو ٢٠٢٢، الذِّكرى الـ ١٢٧ لمحاكمة أوسكار وايلد!

رغد قاسم

بغداد - العراق

أيَّار/ مايو ٢٠٢٢

(1) يُرجى الاطِّلاعُ على المخطَّط الزمني لحياة أوسكار وايلد ومحاكمته، الذي وضعْتُه في نهاية هذهِ المقدمة لمعرفة خلفية قضيتهِ.

(2) واحدٌ من أشهر أعمال أوسكار وايلد المسرحية، يُترجم إلى العربيةِ أحيانًا بعنوان (أهميةُ أن تكون جادًّا) أو (أهميةُ أن تكون صادقًا) أو (أهميةُ الجِدِّ)، لأنَّ اسم البطل (أرنست) يعني الصِّدقَ والجِديةَ.

(3) قدَّم أوسكار وايلد في مقالٍ كتبهُ على شكل قصَّةٍ، عنوانها (بورتريه السَّيد دبليو. أتش)، نظريةً بناها على مجموعة من الأدلَّة التاريخية، تنصُّ على أنَّ ويليام شكسبير كان مثليَّ الجنس، وظلَّ مغرمًا بشابٍّ بهيٍّ الطَّلعةِ، يعملُ مُمثلاً مسرحيًا، وقد أسندَ إليه أدوارَ البطولةِ الأنثويةَ في مسرحياتهِ. ومن المعروف -في ذلك العصر - عدم السَّماح للنِّساء بالتَّمثيل، إذْ لم تبرز المرأةُ في المسرح الإنكليزي إلاَّ بعد نهاية الحرب الأهلية عام ١٦٦٠، أي بعد مرورِ نصفِ قرنٍ على وفاة شكسبير.

(4) هناك من يرى أن كونستانس علمتْ بميول أوسكار، لا سيَّما في الفترة الأخيرة، لأنَّه رافق ألفريد في كلِّ مكانٍ، وقد هجر عائلته بالفعل لبعض الوقت خلال سفرهما إلى المغرب العربي وجنوب إسبانيا، مطلعَ عامِ المحاكمة. لكنَّ ذلكَ لم يكنْ مؤكَّدًا بعدُ، ربَّما اعتقدت أن زوجها يحبُّ إرباكَ النَّاس من حولهِ فقط، على عادته منذ تعرفتْ إليه، وربَّما عرفت فعلاً بالموضوع، وظنَّتْهُ محضَ فضولٍ عابرٍ. وهناك من يؤكِّد على أنهما عاشا علاقةَ زواجٍ شبهَ مفتوحةٍ، وأنَّها هي الأخرى بعد يأسِها منه ومن طباعهِ خاضتْ علاقةً مع غيرهِ، وكلُّ ذلك يدخل في باب التَّكهُّناتِ إذْ ما من سبيلٍ لنفيهِ أو إثباتهِ، كما أنَّ المذكورَ عن صحتها في ذلك الوقت يثيرُ الشُّكوكَ في مَدى مصداقيَّةِ هذا الكلام.

(5) مصدرُ هذهِ الفقرةِ مَبنيٌّ على كلامِ أغلبِ معاصري أوسكار وايلد، ومنها مراسلات وذكريات الكاتب الفرنسي أندريه جِيد، الذي التقى أوسكار وألفريد خلال رحلتهما إلى الجزائر في كانون الثاني/يناير ١٨٩٥. أندريه جِيد هو الآخرُ مِثلي الجنس، ومثل ألفريد مغرمٌ بالصِّبيةِ المُراهقينَ، وكان وجودُهُ في الجزائر لاستغلال الصِّبيةِ يُشعِرُه بالذَّنبِ، بينما جاء ألفريد متبجِّحًا فخورًا بسلُوكهِ المريضِ. وقد وصفَ ألفريد بأوصافٍ سيئةٍ للغايةِ، فوجدَهُ كما ذكرنا في الفقرةِ وأسوءَ، ويَذكر أنَّ ألفريد أخبرَهُ أنَّه يعِدُّ العُدَّةَ ليكونَ سيريل من نصيبهِ! بينما وصفَ أوسكار بأنَّه كانَ طيِّبًا هادئًا، ويتبعُ ألفريد بخنوعٍ، فُتِنَ بهِ حبًّا، لكنَّه بقيَ مشغولَ البالِ في كيفية التَّصدِّي لوالدِ ألفريد الذي يشُنُّ حملةً لتشويهِ سمعتهِ في البلاد. حينَ وصولِ أوسكار وايلد إلى فرنسا، بعد خروجه من السِّجن، استقبلَهُ أندريه جِيد، وساعدَهُ في أوقاتٍ كثيرةٍ، وجمعَ لهُ التَّبرُّعاتِ. بعدَ كشفِ أوراقِ أوسكار وايلد إثْرَ وفاتهِ،

حاولَ ألفريد تغييرَ الرَّأيَ العامَّ عنهُ، وكتبَ أوَّلَ الأمر كتابًا يشنِّعُ فيهِ على أوسكار وايلد، ثمَّ عادَ ليعتذرَ عنهُ قائلاً إنَّه كتبَهُ خوفًا مِن والدِهِ.

(6) هناك بعضُ النَّظرياتِ القائلةِ إنَّ أوسكار وايلد لطالما كان مِثليَّ الجنسِ في الخفاءِ أو على الأقلِّ ثُنائيَّ الجنسِ، وهذا أمرٌ واردٌ للغايةِ، فلا بدَّ لشخصٍ مثلِهِ متبحِّرٍ في النَّفسِ البَشريَّةِ أنْ يستكشفَ ذاته وميولَها أوَّلَ الأمرِ، وربَّما دفعَهُ شعورُهُ بالذَّنبِ من هذهِ الرَّغبةِ ليُصبحَ -في أوَّلِ شبابِهِ - مُنجذبًا للكنِسيةِ في محاولةٍ لإصلاحِ نفسهِ وتجاوزِ هذهِ الرَّغبةِ. أوَّلُ تصريحٍ لهُ بالأمرِ يعودُ إلى فترةِ رحلته إلى أمريكا، حين أربكَ النَّاسَ بالقولِ إنَّ قُبلةَ والت ويتمان لا تزال على شفتيْهِ! مؤلِّفُ كتابِ (الحياةُ السِّريَّةُ لأوسكار وايلد) يبتكرُ قصَّةً لعلاقةٍ جسديةٍ حدثتْ في تلك الرِّحلةِ بين الكاتبيْنِ، ما لا يتماشى مع حقيقةِ أن والت ويتمان كانَ في الثَّانيةِ والسِّتينَ من عمرِهِ آنذاك، ومصابًا بجلطةٍ دماغيةٍ قيَّدَتْ حركتَهُ، وأحوَجتْهُ لرعايةِ أخيهِ المستمرةِ؛ حيثُ أقامَ عندهُ خلالَ فترةِ مرضِهِ.

(7) مؤخَّرًا، زعمَ مخرجٌ مَسرحيٌّ أنَّهُ عثرَ على النَّصِ الكاملِ للمسرحيَّةِ، عُرضَتْ المسرحيةُ على نطاقٍ ضيِّقٍ، لكنَّ (مارلين) حفيدَ أوسكار وايلد صَرَّحَ أنَّ العملَ ملفَّقٌ.

مُخَططٌ زمنيٌ لحياةِ أوسكار وايلد

(من إعدادِ المُترجِمة)

- ولدَ في ١٦ تِشرين الأول/أكتوبر ١٨٥٤، في العاصمة الأيرلندية دبلن، لأبوين هما السير ويليام وايلد أشهر جرَّاح عيونٍ في عصره، ومؤسس علم الإذن الحديث، وباحث في الفلكلور الأيرلندي. أما والدته فهي الليدي وايلد (جين فرانسيسكا أنغلي) الكاتبة والشاعرة الثورية الأيرلندية، المعروفة باسمها الحركي سبيرنزا، الذي يعني (الأمل) باللُّغة الإيطالية. أوسكار ثاني أبنائهما بعد ويلي وايلد، الشَّاعر والصَّحافي.

- حتَّى التَّاسعة من عمره بقيَ أوسكار يدرسُ في المنزل، ثمَّ التحقَ بالمدرسة، تفوَّقَ بشكل مذهلٍ فيها. فازَ بمنحة للدراسة في كلية ترينتي بدبلن، ثم فاز هناك بمنحةٍ أخرى للدراسة في كلّية ماجدلين بجامعة أكسفورد في إنكلترا، وهناك تفوق ونال جوائزَ في الشِّعر. تخرَّجَ من الكلية في العام ١٨٧٨ محققًا المركز الأول على مستوى جامعة أكسفورد في مادتيْ الكلاسيكيات اليونانية، وكلاسيكيات العصر الحديث.

- في الكلية بات معروفًا بانتمائه للمذهب الجَمالي، ودفاعه عن حرية الفن الذي لا يجب أن تقيِّده قيودُ المجتمع والدين. في الوقت نفسه، ولِمدَّةِ سنتينِ، خاضَ علاقةَ حبٍّ جارفةٍ مع حبيبته في أيرلندا، فلورنسا بلاكومب، التي تخلَّت عنه خَشيَةَ ألاَّ يكون جاهزًا للزَّواج بها. تلك كانت خيبةَ أملٍ كبيرةً له، وبعد انفصالهما قرر مغادرة أيرلندا؛ وأنْ يعيشَ باقي حياته في إنكلترا.

- توفي والده أثناء فترة الدراسة. وبعد عودته من الكلية بِيعَ منزلُ العائلة وانتقلوا إلى لندن، فعاشت والدته في مسكنٍ خاصٍّ بها، بينما عاش هو رفقةَ صديقه الرسام فرانك مايلز. واستمرَّ على عهدِهِ في الكلية، يكتبُ المقالاتِ النَّقديةَ مُعتاشًا على أجورها.

- في منتصف عام ١٨٨١ نشرَ كتابه الأول (قصائد)، ولَقِيَ نقدًا حادًّا بسبب لغته الفاضحة وصوره الجريئة، ممَّا تسبَّب في ترك فرانك مايلز للبيت بضغطٍ من والدِهِ الذي خشيَ على ابنه من سمعة أوسكار المتردِّية.

- في عام ١٨٨١ تعرَّفَ على كونستانس، وهي شابةٌ جميلةٌ ومثقفة من عائلة غنية، من المتحمسات لحقوق المرأة في التَّصويت والمِلكية، ولحقِّها في ارتداء الثِّياب المريحة خلال عصر المشدَّات والأثواب الثقيلة. فكُنَّ، هي وصديقاتها، يُصمِّمنَ ملابسهنَّ بأنفسهنَّ، فضفاضةً ومريحةً ولا تماثل موضة تلك الأيام، ممَّا شكَّلَ صدمةً للمجتمع الفيكتوريِّ. كما كانتْ تعدُّ العدةَ لتصبحَ كاتبةَ قصصٍ للأطفال.

- سافر أوسكار إلى الولايات المتحدة وكندا مطلع العام ١٨٨٢، لإلقاءِ محاضرات في الفن ونظرية الجَمال. بين عامي ١٨٨١ -١٨٨٢ بدأ يركز اهتمامه على لفتِ الانتباه إلى أزيائهِ المميزة، وبدأ يختار ألوانًا غيرَ معتادة، ويطلبُ تصاميمَ غريبة خصيصًا له. كما أطال شعره واعتاد حمْلَ زهورٍ في عروة سترته، مُبررًا ذلك بوجوبِ أنْ يُشبهَ الفنَّانُ فنَّهُ، وأن يكونَ صورةً لرسالةِ الجَمال التي يريدُ نشْرها.

- بعد عودته من الولايات المتحدة صار المجتمع الأدبي أكثر ترحيبًا به، وانهالتْ عليه الدَّعواتُ من كل جانب، فقد كان حلوَ المعشر، مرحًا ومُحبًّا للقاءات الاجتماعية، رغم حقيقة أن رحلته إلى أمريكا واجهت نقدًا في الجرائد الأمريكية التي سخرت منه ومن أزيائه، ومن كتاباته، كما تعرض لتهجُّم عنصريٍّ بسبب جنسيته الأيرلندية.

- عند عودته مطلع عام ١٨٨٣ نشر مسرحيته (دوقة بادوا)، وبعد شهر سافر إلى باريس وعاش هناك ثلاثة أشهر، التقى خلالها بالكثير من الكتاب والشخصيات.

- في شهر آب/ أغسطس من العام نفسهِ، عادَ إلى الولايات المتحدة لوقتٍ قصير من أجل عرض مَسرحيته (فيرا) ثمَّ قَفَلَ عائدًا إلى لندن، وأمضى وقته في الكتابةِ وإلقاء المحاضرات ومحاولة تثبيت منزلتهِ ضمن نخبة المجتمع اللَّندني.

- في العام ١٨٨٤ زارت كونستانس لندن، وهناك طلب يدها للزواج، وتزوَّجا في التاسع والعشرين من أيَّار/مايو. قِيلَ إنَّهما قضيا سبعةَ أشهر كاملةً في إعادة تصميم بيتهما ليمثِّلَ تُحفةً فنيةً.

- في العام ١٨٨٥ وُلِدَ ابنهما سيريل، وخلال هاتين السنتين عاش الزَّوجانِ أحلى سنوات حياتهما على ما يبدو، بدأ أوسكار يكتبُ بغزارةٍ وتساعده كونستانس في تنقيح أعماله وتقديم المقترحات، كما شرعتْ هي الأخرى في العمل على كتابها الأول. يُنقل عن أوسكار أنَّه كان يُشيدُ بمزايا الزَّواج ويوصي بهِ كلَّ أصدقائه.

- في الربع الأخير من عام ١٨٨٦ ولد ڤايڤيان. كانت ولادتُه عسيرةً فتسبَّبتْ بمشاكل صحية جسيمة لكونستانس، أثَّرتْ على علاقتها بأوسكار.

- في السنة نفسها التقى أوسكار بروبرت روس، وهو طالبٌ في كامبريدج، ومعجبًا متحمِّسًا لأوسكار. وبحسب الناقد ريتشارد إيلمان فقد سعى روبرت بكلِّ ما يملك لإغواء أوسكار، حتَّى حصلتْ تلك النقلة الجسيمة في حياته، لكن العلاقة لم تدمْ طويلاً، وتحوَّلتْ بدلاً من ذلك إلى صداقةٍ طويلة الأمد. مع ذلك ظلَّ روبرت روس يصرُّ على أن حبَّه لأوسكار ظلَ أفلاطونيًّا، ولم يحدثْ بينهما شيءٌ... هكذا قال ريجنالد ترنر الصَّديقُ المقرَّبُ لكليهما. لكنَّ أغلبَ المصادر تشيرُ إلى أن روبرت روس أدخله إلى أجواء هذا العالم، أيًّا كان وصفُ علاقتِهما.

- في تلك الفترة صدرت أعمال مهمة لأوسكار، منها مجاميعه القصصية: (الأمير السعيد) و(شبح كانترفيل) و(بيت الرُّمان) التي أهداها لزوجتهِ.

- في العام ١٨٩١ تعرَّف أوسكار وايلد على ألفريد دوغلاس، الطَّالبِ وقتذاك في أكسفورد، والذي اعتادَ التَّودَّدَ إليهِ ومُراسلتهِ، لتبدأ العلاقةُ بينهما بعدَ ذلك بسنتين. سحبه دوغلاس إلى عالمٍ آخرَ تمثَّلَ بِدُور دَعارةٍ مِثليِّي الجنسِ، حيثُ سيُنفِقُ كلَّ أموالِهِ من عائداتِ أعماله على تلبية رغبات ألفريد، وعلى الهدايا والعطايا لهذا وذاك.

- في العام ١٨٩٥ رفع أوسكار قضيةَ تشهيرٍ ضد والد ألفريد (اللورد كوينزبيري)، ثم سحبها بسبب قوة الأدلة التي قدمها خصمه. لتبدأ محاكماته الثلاث التي انتهت بسجنه لسنتين مع الأعمال الشاقة وإشهار إفلاسه.

- كانت تفاصيلُ القضية صادمةً للغاية، حتَّى لروبرت روس نفسه، الذي يعلم بعلاقة أوسكار بألفريد لكنه لم يعرف بقية التفاصيل، فقد نجح وايلد بإخفاء آثاره. لكن إهمال ألفريد هو الذي أضرَّه، سُلِّمت للمحكمة رسائلُ تركها أوسكار له في غرفة الفندق الذي أقاما فيه لبعض الوقت؛ واستُخدِمتْ كأدلَّةٍ واضحةٍ ضدَّه. كما كانت القضية صادمةً لكونستانس التي أرسلتْ ولديْها للبقاء على مقربةٍ من أخيها في السُّوَيد ، بينما بقيتْ هي بجانبهِ حتَّى اللَّحظة الأخيرةِ حينَ طُرِدتْ من المنزل بسببِ تحفُّظِ البلديةِ على أملاك زوجِها.

- في عام ١٨٩٧ خرج أوسكار وايلد من السِّجن منهكًا، جسديًّا وصحيًّا، ليسافرَ إلى فرنسا، كما سيعيش لفترة وجيزةٍ في نابولي الإيطالية مع ألفريد دوغلاس، ليعودَ إلى فرنسا بعد وفاة زوجته كونستانس عام ١٨٩٨ وهي دون الأربعين من عمرها.

- عاش في فقر وفاقة لبعض الوقت، ثم التقى مجدَّدًا بروبرت روس الذي عاد للعناية به ورعايته.

- توفي في ٣٠ تِشرين الثاني/ نوفمبر من عام ١٩٠٠، عن ستَّةٍ وأربعينَ عامًا، إثْرَ مضاعفاتٍ لعملية في أذنه، هي العملية التي ابتكرَها والده، وعرفت باسم «شقّ وايلد». ولم يرَ أولادَه أو زوجتَه بعد خروجه من السِّجن أبدًا، كما لم يعد إلى إنكلترا إذْ دُفن في فرنسا في مقبرة بانوكس جنوب باريس. حضر وفاته صديقاه المقربان روبرت روس وريجنالد ترنر والكاهن الكاثوليكيُّ الأيرلنديُّ كوثبرت دوه، الذي شهد على تحوله إلى الكاثوليكية قبل وفاتهِ بأيام. جاهد روبرت روس لإخراج جثمانه من القبر البائس الذي دُفن فيه أول الأمر، وبعد تسديد كلِّ دُيون أوسكار، وشرائهِ لكلِّ حقوق أعمالهِ باعتباره الوصيَّ الأدبيَّ الرَّسميَّ، تمكَّنَ من جمع ما يكفي من المال لنقله إلى مقبرةِ بيرلاشيز، وهي أكبرُ مقبرةٍ في فرنسا، وأكثر المقابر زيارة في العالم، والتي تضمُّ رفات أشهر فناني عصره، وذلك بحضور ولده ڤايڤيان. وبعدَ ما يزيد عن العشر سنوات على وفاته، كُلِّفَ النَّحاتُ الأمريكيُّ الشَّاب جاكوب ابستين بتصميم تمثالٍ على قبره، بتوصية من السيدة التي تبرعتِ بالمال للتِّمثال. فصنعَ تمثالاً غريبًا لملاكٍ

مستوَحىً من الثَّور الآشوريِّ المجنَّح ، مع بعضِ اللّمساتِ الفِرعونية، كان ذلك التِّمثالَ مثارًا للجدلِ بسبب جُرأته، حتَّى أن الشُّرطة احتجزته في الطَّريق إلى القبرِ، لعدم اقتناعها بأنه عملٌ فَنيٌّ، وقد تعرَّضَ للتَّخريبِ عدَّةَ مرَّاتٍ.

قبر أوسكار وايلد قبل ترميمه (يسار) وبعده

قبر أوسكار وايلد، اليومَ، من أكثر المحطَّات زيارةً في المقبرة الشَّهيرة، غطتهُ القبلاتُ حتَّى شوَّهتْ منظرَهُ، إذْ درَجَ المعجبونَ والمعجباتِ على طبْعِ قبلاتهم على الضَّريح، وكتابة رسائلَ وذكرياتٍ، حبًّا بالكاتب وتعاطفًا مع قضيته. لذا، حفاظًا على معالم وملامح الضَّريح، وُضِعَ حاجزٌ زجاجي بينه وبين الزُّوَّارِ. وفي القبر أيضًا ذُرِّيَ رمادُ روبرت روس، الذي لم يشأ مفارقةَ صاحبهِ حتَّى بعد وفاته. وضْعُ التِّمثال الذي استغرقَ العملُ عليه ما يقاربُ عشرة شهور على قاعدةٍ، نُقشتْ عليها أبياتٌ من قصيدتهِ الأخيرة (أنشودة زنزانة ريدنك):

«شفقةٌ بقلبهِ الذي كُسرَ مثلُ جرَّةٍ

ستفيضُ دُموعُ الغرباء،

سيُفجَع به رجالٌ مَنبوذُونَ،

وقدرُ المنبوذِ الفجيعةُ».

مارلين ڤايڤيان هولاند، حفيد أوسكار وايلد،

عند قبر جدِّه بعد ترميمه الأخير ووضع الجدار العازل

تصدير

منذ بعض الوقت، راودني حلمٌ تراءت فيه والدتي قائلةً: «أُريدكَ أن تروي قصَّةَ طفولتك، حكاية الوحدة التي عشتها لكونك ابنًا لأوسكار وايلد، حكاية تلك الأيام الأخيرة من حياته، والفترة التي تلت وفاته. ربما يلومك بعضُ الناس على هذا العمل، لكنَّ كثيرين غيرهم سيؤيدونك الرَّأي لكتابته. كما أن لديك الآنَ صبيًّا من صُلبك، وأنت مَدينٌ له بذلك».

لا أعرفُ شيئًا عن الطرق الروحية، ولا أؤمنُ بالتجليات من «العالم الآخر»، لكنني ولشد ما أبهرني هذا الحلمُ، بدأتُ أُعيدُ تشكيل ذكريات سنواتي الأولى في عقلي، ووجدت الأمور كلّها تسير باتجاه متماثل؛ إذْ تبدأ الذكريات باهتةً ضبابية أول الأمر؛ ثم تتَّضح ملامحها تدريجيًا كلما انغمستْ أفكاري في الماضي أكثر فأكثر.

هذهِ الحكاية بلا حبكةٍ، والمعالم فيها شحيحةٌ، لكن بوسعها الكشف عن مرارة القسوة التي تبديها الكائناتُ البشرية وهي تنتحل صفة الفضيلة، تناسى هؤلاء قولَ المسيح: «دعوا الأولاد يأتون إليَّ ولا تمنعوهم»(8) واعتمدوا في دينهم على نصٍّ من العهد القديم يقول: «أفتقدُ ذنوب الآباء في الأبناء، وفي الجيل الثالث والرابع»(9).

هذهِ الحكايةُ ليستْ ممتعةً، وتخلو من التسلية، رغم ذلك أعتقد بضرورة كتابتها كجُزء من السَّرديةِ الكاملة لمأساة أوسكار وايلد. فدائمًا ما يكون لكل مسألة جانبان، ومن الممكن العثور على نصف دزينة من الوجوه لمسألةٍ واحدة. لقد كُتِبتْ قصةُ والدي مِرارًا، كتبها المحبُّون تارةً والمبغضون أخرى، كتبها من عرفه جيدًا ومن لم يعرفه البتة، لذا لا أرى على أي حال عيبًا في رواية الحكاية مرةً أخرى ولكن على لسان من عانوا الأمرَّين رغم براءتهم من أي ذنب، أولئك الذين قاسوا آلامًا لا مبرِّرَ لها، وعاشوا يتساءلون عن سبب اضطهادهم دون غيرهم.

(8) ورد هذا النص في مواضع عدة من الكتاب المقدس، في إنجيليْ مَتَّى ولوقا. تتحدث الآيات التي سبقت هذا الاقتباس عن مجموعة أطفال يأتونَ إلى المسيح ليباركَ لهم، فيزجرهم تلاميذُه، ويرفض منهم هذهِ الفعلة... وتتمَّةُ الآية: «أمَّا يسوع فدعاهم وقال: دعوا الأولاد يأتون إليَّ ولا تمنعوهم، لأنَّ لمثل هؤلاء ملكوت الله» [لو ١٦: ١٨].

(9) النصُّ مَقتبسٌ من سِفْر الخروج [خر ٥: ٢٠]، وهو اجتزاءٌ يشيرُ فقط إلى فكرة أنَّ ذنوب الآباء تتجسَّدُ في الأبناءِ حتَّى الجيلين الثالث والرَّابع. النصُّ الكامل للآية: «لأنني أنا الربُّ إلهك، إله غيور، أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء، وفي الجيل الثالث والرابع ممَّن يبغضونني». وأودُّ التنويه هنا إلى أنني قد اعتمدْتُ التَّرجمةَ العربيةَ المتداولةَ للكتاب المقدس بعهديه؛ أينما وُجدتْ إشارةٌ لاقتباسٍ دينيٍّ.

استهلال

حكاية سَلَفي حُكِيتْ مِرارًا، لكنَّ ربما يُصادفُ هذا الكتاب هوىً في نفس قارئ، رغم كونه عارفًا بأعمال أوسكار وايلد ومسرحياته، فإنَّهُ لا يملك أدنى فكرة عن أصله، بل إن كثيرين ممن قرأوا أعماله لا يعرفون أنه كان متزوجًا وأبًا لصبيين.

عندما كانَ أباطرةُ الصِّين يقررونَ تكريم رجلٍ ما برفعهِ إلى منزلة النُّبل، تجدهم يكرمون أسلافه لعدة أجيالٍ حسب درجة التكريم التي يسبغونها عليه، لكنَّ امتياز النبل هذا لا يمكن تمريره لذريته. يجادل الصينيون بأنَّ الرجل المتفرد هو بالضرورة نتاج لتراكم ميزات وفضائل أسلافه، لذا فهم يستحقون أن ينسب لهم الفضل في تكوينه، أمَّا نسلُه فلا يمكن على أي حال التأكد مسبقًا من حصولهم على تلك الميزات.

اسم وايلد، هو اسم هولندي الأصل، ولا تزال العديد من العوائل التي تحمل هذا الاسم تستوطن جنوب أوروبا إلى هذا اليوم. أما صلة العائلة بأيرلندا فمردها بالتأكيد إلى الكولونيل (دي وايلد) ابن (جون دي وايلد) وهو فنان هولندي، توجد نماذج من أعماله في معرض هيو للفنون. هذا الكولونيل الذي يفترض أن اسمه يُلفظ (دي فايلد) كان جنديًا ذا حظوةٍ، قدم خدماته للملك وليام الخامس ملك إنكلترا، وله دور مهم في معركة دورغيدا التي جرت في الأول من شهر تموز/يوليو من عام ١٦٩٠ لتقضي أخيرًا على المطامع الإسكتلندية في العرش الإنكليزي. بفضل دوره في هذهِ المعركة مُنحَ الكولونيل أرضًا في كوناخت(10). فيما بعد تخلَّى الكولونيل عن لفظ (دي) في اسمه، وتزوج من امرأة أيرلندية، وصار أبناؤه أيرلنديين أكثر من الأيرلنديين أنفسهم. بيعتْ أراضي العائلة بالتدريج، لكنَّ جدي استطاع فيما بعد استعادة جزء منها في مدينة مويترا في كوينيميرا.

قصة أن آل وايلد يعودون بأصولهم إلى مدينة ولنغهام، على بعد اثني عشر ميلاً شرق دورهام(11)، هي نتاج الخلط بين الأفكار والأسماء. يُفترض أنَّ رجلاً يدعى رالف وايلد حطَّ رحاله في أيرلندا وعاش فيها مطلع القرن الثامن عشر، وعمل بنَّاءً في دبلن. هذهِ القصة مشكوك بها، فاسم عائلتي هو بلا شك (دي وايلد) ولا بد أن اللفظ الهولندي للاسم حيَّر الأيرلنديين البسطاء فخلطوا بينه وبين لفظهم لكلمة (بنَّاء)(12). دليل آخرُ يدعم هذا القصد أن البنَّاء الذي ينسب إليه بنَّاء مدينة دبلن لديه ولد يدعى (رالف) أيضًا، هذا الولد أصبح بدوره وكيلاً لأعمال اللورد سانفورد في مدينة كاستليرا في مقاطعة روسكومون. وبطبيعة الحال لا يمكن أن يتقلَّد مثل هذا المنصب أيُّ شخصٍ دون أن تكون له أصول في المنطقة ودون معرفةٍ بسكانها. الحقيقة أن هناك رالف وايلد واحدًا، وهو الذي أصبح وكيلاً للورد سانفورد، هو في الأصل من ذرية الكولونيل الهولندي الذي استقر في كوناخت.

المصدر الوحيد الذي وجدته عن نظرية ولنغهام، هو كتابات ر. ج. شيرارد الذي ادَّعى أنه عرف بهذهِ المعلومة من الليدي وايلد(13) نفسها. لا شك أنها كانت مستعدة لقبول هذهِ القصة، بل ربما هي التي اخترعتها، فمن الطبيعي أن تغتنم أي فرصة للتغطية على وجود الكولونيل المقاتل في جيش الملك ويليام، العدوِّ اللَّدودِ لبلدها.

في سياق متصل، تزوج رالف وايلد من الآنسة مارغريت أوفلايني من مدينة كاهير في مقاطعة غالواي. هذهِ العائلة من العوائل الكاثوليكية العريقة في روسكومون، ومارغريت وريثة هذهِ السُّلالة، بينما آل وايلد من البروتستانت، ولا أعرف كيف تخطَّيا هذهِ الخلافات الدينية، لكن رالف وايلد اعتنقَ الكاثوليكية على الأغلب، وإلاَّ لكان زواجهُما مستحيلاً. أنجبتْ زوجته ثلاثة أولاد، فاز الأول بميدالية بيركلي الذهبية للغة اليونانية في كلية ترنيتي في دبلن، التي سيفوز بها والدي بعد قرنٍ تقريبًا، أما الثاني فَرَحلَ إلى جامايكا، والثَّالث هو والد جدي المدعو توماس وايلد، وذلك يعود بنا مجدَّدًا إلى حكاية دورهام.

قُدِّرَ لتوماس وايلد أن يُصبح طبيبًا، لذا أُرسلَ إلى دورهام ليدرس الطب هناك. نالت المدينةُ سمعةً طيبة بتوفيرها أفضل تدريب طبي في الجزر البريطانية. في تلك الأيام، نتيجة لسلطة الدين وفكرة عودة الروح إلى الجسد يومَ الحساب، من المستحيل تقريبًا أن يتمكَّن طلاب الطب الإنكليز من الحصول على جثة لدراسة التشريح، لذا فإنَّ كل من يصلُ إلى كلية الطب حاملاً جثة لا يُستقبلُ بودٍّ فقط، بل يُعفى من تكاليف دراسته أيضًا. يُذكر أن والد جدي سافر من كاستليرا الأيرلندية إلى دورهام الإنكليزية رفقة جثَّة حصل عليها بطريقةٍ ما في أيرلندا بُغية الإعفاءِ من دفع أجور الدراسة. لم يكن لدى الناس في تلك الأيام أنفة، وما اكترثوا للروائح الكريهة، وقد عُدَّ التحنيط في حينها علمًا قديمًا ضائعًا، ولم تعرف بعدُ أيُّ طريقة لحفظ الأجساد، لذا لا رغبة عندي البتة في التفكر بظروف مِنحة جد أبي للجامعة، وكيف باتَ وضعها إبَّان وصوله. على أي حال قبلتْ الجامعةُ هديته وأُجيز في الطب وعاد إلى أيرلندا حيث استقرَّ هناك، وعمل طبيبًا في الأرياف، وتزوج من الآنسة إيميلي فاين.

يبدو أن العائلة عادتْ في هذهِ الفترة لتعتنق البروتستانتية مجدَّدًا. والدَّليل على ذلك وضع العائلة، فوالد اللَّيدي فاين هو جون فاين، من مدينة باليماغيبون قرب كونغ في مقاطعة مايو(14)، وهو من الطبقة الأرِستُقراطية وله قَرابةٌ ببعض أهم العائلات في كوناخت، من بينها سوريدج وأوسيلي، ولطالما افتخر والدي بصلته بعائلة أوسيلي بالذات، التي تمتلك تاريخًا دبلوماسيًا وعسكريًا مميزًا. آل فاين أنفسُهم -أو قُل بعضُهم على الأقلِّ - كانوا فريدين من نوعهم، مثل تي. جي. ويلسون وهو طبيب أيرلندي بارز، قالَ في كتابه (الطبيب الفيكتوري) وهو كتاب يروي سيرةَ جدِّ أبي:

«الفارق بين العبقرية والجنون ضئيلٌ للغاية، من المؤكد أن آل فاين يسري فيهم اضطراب عقلي كبير، مما لا يترك مجالاً للشك أن ذلك الكم من غرابة الأطوار التي سرت في العائلة

مؤخرًا وربما الكثير من عبقرياتهم يمكن ردها إلى عِرق آل فاين في دمائهم».

كان توماس وايلد شخصيةً أخَّاذة، محبوبًا ومُهابًا عبر الريف المحيط بكاستليرا حيث مارسَ عمله، وأقتبسُ من السيد ويلسون مجدَّدًا:

«في تلك الأيام لم يكن هناك سِوى طريقٍ واحد يربط شمال مقاطعة روسكومون بجنوبها، ولا بد أن ظروف عمل الطبيب كانت في غاية الصعوبة. طبَّبَ توماس وايلد عبر أراضي الرِّيف كلها، مُقدِّمًا خدماته للأغنياء والفقراء والمعدمين والقساوسة وحتَّى قطاع الطُّرق من الأفَّاقين. مارسَ الطب طَوال حياته، ومَضى حتَّى آخر أيامه ممتطيًا حصانه ليتفقَّدَ مرضاه. يا له من منظر جدير بالتَّمعُّن؛ عندما بلغ الطَّبيبُ الثَّمانين من عمره تقريبًا، كانَ لا يزال ينكزُ ردفَ حصانه الكستنائي اللاَّمع، وقد اشْتملَ بقبائه(15) ذي الطبقات المتعددة، واعتمرَ قبَّعةً جلديةً واسعة الحوافّ، وارتدى سِروال الرُّكوب(16)، تُغطي بسطارَه الطَّويلَ عند الرُّكبتينِ لِفافةُ السَّاق(17)، مُتلفِّعًا بوشاحٍ أحمرَ يصلُ حتَّى أنفه. آهٍ، كان منظرُ الرَّجُلِ عظيمًا وهو يتجرَّدُ من طبقاتِ ملابسه الثقيلة في ليلة باردةٍ بفِناء بيتٍ ريفيٍّ قبل دخوله لمعاينة السِّيدات. حتَّى حفَّار القبورِ في مسرحية (هاملت) لم يكن ليرتدي مثل هذا الكمِّ من الثِّياب، وما من طبيبٍ سيضطرُّ لذلك».

وُلِدَ للدكتور توماس وايلد ثلاثة أبناء؛ انخرط الكبيران في سلك الكِهانة، بينما الثالث المولود في كاستليرا عام ١٨١٥ هو جدي ويليام روبرت ويلز وايلد، الذي أصبح يُعرف فيما بعد بلقب السير ويليام وايلد.

من هنا سترى أن آل وايلد لم يصبحوا أيرلنديين إلاَّ منذ ثلاثة أو أربعة أجيالٍ آنَ مولدِ أبي، ولكن كما أشارَ برنارد شو فإنَّ للطبيعة الأيرلندية تأثير بارع سُرعان ما يطغى، ويغطي، على خصائص أي عِرق آخر.

روبرت هاربورغ شيرارد أول مؤرخ حاولَ أن يؤرِّخَ لحياة والدي. في العام ١٩٠٢ أصدرَ كتابًا عنوانه (أوسكار وايلد: قصة صداقة تعيسة)، بطبعةٍ خاصَّةٍ قبل أن يُنشر على الملأ عام ١٩٠٥. وفي عام ١٩٠٦ ظهر كتابه (حياة أوسكار وايلد) الكتاب الذي اعتمدت عليه كل الكتب اللاحقة، التي تحدثت عن حياة والدي. قبل ذلك بسنوات عديدة أكمل شيرارد كتابه (حياة السير ويليام وايلد) متَعقِّبًا نسبَهُ بشقِّ الأنفس، غالبًا عن طريق معلومات وإرشادات قدمتها له الليدي وايلد، إذ ربطته بها صداقةٌ وطيدة. لذا يمكنُ الافتراض أن أغلب ما ورد في هذا السجلِّ صحيحٌ إلى حدٍّ ما، باستثناءِ حكاية ولنغهام. العديد ممن أرَّخوا لحياة والدي قاموا بإجراء بحوثهم وفصلوا وأضافوا، لكن كلهم اعتمدوا على ما كتبه شيرارد.

عرفت شيرارد في أواخر أيامه؛ ووجدت فيه رجلاً صادقًا لمَّاحًا، شعر أن على عاتقه مهمة حماية ما تبقى من سمعة والدي، لكنَّه في النهاية صحفيٌّ، ولطالما كتب بوصفه كذلك. ظلَّ يطارد القصة ويهتم لها ما دامتْ تستحق أن تُروى، وما دامتْ قصة جيدة فمن يكترث فيما

لو كانت قصةً حقيقيةً أصلاً؟ من ذا الذي يهتم لمصدرها؟ يجب النظر لكتاب شيرارد (حياة أوسكار وايلد) من هذا المنظور، فالكتاب مليءٌ بالأخطاء، على سبيل المثال يذكرُ محلَّ ولادة أبي في ساحة ميرون بدبلن، بينما كانت ولادتهُ في ويستلاند رو.

كان جَدِّي، السير ويليام وايلد، الرجلَ الأكثرَ أهمية في زمانه؛ فقد أضحى أشهر طبيب مختصٍّ بالعين والأذن، له سمعةٌ جابتِ الآفاقَ. لم يكدْ يبلغ الأربعين من العمر، عندما عُيِّنَ جرَّاحًا للعيون لدى الملكة فيكتوريا. ظلَّت كتبُه الطبيةُ أعمالاً معتمدةً لسنوات عديدة، وكتابه عن جراحة العين هو أول كتاب دراسيٍّ منهجيٍّ في هذا المجال، وظل متقدِّمًا على كل ما تلاه. لكنَّ أعظم أعماله في المجال الطبي تمثَّل في تأسيس مستشفى فيكتوريا الملكي لطب العين والأذن في دبلن، وإليه يُنسب الفضل في ابتكار عملية جراحة القرنية، إذْ أُعتُبِرَ «والد طب الأذن الحديث».

كما كان باحثًا لامعًا في الفلكلور، كتبَ حوالي دزينة كتب عن الفلكلور الأيرلنديِّ، مُفصِّلاً الأساطير والتَّقاليد الأيرلندية. أكثر كتبه شهرة هي: (الخُرافاتُ الشَّعبيةُ الأيرلندية)، (الحكايات الخيالية في الفلكلور الأيرلنديِّ) و(الأعراقُ القديمةُ في أيرلندا)، لا تزال كلُّها مصادرَ مهمَّةً لدارسي الفلكلور الأيرلنديِّ.

في نهاية عام ١٨٥١؛ تزوَّجَ وهو في السادسة والثلاثين من العمر، بسيدةٍ أوسع منه شهرةً بكثير. اسمها جين فرانسيسكا إيلغي، ابنةُ محامٍ من ويكسفورد، وجدُّها مبجَّلٌ من الكنيسة الأيرلندية: الأرشيدوق جون إيلغي رئيس جامعة ويكسفورد، عالمٌ بحَّاثةٌ ورجلٌ ذو شخصية عظيمة وشهرة فائقة. إيلغي اسم أيسلندي مشتقٌّ من كلمةٍ تعني القزمَ ذا الرمح. لكن جدتي ظلتْ تُصرح دائمًا أن اسم جدِّها الكبير هو في الحقيقة (أليغيتي)، وإنه حلَّ بأيرلندا قادمًا من فلورنسا، ثُمَّ عدَّلَ اسمَهُ إلى إيلغي للسُّهولةِ. لا شكَّ أنها امتلكت أدلَّةً لدعم هذهِ الفكرة التي أُنكِرتْ من قبل بعض المؤرخين الذين كتبوا عن حياتها، رغم أنهم لم يقدموا أدلَّةً تنقض تصريحها. أوضحت أنها سميت (فرانسيسكا) تيمُّنًا بجدتها الكبرى، وجادلت بشكل منطقي أن من غير المرجح أن يسمي أيرلندي بروتستانتي ابنته باسم قديسة من الكنيسة الرومانية الكاثوليكية في إيطاليا. مظهرها كذلك يدعم هذهِ النظرية؛ مثلها مثل الكثيرات من نساء فلورنسا كانت طويلة بشعر أسود وعينين زرقاوين وإطلالة أخَّاذة. رُسمتْ لها لوحةٌ وهي بعمر الثامنة والثلاثين من قِبل برنارد مورليين؛ تُظهرُ هذهِ الخصال بوضوح. فيما بعد مضت جدتي إلى أبعد من ذلك، وادَّعت أن اسم (أليغيتي) هو تشويهٌ لاسم (أليجيري) وأنها من سُلالة دانتي، وذلك على ما أخشى شطحةٌ من شطحاتِ خيالها.

ولدت جين فرانسيسكا إيلغي عام ١٨٢٤، آمنتْ في سنٍّ مبكرة بمسعى الشَّعب الأيرلندي في نضالهِ ضد الطغيان الإنكليزي. كتبتْ وهي لا تزال في الثالثة والعشرين من العمر مقالاتٍ سياسيةً وقصائدَ وطنيةً لجريدة شارلز غافن دافي المسماة (نيشن)(18). وقَّعت كتاباتها

أول الأمر باسم مستعارٍ هو جون فرينشاو إيليس، ثم اتخذت اسم سبيرنزا لاحقًا، وهو اسم اتخذته على وزن أسمائها المستعارة السابقة؛ فيرنزا، كونستانزا، وأخيرًا سبيرنزا. كانت بطلةً وطنيةً متَّقدةَ الحماس، تلتهب كلماتها كالجمر، زِد على ذلك شجاعتها العظيمة. في عام ١٨٤٨ نشرت الجريدة مقالاً ثَوريًّا صريحًا، لسبيرنزا، من حوالي ستة آلاف كلمة بعنوان (ولد ليموت)(19)، دعتْ فيه الشعب للعصيان والتمرد. كان دافي في حينها مسجونًا بتهمة التحريض، ولا يمكن بأي شكل من الأشكال عده مسؤولاً عن المقال، مع هذا فقد اقتبسَ المدَّعي العام الأيرلندي أثناء المحاكمة مقاطعَ من المقال واستخدمها ضدَّه. جدتي، التي حضرت المحاكمة، وقفت على الفور وصاحت بازدراء واضح: «أنا المتهمة لو أن كاتب المقال يجب أن يكون في قفص الاتهام، أنا المجرمة لو أن ما فعلته يُعتبر جُرمًا».

صلة سبيرنزا بالسياسة الأيرلندية تضاءلت بعد محاكمة دافي وترحيله من البلاد، وانتهت بعد زواجها من السير ويليام وايلد. حظيَ آل وايلد بثلاثة أطفال (صَبيَّانِ وبنتٌ)، والدي هو الصَّبِي الثاني في العائلة، عُمِّدَ باسم أوسكار فينغال أوفلاهيرتي ويلز. قيل إنَّ والدي سُمِّيَ تيمنًا بأحد أبناء أوسيان: شاعر بطل عاش في القرن الثالث الميلادي في غايل(20)، وأن أوسكار المذكور قتل في منازلةٍ مع الملك غاريبري في معركة غاهبرا، ذلك خيال رومانسي لطيف غير أنه لا يتوافق مع حكاية عائلتي عن مصدر الاسم وهي كالتالي:

في العام ١٨٥٤ قرأ جدِّي في مجلة طبية أن الملك أوسكار الأول، ملكَ السُّوَيد، مصابٌ بالعمى منذ بضع سنوات، وصفت المجلة حالتهُ الغريبة؛ إذْ رغم عجزه عن تمييز أي شكل من الأشكال إلاَّ أنه قادر بطريقة ما على التمييز بين الظلِّ والضوء، بل قادر على تمييز عدة ألوان. هذا إذن دليل على أن عماه ليس نتاج علة في العصب البصري. على الفور تصرف الدكتور وايلد وكتب إلى الملك مقترحًا أن بوسعه فعل شيء لمساعدته. الملك اليائس من الشفاء اهتمَّ بطبيعة الحال بالعرض، لذا سافر جدي إلى ستوكهولم وشخَّص الحالةَ ليُجريَ على الفورِ جِراحةً للقَرنيَّةِ.

عندما رُفع الشاشُ عن عينيه وجد الملكُ أنه قد شُفي واستردَّ بصرَهُ، وبالطَّبع بلغَ غاية الامتنان. ومن ثمَّ جاء السؤال عن مقدار الأجر الذي سيدفعه له، قاوم جدي ذلك رافضًا أخْذ أي مبلغ من المال، على اعتبار أن الملك ِتكفَّلَ أساسًا بكلِّ تكاليف البعثة. ظلَّ الملك حائرًا في كيفية التعبير عن امتنانه للطبيب بصورة عملية، فسأله عن مطلبه وفيم لو كان بوسعه فعل أي شيء لأجله، أجابه جدي: «علمتُ للتو أن زوجتي أنجبت صبيًا، ويشرفني للغاية أن توافق جلالتك على أن تكون عرَّابه»، وهكذا عاد الدكتور وايلد إلى أيرلندا دون أن يزداد غنىً عن ذي قبل سِوى باسمٍ لولده. بعد ثلاث سنوات سمَّى الملك أوسكار الدبَّ القطبي في السُّوَيدية باسم جدِّي.

هذا بالنسبة للاسم الأول، أما فينغال فهو بطل أسطوريٌّ في قصائد أوسيان يتطلع له كل الأيرلنديين(21) من أجل خلاصِهم من الغزاة الأجانب. ليس من الصَّعب رؤية لمسة جدتي

في اختيار هذا الاسم، لا بد أن الاسم الثالث من اختيارها أيضًا؛ حيث إنَّ أوفلاهيرتي مأخوذٌ من صِلة حقيقية أو خيالية بما يعرف بـ«قبيلة أوفلاهيرت الشرسة من غالواي»(22). أما ويلز فهو اسمُ العائلة الذي تشاركه جدي مع كِلا ولديه. تخلَّى والدي بالتَّدريج عن أسمائه الوسطى كلِّها، رغم أنه استخدمها في أكسفورد، حين فوزه بجائزة (نيودجت)(23) كتبَ اسمه في سجل الجامعة للفائزين كاملاً. فيما بعدُ اتَّخذ موقفًا مضادًّا من الأسماء الطويلة، مُدركًا أن الشخصيات العامة والمشاهير من الناس غالبًا ما عُرفوا باسم واحد أو اثنين فقط. حين ولد أخي الأكبر لم يتلقَ سوى اسم واحد حين تعميده (سيريل)، مع هذا يبدو أن والدي قد تبدل تفكيره مجدَّدًا، وإلاَّ لِمَ منحني ثلاثة أسماء؟

حتى هذهِ النقطة مضتْ الأمور على خير ما يرام نسبيًّا، تنامتْ سمعة جدي كجَرَّاحٍ بسرعةٍ، ومُنح لقبُ الفروسية عام ١٨٦٤ لمساهمته في علم الإحصاء، أشيع أن الملكة فيكتوريا أوشكتْ على منحه لقب لورد في أيرلندا لإنجازاته في مجال الطب.

بعد ثلاث سنواتٍ من ولادة أبي تحقَّقت أعزُّ أماني سبيرنزا، فوَلَدتْ بنتًا سُميت إيزولا فرانسيسكا. منذ ولادتها أصبحت إيزولا محورًا تدور حوله محبة آل وايلد وعاطفتهم. ربما ترفّعت عنهم سبيرنزا لتنعزل بهدوء على عادة الأهالي في العصر الفيكتوري الذين يتظاهرون باللامبالاة تجاه أطفالهم، لكنَّ جدي والصبيان جاهروا صراحةً بشغفهم بإيزولا. عندما ماتتْ بعد فترة مرض قصيرة، وهي بعدُ في سنتها العاشرة، فُجعتِ العائلةُ دون عزاء. أصبحتْ قصيدةُ والدي (فلِتجدي الرَّاحةَ)(24) التي كتبَها حُزنًا عليها مِن كلاسيكياتِ الأدب فيما بعد:

«اِتَّئِدْ في خُطاك، ها هي ذي

تحتَ الثَّلج،

تكلَّمْ بلُطف، فبوسعِها سماعك.

الأقحوانُ يزهرُ،

وشَعرُها الذَّهبيُّ المشرق يغطيهِ الصَّدأُ

هي التي كانت يافعةً وبهيَّةً

صارتْ غُبارًا

مثل زنبقةٍ، بيضاءَ كالثَّلجِ

لم تُدركْ

أنَّها كانتْ امرأةً للغاية،

بحلاوةٍ تنمو،

لوحُ النَّعش والشَّاهدة الحجريةُ الثقيلةُ

يرزحانِ على صدرِها

وحيدٌ أنا، مخاصمًا قلبي، أقول:

هي الآنَ في راحةٍ.

هدوءٌ، هدوءٌ، لم يعد بوسعها سماع

القيثارة، ولا السوناتا

كلُّ حياتي مدفونةٌ ها هنا

وفوقها ثقلُ الأرض كلِّها».

ظلّ السير ويليام وايلد حتَّى آخر حياته رجلاً أخَّاذًا، من خلال لوحة رسمها له مورليين، في سن التاسعة والعشرين، نرى فيه شابًّا ذا مظهرٍ جميل للغاية. في الواقع أُدرِجتْ هذهِ اللَّوحةُ في مقالٍ لجريدة (بالمل)، يتساءل عن حقيقة كون كلِّ الرجال الأذكياء واللأَّمعين قبيحي الشكل بالضَّرورة، وضعت صورته إلى جانب صور درزائيلي، هكسلي وداروِن.

كان في حقيقة الأمر مولعًا بالنِّساء وله شعبيةٌ كبيرةٌ بينهنَّ، وظلَّت سبيرنزا على دراية بأحواله ومغامراته، وعوَّدت نفسها على التكيُّف مع هذا الوضع وعدم السَّماح له بإزعاجها ما دام الأمرُ لا يؤثر على حياتها الشخصية. لكن في آخر المطاف حلَّت نهايةُ السير ويليام عندما لم تستطع سبيرنزا تمالك أعصابها. خيانته لها مع الآنسة ماري جوزفين ترافيس رُوِيتْ تقريبًا في كلِّ كتاب يتحدث عن والدي وعائلته، بصيغٍ متباينة للغاية، لذا ربما ينبغي أن أقدم الصيغة التي تتفق عليها عائلتي:

وقعتْ الآنسة ترافيس في حبائل السير ويليام، وهي ابنة الدكتور ترافيس، البروفيسور في جامعة ترنيتي في دبلن، فصار من عادتها زيارته في عيادته متظاهرة بالمرض. كانتِ امرأة ذات مزاج سيء للغاية وكثيرة المطالب حتَّى ضاق بها السير ويليام ذرعًا، وسعى لوضع نهاية لعلاقته بها، بل مضى متطرفًا في محاولة إرسالها إلى أستراليا، دون أن يجدي ذلك نفعًا، إذ أمطرته بوابل من رسائل دون عنوان وقصائد لا حدَّ لها. وفي النهاية طبعتْ كُتيبًا بذيئًا اتهمته فيه تحت اسم الدكتور كوليب باستخدام الكلوروفورم بانتهاك شرف سيدةٍ شابةٍ، ويمكن بسهولة إدراك أنها تتحدث عن نفسها. نشرت الآنسة ترافيس الكتيب في كل أرجاء دبلن، وإمعانًا في إثارة الاضطراب تعمدت أن يُكتَب أن مؤلفته هي سبيرنزا، ثمَّ ثابرت على إرسال نسخ منه إلى الليدي وايلد مع كل حزمة بريد تتلقاها. بعد بضعة أسابيع من هذا الاضطهاد فقدتْ جدتي صبرها، وفي السادس من أيَّار/مايو ١٨٦٣ كتبتْ رسالةً غاضبة إلى الدكتور ترافيس تتهم فيها ابنته بمحاولة ابتزازها، ووصفتها بعديمة الأخلاق. تجاهل الدكتور ترافيس الرسالة، ولم يعرضْها على ابنته، لكنها عثرت عليها مصادفة فغمرها الرضا، إذ وجدت السَّبيل الأمثل للانتقام من جدي برفعها قضية تشهير ضد اللَّيدي وايلد.

أُجريتْ المحاكمة في دبلن بتاريخ كانون الأول/ديسمبر ١٨٦٤، طالبتْ الآنسة ترافيس بألفي جنيه تعويضًا عمَّا لحق بها من أضرار. وبطبيعة الحال انتشرت القصة لتقضي على سمعة السير ويليام المشكوك بها أصلاً. القضية ظالمة، فهو لم يقم بإغواء مريضة له كما ادَّعت الآنسة ترافيس، بل كان برفقة عشيقتهِ فحسب، مقدمًا لها العناية الطبية، لكن هذا الفرق لا وزنَ له في المحكمة الفيكتورية. رغم أن المحكمة قضت للآنسة ترافيس بتعويضٍ قدرهُ ربع بنس لا غير(25)، ممَّا يدل على رأي هيئة المحلفين بمدى عفَّتِها، فإنَّ أصداء القضية عمَّتْ في كلِّ مكانٍ في أيرلندا والجُزر البريطانية كلِّها. لم يتعافَ جدي من أثرها عليه أبدًا، رغم أنه لم يكنْ بلغَ الخمسين وقتذاك، فإنَّه سرعان ما فقد أي اهتمام بالحياة، وتزايد الوقت الذي يمضيه منعزلاً حيثُ أملاكه في الريف قرب بحيرة كوريب في كويتميرا، حتَّى توفي في نيسان/أبريل ١٨٧٦ ووالدي في الحادية والعشرين من عُمرهِ طالبًا في أكسفورد.

لم يكن جدِّي رجلاً مقتصدًا على الإطلاق؛ أخشى أن الاقتصادَ ليس من خِصال عائلتي، ترك ميراثًا قدره سبعة آلاف جنيه لأرملته، وأربعة آلاف جنيه لكلِّ ولدٍ من أولاده.

عاشتْ جدتي عشرين سنة بعد وفاة جدي، ذكرياتي عنها حينما كنت صغيرًا للغاية تصوِّرها لي بهيئة سيدةٍ مسنَّةٍ مرعبة وصعبة المراس، تجلس متصلبةً في مكان شبه معتم بمنزلها، وهو المنزل رقم ١٤٦ (الآن ٨٧) في شارع أوكلي في تشيلسي، بينما الطَّقسُ مشمسٌ ورائعٌ في الخارج. مثل ملكة في قصة مأساوية، ثيابها مغطاة بدبابيس الزينة والنقوش، وتظل الستائر منسدلةً بشكل دائم في كل أرجاء البيت، بينما تضاء غرفة الرسم بشموع يرتعش ضوؤها في زاوية الغرفة، بعيدةً قدر الإمكان عن جدتي لكيلا يظهرَ مكياجُها الثقيلُ الذي تحاول من خلاله إخفاء حقيقة عمرِها. كنت أعترضُ بشدَّةٍ كلَّما أُخِذتُ إليها لإداء زيارة واجبة، حتَّى بعد سنوات كثيرة، عندما عشت أنا نفسي في شارع أوكلي، لم أكن لأمرَّ في ذلك الجزء من الشارع دون أن ينتابني شعورٌ سيءٌ.

ظلَّ والدي مخلصًا غاية الإخلاص لوالدته وفخورًا بها جدًا. حتَّى في أوج نجاحه وشهرته، حين كانت الدعوات تمطر عليه من كل جانب، لم يكن ليترك زيارتها مرة أو مرتين كلَّ أسبوع، وظلَّ حريصًا على الحضور في يومها المنزلي(26)، وحين بدأ بتلقي العوائد الكريمة من مسرحياته حرصَ على جعل حياتها أكثر راحةً بتوفير كل احتياجاتها ورفع دخلها المتواضع. حينما كتبَ المقطع التالي من الوثيقة التي عرفت فيما بعد باسم (من الأعماق)(27) كان يقصد والدته أكثر من والده: «هي ووالدي أورثاني اسمًا لم يُكرم من خلال الأدب وحده، ولا عبر الفن وعلم الآثار والعلوم، بل عبر تاريخ بلدي، وتطوره كأُمَّةٍ». مثَّلَ موتُها في شباط/ فبراير ١٨٩٦ ضربةً قاسيةً له، كتب عن ذلك في (من الأعماق) أيضًا: «لا يعرفُ أحد إلى أي قدْر أحببتُها وكرَّمتُ اسمَها، كان وقْعُ موتِها كارثيًّا عليَّ، أنا الذي كنتُ أميرًا للُّغةِ بتُّ بلا كلماتٍ تصف مدى كربي وشعوري بالعار». أمِّي التي عرفتْ كم أحبَّ أبي والدته حدَّ العبادة، سافرتْ من إيطاليا إلى مَحبسهِ بسِجنِ ريدنك في إنكلترا؛ فقطْ لتبلغَهُ بنبأ وفاتِها.

بين عامي ١٨٤٩-١٨٩٣ نَشرت الليدي وايلد ثلاثة عشر كتابًا، أكثرَها شهرةً هي (الأساطير القديمة)، (فتنة وغموض الخُرافات الأيرلندية)، (العلاجات القديمة والسحر واستخداماتها في أيرلندا)، كما نُشرتْ سيرة لها بعنوان (سبيرنزا) في عام ١٩٥١ من قبل هوراس وايدنهام.

هذا الكتاب ليس عن حياة أوسكار وايلد، فثمَّة عددٌ كافٍ من الكتب في هذا المجال، لكنَّه كتاب يكمِّل قصته ويحافظ على ديمومتها، وسألتمسُ هنا الحديث باختصار عن بعض الأحداث المسكوت عنها في أوَّلِ حياتهِ.

ولد في ويستلاند رو، بمدينة دبلن يومَ السادس عشر من تِشرين الأول/أكتوبر عام ١٨٥٤. عندما كان في العاشرة وأخوه ويلي في الثانية عشرة؛ أُرسِلا إلى مدرسة بورتورا الملكية

في إينيسكل. على الرغم من الفرق بين عمريهما، فقد وضِعا في الصفِّ نفسهِ. لا يُعرف سِوى القليل عن السنوات التي قضاها في المدرسة، فلم يكن يذكرها فيما بعد. فاز في خريف عام ١٨٧١ بالمنحة الدراسية الملكية للدراسات الكلاسيكية في كلية ترنيتي في دبلن، وبقي هناك ثلاث سنوات.

في الكلية وقع تحت تأثير الكاهن جون بنتلاند مهافي، الذي عملَ أُستاذًا في التاريخ القديم، بالإضافة إلى كونه باحثًا لامعًا في الدِّراسات الإغريقية. عرفه والدي قبلَ دخوله الكلية بصفته صديقًا قديمًا للسير ويليام وايلد، وقد جذبهما لبعضهما اهتمامُهما المشتركُ بالفلكلور. كان والدي شغوفًا باللُّغة اليونانية وكلِّ ما له علاقة باليونان، مما وطَّد علاقته بمهافي، الذي أرشدَ والدي للفوز بمنحةِ الكلية ومن بعدها الميدالية الذهبية لبريكلي في اللغة اليونانية، وأخيرًا بمنحة ديشامب التي تُمنح سنويًّا وتعادل خمسةً وتسعين جنيهًا في كلية ماجدلين بجامعة أكسفورد. معرفة والدي العميقة باللغة اليونانية مردُّها تمتُّعُهُ بذاكرةٍ استثنائية أكثر من كونه نتاج دراسة جادة، كما أن حبه للغة وصلَ إلى الحد الذي مكَّنه من تذكُّر كل كلمة يونانية قرأها، مما أكسبَهُ كمًّا هائلاً من المُفردات. ثمَّة قصة تُروى عن خضوع والدي لامتحان شِفاهيٍّ(28)، أحد مواضيع الامتحان تمثَّلَ في قراءة العهد الجديد باللُّغة اليونانية، كان والدي واثقًا من كونه قادرًا على اجتياز الامتحان دون دراسة، ولم يبالِ بإلقاء نظرةٍ على مادة امتحانه. علمَ الفاحصُ بذلك فوجدَ أنَّها فرصة لتلقين والدي درسًا في التَّواضع؛ طلب منه الانتقال إلى الصفحة السابعة والعشرين من سِفْر أعمال الرسل والمباشرة بالترجمة إلى اليونانية، هذا الفصل هو على الأغلب واحد من أصعب الفصول في العهد الجديد كله، وفيه يوصف تحطم سفينة القديس بولص في الطريق إلى إيطاليا، ويحتوي النصُّ على عدد من المصطلحات البحرية الغامضة، التي لا يُتَوقَّع أن يعرفَها أحدٌ دون دراستها مسبقًا. ترجم والدي النصَّ بصورةٍ ممتازة، وعندما طلب منه الفاحصُ خائبُ الظنِّ التوقفَ، أجابه: «رجاءً، هل تسمح لي بالمُضي في القراءة؟ أريد أن أعرف ما حدث للقديس بولص».

بعد وقتٍ قصيرٍ من وصوله إلى أكسفورد التقى والدي بجون روسكن، وقد شغلَ في حينها كرسي سلاد لأستاذية الفنِّ(29)، لطالما قيل إن روسكن هو الذي شكل شخصية والدي في فترة دراسته في أكسفورد، لكن القول الحق أن روسكن سقى البذور التي زرعها مهافي. حِسُّ الجَمال الوليد في روح أبي انعكسَ على مظهر غرفته في كلية مجدلين، التي طَغى عليها الفخار الصِّيني بلونيه الأبيض والأزرق، ربما عُدَّ ذلك تطرُّفًا في حينها لكنَّه بالتأكيد لم يُعتَبر مبتذلاً. كانت غرفتُهُ واحدةً من أكثر الغرف جاذبية في الكلية، ومن المثير للاهتمام ملاحظة أنه على الرغم من كون اسم أوسكار وايلد لم يُذكَر في الكلية بعد العام ١٨٩٥، فإنَّ الغُرف التي سكنها لا تزال مفتوحةً للزوَّار، وتُعرف رسميًا باسم (غُرف أوسكار وايلد)، على زجاج أحد الشبابيك حفرَ الأحرفَ الأولى من اسمه، وبقيَ ذلك النَّقشُ بارزًا حتَّى سنواتٍ قريبةٍ عندما تحطَّم الشُّبَّاك بحادث عرضي، ولا تزال قطعة الزجاج التي نقش عليها والدي اسمَه محفوظةً لدى الكلية.

الرجل الذي وقعَ والدي صريعَ سحرهِ فعلاً هو والتر بيتر، الأستاذُ في كلية براسينوز والمتهم بكونه صاحبَ التأثير الأكثر سُمِّيَّةً في أكسفورد، مظهرُه الغامضُ وطريقة حياته الغريبة، وانعكاس الوثنية على كتاباته... ونظريته التي يمكن تلخيصُها بـ: السَّعي دون كلل وراءَ المُتَع. العقيدةُ التي بشَّرَ بها والتر بيتر تمثَّلتْ في تمجيدَ التجربة الشخصية فوقَ كلِّ القيود باعتبارها «الغرض الأسمى للحياة». وضَّحَ ذلك بالقول: «النظرية أو الفكرة أو النظام الذي يحتاج منا التضحية بأيِّ جزء من هذهِ التجربة في سبيل بعض المصالح التي لا تخصُّنا، أو من أجل بعض الرؤى الأخلاقية التي لم نحددْها بأنفسنا، وهي محضُ تقاليد، لا سلطةَ لها علينا»، بكلماتٍ أخرى بشَّر بأنَّ المشاعر الحسية والجسدية هي الغاية بحد ذاتها، والسَّعي لها سعيٌ نبيل. هذا التعليم، زد عليه ما حصده من مهافي وروسكن، ذلكَ بالضبط ما احتاجه أبي للمُضي قُدمًا في طريق سعيه الجَمالي. العديدُ من المؤرخين تكلموا عن إعجابه بالجسد البشري، وبالذات الجسد الذكري باعتباره بداية الانحطاط. هذا غيرُ عادلٍ أبدًا، فلطالما أمسى الشباب بكل أشكاله مبعثَ إلهام لكل الشعراء والفنانين، تبعَ والدي خُطى أساتذته فحسب، ولا يمكن لأحد اتهامه بالانحطاط بسببِ إعجابه بالجَمال لغرض الجَمال. هذهِ النظرة المعقدة للحياة لم يفهمها العديد من زملائه في الدراسة، بل اغتاظَ الكثير منهم بسبب ما اعتبروه مبالغةً منه في صياغة الجمل في الحوارات وفي الشعر، بالنسبة لهم ظلَّ الشعراء أشخاصًا غريبي الأطوار على أي حال. مع ذلك فإنَّ المحاولة الوحيدة منهم لمضايقة أوسكار وايلد انتهت بهزيمة المهاجمين في قصة يرويها بإعجابٍ السير فرانك بينسون في مذكَّراته عن أيام دراستهِ في أكسفورد:

«لفت وايلد الأنظار بالفوز بجائزة نيودجت للشعر، وهو طالب في الكلية، كان في الحقيقة طالبًا لامعًا مدهشًا، يمتلك دون شك ذوقًا غريبًا في الفن والإنسانيَّات، ويقدِّر بشكلٍ كبير جودةَ الصُّور والجياد والرِّياضيين والأخلاق؛ وهو باختصار حَكمٌ جيدٌ، في كل مجال، في الوقت ذاته نعِمَ بالقوة العضلية الاستثنائية التي تجدها في الرجال الأيرلنديين ضخام البنية. رجل واحد في الكُلية رأى أن له فرصة أمام وايلد، ذوقه رديءٌ لكن ترتيبه السَّابع في الألعاب الرياضية. وفي مناسبة ما صاحَ هذا الرياضي القوي الذي لم يتوقع من هذا الكسول الأخرق طويل الشعر، صاحب الوجه الطويل بسترته البنية المخضرَّة وربطة العنق الصفراء، أن يقدِّم مفاجئة غير سارة في الغرفة المشتركة للطلاب الجدد بكلية ماجدلين: «لنذهبْ ونزعجْ وايلد، ونكسِّرْ بعضًا من ذلك الأثاث الذي يبالغُ بالفخر به»، ولم يكدْ يُنهي كلامه حتَّى هجمَ ثلاثة أو أربعة سُكارى على غرفةِ الضَّحية، وتبعهم البعض وانتظروا على السلالم بدافع الفضول. لشدة دهشة المتابعين سرعان ما عاد المهاجم الأول يتبعه حذاء ضخم على السلم، وتلقَّى الثاني ضربة رفعته في الهواء وأطاحتْ به أرضًا، ثم جاء منافسُ وايلد محمولاً على ذراعيْ أوسكار مثل طفل، رغم أنه بنفس حجم وايلد، وله نفس البنية الضخمة. أضحى مغمومًا دون طائل وهو يرى نفسه بين يدي الشَّاعر إلى غرفته ليدفنه تحت كومة من ركام الأثاث الفخم الغالي. كان الخاسرُ غنيًا لكنه يفتقر للذوق. من بين بقايا الطاولات والكنبات والكراسي والصور المحطمة ارتفعت صيحات الإعجاب بوايلد، ولم تتكرر مثل هذهِ الدعوات. ظلَّ الخاسر يومها مدفونًا تحت خرائب غرفته وهو يغلي من

الغضب السام، يراقبُ كيف حلّ على المكان دون دعوة جمع من الغرباء ليحتسوا مشروباته الغالية ويملؤوا بها بطونهم».

لا شكَّ أن والدي، أثناء وجوده في أكسفورد، عاش حياة أي طالب طبيعي، فقد مرح وشرب وتغيَّبَ عن المحاضرات وخاضَ المغامرات الغرامية متى سنحت له الفرصة، حتَّى أنه قُبض عليه مرة يُجلسُ آنسةٌ على ركبتيه، ولسوء حظه فإنَّ والدةَ الفتاة هي من ضبطتهما متلبِّسين، وكتبتْ رسالة قوية النبرة توبخه على فعلته هذهِ. هناك أدلة كثيرة على أنه في أواخر أيامه في أكسفورد، خَطَّطَ جديًّا للزواج من إحدى قريباته.

كان أوسكار وايلد ذا شعبية في ماجدلين، كوَّن الكثير من الصداقات العظيمة، من بينها صداقته بديفيد هانتر بلير، وريث كنيسة دينفرملاين، وكذلك فرانك ميلر الذي تشارك معه فيما بعد منزلاً في لندن، واعتبرهُ من خاصَّة أصدقائه. صديق آخر هو ويليام ويلزفورد وارد (بونسر)، الذي فازَ مثل والدي بمنحة ديشامب للكلاسيكيات، وحقَّقَ المركز الأول في أكسفورد مرتين. أصبح لاحقًا محاميًا ناجحًا، وفي عام ١٩١٨ عمل أمينًا لصندوق شركة ميرجنت أدفانزر. كما أصبح والدي في تلك الفترة صديقًا لريجنالد ريتشارد هاردنك (كيتين).

ذكرت آخر اثنين لأنهما أصبحا محطَّ اهتمام مؤخرًا وذلك بعد الكشف عن مجموعتين من الرسائل التي أُلقتْ ضوءًا مهمًّا على شخصية والدي أيام أكسفورد. أُرسلتِ الرسائل إلى بونسر وارد وكيتين هاردنك، اكتسب كيتين هذا اللقب(30) من أغنية شعبية ذاعت في حينها، وهي كالتالي:

عذرًا سيِّد هاردنك!

هل قطَّتُنا الصَّغيرةُ في حديقتك،

تأكل عظم الغنم؟

لا، لقد ذهبت إلى لندن.

كم ميلاً الطريق إلى لندن؟

أحدَ عشر؟ ظننت أنها سبعةٌ فقط

بحقِّ السماء! ما أبعدَها عن البيت!

كان ذلك عصر الأسماء المستعارة والألقاب، إذ حصل الجميعُ على ألقاب. حصلَ هانتر بلير على اسم (دانسكي)، بينما لقب والدي (هوسكي) وهو على ما يبدو تحريف لاسم (أوسكار). لُقبَ أخٌ لريجنالد هاردنك بلقبِ (بُسي)، وسُميت أختهُ (آنسة بوس)، وقد أشار إليهم والدي بصفة الجمعِ: (بوسيس)(31).

كُتبتْ تلك الرسائل كلُّها في فترة ثلاث سنوات، بين أعوام ١٨٧٦-١٨٧٨، وأوسكار وايلد بين الثانية والعشرين وحتَّى الرابعة والعشرين من عمرهِ. معظم الرسائل كتبت في فترة العطل، هناك العديد من الرسائل إلى ويليام وارد أُرسلت له من كلية ماجدلين، لأنه سبقَ والدي بسنةٍ وتخرَّج قبلَه.

هذه الرسائل تُظهر والدي في إطارٍ مختلف للغاية عمَّا يحاول البعض حشره فيه، عند الحديث عن فترة دراسته في أكسفورد، وتبدَّدَ الانطباعَ بأنَّه كان مخنَّثًا ذابلاً ولا يسعى لغير الجَمال. كان بلا شك مهتمًّا للغاية بالفنِّ، وكتب قدْرًا كبيرًا من الشِّعر، لكن يبدو أنه قسَّم وقته بين الأدب والفن والرياضة. كتبَ بحماس عن صيده للسَّلمون، وعن بطولات الرِّماية التي شارك بها، وحتَّى عن إجادته للتنس، بينما اللُّعبة لا تزال في بداياتها. كتبَ عن نفسهِ: «مشغولٌ للغاية بالعَصا والسِّلاح، ولستُ متفرِّغًا لريشةِ الكتابة». ثمَّة شهيَّةٌ هائلةٌ للحياة، تنضحُ من خلالِ رسائله، حماسٌ للاستمتاع بكلِّ لحظةٍ من لحظات الحياة إلى أقصى حدٍّ ممكن. وجدَ الجَمالَ في كلِّ شيء حوله، حتَّى العواصف الرعدية أثارت حماسه؛ كتب إلى وارد من مقر عمه القس في ويست آشبي قائلاً: «وصلتُ إلى هنا وسط عاصفة فظيعة؛ لقد حلت كما لو أن جمعًا من الملائكة أراد الفتك بنا ناشرًا الرعب والنار».

رسائله المبكرة، في عام ١٨٧٦، موقعة باسمه الكامل، أمَّا الأخيرة فصار يوقعها باسمه الأول والثاني، وأحيانًا (أوسكار) فقط. في إحدى رسائله إلى وارد، وقَّعَها باسمه الكامل، كتب فيها: «أحبُّ أن أوقِّعَ باسمي كاملاً، كما لو أنَّني أوقِّعُ وثيقةً على قدر كبيرٍ من الأهمية، كأن تكون أرسل حقيبتين من الذهب بيد حامل الرسالة، أو دع الدوق يُذبح غدًا ولتنتظرني الدوقة في هوسترلي».

واصلَ كسلَهُ وتضييعه للوقت المخصص للدراسة بطريقة طفولية، ورغم ذلك ظلَّ يفاخرُ بنجاحهِ وتفوُّقهِ الدِّراسي. ثمة شيء منعشٌ في طريقة استخدامه لكلماتٍ عاميةً من حين لآخر، وإنْ تجلَّى الموضوع صادمًا نوعًا ما عند المقارنة بجُمله المُصاغةِ باتِّزانٍ ودقَّةٍ بالغيْنِ عند الكتابة.

من أكثر ما يثير الاهتمام، في هذه الرسائل، استمرارُ والدي بالإشارة إلى ميلهِ الواضحِ للكاثوليكية، تولعَ بالكاردينال نيومان وانجذبَ إليهِ مثلما تنجذب الفراشة لضوء الشُّموع. في إحدى رسائله إلى وارد كتبَ:

«أنا ذاهب لزيارة نيومان في برمنغهام لكي ألعبَ بالنَّار وأحرقَ أصابعي أكثر. هل تتذكر وايز الذي كان هناك؟ إنَّهُ عالق بشكلٍ مريع بحِيَلِ المرأة القرمزية(32) وقد كتب لنيومان عن عدة مواضيع ورد عليه بأكثر الرسائل سِحرًا ودعاه لزيارته. أنا أتطلَّع بحرارةٍ لمقابلته، ليس لغرض الجدل على الإطلاق، بل لمجرد البقاء في حضرةِ رجلٍ قُدسي».

هناك شكوك باحتمالية اعتناقهِ للكاثوليكية خلال أيامه في أكسفورد دون إبلاغ عائلته. في أيامه الأخيرة يُنقَل عنه قولُه: «ميولي الأخلاقية مردها بشكل كبير لرفض عائلتي السماح لي بالتحول للكاثوليكية». وضعتُ أهمَّ هذهِ الرسائل في الملحق الأول من هذا الكتاب، لأنني أعتقد بأنَّها توثيقٌ مهمٌّ لسنواته في أكسفورد. وبعد وفاة وليام وارد وجدَت ابنتُه الآنسة سيسيل وارد بين أوراقه مذكراتٍ قصيرةً عن أيامه في أكسفورد مع أوسكار وايلد، وإليها أدين بنشرها هنا في الملحق الثاني من هذا الكتاب.

في غرف كلية ماجدلين، التي سكنها ويليام وارد أوَّلَ الأمر ثم سكنها والدي من بعدهِ، ثمَّة خربشات حُفرت على أحد الشبابيك، تحت الرسمة كُتب «السيد بونسر الصغير»، وقع عليها والدي. الرسمة عبارة عن شكل مستدير بقبعة بولينغ، لو كانت أوضح لأعطتنا فكرةً عن سبب تسميته بونسر(33).

في عام ١٨٧٧ ذهب والدي وشابان آخران رفقة البروفيسور مهافي في رحلةٍ إلى اليونان. كان قد سافر مسبقًا مع مهافي إلى إيطاليا قبل سنتين من ذلك. هذه الزيارة عضَّدتْ صداقته مع مهافي، وعزَّزت تبجيله للمثال اليوناني للجَّمال. في العام ١٨٧٨ تمكن من الحصول على المركز الأول في أكسفورد، هذهِ المرة في اللاَّهوت، قبلها بسنتين حصلَ على المركز الأول في امتحانات درجة الشَّرف. كما فاز عام ١٨٧٨ بجائزة نيودجت للقصيدة الإنكليزية بفضل قصيدته (رافينا)(34)، السير ديفيد بلير في كتابه (الأيام الفيكتورية) يقول إنَّ والدي سُئِلَ عن طموحه الفعلي في الحياة وهو طالبٌ في أكسفورد فردَّ قائلاً:

«يعلمُ اللهُ أنني لا أريد أن أكون طالبًا في أكسفورد، سأكون شاعرًا، كاتبًا، ممثلاً... بطريقةٍ أو بأخرى سأكونُ مَشهورًا حتَّى وإن كانت شهرتي بسببِ سوء السُّمعة. أو ربَّما سأعيشُ حياةً من المُتعِ(35) بعضَ الوقت، وبعدَها مَن يدري! لعلِّي أسكنُ إلى الراحة والكسل. ما الذي قاله (أفلاطون) عن أسمى خاتمةٍ لحياةِ المرءِ على هذهِ الأرض: الجلوسُ والتَّفكر في كلِّ ما هو خيِّر(36)، ربَّما ستكون تلك هي خاتمةَ حياتي».

لكنَّ ظنَّهُ خاب قليلاً عندما لم يُمنَح زمالةً أخرى في أكسفورد، بعد أن أمسى معتادًا على الفرحة التي تنبعث في نفسه عند الفوز بالزَّمَالات. بعد مغادرتهِ أكسفورد دعمَ والدي نفسه

ماديًّا لستِّ سنواتٍ بكتابةِ المقالات والقصائد وبإلقاءِ المحاضرات في إنكلترا وفي الولايات المتحدة الأمريكية.

في عام ١٨٨٤ تزوج من والدتي، كونستانس ماري لويلد، التي التقاها في دبلن قبل ذلك بعامٍ(37)، وهي في الرابعة والعشرين من عمرها. لم تكن عائلة أمي عائلةً عادية، والدها هوارشيو لويلد وجدها جون لويلد، شغلا مناصب مهمة في البلاط الإنكليزي، وغدا كلاهما مستشارًا للملكة. أمِّي نفسها نصف أيرلندية، إذ تزوج والدها من الآنسة أتكينسون من أهالي دبلن، وجدتي لأمِّي من عائلة هيمفل التي تحوز على منزلة اجتماعيةٍ مهمة في مقاطعة تايرون. خالي الأكبر شارلز هيمفل كان عضوًا محافظًا في برلمان شمال تايرون بين عامَيْ ١٨٩٥ - ١٩٠٦. وقد تولى منصبَ كاتب العدل العام لأيرلندا من عام ١٨٩٢ حتَّى العام ١٨٩٥، ومنح صفة النبالة إبَّانَ تقاعدهِ عن الحياة السياسية.

عارضتْ عائلة أمي لزواجها بأبي الذي عُدَّ غيرَ كُفْءٍ لها، فهم عائلة مرفَّهةٌ من الطبقة الوسطى، عاشوا ضمنَ تقاليد محافِظةٍ للغاية، والسمعة السيئة التي تسبق أبي، وما عرف عنه من ألاعيب وطيشٍ، أشعرتْهم بالإهانة بلا شك، وذلك لتدنيسه كلَّ ما تعارفوا عليه. وكان والدي حينها في ذُروة هوسه بالجَمال وقِيمهِ، وسأتحدَّثُ أكثر عن هذا الجانب من عائلة والدتي في موضعٍ آخر من هذا الكتاب.

كانت أمي امرأةً بديعةَ الجَمال، أُغرمتْ بأبي وأُغرمَ بها إلى أقصى حدٍّ، وكانا في غاية التفاني والإخلاص لهذا الحبِّ، وهذا أمر لا شكَّ فيه. وصْفُ فرانك هاريس لأمِّي أنَّها «سيدةٌ بلا مميَّزاتٍ أو جمالٍ» يدفعُني للظَّنِّ بأنه نتيجةٌ لعدم تجاوبها مع محاولاتهِ الغَزَلية. لقد اعتادَ أن يُشنِّع على أيِّ امرأةٍ لا تستجيب لمحاولاتهِ المقزِّزةِ باعتبار أنَّ رفضَهَا له غباءٌ، والغباءُ عندهُ معادلٌ للقُبحِ. عرِفتُه وأنا شابٌّ صغير، وكان الأسوأَ -أخلاقًا وانعدامَ ذوقٍ- ممَّن التقيتُهم في حياتي كلِّها. كتابه عن والدي وُصِمَ مُسبقًا بكونه سلسلة أكاذيب وحريٌّ به أن ينضم إلى سلسلةِ كُتبِ مذكَّراتهِ في سلَّةِ النِّفايات.

القصص التي رُويتْ عن والدتي من قِبل بعضِ من أرَّخوا لحياةِ والدي قصصٌ غبيةٌ، ومعظمها اختراعات شخصية، بالذات تلك الحكاية عن كونها قد قاطعته مرةً أثناء حديثٍ مهمٍّ، وهي تطلب منه: «أوه أوسكار، هلا تتذكر أن تجلبَ حذاء سيريل»، هذهِ القصة تحملُ كل أشكال الكذب؛ ففي تلك الأيامِ لم يكن ممكنًا لأيِّ رجلٍ راقٍ متأنِّقٍ في شوارع لندن أنْ يحملَ طردًا مَهما صَغُر حجمُه، زد على ذلك أن ما من سيدةٍ من سيدات ذلك العصر تفكِّر بإزعاج زوجها بمثل هذه التَّفاصيل، بينما لكلِّ بيت من بيوت الطبقة الوسطى خدمٌ للقيام بمهامِّ البيت وحملِ الأغراض على أقلِّ تقدير. لو شُوهدَ والدي وهو يحمل صندوقًا أو طردًا يحتوي على أحذية، سواء أكانت لسيريل أو لغيرهِ، لأضحى مادَّةً لسُخرية أصدقائه، من الممكن أن تقاطعَ المرأة على عادتها أي حديثٍ لا تجد له أهمية، لكن الموضوع ليس موضوع أحذية بالتأكيد(38)، لم تكن أمي امرأةً غبيةً بأيِّ مقياس من المقاييس، بل على

العكس كانت على قدْرٍ كبيرٍ من الثقافة. أجادتْ الفرنسية والإيطالية، والكثير من قراءتها تمَّتْ بهاتين اللُّغتين، ربما لم تملك حسًّا فُكاهيًّا قويًّا، لكن لا يمكن لومها، لو لم تجد في وضعها ما يمكن الضحك منه أو عليه.

شعرتْ والدتي بالغربة إلى حدٍّ ما في الجَوِّ البوهيمي غير التقليدي في تشيلسي، على الرغم من حقيقة أن كلَّ الفنانين الأكثر شهرة في عصرها كانوا زوَّارًا دائمين لبيتها؛ غالبًا ما قِيلَ إنَّ كل ثيابها اُختِيرتْ وصُمِّمَتْ خِصِّيصًا من قِبل والدي. هذا كلامٌ خاطئ للغاية، فوالدتي لم تكن لترضخ لمثل هذا النوع من الديكتاتورية. في ثمانينياتِ القرن التاسع عشر، أثناء فترة زواجها بوالدي، تدنَّتْ موضة أزياء النساء إلى الحضيض، لتصلَ إلى مرحلةٍ لم تصلها بعدها حتَّى يومنا هذا. طَغى على الأقمشة اللَّون البنفسجي، ودرجات لا حصرَ لها من اللون البني، سادتْ أقمشة الحرير الثقيل وحبال الحرير والبومبازين(39)، موضة خصر الدبور(40)، وموضة فخذ الضأن(41)، كلُّ هذا من شأنه أن يجعلَ حتَّى أكثر النساء جمالاً تبدو خرقاءَ، إذ يسلب منها كل جمالها وجاذبيتها. تصيرُ الموضة أسوء عند الخروج من المنزل، حيث ترتدي النساء شالاتٍ بأطرافٍ مشرشبةٍ تحمل خرزًا من الكهرمان الأسود وقبَّعةً تبرز من مؤخرة الرأس وتنفتح إلى الهواء مانحةً مُرتَدِيتِها مَظهرًا غريبًا مثلَ سلطعون.

ناشدَ والدي أمِّي أن تصنعَ لنفسِها معروفًا، فلا تتَّبعُ هذهِ الموضة الفظيعة وأن تبحثَ -بدلاً عن ذلك - في الفترات الأكثر كلاسيكية من أجلِ الإلهام. أمِّي المعجبة بشدَّةٍ بفترةِ ما قبلَ الرفائيلية(42) صُودِفَ أن يتوافقَ ذوقها مع رغبة والدي، وكلُّ الصور التي التُقِطتْ لها خلال تلك الفترة، أظهرتها بثياب فضفاضةٍ وأكمام عريضة صمَّمتها بنفسِها، ناسبتْ بشكل مثيرٍ للإعجاب جمالَها الأيرلندي. خلال سنواتي الأولى كانت أمي هي الشخص الوحيد الذي لطالما جعلني سعيدًا، أمِّي التي أعشقها. أعرفُ أنَّها أحبتني كذلك، لكنني كنت دائمًا على وعي بحقيقةِ أن كلا والديَّ يفضِّلان أخي عليَّ؛ كأنَّما تلك غريزةٌ لدى الآباءِ كلِّهم بتفضيلِهم طفلهم البِكر. في كتابه (من الأعماق) ذكرَ أبي أخي سيريل بالاسم، بينما ما من ذكرٍ لي إلاَّ بصفةِ الجمع «أطفالي». لم أكن قويًا كفايةً مثلَ أخي، بل حسَّاسًا كثيرَ الشكوى، مقارنة بسيريل الذي كان أصلبَ عُودًا مني. وفوق كلِّ هذا فقد تاقَ والديَ لأنْ يكونَ طفلُهما الثَّاني بنتًا مثلما كانت جدَّتي تأملُ إنجابَ فتاةٍ عندما وُلِدَ أبي.

كونستانس وايلد وسيريل

الفصل الأول السَّنواتُ السَّعيدةُ

وِلِدتُ بمنزل عائلتي، في شارع تايت، شهرَ تِشرين الثاني/ نوفمبر ١٨٨٦، بعد سنواتٍ عديدة أخبرني الطبيبُ الذي أولد أمي أنَّ ذلك اليوم كان كئيبًا بلا بهجةٍ، وخيَّمَ ضبابٌ كثيفٌ حين استُدعيَ على عجَلٍ لعيادةِ أمِّي، وقد واجهَ صعوباتٍ جمَّةً في الوصول إلى تشيلسي؛ من بيته في شارع كروسفينور. الطبيب شارلز دي سيسي، لم يكن طبيبَ العائلة فحسب بل ارتبطتْ عائلتانا بعُرى صداقة متينة، وقد توفي عام ١٩٣٢ بعمر الرابعة والثمانين، كان من ألطف الأشخاص وأكثرهم نُبلاً، له حُنُوٌّ عظيمٌ على الأطفال والحيوانات.

كان لدى آل وايلد صبيٌّ بالفعل؛ أخي سيريل، الذي وِلِد قبلي بسبعة عشر شهرًا في الخامس من حزيران/ يونيو ١٨٨٥. لذا تسببت ولادتي بخيبةِ أملٍ لوالدي الذي أراد بنتًا تذكِّره بأختهِ إيزولا التي ظلَّ يكنُّ لها حُبًّا عظيمًا، ولو قُدِّر له أنْ يحظى بابنةٍ لأسماها إيزولا. مع ذلك مثله مثل أي أبٍ فقد تقبَّل مولوده، وسمِّيتُ ڤايڤيان أوسكار بيرسفورد. ڤايڤيان اسم خيالي بالطَّبع(43)، وقد حذوتُ حذوَ والدي عند تسميتي لابني مارلين(44). اسمي الثاني أوسكار لا حاجة بي لتوضيحه، لكن الاسم الثَّالث هو الذي طالما حيرني مصدره، إذ لمْ أجد بينه وبين عائلة والدي أو والدتي أي رابط، ولا أعتقدُ باحتمالِ أن والدي وجدَ هذا الاسم جذَّابًا. في شهادةِ ميلادي كُتب أن وظيفة والدي (مؤلِّف). لم تُسجَّلْ ولادتي إلاَّ بعد بضعة أسابيع، وضحت لي والدتي السَّبب بكون كل واحد منهما افترض أن الآخر قد تولى عمليةَ التسجيل. عندما حان الوقت أخيرًا لتسجيلي رسميًّا لم يتذكر أحد يوم مولدي بالضبط،

رغم أن الجميع متأكِّدُون من أنني ولدت في الأيام الخمسة الأولى من تِشرين الثاني/ نوفمبر، لذا أُختِيرَ الثالث من الشهر كحل وسط. أخبرني خالي مرَّةً أن السبب الحقيقي وراء ذلك هو لكوني ولدتُ في الخامس من تِشرين الثاني/ نوفمبر، وأُخفِيَ الأمرُ تجنُّبًا لأي صلةٍ بين الحركة الجَمالية وبين يوم غاي فاوكس(45)، ربما يكون ذلك حقيقيًّا. من الفوائد العظيمة لعدم اليقين هذا أنني صرتُ مَنيعًا تمامًا على المنجِّمين وتنبؤاتِهم ما دمتُ لا أعرف يومَ ولادتي ولا ساعةَ الولادة.

لم ينجب والدي أطفالاً غيرنا. سُمِّيَ لي عرابٌ فقط، ولم تُختَرْ عرَّابةٌ، أو لم أُخبَرْ باسمِها على الأقل. لأنَّ أمي صديقةٌ مقرَّبةٌ من جون روسكن، فقد طلبت منه أن يصبحَ عرابي لكنَّه رفض. وفي رسالةٍ منه موجودةٌ في حوزتي يفسِّر هذا الرفض بكبر سِنِّهِ. صار مورتايمر منيبس عرَّابي، وهو فنان نال سمعةً طيبة في ثمانينيات القرن التاسع عشر. لا يزال بحوزتي نقشٌ من أعماله، منحهُ لي بدلاً عن كأس التَّعميد، وهو ليسَ بالعمل المتقن جدًّا. ظلَّ هناك شَكٌّ، على الدَّوام، فيما لو كان ينجزُ أعماله بنفسه أم لا. كان رجلاً انطوائيًا ومتأنِّقًا إلى حدٍّ ما، وعلى صلة بويستلر(46) وكل ما له علاقة بحركة ما قبل الرَّفائيليَّة. بعد سنوات عديدة عندما كنت في الحادية والعشرين أخبرني السير ويليام ريتشموند(47) أن مورتايمر رُشِّح مرَّةً لعضوية الأكاديمية الملكية وطُرحتْ الشُّكوكُ حول قُدرتهِ على إنتاج أي عمل فني دون مساعدة. في بداية ذلكَ العصرِ زارتْهُ في مشغلِهِ لجنةٌ من الأكاديميينَ، بينهم ريتشموند نفسه، وطُلِبَ منه رسمُ أو نحتُ أيِّ شيء في حضورِهم. أشعرَهُ طلبهم بالإهانةِ فطَردَ اللجنةَ رافضًا الانصياع لطلبهم. لم يُختَرْ للأكاديمية، والحقيقةُ المهمة أنه تقاعد من عالم الفن بعد هذهِ الحادثة، ولم ينتجْ أيَّ عملٍ بعدها رغمَ أنه استمر بالكتابة عن الفنِّ حتَّى وفاته عام ١٩٣٨.

حصلَ أخي كذلك على عرابٌ واحدٌ، هو المستكشف والتر هاريس، الذي قضى حياته متنقِّلاً في مجاهلِ إفريقيا وبلدان جنوب المحيط الهادي. أخبرنا عندما كنَّا صغارًا حضرَ مرَّةً وليمةً لأكلِّ البشَر من دون أن يدري بطبيعةِ الحفلِ شاركَ بالأكل، وصَفَ الطعمَ بأنَّه أقرب ما يكون لطعم لحم الخنزير لكنه أكثر لذاذةً، حين اكتشفَ ماهيةَ الطَّعامِ لم يعد قادرًا على أكلِّ أيِّ شيء آخرَ لعدَّة أيام. كان هاريس صديقًا مقربًا من آر. بي. كاننغهام غراهام(48)، وتشاركا مَنزلاً في طنجةَ المغربيَّةِ، حيث عاشا كموارنيين(49)، أطالا لحيتيهما، وعاشا لزمنٍ هناك، فاكتسبا بشرةً أغمقَ لونًا، وأجادا التحدُّثَ بالعربيةِ بتمكُّنٍ، حتَّى بديا مثل أهل المدينة فعلاً. حجَّ كلاهما إلى مكَّةَ، وطافا حولَ الكعبة. ولو اكتُشِفَ بأنَّهما يؤدِّيانِ المناسك ككافريْنِ لكانت عقوبتهما الموتَ الموكَّد. أخبرنا هاريس أنه كاد يفضحُ نفسَهُ بطريقة غسلِهِ ليديهِ على الطَّريقة الأوربية لا المُحمَّديةِ، حيثُ الوضوءُ شَعيرةٌ لها طَقسٌ محدَّدٌ. في النهاية اعتنقَ غراهام الدِّينَ الإسلاميَّ، وأعتقد بأنَّ هاريس فعلَ الشَّيء نفسَه.

يصعبُ التحقُّقُ من أول الانطباعات والذكريات لدى المرء، ففي طفولة الإنسان وأيامه الأولى يكون روتينه محدَّدًا دون تغييرٍ يُذكرُ، حتَّى أن ما يظنه حدث في الثانية أو الثالثة

من العمر هو في حقيقة الأمر جرى في الخامسة أو السادسة، هذا ينطبق بالذات على الأطفال في هذا البلد، حيث تبقى البيوت العريقة دون تغييرٍ لعدة أجيال. في الحقيقة إن ما يطلق عليه ذكريات للطفل هي في واقع الأمر ليست سوى حكايات رددها على مسمعه الأقارب مرارًا حتَّى اقتنعَ بأنَّه يتذكرُها رغم أنَّها حدثت مع تاريخ مولدهِ تقريبًا.

كنتُ وأخي صبيَّينِ من أبناء المدن، ومثل معظم أقراننا قضينا جُلَّ حياتِنا في نفس البيت أو الشَّارع، ومن الطَّبيعي أن تكون لنا نفس مشاكلهم فيما يخص الذكريات المستعادة لسكننا الأول، عدا أنني وأخي تنقلنا أحيانًا والذكريات عن الزيارات التي قمنا بها لا تزال واضحةً للغاية.

أول ذكرى فعلية لي تعود لسن الثالثة تقريبًا، كان الوقت صيفًا وذهبت مع أخي للبقاء مع عائلة والتر بالمرز في فروغنال قرب سانغهيل(50) وهم أصدقاء مقربون لأمي، لهم صلة بشركة هانتلي وبالمرز(51)، حتَّى أنني أتذكر كيف زرنا لمعمل البسكويت في ريدنك، حيث أكلتُ البسكوت لحظةَ خروجه من الفرن.

كثيرًا ما كنَّا نبيتُ عند آل بالمرز، ولدي ذكرياتٌ سعيدة عن زياراتنا لهم، تلك الزيارات التي لطالما تطلَّعتُ إليها بحماس. أتذكَّر الجلوس على ركبة أحد الكبار، وهو يُمسكُ بيدي من أجلِ «كتابة» رسائلَ إلى أمِّي عن مهور شتلاند(52) والجِراء في الحديقة والسَّمك الذهبيِّ في البحيرة الاصطناعية عند نهاية المنزل، ومحاولتي إغراءها للتَّشبُّثِ بالطعم باستخدام الكلمات الودودة... أم الدود؟ كانت غرفةُ الأطفال بعيدةً في جناحٍ من أجنحة المنزل، وهناك امتلكَ أطفالُ آل بالمرز، وهم أكبر منَّا سنًّا، سُلطةً لا منازعَ فيها. كنَّا في رهبةٍ نوعًا ما من بنتهم الكبرى، غلايدس، التي حكمت غرفة الأطفال بكلِّ ما لسنواتها الإحدى عشرة من قوَّةٍ. عندما كنتُ في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من العمر قلتُ إنني أتذكَّر هذهِ الأحداث، وقيل لي إنَّني اخترعتها. لكن بعد سنوات من ذلك وجدتُ الرسائل التي كتبتُها إلى أمِّي من فروغنال وإلى جنبها ردود أمي، ممَّا أثبتَ لي صواب ذاكرتي.

لدى آل بالمرز أفكارٌ صارمة عن قُدسية أيام الآحاد الإنكليزية، تمثَّلَ ذلك بشكلٍ غريب للغاية؛ إذ كانوا يرتدون أفضل ثيابهم لهذا اليوم، ويغادرُ الرَّاشدون منهم المنزلَ متَّجهينَ إلى الكنيسة، بينما يتوجَّبُ على الصغار الخمول طَوال اليوم. لم يكن مسموحًا لنا باللعب ولا حتَّى بالركض في البيت، كنا نقضي معظم الوقت جلوسًا على كراسٍ غير مريحة في غرفة الأطفال. فيما عدا الإنجيل سُمِحَ لنا بقراءة كتاب واحد لسببٍ لا أستطيع استيعابه حتَّى اللحظة، ذلك الكتاب هو (رحلات جوليفر)، الذي يجبُ أن أوضحَ بأنه لا يصلحُ مطلقًا لقراءة الأطفال يومَ الأحد، حتَّى في نسختهِ المخفَّفة.

طفولتي المبكرة سعيدةٌ بقدر سعادة معظم الأطفال في تلك الفترة، عند الأخذ بعين الاعتبار كمية الإزعاج الذي توجب علينا تحمله؛ الثياب والأحذية ثقيلة وخانقة من شدة

الحر وغير مريحة أبدًا، فتوجب على كلَ ولدٍ وبنتٍ ارتداءُ ثيابٍ ضيقة للغاية حتَّى يبلغوا السابعة من العمر، إذ يُفترض أن ذلك يَقِيهم التحدبَ ويعوِّدهم على فرد ظهورهم بانتصابٍ. كانت كل الأدوية مريعة، وسادَ اعتقادٌ بأنَّ الدواء لا يعملُ ما دام لا يصيبكَ بالغثيان.

الرقمُ ١٦؛ هو رقمُ منزِلنا في شارع تايت، يمتدُّ الشَّارع إلى جادَّةِ المستشفى الملكي، وأعلى شارع تايت، لكن لكلِّ واحدٍ منهم رقمٌ منفصل. فيما بعدُ دُمِجَ الشَّارعانِ في شارعٍ واحد، وأُعِيدَ ترقيمُ كل المنازل، فأصبح رقمُ منزِلنا ٣٤. حتَّى أواخر الخمسينات ومطلع الستينات من القرن الثامن عشر، كانت غُرف المنازل أضيقَ مقارنةً بمداخلها؛ في ذلك الوقت أُعتُبِرتْ المساحةُ الكبيرة لقاعة المدخل والسلالم أهمَّ من مساحة الغرف. نُفِّذَ ذلك بعبثٍ في بعض المنازل المعاصرة لذلك النوع من التفكير، حيث احتلت القاعة والسلالم مساحة تصل إلى نصف مساحة المنزل، ومن المفترض أن يبهرَ ذلك الزُّوارَ ويمنحَهم الإحساسَ بالعظمة والرَّفاهية. لم تتطرفْ هندسةُ منزلنا إلى هذا الحد، لكن مساحةً كبيرة من الطابق الأرضي أُستُثمِرتْ في المدخل والسلالم، أو هكذا بدا لي يومذاك.

إلى يمين باب المدخل، فورَ الدخول إلى المنزل، تقابلُكَ غرفة مكتب والدي التي أنجز فيها معظم أعماله على طاولة كانت فيما مضى ملكًا لكارليل(53). طغى على تلك الغرفة لونا الأحمر والأصفر؛ فقد صُبغت الجدران باللون الأصفر الشاحب، وكانت الأخشاب مغطاة بطبقة من المينا حمراءَ اللَّون. على عمودٍ أحمر في واحدةٍ من الزوايا انتصبتْ نسخةٌ جبسيةٌ من تمثال هِرمِس لبراكسيتيليز(54). بضعُ لوحات صغيرة علِّقتْ على الجدران منها لوحة لسيمون سلمون(55)، ولوحة لمونتشلي(56)، والرسمة المذهلة لبراديزلي للسيدة باتريك غامبل(57)، لكن معظم مساحة الجدران شُغلت بنسخ من الكلاسيكيات الإغريقية واللاتينية والأدب الفرنسي ونسخ موقعة مقدمة من الكتاب المعاصرين. كانت هذهِ الغرفة موضع رهبة عندنا، قدسًا محرَّمًا، يُمنع تدنيسُهُ، وتُمنع إثارة أي ضجة فيه، ولا تمرُّ فيه إلاَّ على أطراف الأصابع. عندما يكون والدي في غرفة مكتبه لا يُسمح لنا بدخولها إلاَّ إذا دعانا إليها. حتَّى عندما لا يكون موجودًا في المنزل، لا بدَّ من تصريح رسمي، فلا يُسمحُ لنا بالدخول إلاَّ برفقة أحدِ الكبار. عندما نتمكن من اختراق قُدس الأقداسِ هذا، نهرع دائمًا إلى سلَّة نفايات الأوراق بحثًا عن كنوزٍ. غالبًا ما تكون السلَّة ممتلئة حتَّى نصفها بكتاباتٍ مهمَلة، لتقاتل جامعو التحف اليومَ في سبيل الحصول عليها. كما كانت هناك عُلبٌ ملونةٌ بألوانٍ مشرقة، حَوت السَّجائر من قبلُ، ولا تزال لها رائحةٌ بديعةٌ كرائحةِ البالغين. يبدو أنَّ سلَّة الأوراق تذهلُ كلَّ الأطفال، لطالما ذهب ولدي الصغير صوبَ السلَّة بحثًا عن العُلبِ الفارغة والطَّوابع الغريبة ومنشورات المبيعات وقطعٍ من خيوط ملونة وما شابه ذلك من كنوز.

سرقَ النَّهابونَ، من غرفة والدي، كلَّ ما وضعوا عليه أيديهم وهو في السِّجن ونحن في منفانا. لم يبالِ السماسرةُ بنوع الكنوز في ذلك المكان. نسخٌ مهداة من الكتب ومخطوطات كتب لا يمكن الحصول عليها إلاَّ من تلك الغرفة لا تزال تظهر من حين إلى حين في مزادات

البيع في إنكلترا وأمريكا، حتَّى بعض رسائل أمي إلى أبي سُرِقتْ وعُرِضتْ أمام العامة في غرف المزادات.

خلف تلك الغرفة توجد السلالم، وهي تواجه الباب الأماميَّ، وغرفة الطعام التي تطلُّ على الحديقة الخلفية، كم بدت فسيحةً عندي في ذلك الوقت. كلُّ البيت يبدو كبيرًا وواسعًا في عيني الطفل. مقابض الأبواب لا تصلها الأذرع، الأدراج الجانبيةُ التي لا يمكن الوصول إليها بحمولتها من الفواكه وغيرها من اللَّذائذ. كانت الشبابيكُ عاليةً للغاية فلا نستطيع الوصول إليها إلاَّ بالصعود على كراسٍ نتسلَّقها بمشقَّةٍ، وهناك فتحةٌ سحرية يخرجُ منها صوتٌ مخيفٌ هادرٌ، بينما يتحرك مصعدُ الخَدمِ من المطبخ.

طغى اللونُ الأبيض على غرفة الطعام، مع مزيج من الأزرق الشاحب والأصفر. كانت الجدران بيضاء وفيها كراسي شينبديل(58) مطلية باللون الأبيض، نُجِّدتْ بنسيج القطيفةِ الأبيض. ظلَّ السِّجادُ موضعَ قلقنا وعنايتنا خوفَ اتِّساخه، فقد كان هو الآخر أبيضَ اللَّون. إلى اليسار من المدخل ثمَّةَ خِزانةٌ زجاجية كبيرة معلقة على الجدار بعيدًا عن متناول الأطفال، تُعرض فيها مقتنياتُ العائلة من فضيات بضمنها إناء تعميد أبي وأخي، وزوج أباريق فضية مليئة بالزخارف مقدمة إلى السير ويليام وايلد، نُقش على واحدٍ منها باللُّغة الأيرلندية الغالية والثاني باللُّغة الإنكليزية، وإناء فضي وأشياء أخرى متنوعة. تعرَّضَ المنزلُ للسَّرقة مرتين، ومن المصادفات الغريبة التي لم أجدْ لها تفسيرًا أن الفضيات التي تعود لعائلة والدي تُركتْ دون مساسٍ في المرتين. كانتْ هناك نافذة مقوسة تطل على الحديقة في مؤخِّرة المنزل. والجانب الأيمن من الغرفة توجد فيه الخزائن التي رُفِعت عن الأرض بمقدار قدمٍ. وبالنسبة للطعام قيقدم للأطفال في غرفة الطعام ما لم تكن والدتي تقيمُ وليمةً، لأنَّ غرفةَ الأطفال بعيدةٌ للغاية عن المطبخ.

غالبًا ما أُكِّدَ على أن ديكورات البيت نُفِّذتْ من قبل أي. أو. غودين بمساعدة من ويستلر، ولكن ذلك ينطبق فقط على الطابق الأول والطابق الأرضي. طغتِ ما قبل الرفائيلية على الطابق الأول رغم تسرب كمٍّ من الأثاث الياباني إليه. أتذكَّرُ تحديدًا وجودَ كراسٍ من خشب البامبو باللَّونينِ الأسود والأبيض، وحفنة من نباتات البردي في أوانٍ يابانية طويلة الأعناق. كانت الجدران صفراء بلون الزبدة، وجزء كبير من الغرفة -أو هكذا بدا لنا كأطفال- شُغِلَ ببيانو جُدِّدَ طلاؤه، لا أتذكَّر أن هناك من داعب أوتارَه يومًا. كما واحتلَّتْ المنقوشات جزءًا كبيرًا من الجدران وبعضها من صنع ويستلر وقد أهداها لوالدي. قُبالةَ الموقد عُلِّقَ بورتريه كبير لوالدي نفَّذه الرَّسَّامُ هاربر بيننتغون، كانت رسمةً سيئة، لا تتناسب مع باقي جدران الغرفة، عادت الآنَ إلى موطنها الأصلي.

ابتكر ويستلر فكرة وضع ريشتين كبيرتين على سقف الغرفة، ثم وضعَ كراسٍ صغيرة ومزهريات أسيوية وطاولات مناسبات مليئة بقطع فنية صغيرة، وأنتيكات في وسطها، كنا لا نقتربُ منها رغم توقنا؛ فما أسرع كسرُها. لذا رغمَ عدم منعنا من دخول غرفة المرسم

فإنّنا لم ندخلها إلاَّ بدعوة من أجل إلقاء التحية على الضيوف، تلك عادة مفروضةٌ على كلّ الصبيان الصغار الأصحَّاء، فيما عدا ذلك تجنبناها كلَّما أمكنَنا ذلك.

في أحد الأيام أقامت عائلتنا حفل استقبال في شارع تايت، ارتدينا أنا وأخي أزياء تنكرية فاخرة؛ بناء على اقتراح أبي أُلبِسَ سيريل مثل لوحة (الفقاعات) لميلياس، واختار لي زي اللورد فانتورلي الصغير(59) على الرغم من مطالبتنا بارتداء زي البحارة، لمْ يسبق لأبي رؤيتنا في هذه الأزياء، فأرسل في طلبنا. كان هذا أكثر مما يحتمله أي طفل، لذا تسللنا إلى غرفة تدخين أبي المقابلة لغرفة المرسم وأزلْنا كل قطعةٍ من ملابسنا، واقتحمنا غرفة المرسم عراةً، لا بدَّ وأننا كنا في السادسة والسابعة من العمر يومئذٍ، لكنَّ صغرَ سننا لم يحلْ دونَ انزعاج الضيوف الفيكتوريين. أُرسِلنا إلى غرفتنا مجدَّدًا، لكن والدي فهم سبب تصرفنا، وتخلَّى عن فكرة تلك الأزياء المُهينة، وسُرعان ما بدأ العمل على أزيائنا الجديدة. مُنِحنا زي البحارة الذي نتوق إليه، زيٌّ لا يشبه أزياء الأطفال العادية بل زي بحارة حقيقي، خاطَهُ خيَّاطٌ مختصٌّ بصناعة ملابس البحارة، زُيِّنَ الزيّ بوشاحٍ حريري وسكين جيبٍ حقيقيٍّ في نهاية حبلٍ. حضرنا الحفلَ بملابسنا الغالية، حسدنا كل الأطفال الصغار المساكين الذين أجبروا على لبس زي كيوبيد، أو زي البحارة الأزرق للأطفال، واللورد فانتورلي الصغير. كنا في غاية الفخر بهذه البدلات، وواحدة من أقسى العقوبات التي كانت تطبق علينا تمثَّلت في حرماننا من لبسها.

كانت غرفة تدخين أبي بعيدةً عن مكتبه، وهي الغرفة الأكثر إثارةً للإعجاب في المنزل كله. بدتْ لنا مظلمةً وكئيبةً، أفترض أنها كانت معتمة فقط عند مقارنتها بباقي غرف المنزل المضيئة. كانت الجدران مغطاة بنوع غريب من ورق الجدران المعروف في ذلك العصر واسمه ورق لينكروستا والتون، وهو من تصميم ويليام موريس(60) باللون الأحمر الغامق والذهبي الباهت، عندما تلكزه بإصبعك ينفصل ويتقشَّر، وربما تدخل إصبعك في حفرة منه، وهذا ليس بالأمر المشجع. أغلبُ ديكور الغرفة من شمال إفريقيا، أرائِكُ شرقية وتحفٌ عثمانيةٌ ومصابيحُ مغربيةٌ وتعاليق ملئت بها الغرفة. وعلى الشباك علقت ستائر مطعمة بقطع من الزجاج، وكانت مصدر سعادة لا ينتهي لي ولسيريل. أنا على يقينٍ بأنَّ والتر هاريس صمَّمَ الغرفةَ. اعتاد والدي الجلوس في غرفته ليدخن ساعات وساعات وهو يتحدث مع أصدقائه، بما أن التقاليد الفيكتورية تمنع التدخين في غرفة المرسم. كان والدي يدخن بالفعل في غرفة الطعام، واُعتُبِرَ ذلك جرأةً كبيرةً وانقلابًا على تقاليد الزمن(61)، حمرة الغروب هي الطابع المهيمن على غرفة التدخين، الفوَّاحةِ برائحة التبغ.

الطابق الثاني حوى غرفة نوم أمي في المقدمة وغرفة ملابس أبي في الخلف. هذه الغرفة تتحولُ عند الحاجة لغرفة نوم إضافية، بالذات حينما يزورنا أقاربنا من أيرلندا.

غرفة أمي تتناقض بشكل غريب مع غرفة المرسم في الطابق الأول؛ كان لها ولع فيكتوري بالستائر الكبيرة المصنوعة من الشيفون وأغطية الكراسي المشغولة يدويًا بالإبرة، والتي

كانت تصنعها بنفسها. جزء كبير من الجدران شغل بمكتبات من ماركة شينبديل تحوي كتبها المفضلة، تلك المكتبات يمكن أن تفكَّ وتُطوى لتأخذها معها في رحلاتها. بعد الشعراء الإنكليز كانت تفضِّلُ قراءة الشعر الإيطالي، وقد حفظت قدرًا عظيمًا من أعمال دانتي عن ظهر قلب، وكذلك من بتراخ وتاسو.

خُصِّصَ الطابقُ العلوي لنا نحن الأطفال. ثمَّةَ بوابةٌ على الدرج كما هو معتاد لمنعنا من النزول. توجدُ غرفتان في هذا الطابق، غرفة المساء إلى اليسار وغرفة النهار إلى اليمين وبينهما الحمام المُضاء بضوء النهار، الذي يُفترض أن النَّهابونَ قد دخلوا المنزل من خلاله.

غرفة النهار تحتوي على منصتين كبيرتين بُنِيَتا لتكونا أعلى من الأرض بقدم وعمق كل منصة أربعة أقدام، كل منصة تتخذ لها جانبًا من الغرفة. المنصة الكبيرة، التي تقع على يمين الغرفة، ملك لسيريل، أما الصغيرة التي تحت النافذة فكانت لي. في تلك المنصتين كنا نبني قلاعنا وننصب مدافعنا ونسير من جنودنا جيشًا مصبوبًا من الرصاص. لطالما حزَّ بنفسي اضطراري لتفريغ نصف منصتي كلَّ ليلةٍ لتُسدلَ الستائرُ بينما يترك سيريل منصته على حالها. دمَّرْنا قوات بعضنا البعض برمي قذائف البازلاء من المدافع، ابتكرَ أخي نظامًا غريبًا لأسْر الجنودِ، يبدو أنَّني لم أتمكَّنْ من إجادته أبدًا، إذ بقيتُ أخسر جنودي حتَّى ترتفع صيحات اعتراضي ليأتي أحد الكبار ويفرض السلام بإعادة جنودي لي.

أعتقد أنني وأخي مضينا مثل أي أخوين؛ الحب الأخوي واحد من أندر أنواع الحب في الحياة العائلية. في مسرحية (أهمية أن تكون أرنست) تقول غويندلين لسيلي: «الآن وبعد أن فكرت في الموضوع، فأنا لم أسمع أبدًا برجل يأتي على ذِكر أخيه، الموضوع يبدو غير لائق لمعظم الرجال». أعتقد أن أخي كان يغار مني، رغم أن له شعرًا مجعَّدًا، وقد فضله أبوايَ عليَّ، وهو أكثر قوة وأوفر صحةً مني، تفوَّق عليَّ في الألعاب مذ كنت أصغر من أن أجيدها. ربما يكون مرد ذلك النفور الطبيعي بين الإخوان لعادة الكبار غير المحتملة عند المقارنة بين الأطفال والإشارة لنقاط الضعف لديهم حتَّى يصير الصغير واعيًا بذلك، إلى درجة تجعل الأطفال يتقبلون الأمر في النهاية كقَدَرٍ محتوم لا فرار منه.

في غرفة الأطفال لطالما حاز أخي -أو هكذا بدا لي على الأقل - على أفضل الألعاب، حتَّى لو تشاركْنا اللُّعبةَ نفسَها، يسلبُني حقِّي باللَّعب بها. لم تكن هناك مصابيح يدوية تلك الأيام، ولكننا في إحدى المناسبات مُنحنا فانوس عين الثور(62) يضاء باستخدام مصباح زيتي صغير، وعند زيادة الشعلة يمكن أن يصبح الضوء أقوى ويتخذ لونًا أحمر أو أخضر، ومع ذلك كان من الصعب تعديل الشُّعلةِ، فبمجرَّد أن يُضاءَ الفانوسُ سيصبحُ أشدَّ سخونةٍ من أنْ يُمَسَّ. ولو استخدمنا مناديلنا لاحترقت، طُلِيَ بالمينا بشكلٍ كاملٍ، والرَّائحةُ التي يثيرُها احتراق المينا نفَّاذة بشكلٍ محبَّبٍ. كانت لعبة غير عملية وخطرة للغاية، ولا أعرف لماذا سُمح لنا بالحصول عليه، لكنّه باتَ مصدرًا لبهجة هائلة عندنا. لعبنا به لعبة القطار في الظلام واستخدمناه للإشارة. لعبة القطار في أبسط أشكالها تتمثل في سير واحد منا حول

الطاولة وهو يصدر ضجة تحاكي صوت محرك القطار، بينما يؤدِّي الآخر دور الحارس الذي يحمل ضوء الإشارة. كنت أنسحب من هذه اللعبة لأن أخي كما هو معتاد يأخذ المصباح عند أخذ دور الحارس، ولكن عندما يصبح هو القطار يعود لأخذ المصباح، إذ من سمع بقطار يسير دون ضوء؟ لذا فإن حصولي على الفانوس ممنوع طَوال الوقت إلا في النهار. بعد سنوات من ذلك، في إيطاليا، أعطاني خالي فانوسًا مماثلاً هدية لعيد الميلاد، لكن لم يُقدَّر للهدية أن تصمدَ طويلاً، إذ تملَّق لي أخي وترجاني، بل وابتزني لبيعهِ المصباح بحوالي ثُلث كلفته وعدنا لنفس الحال مجدَّدًا.

من الأشكال الأخرى لعدم العدالة بيننا؛ وأنا لا ألوم على ذلك أحدًا سواي؛ أحبَّ أخي تناولَ عِرق السوس بينما كان شربه يصيبني بالغثيان. يكمن الظلم في أن البنس الواحد يَشتري لأخي مشروبًا في كيس بلاستيكي حجمه خمس إنشات يدوم عنده طَوال الصباح، بينما البنس من مصروفي لم يكن ليشتري لي سوى أربع كرات من الحلوى على أحسن حال، وحتَّى مع كلِّ الحرص لن أستطيع الاحتفاظ بها لأكثر من ساعة.

وصفتُ كل البيت، في شارع تايت، ما عدا القبو الذي يحتوي مطبخًا كبيرًا في الخلف وغرفة نوم الخدم في المقدمة ومخزنًا للمشروبات. مثل معظم الأطفال من ذلك الجيل، كانت الطاهية صديقتنا المميزة، بوسعنا الاعتماد عليها في أيِّ طارئ. هي والمربية تختلفان على طريقة تربية الأطفال؛ آمنت الطاهية بوجوب تدليل الطفل لذا من الطبيعي أن تكون حليفتنا. هناك سلسلة من الخدم، ومنهم آرثر الخادم والمرافق الشخصي. لا أعرف أين كان ينام، أعتقد أنه امتلك حجرة صغيرة في مكان ما بين الطابق الثاني والطابق العلوي. قضينا وقتًا كبيرًا في المطبخ، نلعب بأي شيء يُطبَخُ لنعجنه مثل الخبز. كل خبزنا كان يُخبَزُ في المنزل في كوخ صغير يحتوي فرنًا، حيث يُسمح لنا بصناعة قطع صغيرة لمحاكاة حفلات الشاي بألعابنا في غرفتنا، أقمنا الكثير من تلك الحفلات، وعادةً ما حضرها كلا والدينا.

لعبنا أغلب الوقت في حدائق المشفى الملكي، فهي على مرمى حجر منا، وفي الصيف في منتزه باستيرا، وأحيانًا في هايد بارك. يمكن الوصول إلى هايد بارك بالمشي إلى ساحة سولون، ثم أخذ باص إلى جسر نايتس. كانت تلك مغامرة فريدة؛ إذ كان الباص يسحبه حصان واحد إلى شارع سولون كل اليوم، ليس هناك مساعد للسائق، يتوقف السائق ليقل الركاب المحتملين ويسحب حبل الجرس للتنبيه، تُكلِّفُ الرِّحلةُ نصفَ بنسٍ، وتوضع الأجرةُ في صندوق عندَ مؤخرة الباص، ولا يوجد من يراقب فيما لو دفعت أم لا ما عدا رفاقك في الباص، وكان من مصلحتهم رؤيتك تدفع وإلا سيتوقّف الباص.

ألعابنا في الحدائق كانت غاية في البساطة، لدينا أقواس وسهام وبنادق ولا شيء من الألعاب المعقّدة لأطفال اليوم. كان علينا الاعتماد على مصادرنا واللعب بأغصان الأشجار ولعب شرطي وحرامية ولعب الغميضة بالاختباء بين الشجيرات مع الصبيان الآخرين. بقيت الفتيات منعزلات على الدوام، يلعبن ألعابهن الأنثوية، ومعظم لعبهن يتمثل في

الحجلة والوثب بالحبل. كل المتقاعدين بالقرب من حدائق المشفى الملكي في تشيلسي كانوا أصدقاءنا، صرنا نحفر في حدائقهم، استمعنا لقصصهم عن الأيام الخوالي، تلك التي لا يملَّونَ سردها على أيِّ مُصغٍ. كانت هناك أيام عظيمة عندما نُدعى لشرب الشاي من أكواب كبيرة وأكل شرائح من الخبز والزبدة أو الكعك. واحد بالذات لا أزال أتذكره لأن عمره كان حوالي مئة سنة، عمل قارعًا للطبول في معركة واترلو، عاد بعد المعركة إلى إنكلترا على متن نفس السفينة التي ركبها دوق ويلينغتون(63).

كنا نلعب في البيت حين يسقط المطر، وبعد حلول الظلام دون الكثير من المراقبة؛ نلعب في غرفتنا وأعلى وأسفل السلالم، في القاعة وفي غرفة الطعام، وغالبًا ما نتمكن من الإفلات بسوء تصرفنا. مرة عندما كانت مربيتنا خارج المنزل، اكتشفنا سيفًا يعود لوالدي وصرنا نلعب به، أخذ أخي السيف بينما صار الغمد من نصيبي، مما جعلها معركة غير عادلة على الإطلاق. لم نكن قد تجاوزنا الثامنة أو السابعة من العمر، ومن العجيب أن تلك اللعبة لم تتسبب بكارثة، وذلك لأنني بعد أن اكتشفت عدم كفاءة سلاحي ركضت هاربًا ولحقني أخي، حتَّى تمكَّن من لكزي بطرف السَّيف في ظهري فانفجر الدم متدفقًا، بدافع من الألم والخوف اندفعت إلى المطبخ كي أحتمي بالطاهية ثم عُولِجَ جرحي. صار أخي خائفًا هو الآخر، ظل يصيح بصوتٍ عالٍ. كان الجرح عميقًا للغاية، ولا تزال عندي ندبة من أثر الحادث.

كان المنزل غالبًا ما يمتلئ بمشاهير تلك الأيام في عالم الأدب والفن والمسرح، وربما كان هذا السبب في منعنا من اللعب في غرفة المرسم، فالنَّاضجونَ من ذلك الجيل كانوا في غاية الجِدية. كانت هناك استثناءات بالطبع، لا سيما والدي، كذلك الحال مع الأيرلنديين الذين زاروا أبي، لكن كانت هناك الكثير من الزيارات لأمي من معارف جِدِّيين تربطها بهم صلات قرابة عبر الزواج. لم تتفهَّم أمي دائرة أصدقاء أبي وعلاقاته ولم تتقبَّلها. أعتقد أنني وأخي شعرنا بنفس نفورها منهم، أفترض أننا رأينا أن هناك شيئًا من انعدام الاحترام يترافق مع كون المرء أيرلنديًّا، لا سيما ذلك النوع من الأيرلنديين.

كانت أمي تستقبل أشخاصًا متنوعين للغاية في اهتماماتهم مثل هنري إيرفنغ، السير ويليام ريتشموند، سارة برنارد، جون سارجنت، جون روسكن، ليلي لانتغراي، مارك توين، هربرت بيريوم تري، روبرت براوننغ، إليغرنون سوينبرن، جون رايت، الليدي دي غراي، أيلين تيري، وآرثر بيلفور(64).

بدأ أبي يصل إلى قمة شهرته ونجاحه، وتوالت علينا الدعوات إلى كل مكان لا سيما في عيد الميلاد وعيد الفصح، وكنا نقضيها في الحفل الذي يقيمه في منزله السير إدوارد برن جونز(65)، وحفل منظمة جرانج(66) في كينغستون، حيث وقعتُ في الحب أول مرة وأنا بعدُ في السابعة من العمر؛ حدثَ ذلك في حفلة عيد الفصح، أُخْفِيَ البيضُ الملوَّنُ في كلِّ أنحاء الحديقة، ومن يعثر على بيضة يسلِّمها ليحصل على هدية صغيرة. وهكذا وجدت

نفسي أسعى للحصول على تلك الكنوز مع بنت صغيرة بنفس عمري تقريبًا، واسمها روزماري، ترتدي فستانًا حريريًا أزرق طُبِعَ عليه رسمة أكورديون، وكان أكثر شيء مبهر رأيته في حياتي، ما من نرجسة أكثر جمالاً منها ولا قطة أكثر حيوية منها. بعد الشاي أدَّت رقصة صغيرة وهي تحمل طرف تنّورتها، وحين غادرت الحفل قبّلتني وقالت لي: «أنت لطيف»، لذا بالطبع غصت في حبها بعمق. لعدة شهور بعد ذلك كنتُ أرقد مستيقظًا في الليل، أتخيَّلُ نفسي وأنا أنقذها من خطر مُميتٍ، أُزيح الأسودَ عن طريقها بيدي العاريتين، وأنقذها من الكوارث ومن حطام السفن، وأقاتل أي شيء يعترض طريقها. لم أرَها مجدَّدًا أبدًا ولم أعرف أبدًا اسمها الثاني.

كان شارع تايت خليطًا اجتماعيًا غريبًا في تلك الأيام؛ فقد كان هناك مرسم لكلٍّ من ويستلر وسارجنت، عاش الفنان جي بي جاكومب(67) في ذلك الشارع أيضًا. من سخرية القدر أن يعيش في المنزل رقم ٤٦ السيد جاستك ويلز الذي حكم على والدي في أولد بيلي ١٨٩٥.

أوسكار وايلد في قمّة مجدهِ

من ناحيةٍ أخرى؛ يمضي الجانب الغربي من الشارع إلى ممشى براديس الذي كان في ذلك الوقت واحدًا من أكثر المناطق العشوائية في تشيلسي؛ عبارة عن صف من المنازل المتهالكة الصغيرة بأفنية قذرة حيث ترتفع أصوات الشجارات كل ليلة، واعتدنا أن يتطور الأمر ليصبح أكثر جدية، فتأتي قوة من الشرطة لتنقلهم إلى ردهة الحوادث في مستشفى فيكتوريا. كان المشهد من غرفتنا الليلية واضحًا للغاية من خلال الشرفة الصغيرة، وأنا بالذات أتذكر حادثة أصيبت فيها امرأةٌ طويلة شاحبة الوجه، لُفَّ رأسُها بشال، بعد أنْ طعنها زوجُها في نوبة غضبٍ أثناء سُكْرِه.

لم يكن هناك أي اعتبار للحالة النفسية للطفل في تلك الأيام؛ المتعارف عليه أن الطفل إما يكون غبيًا أو ذكيًا، متحضرًا أو متخلفًا، جيدًا أو سيئًا. كنت وأخي مرعوبين غاية الرعب من ممشى براديس، مع مرور الأيام خُيِّلَ لنا أنه مكان تستوطنه كائنات مرعبة تزحف على جدران البيوت في الليل، وتطرق أو تخرمش على شبابيك غرفتنا لتدخلها، بوسعي أن أرى بعض هذه المخلوقات الآن، كائنات رمادية بقرون ضخمة وأعيُنٍ فسفورية، غالبًا ما تظهر قرونها فقط فوق حافة النافذة. توجَّبَ على مربيتنا أن تأخذنا هناك لنمشي في المنطقة في صباح يوم هادئ لترينا أنه ليس سوى شارع عادي، وليسَ جهنَّم المتجسدة على الأرض كما تخيّلناه في عقولنا. المرات الوحيدة التي لمحنا فيها المكانَ ظل نظرنا معلقًا على الأرض ونحن نركض مسرعين لتجاوز الشارع. كان يجب احتواء مخاوفنا لئلاَّ نؤمنَ أن الضِّمادات تلتفُّ على رؤوس كل النِّساء هناك، والخمرَ تلعبُ برؤوس كلِّ الرِّجال، والأطفالَ غاضبونَ، عراةُ الأقدام وقذِرون.

أما الآن فقد توالت الشخصيات على شارع تايت وممشى بردايس وتغيرت الأحوال. براديس الآن واحد من أكثر الأماكن حيوية في تشيلسي. كل البيوت الصغيرة تلونت بدرجات من الأزرق والأحمر والأخضر والأصفر، والشبابيك كلها تقريبًا مزينة بالزهور، حتَّى سكان المنازل صاروا يرتدون ألوانًا مدهشة. تحولت المنطقة من مجموعة عشوائيات إلى مستعمرة للطلاب والفنانين الفخورين بجمال شارعهم. حتَّى شارع تايت تغير، العديد من تلك المنازل هجرها سكانها خلال قصف لندن عام ١٩٤٠، استولت عليها بلدية تشيلسي وعوّضتهم بشقق، كما تغير رقم منزلنا من ١٦ إلى ٣٤ وتوالت عليه منذ ذلك الحين عدةُ عوائل.

فقط خلال تلك السنوات المبكرة عرفت والدي، فبعد عام ١٨٩٥ لم أرَه مرة أخرى. معظم الأطفال يعشقون آباءهم، ونحن نعشق أبانا. كان طويلاً للغاية ومميزًا، وفي أعيننا الكليلة عن رؤية أي عيبٍ كان بديعَ الجَمال، لا وحشًا كما حاول تصويره بعضُ الناس ممَّن لم يعرفوه مطلقًا ولم يروه أبدًا. كان رفيقًا حقيقيًّا لنا، وقد تطلَّعنا بحماس دائم لزيارته لنا في غرفتنا. معظم الآباء في تلك الأيام اعتادوا عزل أنفسهم عن أطفالهم، مُصِرِّينَ على أن يقدم لهم الأطفال احترامًا كبيرًا لم يستحقوه. كان أبي مختلفًا؛ فهو بطبيعته طفوليٌّ للغاية، لطالما لعب معنا بكل حماس وتلقائية في غرفة لعبنا، يصير مرة أسدًا ومرة حصانًا، ولا يبان

عليه شيء من طبيعته الناضجة، ولم يكن هناك أي شيء مصطنع في طريقة لعبه، في إحدى المرات جاء حاملاً لعبة تتمثل بعربة لنقل الحليب يجرها حصان بشعر حقيقي، يمكن فك كل العقد والحبال التي تشد العربة، كما أن العربة يمكن ملؤها وتفريغها، عندما اكتشف أبي ذلك نزل السلالم على الفور وعاد بدلو من الحليب ليبدأ بملء العربة، تحلّقنا حوله عند الطاولة ودلقنا الحليب في كل مكان، حتَّى وصلت مربيتنا وأنهت اللعبة.

مثل باقي الآباء كان يُصلِح ألعابنا، وقد قضى مرة ظهيرة كاملة تقريبًا في تصليح قلعة خشبية حطمناها خلال حروبنا، عندما انتهى منها أصرَّ على كل شخص في المنزل للقدوم فيروا كم أحسن صنعًا في ذلك منتظرًا سماع المديح. كما لعب معنا بقدر كبير في غرفة الطعام، التي كانت إلى حد ما ملائمة للعب أكثر من غرفتنا، حيث توجد الكثير من الكراسي والطاولات التي يمكن القفز بينها، والكثير من المساحة كذلك لنصعد فوق ظهر بابا.

عندما يتعب من اللعب يبقينا هادئين بقصِّ الحكايات الخيالية على مسامعنا، أو قصص المغامرات التي لا ينفدُ مخزونه منها. كان معجبًا كبيرًا بجول فيرن وستيفنسون وكبلغنغ في أعماله الخيالية(68). آخر هديةٍ قدَّمها لي هي (كتاب الأدغال)، وقدَّم لي قبلها (جزيرة الكنز) وكتاب جول فيرن (خمسة أسابيع في المنطاد)، أضحتْ تلك أول الكتب التي قرأتها في حياتي. قصَّ علينا كلَّ الحكايات الخيالية التي ألَّفها بنفسه، بعد تشذيبها لتناسب عقولنا الصغيرة، وقصصًا كثيرةً غيرها. كانت هناك قصة عن الجنيات التي تخرج من علبها في الليل لتلعب وترقص وتجول في المناطق الفارغة، سأله سيريل مرة لماذا تدمع عيناه حين يحكي لنا قصة العملاق الأناني(69)؟ وأجاب إن الأشياء الجميلة تدفعه للبكاء.

أخبرنا عن بيت العائلة في مويتارا حيث سيأخذنا يومًا ما، حدثنا عن حزن سمك الشبوط العظيم في بحيرة كوريب، الذي لا يتحرك أبدًا من قعر البحيرة إلا إذا غنيت له أغانٍ أيرلندية مثل الأغاني التي تعلمها من أبيه، وكان يغني لنا تلك الأغاني. لا أعتقد أنه أجاد الغناء حقًا، لكن صوته بالنسبة لنا ظلَّ أجمل صوتٍ في العالم، هناك أغنيةٌ معينة بالأيرلندية تقول أنا نائم لا توقظني، سمعتُها مجدَّدًا عندما كبرت وحاولت تعلم الأيرلندية بنفسي. ألَّف لنا أغنياتٍ وقصائدَ لها أثرُ السِّحرِ علينا حتَّى لو لم نفهم معناها. العديد من تلك القصائد لم تنشرْ أبدًا لكنه استمرَّ بكتابتِها. عندما شببت عن الطَّوق التقيتُ بسيدة عرفت والدي صبيةً، أدهشها مرةً هي وأصدقاءها بقصص حكاها لهم، وما إن عادت إلى البيت حتَّى سجَّلتْ تلك القصص مثلما رواها بالضَّبط على قدْر ما خدمتها ذاكرتُها، وأعطتني نسخةً مما كتبتْهُ، وارتأيتُ وضعها في ملحق الكتابِ لكيلا تضيعَ(70).

عاش والدي في عالم من صُنعِهِ، بعيدًا عن الواقع، عالم لا شيء فيه مهمٌّ بقدر الجَمال بكلِّ أشكالِهِ، سبَّبَ ذلك رُعبًا للمحافظين، هذا الرعب قضى عليه ودمَّره في النِّهاية.

يظهر والدي بأفضل أحواله في رحلاتنا إلى الشَّاطئ؛ إذ كان سبَّاحًا قويًّا ويستمتع أيَّ متعةٍ بالإبحار والصيد، واعتاد أن يأخذنا معه عندما لا تكون الرياحُ عاليةً. لا أعتقد أننا أحببنا الإبحارَ، عن نفسي كنت قلِقًا للغاية من تقلُّب السَّمك على سطح المركب، فضَّلتُ على ذلك مساعدة والدي في بناء قِلاع الرمل، وقد برع للغاية في صنعها وبنى قلاعًا طويلةً عظيمةً تحوي خنادقَ مائيةً وحامياتٍ وساحاتِ حربٍ، عندما ينتهي يُخرج بضعة جنود معدنيين من جيبه ليحرسوا جدرانِ القلعة. أتذكَّره جيِّدًا يرتدي سُترةَ (نورفلك) وسِروالَ (الكينكر) (71) وقُبَّعةً رماديةً كبيرةً للغاية اشتراها من الولايات المتحدة الأمريكية على الأغلب، يمشي بلا حذاءٍ ولا جواربَ طويلةٍ، ونحن نرتدي الزِّيَّ نفسَه تقريبًا. لم يخطر على بال الآباء في تلك الأيام أن أفضل زي للأطفال على البحر وفي الجو الحار هو سِروال سباحة، فقد كانوا خائفين للغاية من أن يبردَ الأطفالُ أو يُصابوا بضربةِ شَمسٍ.

في لندن كان والدي يحمل دائمًا عصا خشبيةً طويلةً برأسٍ ذهبي، طولها حوالي ثلاثةِ أقدام وستَّةِ إنشات، وتلك عادةٌ بين المتأنقين في حينها. كنت مولعًا بالعصا وأركض لآخذها منه عندما يعود إلى المنزل، طلبتُ منه أن يعطيني إياها عندما أكبر، فرد إنه سيعطيني إياها ما إن أُصبح بطولها، لذا في المرة التالية ألقيت عليه التحية بعد ربطي مجموعة كتب بكاحلي لأصبح أطول من العصا. غمرَ أبي الرضا لكنه رفض إعطائي عصاه، وعوَّضني عن ذلك بنصف جنيه ذهبيٍّ انتقل إلى حصَّالة نقودِنا رغمًا عني، بقيَ ذلك مصدرًا لإحباطنا حتَّى اكتشفنا أن صندوقَ المدَّخراتِ ليسَ منيعًا ضد السَّكاكين.

حادثة العصا واحدة من آخر ذكرياتي عن أبي، لا بد أنها حدثت في كانون الثاني/يناير ١٨٩٥ خلال عطلة عيد الميلاد.

واحدة من ذكرياتي الواضحة عندما أخذني أبي لرؤية مسرحية للأطفال في مسرح هايماركت في نيسان/أبريل ١٨٩٤. كان اسمُها (مرة عبر التاريخ)، تُعيد تمثيل مجموعة من قصصِ الأطفال من بينها (عازف النَّاي) و(ملابس الإمبراطور الجديدة). مثَّل هربرت بيربوم تري الأدوارَ الرئيسيةَ، وقد أخذني أبي لرؤيته في الاستراحة. أُخبِرتُ أن تري سألني -ربما لعدم وجود موضوعٍ للكلام- فيما لو رأيت مسرحية (امرأة بلا أهمية)؟ أجبته، وأتمنى أن ذلك ليس حقيقيًا: لا يجدر بي رؤيتها لأنَّ أمي قالت إنَّ المسرحية تحتوي على مشاهد لا تناسب الصِّغار. وإلى اليوم لا أدري من أين جئتُ بهذا الكلام.

خلال ذلك الوقت من طفولتنا، كنا نقضي ردحًا طويلاً في مقاطعة باباكومب قرب توركاي مع الليدي ماونت تمبل، وكانت صديقة لوالدي ولجماعة ما قبل الرفائيلية. صُمِّمَ بيتُها -المسمى منحدر باباكومب - من قبل روسكن، بينما تولى ويليام موريس وبرن جونز أعمال التزيين الداخلية. في كلِّ غرف المعيشة علقت لوحات لبرن جونز وروزيتي(72). هذه اللوحات موجودة الآن في معرض تايت حيث تبرعت بها الليدي تمبل. المنزل بناءٌ هائل الحجم، ضخم للغاية، ولا يتبع نمطًا واحدًا في التَّصميم. الليدي لها شقق خاصة منعزلة كليًا

عن بقية المنزل، وأغلقت مداخلها عدا مدخل واحد يقود إلى الباب الأمامي. قضت معظم وقتها هناك، ولم يكن بوسع أحد الدخول إلى هذا الجزء من المنزل دون دعوة. الغرفة الرئيسية هي غرفة مَرسم عملاقة، بني جزء منها فوق ممر مقنطر لسكة نقل، تقع الغرفة عند نهاية البيت ومدخلُها بعد سلالم قصيرةٍ، في الغرفة ثلاثة شبابيك، شُباك لكلِّ جدار. لذا عندما تشرق الشمس تكون الغرفة غارقة في النُّور. سُمِّيتْ هذه الغرفة (أرض العجائب) لأنها كما قيل لنا قد زينت بالأصل بديكورات من كتاب (أليس في بلاد العجائب). كل غرف المنزل الباقية حملت أسماء أزهار وفقًا لنمط ورق الجدران فيها، غرفة الأقحوان، غرفة النرجس، غرفة زهور الربيع، غرفة شقائق النُّعمان، زهرة القطيفة وهكذا، وكلُّ غرفة يُكتب اسمها على الباب. عرفنا أوقاتًا سعيدة في باباكومب، وحين كنا لا نزال في المدرسة التمهيدية كنا نقضي أكثر العطل هناك، الحديقة الخلابة الممتدة من المنحدر حتَّى منتصف الطريق إلى البحر، لم ينمو الكثير في هذه الحديقة ما عدا اللبلاب وكاسر الحجر وزهور الغابة، وقد كانت بالفعل أقرب إلى غابة صغيرة منها إلى حديقة، كانت أرضًا مثالية للعب بالنسبة للأطفال، حيث امتلأت بأماكن الاختباء ولم يكن هناك شيء قابل للتلف أو الكسر.

الليدي ماونت تامبل هي أخت لورد تولماشي الأول وتربطُها قرابةٌ بعيدةٌ بأُمِّي. كانت امرأةً طويلة للغاية وسيدة جليلة، عرفتها وهي متقدمة في السن ووجدتها ذات طبع شرس وذاكرة متحيزة. عندما عدت إلى باباكومب مرة أخرى بعد عشر سنوات تقريبًا، بعد وفاتها بزمن قصير، بدا أنها ظلت حتَّى وفاتها بلا تغيير عدا كونها صارت آخر أيامها مقعدة على كرسي في غرفة أرض العجائب في معزل تراقب الأمواج وهي تصعد وتهبط على الخليج وتراقب شروق الشمس. عندما توفيت وضُعِت نافورةٌ تذكاريةٌ لها في المنزل ليس من قِبل البلدية ولكن بحملة تبرعٍ من ساكني الأكواخ والصيادين. المنزل الآن فندق فخم، وقبل الحرب الأخيرة مررتُ بالسيارة عبر باباكوم وتوقفتُ على قمة التل، ولم أتقدم أكثر لأنني أردت أن أتذكر المنزل مثلما عرفتُه في تلك الأيام الخوالي.

كان ذلك أول منزل في غرب إنكلترا يحتوي على تدفئة مركزية، امتدت إلى الممرات والغرف حيث كانت مطلوبة أيام البرد الشديد، كان الجميع خائفين من التدفئة وذاك من حقهم، فهيَ بدائية للغاية وليست آمنة بأي شكل من الأشكال، وعلى الدوام تطرفت درجة الحرارة بين الانخفاض حدّ التجمّد أو الارتفاع ليصبح البيت حارًا جدًا.

عندما كان أخي في التاسعة وأنا في السابعة والنصف أُرسِلنا إلى مدارس تمهيدية، وذلك في أيَّار ١٨٩٤. مدرسة أخي كانت ببساطة مدرسة تمهيدية للبحرية، صُمِّمَتْ على ما يبدو كمكانٍ أسبرطيٍّ(73) بلا كادر داخلي على الإطلاق؛ ما عدا الطهاة على ما أفترض. توجب على الصبيان أنفسهم ترتيب أسرَّتهم وتفريغ الفضلات (لم يكن هناك دورات مياه في المدارس تلك الأيام)، وتوجب الحفاظ على المكان نظيفًا ومرتبًا بالعموم. عبر ما أخبرني به أخي، أستطيع الاستنتاج أنه أعجب بمدرسته، رغم أنه لم يتعمق في التفاصيل كثيرًا. أما أنا فأُرسِلتُ إلى مدينة برودستير في مدرسة قرية هيلدرشام، مدير المدرسة هو القس إج.

سي. في. سنودن، ولا تزال هذه المدرسة مزدهرة إلى الآن. خلّف السيد سنودن ولدَه، الذي كان زميلي في المدرسة، والآن صارت الإدارة إلى ابنه. أي أن المدرسة منذ ثلاث وستين سنة لم يتولَ إدراتَها سوى ثلاثة مديرين من العائلة نفسها.

كان السيد سنودن رجلاً نبيلاً، مجبولاً على حُبِّ الخير، عاشَ وفق مبادئ انضباطية شديدة. في المدرسة حوالي خمسين ولدًا، أكبرهم في الرابعة عشرة، وأنا أصغرَهم، وأقربُهم إليّ سِنًّا كان قد تجاوز الثماني سنوات، عشتُ معاناةً مستمرَّةً محاولاً مجاراةَ المنهج. عانيتُ بالذات من مادة الإملاء حيث إن تعليمي قبلها اتخذ شكل القراءة دون التركيز على الكتابة، وجهودي البائسة للمجاراة تسبَّبتْ بدلق الكثير من الحِبر على يديَّ ووجهي وملابسي وليس الكثير منه على الورق. على أي حال بعد أن تجاوزت حنيني الأول إلى المنزل صرت سعيدًا للغاية هناك، كنت صغيرًا جدًا على الألعاب العنيفة للأطفال الكبار وتعرضت للضرب طَوال الوقت. مع ذلك كتبتُ إلى والدي بعد وقت قصير من وصولي قائلاً إنني سعيد وبصحة جيدة وإن الصبيان «مبهورون» بي. أنا متأكد أنني لم أقصد ذلك حقًا، فمن النادر أن يكون أي ولد لطيفًا مع الأولاد في مثل سِنّه.

في مطلع عام ١٨٩٥ بدأتْ غيومُ العواصف تتجمَّع واصطفَّتْ قوى القدر الهادرة ضدَّ آل وايلد. في آذار قدَّمَ أبي أمرَ إلقاء قبضٍ على اللُّورد كوينزبيري بتهمة التَّشهير. أُجرِيتْ المحاكمةُ في الثالث من نيسان/أبريل وبُرِّئَ كوينزبيري في الخامس منه، وفي مساء اليوم نفسهِ أُلقِيَ القبضُ على أبي.

حلَّ عيد الفصح في الرابع عشر من نيسان/أبريل في تلك السنة، وتزامنتْ عطلة عيد الفصح مع اندلاع العاصفة، لكن صار واضحًا لأمي أننا لا يمكن أن نعود إلى مدارسنا، لذا أُستُدعِينا مباشرة وعدنا إلى لندن. وتلك نهاية دراستنا في إنكلترا، ومن المثير للفضول أنني لم أسمع أي ذِكرٍ لأي مدرسة سيتم نقلنا إليها. من المثير للاهتمام معرفة أي مدرسة سيفضل أبي، أخشى أنه سيميل إلى مدرسة إيتون.

رُفِضتْ كفالة أبي وأرسل إلى سجن هالواي، في هذه الأيام من المعتاد أن يطلق سراح الأشخاص المتهمين بعد دفع الكفالة ما لم تكن هناك أسباب قوية تمنع ذلك، لكن في الزمن الفيكتوري كان نادرًا ما يُمنَحُ الكفالة، لذا ظلَّ والدي يرزح تحت القيود الثقيلة وهو يحضر لدفاعه. حتَّى بعد أن رفضتْ المحكمةُ التُّهم الموجهة له في المحاكمة الأولى في أواخر نيسان ثُبِّتتْ كفالتُهُ على مبلغ ٥٠٠٠ جنيه، ومرت ثلاثة أيام قبل العثور على أي أحد من أصدقائه المهمين ليتكفله، إذ خشوا أنَّ فعلاً رحيمًا كهذا ربما يتسبب بتجريمهم. بينما رفضت المحكمة كفالة العديد من أصدقائه المقربين مثل روبرت روس بوصفهم أشخاصًا لا تُقبَل كفالتُهم للمحكمة.

بدأتِ الحملة ضد والدي قبل محاكمته، أثناء عرض مسرحيتيْنِ من أعماله في وقت واحد في لندن وهما (الزوج المثالي) و(أهمية أن تكون أرنست)، وحُجِبَ اسمُه عن قصدٍ بقصاصاتٍ من الورق لُصقت عليه. وعندما عُرِضَ عملُ (الزوج المثالي) في برودواي في نيويورك اتُّبِعَ نفس النهج ولم يظهر اسم المؤلف، تمامًا كما حدث في لندن. استمرت المسرحيات في لندن لكن في النهاية توقفت الأولى في السابع والعشرين نيسان/أبريل، والثانية في الثامن من أيَّار/مايو. أُزِيلتْ جميعُ كتب أوسكار وايلد من المكتبات، وهو الذي كان يجني بضعة آلاف من الباوندات كل سنة فجأة وجد نفسه مُعدمًا، ولولا كرم بعض أصدقائه لما تمكن من الدفع لمحاميه.

في محكمته الثانية في نهاية أيَّار/مايو ١٨٩٥ أُدِينَ وحُكِمَ عليه بالسِّجن لسنتين مع الأعمال الشاقة.

قبل أن أكمل الحكاية بودي أن أوضح أمرين، الأول هو أنني على الرغم من كوني في الحادية عشرة فقد عرفت أن والدي في ورطة، لكنني لم أعرف طبيعةَ الاتهامِ الموجّه إليه حتَّى بلغت الثامنة عشرة، والأمر الثاني إنني بعد قراءتي لكتاب شيرارد «قصة صداقة تعيسة» صرت محبَطًا وقررت ألا أقرأ أي كتاب آخر عن والدي بغض النظر عن مؤلفه، والتزمتُ بذلك لسنواتٍ كثيرة. وحتَّى الآن لم أقرأ سِوى نزْرٍ يسير، لطالما لامني الناس على هذا السلوك لكنه كان ببساطة شكلاً من أشكال حماية النفس. غالبًا ما تقرَّبَ إليَّ أشخاصٌ ذوو نوايا طيبة بغية الكتابة عن والدي، أرادوا مني إعطاءهم ما يبتغون من المعلومات، وكنت دائمًا أعطي إجابة صريحة للغاية وهي إنني كنت صغيرًا للغاية وقت محاكمة أبي لمعرفة أي شيء عما حدث، وبهذا فأنا على الأغلب أعرف أقل من معظم الأشخاص. لذا عندما كنت في سن العشرين وطلب مني السير كوليردج كينارد مقابلة روبرت روس لم يكن هذا الاسم ليعني أي شيء عندي، وكنت محرجًا للغاية من مشاعرهِ حين التقاني لأنني لم أكن أعرف ما قصته في تلك الفترة ومقدار ما فعله، ولا يزال يفعله لذكرى والدي.

لم يكن أخي محظوظًا مثلي؛ قبل فترة قليلة من مقتله على يد قنَّاص ألمانيٍّ في الحرب العالمية الأولى كتب لي: «كنتُ في التاسعة حين رأيتُ أول لافتة، كنت أنت هناك أيضًا، لكنك لم ترَ اللافتة، كانت اللافتة في شارع باكر، فسألتُ عن معناها وقدمت لي إجابة غامضة. لم أرتح حتَّى عرفت معناها»، سرعان ما عرف؛ فقد ذهب للإقامة مع أقارب أمي في أيرلندا، على أمل أن أتبعه في أقرب فرصة. هناك وجد جريدة ملقاة وأدرك وجود خطأ كبير، أصابه ذلك بإحباطٍ قاتل «لم يتمكن من الابتسام مرة أخرى»، هذه هي العبارة الأصح للغاية عن وضعه منذ ذلك الحين.

عند عودتي من المدرسة بقيتُ في لندن، وذكرياتي عن تلك الأيام تتمثل في أمي وهي تبكي فوق أكوام من الجرائد وأغلبها جرائد كوينتيل، لم يسمح لي بالطبع برؤية الجرائد

لكني نجحت في رؤية اسم أوسكار وايلد يتصدر العناوين الكبيرة، دون أن أعلم حقيقة ما يجري.

الهياج الشعبي ضد عائلة وايلد في أيرلندا، مسقط رأس أبي، مماثل لما حدث في لندن، إن لم يكن أسوء، لذا تغيرت خططنا. كان من الأفضل أن نذهب ونخبئ أنفسنا في مكان آخر خارج البلاد. وهناك على الأقل بوسعنا العيش دون مضايقات، وحيث سيكون عندنا الكثير من الأصدقاء الحقيقيين.

كارلوس بلاكر(74) في بادين، وخالي أوتو هولاند لويلد مع عائلته في سويسرا، وصديقة أمي المقربة الليدي مارغريت بروك، زوجة السير شارلز بروك مهراجا سَرَواق الإنكليزي، امتلكتْ فيلا في إيطاليا. في المنفى توجب أن ننبذ هويتنا وننسى الماضي، لسوء الحظ في حالة سيريل كان الضرر قد حدث بالفعل. باتَ فتىً لا يفارقه الغمُّ، منعزلاً وتعيسًا. انطلقنا إلى القطب البارد في يوم نيساني بارد وكئيب مع مربيةٍ فرنسية أُختِيرتْ على عجل، امرأةٍ غريبة عنا كليًا، وهكذا بدأ المنفى الذي استمر لأكثر من ثلاث سنوات.

بقيت أمي خلفنا لتكون في معونة والدي حتَّى طُرِدتْ من منزلها من قِبل رجال المأمور وما تلاه من بيعٍ لكلِّ محتويات المنزل. ذلك المزاد سرقةٌ علنية! وحتَّى قبل المزاد سُرِقَ البيتُ ونُهبَ بالكامل من قبل صيَّادي التحف الذين سرقوا أي شيء وقعت أعينهم عليه. رأيت كتالوج مسعّر للمزاد حيث عرضت كتب قيمة للغاية لمن يعرف قدرها، وبيعت في أكوام، كل كومة تتكون من عشرين أو ثلاثين كتابًا مقابل باوندين أو ثلاثة للكومة. من بينها الطبعات الأولى لكتب والدي مع إهداءات لأمي ولأخي ولي، كتب حفظتها أمي في غرفة نومها في صندوق خاص يمين الباب. لم تعاود هذه الكتب الظهور، ويمكن فقط الافتراض أن الصفحات التي زينتها الإهداءات قد مُزِّقتْ لتجنَّبِ التعرفِ عليها، وكثيرًا ما تُعرَض نسخٌ من هذه الكتب الممزقة للبيع حتَّى اليوم.

لعدة شهور بعد ذلك بقيت أنا وأخي نطلب جنودنا وقطارنا وباقي اللعب، ولا ندري سببَ ضيق أُمِّنا بهذا الطلب، لأننا بالطبع لم نعرف أي شيء عن المزاد، فقط حين رأيت الكتالوج بعد سنوات عديدة عرفت سر انزعاج أمي. الرقم ٢٤٦ و٢٣٧ كان عنوانه: «كمية كبيرة من الألعاب» وسعرها ثلاثون شلنًا.

الفصل الثاني

(10) محافظة تابعة لأيرلندا اليوم، وهي الأصغر مساحةً والأقلُّ سكَّانًا من بين محافظاتها الأربع. يعود اسمها إلى أسطورة الملك (كون ذو المئة معركة). أما كونيميرا المذكورة في نهاية الفقرة فمدينة تقع في كوناخت، على ساحل المحيط الأطلسي.

(11) ولنغهام مدينةٌ في مقاطعة دورهام الإنكليزية.

(12) اللفظ الهولندي لاسم (de wilde) يتشابه إلى حد ما مع اللفظ الأيرلندي لكلمة البنَّاء (The builder).

(13) الليدي وايلد: جين فرانسيسكا أغنيس وايلد، والدة أوسكار وايلد، من أشهَر الشاعراتِ اللائي تغنَّينَ بحُبِّ أيرلندا، والمطالبة بحريتها تحت اسم مستعار هو (سبيرنزا). كتبتْ كذلك عدة كتب لا سيما في مجال الفلكلور الأيرلندي، ولها مساهماتٌ في التَّرجمة أيضًا. تُوفيت في لندن ودُفِنتْ فيها، لكنَّ جثمانَها نُقل إلى أيرلندا عام ١٩٩٦؛ في محاولةٍ لتكريم ذكراها.

(14) أسماء أعلام لمناطق أيرلندية.

(15) ثوبٌ أشبه ما يكونُ بالعباءةِ، يُلبَسُ فوق الثياب أو القميص.

(16) نوع خاص من السراويل الجلدية لركوب الخيل، يصنع عادة من جلد الغزال. السروال قصير لا يمتد طويلاً بعد الرُّكبتين، ويكون مفتوحًا عند نقطة التقاء الفَخذين لتسهل حركة الفارس.

(17) قطعة قماش تلف السَّاق، كان معتادًا أن تُلْبسَ فوق الأحذية، تمتد من الركبة حتَّى تغطي الجزء الخلفي من البسطار، غالبًا ما تكون مزودة بأزرار جانبية. تربط طرفي اللِّفافةِ من الأسفل قطعة مطاطية لتسهيل لبسها فوق الأحذية ومنعها من الحركة.

(18) تعني (أُمَّة).

(19) في الأصل عن اللاتينية (Facta Alea Est).

(20) غايل: اسمٌ من أسماء الشمال الإسكُتلندي.

(21) استخدم الكاتب هنا تسميةَ (Erin) الإنكليزية للشعب الأيرلندي.

(22) عائلة أيرلندية شهيرة، بل هي أقرب للقبيلة لكثرة عدد أفرادها. تعيش في مقاطعة غالواي، في كوينيميرا، التي كانت القبيلة تحكمها لأربعة قرون متتالية قبلَ الاحتلال

البريطاني للبلادُ. ارتبطتْ صفة القوة الجسمانية المفرطة والغضب والشراسة بأبنائها حتَّى صارت تلازمُ اسمَهم. ولها في غالواي آثارٌ وقلاع، لا تزال واحدةٌ من القلاع شاخصةً حتَّى اليوم؛ وتُعدُّ مَقصِدًا للسُّيَّاحِ.

(23) جائزة في الشعر تُمنح في أكسفورد للطُّلاب، أُطلِقتْ في العام ١٨٠٥ من قِبل السِّياسي وجامع التحف الفنية، السير روجر نيودجت.

(24) في الأصل عن اللاتينية (Requiescat).

(25) في الواقع، تشير العديد من المصادر إلى أن التعويض لم يكن صغيرًا كما يذكرُ الكاتبُ، ويُشار بشكلٍ شبه مؤكد لوجود طفل غير شرعي للسير ويليام نتج عن هذهِ العلاقة.

(26) تقليدٌ قديم اعتمدنه سيدات المجتمع الراقي، بتعيين يومٍ محدَّدٍ من الأُسبُوع لاستقبال الزوَّار في منازلهنَّ.

(27) في الأصل عن اللاَّتينية (De Profundis)، وهي رسالة طويلة كتبها وايلد أثناء سجنه، يتأمَّل فيها ما حدثَ له وتغيُّر أحواله، وقد وجَّهها إلى الرجل الذي اتُّهم بإقامة علاقة مِثلية معه، أي ألفريد دوغلاس. يُعدُّ هذا العمل إلى جانب (أنشودة زنزانة ريدنك) آخرَ أعمال وايلد.

(28) في الأصل عن اللاتينية (vica voce).

(29) جون روسكن فيلسوف إنكليزي، وكاتب متعدد المواهب. كان عبقريًّا ملمًّا بمجالات شتَّى، وتنوَّعت كتاباته في كلِّ المجالات من الاقتصاد السياسي حتَّى القصص الخيالية. أما كرسي سلاد للأدب والفنون، فيُمنح في جامعة كامبريدج، أكسفورد، وكلية لندن منذ العام ١٨٦٩ تيمُّنًا باسم المتبرع الخيري وجامع التحف الفنية (فيليكس سلاد).

(30) بمعنى (قطة صغيرة).

(31) دانسكي Dunskie تعني الدنماركيّ، أما اللقب الذي اختاره أوسكار وايلد فقد يكون إشارة للكلب القطبيّ، والمسمى هاسكي، إذ يُلفظ في بعض اللهجات العاميّة (هوسكي = Hosky) وهو نفس اللفظ الذي اتخذه أوسكار لقبًا له، وقد لفت انتباهي استخدام الاسم في العُملات الرقمية، مع صورة الكلب. أما أسماء عائلة هاردنك فهي تنويعات بين المفرد والجمع والتأنيث لكلمة قط بالإنكليزية البريطانية.

(32) إشارةٌ للكنيسة الكاثوليكية، وصِفة تحقيرٍ اعتمدَها بعض البروتستانت لشتم الكنيسة الكاثوليكية إبَّانَ العصر الفيكتوري كونها أغرتْ بالكثيرين لتغيير مذاهبهم إلى الكاثوليكية. بينما يستخدمها أوسكار وايلد هنا ساخرًا من منتقديها، فهو يجدها جذَّابةً للغاية، تستحقُّ أنْ يحرقَ المرءُ أصابعَهُ لأجلِها. وفي الأصل تُطلقُ هذهِ الصفةُ عمومًا على المرأة التي تمتهن الدعارة، وثمَّة تلميحٌ لها في رؤيا يوحنا اللاَّهوتي يرمزُ إلى ما تتعرَّضُ له الكنسيةُ ومؤمنُوها من اضطهادٍ وإغراءاتْ: «رأيتُ امرأةً جالسةً على وحشٍ قِرمزيٍّ» [رؤ ٣: ١٧].

(33) قد تكون (بونسر) مشتقَّةً من الفعل بونس (bounce)، وهو فعلٌ يشير إلى ارتدادِ الكُرة –غالبًا - باتِّجاهِ موضعِ ضربِها، أو بعيدًا عن السَّطح الذي ضُرِبَتْ نحوهُ، كما أن (بونسر) لقبٌ يُطلَقُ على حراس الأمن في النَّوادي اللَّيلية وقاعات البلياردِ وغيرها.

(34) نسبةً إلى مقاطعة إيطالية.

(35) في الأصل عن الإغريقية (s ἀπλανστικόςßío).

(36) في الأصل عن الإغريقية (kaθεύδειυ kaí Όρἄυ tóἀγαθόυ).

(37) تشير المصادر إلى أن (كونستانس) عرفت (وايلد) منذ فترة أطول ممَّا يعتقده ولدهما (قايڤيان)، بل وقبلَ سفرهِ إلى الولايات المتَّحدة الأمريكية.

(38) في الأصل عن الفرنسية (props de bottesà).

(39) نسيجٌ مصنوع في الأصل من الحرير أو الحرير والصوف معًا، وغالبًا ما يكون أسودَ اللون.

(40) تمثلت هذه الموضة -كما يوحي اسمُها - بتضييق الخَصر قدر الإمكان إلى درجة مؤلمة للغاية، باستخدام المشدَّات وغيرها. وفي الوقت نفسِهِ تضاف الحشوات لتكبير الكتفين والأرداف لإعطاء مظهر الساعة الرَّملية أو خَصْرِ الدَّبور.

(41) تترافق هذه الموضة مع الموضة التي سبقتها، إذ يغطي اليد من الزند حتَّى الكوع قماشٌ كثيفٌ ومنفوخٌ، بينما باقي اليد حتَّى الأكمام ضيقة بشكل مبالغٍ به.

(42) بدأت هذهِ الموضة بمجموعةٍ من الفنَّانين والشُّعراء ونُقَّاد الفن الإنكليز. اجتمعوا للمرة الأولى عام ١٨٤٨ لرفض الأشكال الفنية المُحْدَثةِ بعد (رفائيل)، الفنان والنحات الإيطالي المعروف ولذي اعتبروه آخرَ العمالقة، بينما سادتْ من بعد ذلك مدارسُ الانطباعيةِ وغيرها ممَّن بدأتْ ترفض الواقعية التَّامة في الفنِّ.

(43) اسمٌ لعائلة شهيرةٍ من النُّبلاء وأعضاء في البرلمان الإنكليزي، ويرجعُ لملكٍ يعتبره البعض أسطورة وهو الملك ڤايڤيان، ملك أرض لونليس المفقودة، الذي فرَّ من قاتليه على صَهوةِ حصانهِ، ولا يزال الحصانُ رمزًا لعائلةِ ڤايڤيان. الاسم في الأساس معناهُ: النَّاجي أو الحيُّ.

(44) نسبةً إلى السَّاحر مارلين الشهير في أسطورةِ الملك آرثر. ومعناهُ: مَعقِلُ البَحر.

(45) يومُ غاي فاوكيس، احتفال تقليدي بريطاني يقامُ في الخامس من تِشرين الثاني/ نوفمبر كلَّ عامٍ. تسمى الاحتفالية بليلة المشاعل لإحياء ذكرى فشل مؤامرة البارود عام ١٦٠٥ التي خططت لاغتيال الملك جيمس الأول، وإعادة المملكة إلى الكاثوليكية. وفاوكيس هو قائدُ تلك المؤامرة.

(46) رسَّامٌ أمريكي، نشطَ خلال فترة الازدهارِ الاقتصادي الأمريكي، أو ما عرف بالعصر الذهبيِّ، عاش فترةً طويلةً في المملكة المتحدة، وكان قائدًا من قادة حركة (الفنُّ لأجلِ الفنِّ).

(47) السير ويليام بليك ريتشموند: رسَّامٌ ونحَّات بريطانيٌّ شهير. نبغَ منذ طفولتهِ، وترشَّحَ للأكاديمية الملكية للفنون وهو في سنِّ التاسعة عشرة بفضل رسمة مذهلة لأخويْهِ، نالت الكثير من المديح، بالذات من روسكن معلِّم أوسكار وايلد، الذي أبهرته تلكَ الموهبة.

(48) روبرت بونتين كاننغهام غراهام، سياسي إسكتلندي، اشتُهِرَ بآرائه الليبرالية السابقة لعصره، كما عُرف بمغامراته العديدة. ألَّفَ ما يربو على ثلاثين كتابًا عن تلك المغامرات، منها كتاب خاصٌّ لفترة وجودهِ في المغرب.

(49) الموارنيون، أو المور، تسميةٌ أطلقَها الأوربيُّونَ على سكان شمال إفريقيا لا سيما الأمازيغ، ثم تحوَّلتْ لتطلق على المسلمين في الأندلس، ثم صارت تشمل كلَّ المسلمين. كانتْ أقربَ للشتيمة العنصرية في بعض الفترات.

(50) مناطق ضمن مقاطعة باركشير، في إنكلترا.

(51) شركةٌ إنكليزية شهيرة لصناعة البسكويت، تأسَّست في العام ١٨٢٢. واحدة من أوائل الشركات في التاريخ التي تمكَّنت من أن تصبح ماركةً عالميةً (براند).

(52) سُلالةٌ من المُهور القوية قصيرةِ الأرجل، نسبةً إلى جزيرة شتلاند الإسكتلندية.

(53) هو توماس كارليل على الأغلب، العالم الإسكتلندي الشهير، الذي تنوعت اهتماماته من الرياضيات إلى الفلسفة والتاريخ، وقد ألهم تشارلز ديكنز بكتابه عن تاريخ الثورة الفرنسية

ليكتبَ روايته العظيمة (قصة مدينتين)، أو ربما معاصره المحامي الشَّهير الذي حمل الاسم ذاته عاش لفترةٍ في الشارع نفسِهِ.

(54) منحوتةُ (هِرمِس وديونيسوس الرَّضيع) للنَّحات اليونانيِّ الشَّهير براكسيتيليز.

(55) سيمون سلمون ١٨٤٠-١٩٠٥ رسَّام بريطاني اشتُهر بأعماله الجريئة والتي تمثل المِثلية وتتغنى بجَمال الجسد الذَّكري، وكذا اشتُهر بلوحاته المستمَدَّة من التراث الديني اليهودي. انتهت حياته الفنية، بطريقة مماثلة تقريبًا لما حصلَ مع وايلد.

(56) أدولف مونتسيلي ١٨٢٤-١٨٨٦ رسَّام فرنسي من جيل ما بعدَ الانطباعية.

(57) السيدة باتريك غامبل أو السيدة بات، ممثلةٌ مسرحيةٌ إنكليزيةٌ شهيرةٌ. يشير الكاتب هنا إلى الرسمة التصويرية بالحبر الأسود للفنان أوبري بيردازلي، الذي كان رسَّامًا تصويريًا اعتمد على استخدام الحبر الأسود في رسوماته البديعة، كما كان قائدًا من قادة الحركة الجَمالية قبلَ أن يخطفَهُ مرضُ السُّل شابًّا في الخامسة والعشرين من عمره.

(58) نسبةً إلى توماس شينبديل ١٧١٨-١٧٧٩، صانع أخشاب ونقَّاش في لندن. اشتُهرتْ أعماله وتميزتْ حتَّى أنه نشر كتابًا لتصاميمه، ولا تزال تصاميمُهُ الأصليَّةُ تلقى رواجًا كبيرًا حتَّى اليوم، حيث تُباع القِطعُ الأصليَّةُ منها بالملايين.

(59) لوحة (الفقاعات) لجون إيفريت ميلياس، رسمها عام ١٨٨٦ وعنوانها الأصلي (عالم الطفل)، لكنها اشتهرت بهذا الاسم بسبب استخدامها لعدة أجيال في الإعلان عن صابون الأطفال. أما (اللُّورد فانتورلي الصَّغير) فهي روايةٌ لفرانس هودسن بوينيت نُشِرت في العام ١٨٨٦ مع رسومٍ لريجنالد بريج.

(60) ويليام موريس ١٨٢٤-١٨٩٦ شخصية بريطانية معروفة، برع في عدة مجالات أشهرها تصميم النسيج وتحديث طرق صناعته. كما كان شاعرًا وروائيًّا ومهندسًا ومترجمًا وناشطًا سياسيًّا في صفوف الحزب الاشتراكي.

(61) في الأصل عن الفرنسية (fin de siècle).

(62) فانوس نفطي، عبارة عن صندوق معدني صغير يُحمل باليد، ويحوي على عدسة واحدة تمرر الضوء وتكثفه، قد كان رائجًا خلال العصر الفيكتوري.

(63) المقصودُ هو آرثر ويزلي، قائد القوات البريطانية في معركة واترلو الشهيرة التي قضت على نابليون عام ١٨١٥.

(64) أسماءُ الأعلام كالتَّالي:

- هنري إيرفنغ، واحد من أشهر الممثلين المسرحيين الإنكليز. سيرِدُ ذكرُه في عدَّة مواضع من هذا الكتاب.

- ذُكرَ السير ريتشموند في هامشٍ سابق.

- سارة برنارد، أشهر ممثلة مسرحية في ذلك العصر. قد عرفها أوسكار وايلد خلالَ فترة دراسته في أكسفورد.

- جون سينغر سارجنت، فنان تجريبي أمريكي. يعتبر أهم رسَّامي البورتريه في ذلك الجيل. =

= - ذُكرَ روسكن مسبقًا في هامش الحديث عن علاقته بأوسكار وايلد أثناء وجودهِ في أكسفورد.

- ليلي لانتغراي، ممثلة مسرحية بريطانية، ومنتجة وناشطة في صفوف الحركة الاشتراكية.

- مارك توين، الكاتب الأمريكي الشَّهير.

- هربرت بيربوم تري، ممثل مسرحي بريطاني شهير. مدير مسرح الهايماركت الذي مُثِّلتْ فيه بعضُ أعمال وايلد.

- روبرت براوننغ، واحد من أهم شعراء العصر الفيكتوري. كتبَ أساسًا للمسرح بلُغةٍ شاعرية للغاية.

- إليغرنون شارلز سوينبرن، كاتب مسرحي وروائي وشاعر وناقد بريطاني.

- جون رايت، سياسي بريطاني ليبرالي راديكالي. الرئيس الأسبق لمجلس التجارة البريطانية.

- الليدي دي غراي، من نخبة المجتمع البريطاني الفيكتوري. كانت راعية للفنون والفنانين، وقد ربطتها بأوسكار وايلد وعائلته صداقةٌ قوية، وقد أهدى إليها مسرحيته الشَّهيرة (امرأةٌ بلا أهميَّةٍ).

- أيلين تيري، ممثلة بريطانية. اشتُهرت منذ طفولتها بأداء أعمال شكسبير ببراعة، وهي والدة المخرجة ومصممة الأزياء الشهيرة أيديث غاريج، من أوائل النساء العاملات في

السينما، وواحدة من أهم قادة حركة حق النساء في التصويت.

- والأخير هو اللورد آرثر جيمس بلفور صاحب وعد بلفور الشهير عام ١٩١٧. شغل منصب رئيس الوزراء البريطاني عن الحزب المحافظ، وله العديد من المؤلفات في الفكر السياسي، وكتبَ في الدفاع عن فكرة وجود الله.

(65) السير إدوارد برن جونز، فنان ومصمم بريطاني، من أعضاء حركة ما قبل الرفائيلية.

(66) منظمة اشتُهرت في بريطانيا والولايات المتحدة، ضمَّت نخبةً من أصحاب الأملاك الزراعية، وكانت عاملَ ضغطٍ مؤثِّرًا في السياسية. واسم المنظمة يعني (المزرعة المعزولة).

(67) ذُكِرَ الفنَّانيْنِ ويستلر وسارجنت في هوامش سابقة. أما جي بي جاكومب فهو جورج بيرسي جاكومب هود، فنان ونحات بريطاني، اشتُهر كذلك برسوماته التصويرية للقصص وبضمنها قصة (الصاروخ العتيد) لأوسكار وايلد، في مجموعته القصصية الأولى (الأمير السعيد).

(68) هؤلاء هم أشهر كُتَّاب المغامراتِ في ذلك العصر. جول فيرن كاتب فرنسي يعد ثاني أكثر الكُتَّاب ترجمةً حول العالم من بعد أجاثا كريستي، ويسبق ويليام شكسبير نفسه في عدد ما تُرجم له من نسخ. أشهر رواياته (حول العالم في ثمانين يومًا)، و(عشرون ألفَ فرسخٍ تحتَ سطح البحر). أما ستيفنسون فهو الروائي الإسكتلندي الشَّهير، وأشهرُ أعماله (جزيرةُ الكنز)، أما كبلنغ فأشهر أعماله (كتابُ الأدغال).

(69) واحدةٌ من قصص أوسكار وايلد في كتابه الأول (الأمير السعيد وقصص أخرى). وهناك مؤشرات على كونه قد تشارك مع زوجته كونستانس في كتابتها.

(70) النُّصوص في (الملحق الثالث) من هذا الكتاب.

(71) أمَّا (نورفلك) فسُترةٌ صوفية (توید) فضفاضةٌ، لها طيَّتانِ من الأمام وأُخريَانِ من الخلفِ، يتوسطها حزام. لا تزال موجودةً لكن ارتداءها مقتصرٌ على رحلاتِ الصَّيدِ في أغلب الأحيان. وأمَّا (الكينكر) فهو سِروال قصيرٌ دون الرُّكبتينِ، واسعٌ وفضفاضٌ من الخلفِ، كان موضة رائجةً أواخرَ القرن التاسع عشر وأوائلَ القرن العشرين.

(72) عُرِّفَ ببروسكن وويليام موريس وبرن جونز في هوامشَ سابقة. أما روزيتي فهو دانتي غابرييل روزيتي، شاعر إنكليزي ورسَّام ومصمم. أسَّسَ جماعة (ما قبل الرفائيلية) مع هانت وميلياس.

(73) نسبةً إلى مدينة أسبرطة اليونانية الشَّهيرة التي عُرفت بالانضباط الشَّديد والاستعداد الدائم للحرب، حيث كان التدريب البدنيُّ واجبًا على الرجال والنساء، ويفرض على كل صبيٍّ -عند بلوغهِ السابعة - البدء بالتدريب العسكري والعيش في ثَكنةٍ، ويظل على هذا الحال حتَّى بعد زواجه.

(74) كان كارلوس بلاكر، في فترةٍ ما، الصَّديقَ الأقربَ لأوسكار وايلد. وهو رجل أرستقراطي ومثقَّفٌ لا يُشقُّ له غبارٌ، وشخصيةً ساحرةً كما رُويَ عنه. تعرف عليه أوسكار أثناءَ دراستهما في كلية ماجدلين. وردَ أن وايلد كان يذكره دائمًا وإليهِ أهدى مجموعته القصصية الأولى (الأمير الصغير وقصص أخرى). حتَّى خلال أيام سجنه لطالما ذكرَ صداقته التي لا تُنسى. أرسلته كونستانس ليتحدث مع أوسكار ويعيده إلى رشدهِ، في آخر محاولةٍ لها لإصلاحه عسى أن يتمكَّنَ من استعادة سُمعته بعد خروجه من السِّجن، لعلمِها أنه الوحيد القادر على التأثير فيه، ويبدو أن أوسكار امتثلَ له بالفعل وصار متحمِّسًا للعمل معه على قضية النقيب درايفوس الشهيرة الذي أدين ظلمًا بخيانة بلدهِ فرنسا لا لشيءٍ سوى للتحامل ضد أصلهِ اليهودي. ركَّز أوسكار جهدَه في القضية لولا أن لسانه قد زلَّ بالحديث عن الموضوع الذي ظلَّ سِرًّا حتَّى تلك اللحظة. وكان من ضمن من تحدث معهم إميل زولا الذي كتب في حينها مقاله الشهير عن القضية (أنا أتهم)، الذي ساهم -إضافةً لكلِّ ما كُتب بالصحافة - في الإفراج عن درايفوس. لكنَّ الحادثة هزت ثقة بلاكر بأوسكار وأنهتْ صداقتهما إلى الأبد. ذُكِرت هذه الأحداث بالتفصيل في كتاب جي روبرت مغواير بعنوان (مناسك الشجاعة: أوسكار وايلد، كارلوس بلاكر وقضية درايفوس) المنشور عام ٢٠١٣ عن جامعة أكسفورد.

المنفَى

رحلنا أنا وأخي برفقة المربية الفرنسية دون والدتنا، فقد تعين أن تلحق بنا فيما بعد. وجهتنا النهائية كانت صوب قرية سويسرية صغيرة تُدعى شيلون عند بداية سكة القطار الجبلي المائل في مدينة تريت قرب مونترو. كانت رحلة كابوسية لكلينا وبالذات لسيريل في ضوء ما اكتشفه في أيرلندا، أراد حمايتي وإبقائي بعيدًا عن الحقيقة لكيلا أعاني مثله. أُمِّي هي الشخصَ الوحيدَ الذي تكلّم معه عن أبي، وهذا التكتم القسري حوَّله، وهو لا يزال طفلاً، إلى متشائمٍ صَموتٍ.

لم نسافر خارج البلاد من قبل، وكنا قلقين غاية القلق في رحلتنا إلى المجهول، وعلى وعي بحقيقة أن كل لحظة تأخذنا بعيدًا عن محيطنا المألوف وعن كل ما نملك، فقد رحلنا على عجل ولم نحزم إلا الضروريات.

بدتِ الرحلةُ إلى دوفر(75) بلا نهاية، ضجيج وفوضى الميناء أرهقنا وبثَّ في نفسينا الرعبَ، وتضاعفت كآبتنا لهبوب عاصفة في ذلك اليوم. المربية الفرنسية التي لم تعرف سوى القليل من الإنكليزية بدأت تتحدث عن دوار البحر(76) قبل أن تعبر ممشى السفينة حتى. حالما صعدنا السَّفينةَ حالَفَني الحظُّ، مستفيدًا من قلَّة انتباهِ المربِّية وانشغالها مع قاطعِ التَّذاكر، فهربتُ منها وتجوَّلتُ على القارب لأجد نفسي بقرب غرفة المحرك، حيث قضيت معظم الرحلة أتحدث مع المهندسين وأراقب الأعمدة الضخمة وهي تدير عجلات التجديف، في النهاية وصلت إلى غرفة المحرك نفسها، لم أعد إلى المربية حتَّى وصلنا كاليه. أعتقد أنني كنت محظوظًا بالعثور عليها، وجدتها في غاية السقم من دُوار البحر، إذ انهارتْ في أول دورة للمحرك، لذا لم تكترث لحالي ضعت أم غرقت، لكنها مع ذلك تمكنت من إحكام قبضتها على أخي المسكين، الذي رأى المودموزيل في حالةٍ رهيبة واستنتج بطبيعة الحال أن المرض هو المعتاد في رحلة كتلك، وسرعان ما حذا حذوها، يا لها من رفقةٍ تعيسة! أما أنا فلم ألتحق بهما إلاَّ على شاطئ كاليه.

أفترض أنَّنا مَررنا بالتَّفتيش، لكنَّ الإجراءات الرسمية في حينها أبسط بكثيرٍ مقارنةً بما يحدث في أيامنا الآن. الغرض الوحيد من الإجراءات يتمثل في منع تَهريبِ الكحول والتَّبغ، ولم يكن بحوزتنا شيءٌ منها مثل ما هو متوقع. من كاليه ركبنا القطار إلى باريس، كل شيء عن السكك الحديدية الفرنسية كان غريبًا وممنوعًا على ولدين متعبين بالفعل ويشعران بالحنين إلى عائلتهما. الحمَّالون بملابسهم الزرق يرفعون عقيرتهم بالصياح بعضُهم على بعضٍ، وعلى كل شخصٍ بطريقة سيعتبرها أقرانهم الإنكليز الرصينون مهينةً. منصة الركوب في الطابق الأرضي للمحطة، وكل شخص من الراكبين وحتَّى كادر سكة الحديد يتنقلون بلا حذر دون اكتراث للسكة. بالإضافة إلى العربات الضخمة التي يتوجب على المرء الصعود إليها بخطوات كبيرة، وعباب الدخان الأسود الخارج من غرفة المحرك الفرنسي،

فإن أكثر ما أثار إزعاجي هو أعمدة التلغراف؛ كنت معتادًا على الأعمدة المستقيمة المنظمة في إنكلترا مما جعل الأعمدة الفرنسية المائلة ذات الأشكال المتباينة تملأ نفسي رعبًا، فقد رأيتها كمخلوقات حقيقية، أفاع تنفخ على الأرض وتتأرجح يمينًا ويسارًا تبحث عن شيء لتفترسه.

الرحلة من كاليه إلى باريس بدت بلا نهاية مثلها مثل تلك الرحلة من لندن إلى دوفر، طلبت المودموزيل كومة من الجرائد والمجلات الفرنسية في كاليه وانغمست بها. أما أنا وسيريل فلم يكن عندنا ما نقرأه أو نلعب به، وما من شيء لفعله سوى التحديق عبر النافذة والنظر إلى أعمدة التلغراف المشوهة وعدد لا ينتهي من لافتات الإعلانات التي غزت المشهد. ثم خيَّمَ اللَّيلُ وحتَّى تلك المُسلِّيات سلبت منا. بتنا نتضوَّر جوعًا، لأنَّنا غادرنا لندن قبل الإفطار، وكان يُفترض أن نتناول الغداء على متن الباخرة.

وصلنا باريسَ بعد أن أرخى اللَّيلُ سدولَه، وركبنا العربةَ إلى فندق خفيضٍ على الضِّفة الغربية للسين، وهناك أُرشِدنا إلى غرفة نوم تحتوي من بين عدة أشياء على سريرين وشمعتين مضاءتين مسبقًا من الشُّموع المتعارف عليها. هذا هو نوعَ الإنارةِ الوحيدِ الذي يمكن توقعه في غرف أي فندق فرنسي صغير في ذلك الوقت، إلاَّ إذا أراد المرءُ إسرافًا، ومن المستحيل تفادي ذلك تقريبًا، لقد كان الاستغلالُ وحشيًا، إذْ إنَّ الشَّمعةَ لا تكلِّف مالكَ الفندق أكثر من عشرة سنتات، ومع ذلك كتب في الفاتورة: شموع، فرنكان(77)، وبما أن الغرف في الفنادق الصغيرة تكلف ثلاثة أو أربعة فرنكات فقط في الليلة؛ فذلك يعادل نصف الفاتورة.

جُلِبَتْ أمتعتُنا، لكن المودموزيل بدتْ على عجلة من أمرها فلم تفكِ حقائبنا قائلة إننا سنتابع رحلتنا في اليوم التالي ولا نحتاج لأي شيء لقضاء الليلة. أُخِذنا عندها إلى مطعم الفندق وقدمت لنا القهوة التي أصابتنا بالغثيان، كما قدمت لنا خبزًا فرنسيًا بالزبد. فكرة مخيفة للفتى الإنكليزي عن وجبة المساء بعد يوم بلا غداء. على أي حال كان ذلك كل شيء، وعندما انتهينا من تناول الطعام أُخِذنا إلى الغرفة مجدَّدًا وأُرسِلنا إلى الفراش بملابسنا الداخلية. لا شكَّ أنَّ المُربية رتَّبتْ أمورها مسبقًا، أطفأتِ الشموع وخرجت لوحدها بمهمة ما، وتركتنا وحدنا في الضوء الخافت المرتعش لعمود الإضاءة في الشارع الذي يلقي بظلال شبحية على السقف عبر النافذة التي بلا ستائر. كانت الغرفة حارةً وخانقة فحاولنا فتح النافذة لكن إما أننا لم نفهم طريقة عمل النوافذ الفرنسية أو لم نكن قويين بما فيه الكفاية للتَّعامل معها. على أي حال خابَ مسعانا، وعدنا إلى السرير، لنستسلم للنَّومِ آخر الأمر.

في وقتٍ مبكر من الصباح التالي أيقظتنا المودموزيل وجعلتنا نغسل وجوهنا وأيدينا بماء بارد وارتدينا باقي ملابسنا. ثم أعطِينا المزيد من القهوة والخبز بالزبد، وبدأنا نتساءل إن

كنا سنأكلَ وجبة فعلية قريبًا، راودنا هذا الشُّعور لبعض الوقت، ثم اعتدنا على تناول هذا الطعام فقط طَوال الأسابيع التالية حتَّى وصلت أمنا وتولت زمام الأمور.

بعد هذا الإفطار المزعوم أخذتنا مربِّيتُنا إلى غرفة صغيرة مظلمة في الفندق، وطلبت منا أن نحسن التصرف، وأمرتنا بعدم مغادرة الفندق لأي سبب وغادرت. ربما كانت باريسية، وأرادت أن تستغل كل دقيقة تستطيع اقتناصها لرؤية أصدقائها وأقاربها قبل أن تمضي مع آل وايلد إلى سويسرا. عندما غادرتنا ذلك الصباح افترضنا أنها ماضية في مهمة صغيرة وستعود بعد فترة قصيرة لكن الساعات مضت ولم تعاود الظهور، وبدأنا نشعر بالخوف أكثر فأكثر واعتقدنا أنها تخلت عنا. مضت ساعة غدائنا المعتادة وتجاوزتها بكثير قبل أن تعود وتأخذنا إلى المطعم، لم تأكل هي أي شيء وقالت إن لديها صداعًا، لكن لا شك عندي أنها كانت في وليمة غداء(78) مع أصدقائها.

في تلك الظهيرة ذهبنا بالسيارة إلى محطة قطار الشرق(79) واستأنفنا رحلتنا إلى سويسرا. بحلول ذلك الوقت توطَّن عندي وعند أخي مقتٌ عنيفٌ لأوربا وللمودموزيل، كانت متدينة كاثوليكية للغاية، قضتِ الكثير من وقتها في الصلاة، ونظرتْ إلينا كما لو كنا وثنيين صغيرين، حاولتْ جعلنا نتلو الصلاة الربَّانية(80) بالفرنسية، صدمنا ذلك، إذ اعتقدنا أنها بلا شك بداية صلاة إنكليزية. كانت امرأة سيئة الطباع بل حتَّى هستيرية، تكره بشكل واضح الجلوس مع الأطفال وتضجر منهم، تجنَّبتْ صحبتنا قدر الإمكان وظلت مشغولة بصلواتها وبكتابة الرسائل.

دخلنا الآن إلى المرحلة الأخيرة من رحلتنا، التي بدت لنا أكثر إرهاقًا حتَّى من رحلاتنا الأولى. الرحلة من باريس إلى جنيف استغرقت حوالي ست عشرة ساعة بضمن ذلك تغيير في القطارات عند الحدود الفرنسية السويسرية، لم تكن هناك عربة للطعام في قطارنا وتوجب على الركاب أن يقتاتوا على شيء يجدونه في المحطة. وتزايد خوفنا من أننا لن نأكل طعامًا ملائمًا أبدًا. بقينا دون ألعاب أو أي شيء لنقرأه ونتسلى به، وشعرنا بالملل مثل أي طفل ليس لديه أي شيء لفعله وممنوع عليه شغل نفسه بأي شيء، كنا نسافر على الدرجة الثانية، ولا وجود فيها لعربات النوم، لذا عندما حلَّ اللَّيلُ حاولت أنا وأخي النوم بتمديد ساقينا على المقاعد وتغطينا ببطانية السفر، فمن ضروريات أي إنكليزي أن يحزم بطانية خفيفة معه عند السفر خارج البلاد، تُلف البطانية حول المظلة أو عصا المشي، وتُؤمَّنُ بما يسمى «حزام الأغطية».

ما تبقَّى من اللَّيلِ كانَ ضبابيًّا إلى حدٍّ ما، أعتقد أننا كنا متعبين للغاية للاهتمام بما يحدث حولنا، جل ما أتذكره وصولنا إلى جنيف عند الصباح. وهناك غيّرنا القطارَ مرّةً أخرى وانطلقنا ببطء في قطار محلي صغيرٍ على طول الشاطئ الشَّمالي لبحيرة جنيف حتَّى مونترو. خلال هذا الجزء من رحلتنا بدأت معنوياتنا ترتفع بالتدريج، فثمة راحة تنبعث في النفس لمرأى المياه الساكنة للبحيرة والشمس تتوسطها، والأراضي الفرنسية الهائلة التي

تمتد خلفها، إلى جانب ذلك أوشكت رحلتنا على النهاية، لم يبقَ سوى رحلة أخيرة بالسيارة فحسب من مونترو إلى تيريت، وكانت رحلة ممتعة، فالمرور على الطَّريق الجبلي من تيريت مغامرةٌ يقشعرُّ لها البَدَنُ، ومع وصولنا إلى شيلون بدأتْ حياتُنا الجديدة.

حُجِز لنا في فندق دو ريغي فاديوس بأسمائنا الحقيقية. لا أعتقد أننا عرفنا أبدًا الاسم الحقيقي للمربية التي غالبًا ما أسميناها المودموزيل عند ندائها، أما في غيابها فابتكرنا لها أسماء أخرى. ولا أدري هل توجب على المودموزيل إعطاؤنا دروسًا أم لا، لكنها بالتأكيد لم تفعل أي شيء من هذا القبيل، ما عدا إعطائنا نصائح بالفرنسية دون اكتراث، وحتَّى ذلك ظلَّ شفهيًا ولم يُطلب منا كتابته. كان الجو بديعًا وقضينا معظم وقتنا نتجول في البراري والأحراش في الجوار. بات وادي شادرون غرب شيلون مكاننا المفضل للعب، بعد وصولنا بقليل امتلأت بكمية كبيرة من النرجس، بحيث لم يعد بالإمكان المرور دون الدوس عليها، وشكَّلتْ ما يشبه باقة زهور كبيرة. ذكر بايرون هذا النَّرجسَ بشكلٍ خاص في كتابه (سجين شيلون).

أعظم أصدقائنا في شيلون شقيقتان كبيرتان في السن، قد أعجبتا بنا ودلَّلتانا كثيرًا. كانتا كونتيستينِ روسيَّتينِ عاشتا في غرفتي نومٍ وحمام وغرفة جلوس في نهاية الفندق. مَلأتا تلك الغرف، التي شغلتاها لعدة سنوات، بالكثير من الخردة والأشياء الصغيرة بلا قيمة، أيقونات روسية وتعليقات شرقية. كانتا تدخِّنانِ بشراهةٍ وذلك بحشر التبغ الروسي في لفائف من ورق السجائر البني، تُدخَّنُ بمِبسَمٍ موشىً بشعار جيش الإمبراطورية الروسية. استخدمَتا أعوادًا صغيرة لحشر التبغ، وأفضل العطايا أن يُسمح لنا بفعل ذلك بأنفسنا، مع أننا كنا في الغالب نتلِف اللفائف دون ملئها. كانت الشمس لعنة بالنسبة لصديقتينا اللَّتينِ، كما اكتشفنا، لم تغادرا الغرفةَ مطلقًا، ولا حتَّى لأخذ حمَّامٍ. لطالما أشعلتا نارًا ولفَّتا جسديهما بطبقات من الشالات؛ كانتا في منتهى القذارة بالطبع. قدمتا لنا الحلويات والطوابع الروسية، وبذلك وضعتانا على أول الطريق لجمع الطوابع.

في أحد الأيام عاشتا، هاتان السيدتان، حالة حماس كبير بعد استلام رسالة من قريب لهما كان مارًّا عبر سويسرا وسيزورهما. قضتا بضعة أيام تجهِّزانِ غرفة الجلوس وتُعيدانِ ترتيبَ كل شيء، وحين حلَّ اليوم المنشود وصلتا حدَّ تغيير الستائر. أخيرًا وصل القريب، شخصية مذهلة، طويل بشكلٍ لافت للنظر ولحية حمراء كثة وشارب كثيف، ارتدى سُترة رصاصية اللون بشكل عباءة وقبعة عالية، وتكلم مع السيدات بالفرنسية. أعطاني وأخي مجموعة من العملات الروسية من الكوبيك إلى الروبل. كان جنرالاً في الجيش الإمبراطوري الروسي وصديقًا مقربًا للتاسر(81).

لا أعرف شيئًا عن مؤهلات المودموزيل الأخرى لكنَّها فشلتْ كمربية، لم تغادر الفندق إلا للصلاة في الكنيسة. في الحقيقة قضت معظم اليوم في غرفة نومها وهناك أقامت موضع صلاة صغير، تصلي فيه أمام شمعتين على الأقل، تظلان موقدتين بشكل دائم لساعات.

ازداد عدد الشموع متى ما بدت المناسبة تستحق. فيما بعد في آيَّار/ مايو بعد يومين آو ثلاثة من محاكمة أبي في أولد بايلي استأجرت قارب تجديف وأخذتنا به إلى مقام القديس غينيغولف، وهو موضع للحج على الجانب الآخر من البحيرة. في طريقنا للعودة هبت علينا عاصفة، صحيح أن العواصف في البحيرة مُزعجةٌ للغاية، لكنها يندر أن تكون قوية. أصيبت المربية وسيريل بدُوار البحر بشكلٍ سيءٍ، حتَّى كاد يزول عنها كل دهائها من شدة الرعب، لكنني استمتعت فعلاً بالريح والمطَر والتجديف بالقارب. كان النُّوتي هادئًا بشكل كبير ولم يكن هناك أي شيء لنخاف منه، لكن بشكل مختصر بعد أن عدنا إلى غرفة المودموزيل في شيلون أضاءت الغرفة بعدد كبير من الشموع.

من سوء حظِّها وصلتْ أمي في نفس تلك الليلة. ولم تصمد المربية معنا، فقد امتحنتنا أمي لتعرف مدى تأديتها لواجبها، وكانت لدينا أكوام من الكلام والمعلومات عن رحلتنا، وأردنا بحماس أن تعرف أمي كلَّ شيء. وفي النهاية جاءت القشة التي قصمت ظهر البعير بوصول الفاتورة وفيها المئات من الفرنكات نظير العدد الهائل من الشموع التي اعتادت إيقادها للصَّلاة والدُّعاء، أرادت المربية تفسير ذلك بكونها ضرورية للغاية من أجل سلامتنا لكن ذلك لم يترك أثرًا عند والدتي، التي رغم ألمها وإرهاقها بعد ما مرت به لم تفقد إحساسها بالكرامة؛ لذا أُبلِغَتْ المربيةُ بإنهاء خدماتها ووجوب رحيلها. صارتْ تتميز غضبًا وغيظًا واتهمتنا بالوشاية بها والمبالغة، وكانت هناك «كلمات» ومع احتدام الجدل ولَّينا هربًا. غادرت المودموزيل في وقت مبكر من صباح اليوم التالي دون أن تودِّعَنا حتَّى، ناسبَنا ذلك بلا شكٍّ، فقد صار بوسعنا اللَّعب مع أمي شريطةَ الالتزام بقواعد الاحترام، وقد تركتنا لنلعب براحتنا أكثر من المعتاد.

سرعان ما عقدت أمي صداقة مع الكونتيستين الروسيتين واحتسين الشاي من السماور سويًا كل يوم تقريبًا، وتناولنَ الحلوى التي تجلبها أمي من محلِّ حلويات قريب.

بعد وقت قصير من وصول أمي؛ وجدتُ عشرة فرنكات ذهبية في الشارع، خارج الفندق مباشرةً. لم تصادفني من قبلُ مثل تلك الثروة، فمصروفنا هو فرنك واحد كل أسبوع وكان ذلك كافيًا بالفعل، إذ ندر أن نحتاج لشراء شيء بأكثر من خمسة إلى عشرة سنتات. لكن هذه العشرة فرنكات مكنتنا من إرضاء رغبة كنا نتوق لتحقيقها على مدى شهر ألا وهي ركوب القطار الجبلي من شيلون حتَّى جبل ناي(82)، وهي منطقة معروفة كموضع بديع الجَمال أعلى البحيرة. التسلق إلى هذا المكان يشق على أقدامنا الصغيرة لكن العودة إلى الأسفل سهلة للغاية كما خمَّنَّا. كانت الأجرة للصعود فقط خمسة فرنكات للفرد. عندما وجدت الجنيهات أخبرت أمي بلقيتي، وللحظة مرعبة اعتقدت أنني سأخسرها لأنها قالت إن هذا المال لا بد أن يكون لشخص ما ويتوجب علينا البحث عن مالكه لكن بعد المناقشات صرنا إلى اعتماد مبدأ «ملك لمن يعثر عليه».

باشرنا برحلتنا؛ وللأسف أغفلنا اتخاذ أي إجراءات احتياطية للسفر، لم يخطر على بالنا إخبار أمي بما ننوي فعله، فقد اعتدنا من المودموزيل عدم الاكتراث لغيابنا حتَّى يحل الليل، واعتادتْ أن تعطينا ساندويشات لنأكلها في منتصف النهار عند ذهابنا إلى واد شيدرون(83)، كما أننا لم نكترث لمعرفة كم تستغرق الرحلة، ورغم أننا فكرنا بالعودة على الأقدام لكن لم نخطط لطريق العودة ما عدا قرارنا بتجنب الطريق الطويل المتعرج ومحاولة العودة في طريق مباشر. لكن معظم الطريق الذي اتخذناه يمر عبر أراضي الكروم وحقول المحاصيل النابتة للتو، قضينا جُلَّ رحلة العودة في محاولة تفادي الفلاحين وزارعي الكروم المنزعجين وهم يلاحقوننا بالعصي والصياح. وعندما وصلنا إلى البيت منهكين للغاية وقد آذانا الجوع ولأننا وصلنا متأخرين للغاية على موعد العشاء فلم يعد هناك ما يقدم لنا، اعتذرت أمي عن ذلك وأرسلتنا إلى الفراش على مضضٍ.

كان وقتًا ممتعًا لفترة قصيرة بالنسبة لنا نحن الأطفال، لكن الأخبار السيئة قد تسافر ببطء بيد أنها تصل لا مفر، فبعد فترة قصيرة من وصول أمي إلى شيلون أدرك مدير الفندق هويتنا، ولخوفه على السمعة الطيبة لعمله أخبر أمي بأدب أننا لم نعد موضع ترحيبٍ(84). سيريل في حدود الحادية عشرة وأنا في التاسعة فقط، لكننا بتنا مجرمين وغير مرغوبٍ بنا في عيني مدير الفندق السويسري.

مارغريت بروك، راني سَرَواق (85)، كانت تحث أمي منذ بعض الوقت للقدوم إلى إيطاليا لتكون بقربها. كان لها منزل ساحر، هو فيلا رافو على شاطئ البحر على مشارف قرية بولاغيسكو الصغيرة، على شاطئ ليغورين، على مبعدة ثمانية أميال شرق جنوا وأقل من ميل من نيرفي(86)، وهي مدينة تسوق لها أهمية كبيرة. أجَّلتْ أمي هذه الخطوة لبعض الوقت واستعجلها السلوك العدائي لمدير الفندق فاتخذت قرارها، لذا مضينا إلى نيرفي، حيث حجزت لنا الراني غرفًا في الفندق الرئيسي.

الرحلة من سويسرا إلى إيطاليا جعلتنا نمر بنفق سانت غوثارد الذي كان في حينها أطول نفق في العالم. حُذِرنا مُسبقًا أن المرور به سيكون تجربة مثيرة للرهبة، لذا تهيأنا لشيء عجيب. لم تكن القاطرات الكهربائية قد وجدت بعد، ولعدم وجود تهوية على طول الاثني عشر ميلاً للنفق، فقد اتُّخِذتْ إجراءات احترازية لمنع الناس من الاختناق من دخان المحرك. ارتدى سائق القطار وعامل الفحم أقنعة للوقاية من الغاز، وقبل أن يدخل القطار إلى النفق جاء الحراس على طول القطار وتأكدوا من إغلاق كل النوافذ وفتحات التهوية بشكل محكم. نافذة أو فتحة تهوية واحدة مفتوحة كان سيكون لها بلا شك أثرٌ كارثي على الركاب في تلك المقصورة. استغرقَ القطار ساعةً ونصف السَّاعةِ للمرور عبر النفق، وترشح الدخان بالتدريج من حوافِّ النوافذ إلى مقصوراتنا حتَّى شقَّ علينا أن نرى من خلاله، صرنا نزيد ضوء الفانوس الوحيد في سقف المقصورة بالتدريج واستمرت الحرارة بالزيادة. وزاد الطينَ بلةً ارتفاعُ ضجيج القطار حتَّى صار يصمُّ الآذان، وفوق كلِّ ذلك أُصيبَ بعض الأطفال في المقصورة المجاورة بالفزع وبدأوا بالصراخ. وما إن اعتقدنا أنْ ليس بوسعنا

تحمل المزيد وأردنا فتح العربة ورمي أنفسنا حتَّى أشرق ضوء الشمس البهيج، فقد صرنا خارج النفق وتوقف القطار. اسودَّت نوافذ العربة بسبب الدخان ولم نعد نرى من خلالها، لذا خرجنا في صف واحد ريثما تُهوَّى العَربةُ وتُمسحُ النوافذ. شعرنا بالامتنان لكوننا على قيد الحياة مع شعور خفيف بالدهشة. هذه الأيام تمر القطارات الكهربائية بالنفق دون أن تتوسخ وتعبره في غضون عشرين دقيقة بصمتٍ مطبق.

وصلنا في الموعد المنشود إلى نيرفي، حيث التقينا بالراني هناك وذهبنا إلى الفندق. عاملنا كلُّ شخص، وبضمنهم مالك الفندق، بمنتهى اللُّطف والكرم. كانت الراني شخصية قوية وربما أثارت الخشية في قلوبهم أحيانًا. كانت تنحدر من عائلة قوية للغاية وهي عائلة دي وينتدس، أخوها هاري دي وينتدس كان مستكشفًا عظيمًا في نهاية القرن التاسع عشر، أكثر أعماله تميزًا تمثلت في السفر من بكين إلى باريس برًّا عام ١٨٨٧.

ها نحن ننطلق مجدَّدًا بشغب، وقد راقبتنا أمي بنفسها على أفضل ما تستطيع، موفرة الرعاية المطلوبة للوقت الحالي لكنَّ الأسى أحاطَ بها، وأرهقها تراجعُ صحَّتِها التي ظلَّتْ تنحدرُ تدريجيًّا إلى الأسوأ. قبل بضعة أشهر من مغادرة إنكلترا كانت قد تعثرت بسجادة تزحزحت من مكانها على السلم وسقطت على طول السلالم، وتأذى حبلها الشَّوكي ويدها اليمنى، ولم تُشفَ أبدًا من هذه الحادثة. لكنَّها بدتْ لبعض الوقتِ أسعدَ من ذي قبل بوجودها قرب الراني التي وفرت لها وسائل الراحة وواستها حتَّى وفاتها بعد ثلاث سنوات.

عشت أنا وسيريل في وجود غير مقيد. كانت هناك بعض المحاولات المتواضعة لإكمال تعليمنا، ذهبنا بزيارات دورية لسيد غامض في نيرفي قدَّمَ لنا محاضرات في المهارات الثلاثة(87) واللاتينية والفرنسية. لكن أغلب الأيام كنا نقضيها في التجوال على الشواطئ الصخرية نراقب الصيادين على الساحل وهم يصطادون الأخطبوط والحبار، وهم يحملون قطعة من قماش الفانيلا حمراء اللون في يد ورمح ثلاثي في اليد الثانية. ونتجول أحيانًا في الأرياف الجميلة المليئة بالمفاجئات. وضعنا الشباك والفخاخ في تيار الماء لنعود إلى الفندق في وعاء زجاجي مغلق ونغذي صيدنا بفتات الخبز حتَّى تتعود عليه. راقبنا السحالي تتشمس على الصخور، أعدادها بالمئات ولا يمكن إمساكها مطلقًا رغم أننا قضينا ساعات في محاولة ذلك. على مدِّ البصر تجد زهورًا كثيرةً، معظمها لمْ نعرفه من قبل، اعتدنا أن نقطفها ونعود بها لتزين غرفة والدتنا وقد منحنا ذلك فكرةً للثَّراء.

لاحظنا أن محل الزهور في نيرفي يبيع للسواح زهور النرجس بسعر ليرة واحدة للحزمة. الليرة الواحدة تعادل عشرة بنسات، ما يعادل حاليًا نصف كراون على الأقل. لذا قضينا الكثير من الوقت في قطف زهور النرجس التي نبيعها للزوار الأجانب بنصف ليرة للحزمة، وهذهِ سوق سوداء قاسية، كنا نتظاهر بعدم معرفتنا للإنكليزية أو الفرنسية إذا ما خُوطِبنا بأيٍّ منهُما. مكنتنا مكاسبنا من شراء كل الأشياء التي يمكن أكلها، ولا شك أن شهيتنا لأكل البيت قد تأثرت جراء ذلك لكن لم نثر شكوكًا كافية. كان ذلك سيستمر طويلاً لولا أننا قررنا

بشكل مفاجئ أن نتشيطن ونستثمر بعض أرباحنا في زجاجة صغيرة من نبيذ شيناتي(88)، هرَّبنا الزجاجةَ إلى الفندق في أحد النهارات، بينما أمِّي بعيدةٌ في فيلا الراني، وجلبنا بعض الطعام وحملناه هو والنبيذ وانطلقنا إلى التلال خلف نيرفي لإقامة وليمة.

اكتشفنا مخبأ مثاليًا، كوخًا رثًّا مثبتًا بالألواح ويمكن الوصول إليه فقط عن طريق سلم متداعٍ بُنِيَ كمكان مراقبة حتَّى يكون بوسع الرعاة مراقبة القطيع ولكنه لم يُستَخدَمْ منذ زمن طويل. تسلقنا إلى مخبأنا وأكلنا طعامنا وشربنا نبيذنا، وعلى الفور دخلنا بنوع من الغيبوبة الكحولية، ولم نستيقظ حتَّى بعد منتصف اللَّيل حيث كنا نشعر بالبرد وتملَّكنا خوفٌ مريع، ولم نعرف ما الذي نفعله. كان الظَّلام دامسًا ولم نجرؤ على مغادرة المكان، مع ذلك بدأنا بالصراخ، وبعد بعض الوقت لفتنا انتباه فرقة بحث كانت قد انطلقت بحثًا عنا، أُعِدنا إلى الفندق حيث تسلم منقذونا جائزة قيِّمةً بلا شك، ومن ثم بعد استجواب شديد أنهرنا واعترفنا بكلِّ شيء، وهكذا انتهى أولُ مشروع مالي كبيرٍ لنا.

لم نبقَ في نيرفي لوقتٍ طويل، إذْ توجَّبَ على أمِّي العودةَ إلى إنكلترا لإنجاز بعض الأمور. لم تشأ أخذنا معها ولا يمكن على أي حال تركنا في نيرفي، خاصَّةً بعد أن عرفت أي مقالب بوسعنا فعلها عندما نُترك وحدنا. لم يكن لدى الراني مكانٌ لنا في فيلتها، لأن لديها ولدين شابَّين يعاودان القدوم إليها كلَّ حين. في طريقِها إلى إنكلترا أخذتنا أمي معها إلى أخيها أوتو الذي يعيش في بيافو، وهي قرية صغيرة تبعدُ حوالي تسعة أميال غرب نيوشاتل في سويسرا حيث كان يعيش لبعض الوقت على الطابق العلوي لنزل من طابقين، كان ذلك بداية صيف ١٨٩٥ وتجربتنا الثانية للمرور بنفق سانت غوثارد.

المكان يدعى نزل بنغورل، حملَ اسم مالكته الآنسة بنغورل التي احتلت الطابق الأرضي حيث تعمل على صناعة جبنة غرينري. كما كان هناك قبو وضعَ فيهِ النبيذ بكل مراحل التخمر داخلَ حافظاتٍ وقواريرَ. بوسع المرء أن يصل إلى الجزء الذي عاش فيه خالي عن طريق سلالم خشبية خارج المنزل تقود إلى غرفة الطعام المطلة على الحديقة. عاش هناك مع زوجته الثانية وطفليهما، كان باحثًا كرس نفسه لدراسة الكلاسيكيات الإغريقية، وقد درس في أكسفورد في نفس الوقت مثل والدي لكنهما لم يلتقيا هناك أبدًا. أعادنا خالي مجدَّدًا للتركيز على الدراسة التي تجاهلناها تمامًا في الأشهر الثلاثة السابقة.

لم تذهب أمي إلى إنكلترا مباشرة، وفي أحد الأيام بعد فترة قصيرة من وصولنا إلى بيافو دُعِيتُ، وأخي، إلى غرفة الطعام التي هي في الوقتِ نفسه غرفة مكتب خالي. طلب منا الجلوس، وأُعلِمنا بتغيير أسمائنا، لن نكون آل وايلد بعد الآن، وسيكون هولاند هو اسم عائلتنا الجديد، ودُرِّبنا على كتابة أسمائنا الجديدة، وأعطينا ورقة للتدرب عليها. أُزِيلَ اسمُ أوسكار من اسمي كذلك، وزاد الطين بلة تغيير لفظ اسمي من ڤايڤيان إلى ڤيڤيان (فيما بعد عدتُ لاعتماد اللَّفظ الأصلي)، وفي الوقت نفسهِ أُبلِغنا بأن ننسى اسم وايلد بالمرة ولا نذكره لأيِّما شخصٍ. صُودِرتْ كلُّ ممتلكاتنا وفُحِصتْ للتأكُّد من عدم وجود اسم وايلد

مكتوبًا في أي مكانٍ، بل غُيِّرتْ ثيابُنا. أعتقد أن ابنَ خالي الصَّغير حضرَ تلكَ الجلسة، في الحقيقة أظنُّ أن كليهما كانا هناك لكيلا ينتابهما الفضول بشأن أسمائنا الجديدة ومن أجل أن لا يتحدَّثا عن الموضوع خارج المنزل.

أمي وخالي التزما الصَّمت المطبق ولم يفسرا سبب التغيير، أدركت وجود خطب ما لكنه شعور غير واضح، فوضعي مختلف عن وضع سيريل الذي عرف بالموضوع في أيرلندا. من المثير للاهتمام أنني لم أسمع أخي يذكر اسم والدي أبدًا من ذلك اليوم فصاعدًا. بعد تلك الجلسة ذهب أخي إلى المنزل الصيفي في الحديقة ورفض الكلام مع أي شخص وامتنع عن الكلام حتَّى انهارت أمي باكيةً، وأجبرته دموعها على الانسحاب من عزلته.

اسمُ هولاند هو اسم عائلي قديم له صلة بعائلة أمي. لم ترد عائلتها أن نتخذ اسمَ لويلد على اسمهم، وأفترض أنهم لم يرغبوا بمزيد من التعقيدات والأسئلة وسوء الفهم. خالي الذي كان مهتمًّا للغاية بالأسلاف من كل نوع، امتلكَ شجرة عائلة هولاند وأصلهم من لانكشاير وتتبعهم حتَّى السير ستيفن هولاند، لورد سيكفيستون زمنَ الملك إدوارد المعترف(89). شجرة العائلة هذه كانت وثيقة مكتوبة على لفتين من الورق طول كل واحدة منهما حوالي خمسة أقدام، وقد كتبت في بداية القرن التاسع عشر وتحتوي أسماء «مهمة» بضمنها السير أوتو هولاند أحد الفرسان الأصليين للرباط(90).

صلتنا بالعائلة بعيدة نوعًا ما، مولي واطسون التي كانت من آل هولاند تزوجت من جون لويلد والد جدي في نهاية القرن التاسع عشر. على أي حال ما دام الاسم سيتغير فليتم تغيره لاسم له صلة فعلية بعائلتنا. لا أزال أملك المرسوم الملكي الذي أقر تغيير أسمائنا بشكل رسمي، تملؤه الأختام والشعارات وموضوع في صندوق مغربي أحمر شديد اللمعان، وله ذراعان من الجرانيت، يؤسفني القول إنني لم أستخدمهما أبدًا.

ذهبت أمي إلى لندن بسرعة بعد هذه الأحداث، والمتعة الرئيسية لحياتنا تركزت على صيد الأسماك عند بحيرة نيو شاتل؛ تبعد البحيرة عن القرية مسافة تقل عن نصف ميل، وقد قضينا ساعات في محاولة صيد الأسماك لا لغرض إطعام العائلة، بل من أجل إنشاء بحيرة اصطناعية كبيرة وسط حديقتنا. ربما لم يكن الصيد جيدًا جدًا من حيث الوزن لكنه ليس كل شيء، ويكفي الفخر المتولد من حمل خيط الصيد المعلَّق بخطَّاف حاملاً فتات الخبز. لا يزال لغزًا عندي سبب انجذاب أي سمكة لهذا الخطاف الذي لم يكن معلقًا بقصبة صيد وبكرة مثلما هو متعارف عليه في أصل هذه الرياضة، الجزء المزعج الوحيد هو عند نزع السمكة من الخطاف، الأمر الذي أشعرني بكوني جلاَّدًا باردَ الدَّمِ، أي شيء أمسكناه عدنا به إلى الشاليه في علبة قصدير مليئة بالماء ونقلناه إلى البحيرة حيث يختفي الصيد بسرعة بين الأعشاب الكثيفة حتَّى يحين الوقت، فبعد فترة ليست بالطويلة تموت تلك الكائنات وتصعد إلى السطح وتطفو.

في أحد الأيام كنا نقوم بنزهة إلى نيو شاتل عبر مركب بخاري، وقد ذهبنا على متن عربة يجرها حصان لنجتاز ميلين من مزارع الكروم إلى كورتايلود وهو أقرب مكان لركوب السفن. خلال الانتظار لوصول القارب وقعت عينيَّ المبهورة على كمية كبيرة من الأسماك لم أرَ مثلها من قبل في حياتي، ورأيت في خيالي البحيرة في حديقة بيافو وهي تمتلئ بها. لم أكد أنم تلك الليلة وأنا أعد الأسماك التي ستلتهم الطعم. وفي الصباح التالي انطلقتُ مع مطلع النهار وجمعتُ عدة الصيد وبعض الخبز ودلوًا كبيرًا ومضيتُ على الأقدام إلى المرفأ، وصلت إلى هناك في فورة حماس قوية وهناك مُنِعتُ من الدُّخول من قبل مراقبي المرسى، واشترط عليّ إظهار تذكرة أو دفع ثمنها. يا للخسارة! فمن شدة الحماس لم يخطر على بالي هذا النوع من التفاصيل لكن في النهاية خيبة آمالي المرة كانت مفيدة، إذ نجحت توسلاتي وسمح لي المراقب بالزحف مع عدتي من تحت السياج.

حدثت المغامرة بموافقة تامةٍ من خالي وزوجته التي حضَّرتْ لي وجبة غداء، لذا بقيت في كورتايلد كل اليوم تقريبًا، لم ترقَ النتائج لأدنى طموحاتي مثل أحلام اليقظة لمقامر في ديوفيل(91) عندما ينادي موزع الورق ليحطم أحلامه الكبيرة. لذا حلمت بوصول شخص معي ليساعدني في حمل ثقيل، لكن السمك في الميناء لم يكن ساذجًا كفاية مثل أسماك بيافو التي يسهل صيدها على الأطفال الصغار، كل ما تمكنت من صيده لم يتجاوز مقدار عشر أسماك صغيرة (حوريات) حملتها إلى البيت رغم الخزي وأفرغتها في البحيرة.

مضت الحياة بهدوء كبير طَوال ذلك الصيف، ثم جاء شهر أيلول/سبتمبر وموسم عصر الكروم الذي سيطر على كل أفكارنا. تقع بيافو في قلب الريف الذي ينتج أفضلَ نبيذٍ أحمرَ في نيو شاتل بل وسويسرا كلِّها، إنَّه نبيذ كورتايلد الذي لا يختلفُ كثيرًا عن نبيذِ بيجلوس(92)، ويُصنَعُ من كروم باينوت الأرجوانية(93) التي تتجمع بكثافة على العُروقِ عندَ أوانِ القِطافِ، ولها لونٌ جميلٌ يشكِّلُ تناقضًا مدهشًا مع اللَّون الأخضر النَّقي للأوراقِ.

منذ اليوم الأول لقطاف الكروم، صرنا أنا وأخي وأبناء خالي نقضي النهار كله في حقول الكروم من الصباح حتَّى المساء، نجمع العنب ونأكل الكثير منه ونخزن الباقي في براميل صغيرة(94) تحاكي البراميل الكبيرة التي يستخدمها الكبار، البراميل مستدقَّة النهايات المزوَّدُ واحدها بحمالتين من الجلد لحمله على الظهر مثل حقيبة. توفرت البراميل بكل الأحجام لأن قطفَ الكروم الذي يستغرق عدة أيام يشغل كل وقت الرجال والنساء والأطفال في القرية. كان الجوُّ جميلاً في أيلول/سبتمبر ونحن الغُرباء عملنا بكدٍّ مثل الجميع رغمَ أنَّنا على الأغلب لم نكن بكفاءة الأطفال المحليين الذين كانوا معتادين على هذا العمل منذ بدأوا المشيَ.

عندما امتلأت براميلنا حملناها على ظهورنا وذهبنا بها إلى جانب الطريق، وهناك أفرغنا حمولتَها في عربات بشكل براميل لتحمل الكروم إلى قبو نزل بنغورل، ومن هناك تُنقلُ إلى معاصر النبيذ، وبمجرَّدِ امتلاءِ المعصرةِ يُوضعُ غطاءٌ ثقيل عليها يضغط بمرود خشبيٍّ ضخمٍ

يحركه رجال يستندون على الجوانب، ثم يجري عصر العنب خلال الفتحات في قعر المعصرة التي تصب في أوعية أكبر، وهذه بدورها تصب في أحواض مفتوحة.

الشذا المتولد عن عصير العنب كان بديعًا وقد تشعّب في كل زوايا البيت. كلَّ ليلةٍ، عندما تُفرَّغُ آخرُ شحنة وعصرها تتلاشى الأنشطة وتخفِت الضوضاءُ ويسمح للعنب بالتخمّر في سلامٍ، كنَّا نُؤخَذُ لإلقاء نظرة على كيفية إزالة الرغوة، ثم يعطينا الخمَّار(95) شربةً(96) في كؤوس صغيرة للغاية، وعادةً تزداد هذه الجرعة قوة يوميًّا حتَّى بلغْنا مرحلة العودة إلى البيت مترنحين؛ فمُنِعنا من مواصلة الشرب.

تستمر العملية لفترة طويلة بينما يُجرى في الوقت نفسِه نوع آخر من التخمير في الطابق العلوي حيث تُجري زوجة خالي تجارب لتخمير الفواكه، الأمر الذي لا تعرف عنه أي شيء، وفجأة بدأت القوارير الزجاجية بالانفجار واحدة تلو الأخرى مثل القنابل، ولم يعد أي أحد يجرؤ على الاقتراب من الخزنة حيث تُحفظُ القوارير خوفًا من انفجارها. في النهاية وخلال فترة هدوء مؤقت نقلَ خالي (متَّخذًا تدابيرَ حمايةٍ قويَّةٍ) القوارير إلى الحديقة، حيثُ يقطعُ بشجاعةٍ السِّلكَ الذي أحكم به الغطاء. وكلما يُقطع السلك ينطلق الغطاء في الهواء مثل صاروخ يليه تسرب كتلة سوائل. تلك تجربةٌ فاشلةٌ لكن العصير المتبقي في القوارير كان لذيذًا. وبعد فترة انتقالية ملائمة أُعِيدتْ تعبئته في زجاجات وإنتاج شرابٍ منزلي الصنع وممتاز؛ حلو جدًا ومركّز للغاية.

بعد موسم قطف الكروم أخذَ الجوُّ يبردُ، وهطلت أمطار غزيرة خلال فترات متقاربة، وبدأتِ اللَّيالي تصبح باردة للغاية. أرادتْ والدتي العودة إلى الجنوب مجدَّدًا في إيطاليا حيث الدفء والرفقة الطيبة للراني. تقع بيافو على ارتفاع ١٦٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر، ولم تكن مكانًا ملائمًا لقضاء الشِّتاء لكنَّ والدتي لم ترغب بالمغادرة وحيدةً أو برفقة أطفالها فقط، لذا وجدت لها الراني شقة لطيفة للغاية، كبيرة بما يكفي لتتسع لعائلتها وعائلة أخيها، في الطابق العلوي من فيلا تقع في ضواحي قرية سوري على بُعد ميلين من بوغيلاسكو، لذا حزمنا أمتعتنا وسافرنا مجدَّدًا.

تكاليفُ مثل هذا التنقل المستمر لو حدث في أيامنا لكانت باهظة للغاية لكنَّ التَّنقُّلَ في تلك الأيام كان رخيصًا إلى حدٍّ ما، لا سيَّما إنْ لم تمانعْ ركوبَ القطارات البطيئة، في عربات الدَّرجة الثَّانية.

توجب علينا المرور بنفق سانت غوثارد للمرة الثالثة في غضون أقل من ستة شهور، لذا عبرناه بهدوء وشعرنا بالتفوق على عائلة خالي الذين لم يسبق لهم المرور بمثل هذه التجربة، في الواقع أصبحنا مسافرين أقوى وأكثر خبرةً.

لم أزرْ قريةَ سوري بعد تلك الفترة أبدًا، رغم أنني مررت بها في الكثير من الأحيان لكن ذكرياتي عنها واضحة كما لو أنني زرتها البارحة. كانت في حينها قرية صيد صغيرة في وادٍ

عميق حول جسر ضخم يحمل سكة الحديد من جنوا إلى سبيزيا ومن ثم روما. تقع الفيلا التي نقطن فيها خلف النهاية الشرقية للجسر أعلى القرية. وهناك حديقة على منحدر صخري تتوزع فيها أحجار الدم (يشب الدم) والعظايا، وتمتد إلى نهاية المنحدر، حيث توجد ممرات خشبية متهالكة تقود إلى الشاطئ، ثمة أفاعٍ في الحديقة، والمنحدر متعرج، والممرات متراخية، الممر الوحيد إلى الحديقة عبر غرفة في الطابق الأرضي، وعدَ ساكنوها بعدم السماح للأطفال بالمرور إلى الحديقة ما لم يرافقهم أحد الكبار، وقد تدبرنا تجاوز هذه العقبات.

الشقة نفسها مكونة من غرفة معيشة كبيرة، وغرفتي نومٍ يمر من خلالهما ممرٌّ صغيرٌ. خلف غرف النوم يقع المطبخ والغرف المعتادة، وباقي المساحة عبارة عن سقيفة وهي مكان لعب مميز في الجو الرطب، وكانت هناك أيام مماثلة كثيرة عند ذلك الشاطئ، مكننا ذلك أيضًا من تفادي إزعاج البالغين. مُنِعنا من الدخول لغرفة الطعام خلال النهار، ما عدا وقت الوجبات وفي الصباحات حيث يستمرُّ خالي في جهوده لتثقيفنا.

كنا نقضي الوقت بعد الظهيرة في الأيام المعتدلة إما بالذهاب إلى الطريق المؤدي لقرية سوري لمراقبة الصيّادين القادمين أو نمشي على طول الطريق الشرقي إلى روكو حيث مصنع الألعاب النارية، وقد سُمِحَ لنا فقط بالنظر إليه عن بُعدٍ مخافةَ أن ينفجرَ في أي لحظة، فسبقَ وانفجرَ من قبلُ عدةَ مرَّاتٍ. كما اعتدنا أنا وأخي الذهاب مرتين كل أسبوع إلى نيرفي التي تبعد عنا ثلاثة أميال وذلك من أجل شراء الخبز لأمنا. كانت هناك ضريبة ثقيلة على الملح في إيطاليا تلك الأيام ولم يستطع الإيطاليون الفقراء شراءه، لذا صار الخبز في مناطقهم لا يحتوي الملح إلاَّ ما ندر. لم ننزعج من ذلك لكن أمي لم تتحمل مذاقه، وأقرب مكان يبيع الخبز بالملح كان بعيدًا للغاية لذا كنا نأخذ القطار إلى نيرفي ونعود مشيًا على الأقدام.

لسوء حظ أمنا المسكينة فإنَّ رائحة الخبز الطازج لا تقاوم، ولم نكن لنبلغ نصف الطريق حتَّى نبدأ بثلم أطرافه وأكلها، لذا بحلول الوقت الذي نصل فيه إلى سوري يكون نصف الخبز قد نفد. مرة أكلنا الخبز كله تقريبًا وشعرنا بالذنب فرمينا ما تبقى وقلنا إننا أضعنا الخبز. بعد ذلك أعدنا الكرة بالمشي إلى نيرفي والعودة على متن القطار، وقد أُؤتُمِنَّا على القيام برحلة كتلك.

المضي بصورة مستمرة على الطريق نفسه صار مزعجًا، وبدا لنا أننا ربما نكون قادرين على تجنب الانزعاج بإعادة إحياء عملنا القديم في بيع الزهور في نيرفي بما أننا صرنا بمأمن من المراقبة هناك، لذا ومن أجل عدم إثارة الشكوك بشأن غيابنا الطويل بدأنا نركب القطار ذهابًا وإيابًا، وكان بوسعنا تحمل تكلفة ذلك بالطبع بما أن الوقت شتاء وهناك سياح أجانب في نيرفي أكثر من أي وقت مضى.

في استثمارنا المثالي الثاني تجنبا بحذر أي سقطات مثل نبيذ شيناتي والمبالغة في الأكل. استبدلنا معظم أرباحنا بعملات صغيرة للغاية، أهل القرية في غاية الفقر ومعظم تسوُّقِهم اليومي لا يتجاوز السنتات، ويتم بالتدريج تدويرُ العملات من سنت واحد إلى خمسة سنتات، ومعظمها أُصدِرَ قبل التوحيد(97) وعملات مماثلة من كل بلد أوربي، بعضها يعود عمره لأكثر من قرنٍ. معظم السكان أميين ويعرفون العملات من حجمها فقط وليس عن طريق الكتابة عليها، لقد قنعوا بأي شيء مدور يحمل كتابةً، حتَّى أنني حصلتُ على عملتين بقيمة نصف فارذنغ فيكتوري(98)، وجمعنا كميةً كبيرة من هذه العملات الصغيرة حتَّى حَرمنا القريةَ منها.

في تلك الأيام تمكنا من شغل أنفسنا كل وقت الظهيرة مما فسح المجال لخالي أوتو باستئناف دراسته الإغريقية دون إزعاج. إحدى المتع المخيفة للغاية تمثلت في مراقبة مرور القطار السريع في رحلته النهارية من روما إلى جنوا، كان ذلك مصدرًا للحماس وعذابًا جميلاً. السكة التي تمر عبر ساحل ليغران كانت عملاً هندسيًا مبهرًا. هناك القليل من أماكن الرؤية ويمر الخط عبر دزينة من الأنفاق إلى البحر المفتوح، الأنفاق نفسها متصلة بخط مفتوح ممتد وأنفاق. تحت فيلتنا يوجد واحد من تلك الخطوط المفتوحة، طوله حوالي عشرين ياردة، كان في حقيقة الأمر محض فجوة في النفق بين ريكو وسوري. أخي وأنا كنا نمر بهذا الفراغ قبل الغداء مباشرة وننتظر القطار السريع، إذ إنَّ بوسعنا سماع هدير المحرك وهو يغادر محطَّةَ ريكو على بُعد ميلين، بعد ذلك بفترةٍ قصيرة يمكنُ سماع الأصوات تتصاعد وتعلو بالتدريج وتتفسر بكونها نفخ المحرك والصوت المعدني للعجلات وهي تمر على السكة. كانت الضجة تتزايد، ومن المستحيل تحديد مدى قُرب القطار، يندفع الهواء سابقًا القطار، تشرع الريحُ بالهبوب وتبدأ بالصَّفير خارج النَّفق وتدفع في طريقها الأغصان والأوراق التي تتطاير من حولها لتزيد الإحساس بالممنوع. كنا نتوق للمضي في أعقابنا هاربين ولكننا بدلاً عن ذلك نقف مبهورين وأعيننا مثبتة على النفق. فجأة؛ يبدأ المحرك بالزعيق ويقذف الدخان والوميض والبخار في تناغم كما بدا لنا حتَّى يصبح على مقربة عشرين ياردة عن المقطع الصغير من النفق الذي يؤدي إلى نفق سوري، كنا مبهورين للغاية بهذا القطار، وكمن يحدق من علوٍّ تغريه الرغبة بإلقاءِ نفسه، اعتدت الشعور برغبة جارفة بأن أرتمي بنفسي أمام هذا الوحش المتطور، أريدُ بالتضحية بنفسي قربانًا لهذا الطَّاغوت.

السقيفة سلمت تقريبًا لي ولسيريل وقسّمناها بيننا لكن أخي الذي مضى دائمًا وفق مبدأ كلِّ ما أملكه هو ملكه بالضرورة ظلَّ يدخل ويخرج من منطقتي بحُرية رغم أنني مُنعت بقوة على الدوام من دخول منطقته. حصلنا على ألعابٍ جديدة قليلة للغاية خلال فترة تجوالنا، واعتمدنا على خيالنا للعب لكننا الآن أصبحنا نجاريْنِ متحمسين وأعزُّ أمانينا(99) الحصول على ألواح كبيرة من الخشب، منشارٍ، مطرقةٍ، نشارة خشب، ومساميرَ لنلعب بها في الجو الرطب عند السَّقيفة.

صار لي ولسيريل العديد من الأصدقاء من السكان المحليين، وأكثرهم باسيفكو(100)؛ نجار القرية الذي يمتلك ورشة عمل أسفل التل، كان رجلاً ضخمًا بشارب أسود معقوف الطرفين يرتدي دائمًا قبَّعةً سوداء ومئزرًا جلديًا، لو أن هناك أي رجل يخالف اسمه مظهره لكان هو، لكنه رجل طيبٌ بالعموم؛ فقد منحنا معظم المواد الأولية التي رغبنا بها مثل قطع الخشب والنشارة والغِراء دون مقابل، واشترينا باقي الأدوات والعُدَّة بما جنيناه من بيع الأزهار. لا يبدو أن هناك من لاحظَ كمْ من الغريب أن تظهر المناشير والمطارق والمسامير من العدم. في تلك الأيام نظرت إلى الغراء بوصفه هدية من الآلهة، مادة لاصقة غامضة تكاد تنبض بالحياة بوسع المرء استخدامها لعدة أغراض، كنت دائمًا قلِقًا من مسألة تغير شكله وقوامه وكيف إذا ما نُسِيَ يتصلب ولا يعود مطواعًا كما لو أنه يموت. لن أنسى أبدًا الخيبة التي شعرت بها عند اكتشافي أنه خليط من الطباشير الفرنسي وزيت بذر الكتان وهما مادتان لا معنى لهما عندي.

للطفل اليوم غراء خاص به وهو تطوير كبير للغراء في طفولتي حيث يمكن الحصول على الغراء من النجارين فقط والعاملين في البناء وحتَّى هؤلاء لم يمتلكوا سوى كميات صغيرة منه.

لكنَّ المصدرَ الفعلي للغموض في القرية يتمثَّل في مصنع المعكرونة إذْ تُنتَجُ كل أنواع المعكرونة والسباغيتي، الغانيولي والألفابيني(101) وغيرها. سُمح لنا بالذهاب ومراقبة مكائن تقطيع المعكرونة لتصنع منها كل الأشكال المنوعة، وعرفنا السر المحفوظ الذي حيَّر النَّاس لعِدة أجيال وهو كيف تُصنَعُ الفجوة في قلب المعكرونة. غذَّى المصنعُ كلَّ المناطق المجاورة، فقد عاش المعدمون في هذهِ المناطق معتمدين بشكل تام على السمك والمعكرونة والبولينا والخبز وزيت الزيتون وبالطبع القليل من النَّبيذ. معظمهم لم يأكلوا اللَّحم أبدًا في حياتهم ولا يبدو أن ذلك أضرَّ بهم، فقد كانوا عِرقًا صلبًا.

في الثالث من شباط/فبراير ١٨٩٦ توفيت جدتي لأبي، الليدي وايلد سبيرنزا في لندن. بعد عدة أيام خرج أخي من غرفة أمي وعلى وجهه نظرة غريبة قال لي: «اذهب إلى أمي، إنها تريد الحديث معك»، دلفت إليها، وأبلغتني بالنبأ. لطالما أحبطَ الموتُ الصِّغارَ حتَّى إن كان الميت شخصًا لا يعرفونه جيدًا، فهو يحطم القلعة التي يبنيها المرء حول نفسه. ثم قالت أمي: «أنا عائدةٌ إلى إنكلترا، لأبلغ أبيك بالخبر»، سألتها: «أين أبي؟ لِمَ لمْ نعد نراه أبدًا»، أعتقد أن هذا سؤال تحاشته أمي لأشْهُر. أجابتني: «والدك ليس بخير، إنه في مأزق كبير». كنت خائفًا من المضي أبعد في تساؤلي لكن الشكوك الغامضة التي هاجمتني في بيافو عندما غيَّرنا أسماءنا كانت تضغط عليَّ بقوة وكنت واعيًا بحمولة اليأس الثقيل على كتف أمي وتمنَّيتُ لو أنَّ بوسعي أن أحملَ جزءًا من العبء عنها.

لم أعرفْ ما حدث بين أمي وأخي، لكن أثار اهتمامي أنها نقلت لنا الخبر بشكلٍ منفصل، وأفترض أنها خشيتْ احتمالية أن يقول شيئًا لا تودُّ لي سماعه، فهو «يعرف» على أي حال.

ذهبتْ أمي إلى إنكلترا، وغابتْ حوالي ثلاثة أسابيع التقتْ خلالها والدي وأبلغتْهُ بالنَّبأ، وذلك آخر عهدها برؤيته، لتعودَ إلينا بعد ذلك ونستأنف حياتنا بشكل طبيعي.

في (اثنين عيدِ الفصح) تُقام معركة زهور كبيرة في نيرفي، وذلك هو الحدث الأكثر أهمية على شواطيء ليغرون، إذ يأتي الأشخاص من مناطق بعيدة حتَّى من سبيزيا لحضوره. حجزت الراني جناحًا من الغرف في الطابق الأول بفندق نيرفي ودعتنا للقدوم والمرح.

وصلنا إلى الفندق في نيرفي بواسطة عربة يجرها حصانان في وقت مبكر من الصباح لتجنب الزحام. رُحِّبَ بنا بحماسٍ من قبل مدير الفندق الذي أصرَّ على مخاطبة أمي بصيغة السَّيدة وايلد مكررًا الاسم في كل مرة يخاطبها. بعد سنواتٍ من ذلك أخبرتني الراني أن أخي تحمَّل الأمر لبعض الوقت ثم انفجرَ بالمدير قائلاً إنها لم تعد السيدة وايلد بل السيدة هولاند، لم يكن المدير عارفًا بأي شيء عن حقيقة المسألة لذا افترض أنها أرملة وقد تزوجت مجدَّدًا فبدأ بتقديم التهاني حتَّى غيَّرت الراني الموضوعَ بسرعةٍ.

الجناح الذي حجزته الراني كان مليئًا بالزهور في حزم صغيرة لكي تقذف على الفتيات الشابات في العربات المحملة بالزهور وهي تمر على طول الشارع. الناس الذين يطوفون الشارع سيرمون بالزهور أيضًا حين تبدأ معركة الزهور.

رافقَ الراني ابنها الأكبر تشارلز فاينر بروك، الذي سيخلف أباه فيما بعدُ كمهراجا سَرَواق ويحكم البلاد حتَّى انضمامها إلى بريطانيا في نهاية الحرب الأخيرة. بدا شارلز أشبه بإله لنا نحن الصغار، فقد كان جميلاً للغاية ورياضيًا مفتول العضلات ومتخرجًا من كامبريدج. بعد أن بدأت حرب الزهور بوقت قصير وقعت عينا تشارلز على سيدة ساحرة الجَمال تقف عند نافذة عبر الشَّارع أمامنا مباشرة. لذا تجاهل السيدات في العربات وقضى وقته في محاولة ربط أغصان الزهور ببعضها البعض من أجل رميها إلى النافذة المقابلة، بذلت السيدة قصارى جهدها لإمساكها لكنه لم ينجح في قذفها بعيدًا. لذا بعد فترةِ يأسٍ ترك الغرفة ورأيناه بعدها واقفًا عند النافذة عبر الشارع يتحدَّثُ برقة مع السيدة الجميلة، وتلك آخر مرة رأينا فيها السيد تشارلز بتلك المناسبة.

عند عودة أمي من إنكلترا قررت أننا يجب الآن أن ننال تعليمًا أكثر رسمية، وكان واضحًا للغاية أن الترتيبات القديمة لم تكن كافية. استشارتْ كارلوس بلاكر وبناءً على نصيحته أُرسِلنا إلى مدرسة ألمانية. مُنِعتْ أعمال والدنا في إنكلترا بينما ظلت تستعمل كمواد منهجية لدراسة اللغة الإنكليزية هناك، وبدا لها أنه حتَّى لو كشفت هويتنا هناك سنظل في مأمن لذا عدنا للسفر ووجهتنا هذه المرة فرايبرغ.

الفصل الثالث

(75) مدينةٌ ساحلية في مقاطعة كينت بجنوب شرق إنكلترا. يعدُّ ميناؤها نقطةَ مرور للسُّفن المتَّجهةِ إلى كاليه في فرنسا.

(76) في الأصل عن الفرنسية (mal-de-mer).

(77) في الأصل عن الفرنسية (bougies 2 fr).

(78) في الأصل عن الفرنسية (recherché luncheon).

(79) في الأصل عن الفرنسية (Gare de l›Est).

(80) واحدةٌ من الصَّلوات المسيحية الرئيسية. تسمى أحيانًا بحسب مطلعها (أبانا الذي في السَّماوات)، وردَتْ في (إنجيل مَتَّى)، وبنسخةٍ أقصر في (إنجيل لوقا).

(81) لقبٌ يُطلقُ على القيصر الرُّوسي.

(82) في الأصل عن الفرنسية (rochers de naye)، جبلٌ في سلسلةِ الألب السويسرية.

(83) في الأصل عن الفرنسية (Gorges du Chauderon) وادٍ ضيقٌ بديعُ الجمَّال، يقع في هضبة مونترو السويسرية، حيث الفندق الذي سكنه الكاتب مع عائلته في تلك الفترة.

(84) في الأصل عن اللاتينية (Persona non grata).

(85) في اللُّغة الهندية الملك: مهراجا، بينما تُدعى زوجته الملكة: راني. أمَّا (سَرَواق) فإقليمٌ ماليزيٌّ يحيطُ بسلطنة بروناي. تاريخيًّا، حكمتْ (عائلة بروك) البريطانية الإقليمَ لأكثر من مئة عامٍ، وغالبًا ما سُمِّيَ ملكُ سرواقَ بـ (المهراجا الأبيض).

(86) أسماءٌ لمدنٍ ومعالمَ إيطالية.

(87) المهارات الثلاث (The three Rs): الكتابة والقراءة والحساب.

(88) نبيذٌ فرنسيٌّ شَهير.

(89) إدوارد المُعترِف، آخرُ الملوك الإنكلوساكسونيين، توفي عام ١٠٦٦. اللَّقبُ إشارة لتقواه وتمسكه بالكنيسة وبتقليد الاعتراف للكهنة.

(90) فرسان الرباط أعلى مراتب الفرسان المحاربين الإنكليز، تأسَّستْ في عام ١٣٤٨.

(91) مَدينةٌ فرنسية سياحية، اشتُهرتْ كونها موضعًا يجتمع فيه مُحبُّو القِمار.

(92) نَبيذٌ فرنسيٌّ شَهير.

(93) باينوت، سُلالةُ عنبٍ تُستَخْدَمُ في صناعة النَّبيذ الأحمر، والاسم مشتقٌّ من الفرنسية بمعنى: صنوبرٌ أسودُ.

(94) في الأصل عن الفرنسية (caques).

(95) في الأصل عن الفرنسية (vignerons).

(96) في الأصل عن الفرنسية (moût).

(97) وُحِّدَتْ إيطاليا عام ١٨٤٨ باجتماعِ بضعِ ولاياتِ صغيرةٍ لتكوين مملكة إيطاليا.

(98) عملةٌ إنكليزية قديمة تعادل ربع بنس.

(99) في الأصل عن الإيطالية (desiderata).

(100) يُشيرُ الاسمُ إلى الهُدوء.

(101) أنواعٌ من المعكرونة.

ألمانيا

عاشَ كارلوس بلاكر وزوجته كارولين وأولادهما الثلاثة في فرايبرغ لبعض الوقت، وهي المدينة الرئيسية في رينش الشمالية بمقاطعةِ بادين وموضع جامعة شهيرة أُنشِئتْ عام ١٤٥٦. مثل كل الجامعات حول العالم كانت تحتوي كذلك على مدرسة، أُرسِلنا إليها أنا وأخي كمَدرسةٍ داخلية، بينما عاشت أمي بعيدةً عنَّا؛ حيث رعتنا من بيت بلاكر.

في تلك الأيام، كان الشعب الألماني خِرافًا يرعاها ويتنمَّرُ عليها الأسياد الذين هم مثل كلاب الراعي، يريدون لهم البقاء وفق نظام محدد. بينما نحن الأيرلنديون كنا أحرارَ المولد فكرِهنا هذا النظامَ واعترضنا عليه وازدريناه. لذا لم تكن التجربة ناجحة للغاية؛ بعد اليوم الثاني أو الثالث من وصولنا بدأ مشرف الصف بضربي على رأسي بالمسطرة لفرض الانضباط. ظلَّ أخي على الدوام مدافعًا شرسًا عني وقد كرَّس نفسه لي أكثر منه، فثارت ثائرته على ما حصل وضرب المشرف بقوة على ساقيه وسدد له لكمة قوية للغاية على معدته بينما هجمت عليه من الخلف، لذا طُرِدنا وأُرسِلنا إلى مدينة ألمانية أخرى مع ملاحظةٍ تخصُّ سلوكنا.

فشلنا في هذه المدرسة كذلك. ورغم أننا كنا مثاليَّينِ في التعامل مع مشرفي الصفوف، فإنَّنا لم نصبر على بعض الكلمات المعادية للبريطانيين من قِبل الصبيان الآخرين. ذكرياتي عمَّا حدث ضبابيةٌ لكن وفقًا لرسائل أمي يبدو أننا تحدَّينا باقي المدرسة في مواجهة اثني عشر صبيًا ودعوناهم للقتال وهزمناهم شر هزيمة حتَّى فروا هربًا. كلَّما رُوِيتْ هذه القصة زعَم أخي أننا قتلنا ثلاثة منهم، أشك طبعًا في صحة هذا الكلام وربما هو مجرَّدُ تعبير أدبي مجازي من طرفه، على أيِّ حالٍ طُرِدنا مرةً أخرى.

رحلتنا في كلا المدرستين لم تدم أكثر من أسبوعين، وإلى اليوم لا فكرة عندي عن أسماء تلك المدارس. بعد الفصل الثاني تخلَّت أمي عن فكرة التعليم الألماني واكتشفت مدرسة إنكليزيةً في نيونهام بضواحي هيدلبرغ حيث كان لها أصدقاء.

ثمَّةَ جالية إنكليزية كبيرة في هايدلبرغ، كنيسة إنكليزية، ونادٍ إنكليزي وحتَّى مطعم إنكليزي. تضخَّمتْ هذه الجالية بالتدريج مع وصول السياح الإنكليز والأمريكان، لذا فإنَّ أمي التي أرادت أن تكون بقربنا على الدوام خوفًا من الكوارث التي قد نتسبب بها، قضت وقتًا طويلاً تنتقل بين هايدلبرغ وفرايبرغ.

كانت المدرسة تدعى كلية نيوهايم، وقد أُرسِلنا إلى هناك في نهاية أبريل/نيسان ١٨٩٦ عند بدء الفصل الصيفي. كانت هناك مدرسة إنكليزية ثانية وتقع في قلب هايدلبرغ، وتسمى كلية هايدلبرغ، ولطالما أثار ذلك دهشةَ الألمان، فجامعةُ هايدلبرغ أقدم جامعة في ألمانيا،

إذ تأسست عام ١٣٨٦، يشبه ذلك إقامة مدرسة ألمانية وسط أكسفورد وتسميتها كلية أكسفورد(102).

لم تكن هناك مودة بين المدرستين، وكلما التقى أعضاء المدرستين هاجمَ بعضُهم بعضًا. السَّبب الرئيسي لهذا الكره كان يعود تقريبًا لكون نصف الأولاد والأساتذة في كلية هايدلبرغ هم من الألمان بينما كان الجميع تقريبًا في نيونهام من الإنكليز ما عدا أساتذة اللُّغة (والذين لا سلطة لهم على الأولاد بأي شكل)، وكان لدينا في نيونهام كل الازدراء التقليدي الذي يحمله الصبي الإنكليزي للغرباء في تلك الفترة. وقد آمنّا بصدقٍ أن أيّ صبي إنكليزي بوسعه أن يواجه صبيين أجنبيين ويغلبهما في قتال بأسهل ما يمكن. إلى جانب ذلك ومن أجل التميز عن السكان المحليين كنا نرتدي ستر إيتون في أيام الآحاد على عكسهم، وكنا نعد فعلهم دليلاً على كونهم ليسوا أسيادًا نبلاء. لعبت المدرستان ضد بعضهما في لعبة الركبي والكريكت ومسابقات التجديف، وفازت مدرستنا تقريبًا في كل المنافسات.

تكونت المدرسة من ثلاثة مبان ضخمة نوعًا ما خارج قرية نيونهام التي كان يفصلها نهر عن هايدلبرغ.

المبنى المركزي؛ أكبر هذهِ المباني ويتكون من غرفة الطعام وجناح المدير في طابق أعلى بقليل من الطابق الأرضي. الطابق الذي بعده كان يحوي غرف باقي الأساتذة ومنام الطلاب. المبنى الشرقي حوى الصفوف والملعب وعلى طوله توزعت خزائن الطلاب. في الشتاء عندما يكون الجو باردًا للغاية كنا نقضي وقتًا كبيرًا في الملعب محاولين الحفاظ على دفئنا بلعب ألعاب تنافسية تتضمن عقوبات وإهانات للخاسرين.

المبنى الثالث، أي الغربي، يُسمى موضع الجيش، وقد كان بالفعل مؤسسة للجيش والبحرية والخدمة المدنية، أُدِيرتْ من قبل السيد آلان إرفينغ ابن المدير السابق للمدرسة. عاش هناك الصبيان الأكبر سنًّا وتلقوا تعليمًا خاصًا، وانضموا إلى الصبيان الأصغر سنًا في ألعاب الميدان. وألعاب الميدان هي الكريكت في الصيف والركبي في الشتاء والرماية طَوال المواسم. وعندما يتجمد النهر ويشكل الثلج طبقة كثيفة فوق الأرض ويستحيلُ اللَّعب تُنَظَّمُ لعبةُ الشطرنج الورقي من قبل مسؤول الألعاب في المدرسة. ما من رياضة مملة وبلا معنى مثل هذه الرياضة، اعتدنا التراخي في اللعب والخسارة لنعود إلى مساكننا رغم أن ذلك عند اكتشافه يتسبب بتحقيق مؤلم من قبل أستاذ الألعاب.

كنت في غاية التعاسة في كلية نيونهام، كانت المدرسة صارمة وفيها الكثير من التَّنمُّر كذلك. عانى الكثير من الصبيان ونحن منهم من تدني الحظوظ، إذ إن بعضهم سبق فصلهم أو انسحبوا من مدارس إنكليزية وبعضهم كانوا أبناء لآباء إنكليز وأمهات ألمان، عاشَ هؤلاء في وضع شبه بروسي. أنا نفسي كنت مشوشًا بأحداث العام الماضي كما أنني كنت أصغر صبي في المدرسة، لذا صرت بطبيعة الحال عرضة للهجوم. بذل أخي أقصى جهده

لحمايتي من الشَّراسة التي لا مبرر لها لكنه لم يكن قادرًا على أن يكون معي طَوال الوقت. مرةً، بعد وصولنا بوقت قصير، وُضِعْتُ داخلَ خزانة فارغة في غرفةِ الألعابِ وأُغلِقَ بابُها عليَّ، لم تكدْ تتسع لي لصغر حجمها إلاَّ في وضعيةِ القرفصاء، بقيتُ هناك مرعوبًا حتَّى أخافَ صراخي المُعذَّبينَ الذين هربوا بدلاً عن إطلاق سراحي، لكنَّ صَبيًّا -أكثرَ تعقلاً من الآخرين- أخبرَ المدرِّسَ بأنَّهُ سمعَ ضوضاء من غرفة الألعاب فجاءَ الأخيرُ وحرَّرني وأنا في حالة من الهيستيريا، ومنذ ذلك الحين أعاني خوفًا من الأماكن المغلقة.

كان هناك عدة طلاب مناوبين(103) من الصبيان الكبار في المدرسة الأولية، يطبق هؤلاء نظامًا قضائيًا على الطُّلاب الأصغر منهم. تلك تجربتي الأولى مع نظام الطلاب المناوبين في المدارس الإنكليزية حيث يُدفع الصبيان الذين بلا شعبية إلى الانتحار بفعل وحشية زملائهم بينما يتبنى الأساتذة موقفًا باردًا على اعتبار أن ذلك لا يعنيهم.

تسلَّحَ كلُّ الصبيان الكبار تقريبًا بمقاليعَ استخدموها بدقة تكاد تكون قاتلة، عادة تكون الذخيرة الأساسية للمقاليع كرات من الرصاص، والهدف المفضل لهم عضلة ساق الصبيان الصغار. وقد يجلس الواحد بسلام على الطاولة ويشعر فجأة بلسعة أشبه بزنبور كبير الحجم وألم فظيع، وليس هناك أي شيء يمكن فعله لتخفيف الألم. أعتقد أنني كنت مختلفًا عن الصبيان الآخرين بما أنني في طفولتي كلها لم أشعر أبدًا بالرغبة بإصابة الآخرين بالألم ودفعهم للمعاناة ما لم يفعلوا لي شيئًا ولم أسعَ لقتل الطيور أو الحيوانات الصغيرة. لدي احترام كبير للحياة، كلي يقين أن من يمضون في قتل أي شيء يتحرك، يفعلون ذلك بدافع الغيرة لأنهم عارفون بعجزهم عن صنع الحياة بأنفسهم.

مدير كلية نيونهام واسمه غيردلستون كان باحثًا كرّس معظم حياته للإشراف على صفوف البحرية ونادرًا ما تدخل بالمدرسة الأولية. كانت زوجته امرأة عطوفًا، أُشرفتْ على المطابخ وغرفة تناول الطعام وأبقت عينيها الأمومية مركزة على الصبيان الصغار، ولاحظت كل من بدا خائفًا أو غير سعيد، للأسف، لم يكن هناك صبي يجرؤ على الاعتراف بكونه تعيسًا أو خائفًا. ما يسمى بشارة الشرف في مدارس الأولاد هو في حقيقة الأمر حزمة من مبادئ غير مكتوبة وضعها الصبيان الكبار ليتسنى لهم فعل ما يشاؤون بالأصغر منهم.

تنوع الأساتذة فيما بينهم، فبعضُهم كانوا في منتهى الرُّقيِّ أما البقية فشرٌّ محضٌ، استعانوا بالعصا والجلد الجَماعي للحفاظ على الانضباط. مرةً ضَربَ جميعَ الطُّلابِ بالعصا بسبب ضجة حدثت في أحد غرف المنام، والمدرس في الواجب لم يكن قادرًا على تحديد المكان الفعلي للجلبة، لذا قرر معاقبة الجميع وبذلك لن يفر الجناة. شعرت بالظلم العميق لما حدث لأن غرفة منامي كانت هادئة للغاية ورفاقي غاية في التهذيب في تلك الحادثة بالذات، في الواقع أيقظوني من نومٍ عميق لأتلقى حصتي من العقاب.

أحد الأساتذة كان بالذات مزاجيًا للغايةِ(104) واعتاد معاقبتنا بجعلنا نكتب على الورقة وهي مستندة على الحائط بدلاً عن المكتب، وبالنتيجة سيتساقط الحِبر على حاملة القلم وعلى أيدينا مما يعني أن نقضي كل الفسحة التالية في المغتسل ونحن نفرك أيدينا بحجر الخفاف لإزالة بقع الحبر، فالأصابع الملطخة بالحبر عُدَّتْ جريمةً شنيعة عقوبتُها صفعاتٌ قوية على المؤخرة في الدرس التالي من قبل الأستاذ نفسه، الذي تتَّقدُ عيناهُ بالسعادة كلَّما رفع عصاه. أحيانًا كانت يدي تنزف من شدة الفرك بالحجر في محاولة تنظيفها. كنت غالبًا ما أتساءل فيما لو كان المدرس نفسه منفيًا وهو ما أصابه بالمرارة وجعله كارهًا للجنس البشري.

في صباحات أيَّام الآحاد يُفترضُ بكل المدرسة حضورُ المراسيم في الكنيسة الإنكليزية، ولكن لم يكن هناك مراقبون، والأساتذة أنفسهم غالبًا ما تخلَّفوا عن الحضور، كانت تلك المناسبة الوحيدة التي سمح لنا فيها بالذهاب إلى مدينة هايدلبرغ، لأن الجانب الثاني من النهر، وحتَّى الجسرِ ممنوعًا علينا، فقد اعتاد السيد غيردلستون إعطاء كل واحد منا نصف بفنغ(105) لدفعها مقابل التقدمة (نصف بفنغ يعادل ستة بنسات إنكليزية)، وعادة ما كنا نقضي الصباح في محل للكيك، وهو أمر خطير لأنَّ للسيد غيردلستون عادةً محرجة بسؤالنا عن الموعظة وما قيل فيها. كنا نتفادى ذلك بدفع بعض الصبيان للإجابة، وهم من الكُثُر الذين يذهبون إلى الكنيسة عن طواعية. عندما تكون أمي في هايدلبرغ كنا نذهب وأخي معها إلى الكنيسة، وكان لذلك فائدة حيث سُمح لنا بتناول الغداء معها بعد إتمام المراسيم.

التعليمات الدينية الموجهة لي ولسيريل تشابه ما تلقاه معظم الصبية الإنكليز في تلك الفترة. على الرغم من أننا ذهبنا إلى مدرسة تحضيرية يقودها قساوسة فإنَّ أفكارَنا عن الدين المسيحي ظلتْ ضبابيةً. الكنيسة الإنكليزية في هايدلبرغ كانت حاسرة الرأس وأشبه بحظيرة في بنائها وتتبنى أقسى تقاليد الكنيسة الإصلاحية. لم يكن هناك منبر للوعظ بل منصة فوق المذبح، ومنها تُلقى الخطبة. القائم بشؤون الكنيسة رجل دين مسنٌّ وأصلعُ وغضوب إلى حد ما، تنحدر أمامه لحية بيضاء طويلة. مرة عندما كان في مزاج جيد رفع قبضته إلى السماء وأرعدَ: «أَنَا الرَّبُّ إِلهُكَ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ مِنْ بَيْتِ الْعُبُودِيَّةِ»(106).

آمنتُ أنه كان يقول الحقيقةَ، وانبهرت للغاية رغم أنني كنت إلى حد ما محتارًا بسبب اختيار الرب العظيم لهايدلبرغ كمسْكنٍ أرضي.

على الرغم من كل العقبات في كلية نيونهام، كانت هناك الكثير من اللحظات الطيبة لا سيما خلال الصيف. قضينا قدرًا كبيرًا من وقت الترفيه في لعب الكريكت. أظنُّ بأنَّ الأستاذَ المسؤول عن الألعاب، السيد كِنت، حائزٌ على الوسام الأزرق(107)، لذا كان الصِّبيانُ

يقدرونه كثيرًا، حيث اعتاد تقديم تدريبات شخصية لهم. كان رجلاً لطيفًا، مرة واحدة ضربني بالعصا لكنني أتذكر أنني استحققت ذلك العقاب ولم أترك له بديلاً.

أنا وأخي سافرنا من إنكلترا حاملين ملابسنا الصيفية والشتوية لكن حتَّى ذلك الوقت لم يكن هناك من مناسبة لارتداء زي الكريكت الذي لُفَّ بحذرٍ بورق أسمر وخُزِّنَ في مكان بعيد عن العث. وعندما حلّت أوّل عطلة لنا ذهبنا إلى غرفة منامنا لإخراج زي الكريكت، وذعرنا عندما عرفنا أن واحدة منها لا تزال تحمل اسم سيريل وايلد والثانية قايقيان وايلد بشكل واضح. إذ نسيها خالي عندما فتَّشَ لمحو أي أثر لاسم والدي من متعلقاتنا بعد تغيير أسمائنا. لحسن الحظ كانت الأسماء مكتوبة بقلم تخطيط على شريط خِيطَ فوق ملابسنا، لذا اتخذ أخي ركنا منعزلاً في المغاسل يحاول قطع الشريط بسكين الجيب. كان اسمي الأكثر صعوبة لإزالته من حزام الكريكت حيث إن الخياطة قد تعمّقت في النسيج، وفي النهاية قطع سيريل نصف الشريط تاركًا الحواف ملتصقة بالحزام.

هذه الحادثة غمرتني مجدَّدًا في موجة أسى عظيمة، وأدركت أننا بالكاد أفلتنا من خطر محدق. تساءلت كيف سيفهم الناس معنى أن تكون في موضع مماثل. أن تكون ولدًا غير شرعي هو مسألة بسيطة مقارنة بما وجدنا أنفسنا في مواجهته، رغم كل شيء كان هناك الآلاف من الأولاد غير الشرعيين في كل مشارب الحياة. لكننا عرفنا كيف يكون الأب محبوبًا ومرغوبًا، وعلينا الآن أن ننكر وجوده ونقفل على كل تلك المعلومات عنه في قلوبنا، وكان ذلك عبئًا رهيبًا ليحمله الأطفال. التفكير بأن أي إشارة غير مقصودة في أي لحظة، أو أيما فرصة لمصادفة أحد من حياتنا السابقة ليطعننا بسيف ديموقليس(108) المتأرجح باستمرار فوق رؤوسنا. منذ ذلك الصيف في بيافو قبل سنة، عندما دُعِينا إلى غرفة الطعام للتوقيع على أسمائنا الجديدة، افتُرِض بنا ترك كل شيء خلفنا مهما كان بعيد الصلة بحياتنا السابقة؛ كل الأصدقاء والأماكن والأشياء التي اعتدنا عليها يجب إزالتها وحذفها من عقولنا مثلما مزق سيريل الأسماء من ثياب الكريكت. كان ناصحو أمي حمقى بلا شك لأن ما من سرٍّ يظل مخفيًّا إلى الأبد.

كلُّ أفراد عائلة أمي الكثيرين عرفوا اسمنا الجديد وبعضهم كان يتوق للكلام. أعتقد أن الاهتمام المباشر كان لحماية أنفسنا، أما مشاكل المستقبل فسنحلُّها بأنفسنا عندما يحينُ الوقت. ولو كان هناك سرٌّ تطوَّر ليصبحَ سِرًّا مُعلنًا(109) فهو هذا السِّرّ.

في نيونهام لعبنا مباريات الكريكت ضد الفرق الخارجية، وكان ذلك يتضمن عملاً جادًا. تلك المباريات كانت تتكرر كثيرًا حيث توجد عدة مدارس إنكليزية في ألمانيا وبعضها قريب للغاية من ضمنها هايدلبرغ وفرانكفورت ومدن قريبة أخرى، لذا يمكن جمع فرق للعب. الأساتذة أو على الأقل أستاذنا السيد كنت، يمكن دائمًا أن تتوقع منه أداءً جيدًا.

قلت إنه كان لي في تلك الأيام عمل جاد، ويجب أن أوضح هذه النقطة؛ كان هناك العديد من باعة الآيس كريم الإيطاليين المتجولين في نيونهام ولكننا حرمنا من شراء أي شيء منهم خوفًا علينا من عدوى التيفوئيد، لكن على أي حال كان هناك استثناء وحيد لرجل يدعى ديلا بونا، أعتقد أن مكان عمله فُتِّشَ وصودقَ على نظافته. كان يأتي على عربته بالذات في أيام المباريات، آيس كريم كبير يتكون من أربع ملاعق ضخمة ينسقها بشكل لذيذ في وعاء ورقي تكلف عشرين بفنغ، وبوسع المرء شراء ملعقة واحدة بمبلغ خمسة بفنغات، وذلك رائع للغاية، لكن السنيور الخبير بخبايا النفس عرف أن الصبي قد يحمل في جيبه ماركًا كاملاً، ومع ذلك لا يرغب بأكثر من ملعقتين ويصرف باقي ماله، أي ستين بفنغ، على شيء آخر، لذا أغرانا بعرض بمبلغ مارك واحد للحصول على ستة قطع بدلاً عن خمسة قطع. معظم الصبيان سقطوا في الفخ لكنني طوّرت خطة للإفادة من هذا المخطط.

لم يكن مسموحًا له المرور ببوابات المدرسة بل يجب أن يكون على موقع خارج الطريق، لذا كان بعيدًا نوعًا ما عن ساحة لعب الكريكت، وأنا كنت أستغلُّ وقت المباراة فبدلاً عن مشاهدتها أذهب لشراء الآيس كريم ببطاقة المارك لأحصل على ست ملاعق، وأتجوَّل بين الصبية الكبار وبين المفتشين عارضًا عليهم الآيس كريم، وكانوا يدفعون لي مقدمًا خمسة بفنغات للملعقة، لذا كان ربحي يبلغ على أقل تقدير ٤٠٪ عند بيعي لستِّ ملاعق. كان عملاً شاقًا في الظهيرة الحارة لكنه يستحق الجهد، إذ كان بوسعي ربح ماركين أو ثلاثة بسهولة في تلك اللعبة، ومع إضافة مصروفي الأسبوعي البالغ ماركًا واحدًا ونصف بفنغ (بضمنها نقود التقدمة) فتلك عطية ربانية.

مباريات الكريكت تلك كانت تحدث في العطلات وبضمنها أسبوع خلال الصيف محسوب ضمن عطلتنا. كانت لنا لغة خاصة في المدرسة مثلنا مثل أي مدرسة إنكليزية، وفيها تنويعات متعمدة مقتبسة من اللغة الألمانية، على سبيل المثال فإن أعواد الكبريت تعطي رائحة مزعجة حين تشتعل لذا كنا نسميها Stinkerei (أي نتن بالألمانية)، كنا نشتريها مقابل بفنغ واحد للعلبة، وهو سعر مقبول، وقد استخدمناها لإشعال أسطوانات مجوفة نصنعها من ورق النشاف لندخنها حتَّى تصيبنا بالغثيان. في العطل حين لا تكون هناك مباريات للكريكت، نمضي على ضفة نهر النيكار أو نتجوّل في التلال الريفية غرب نيونهام. هناك يقع ممشى الفلسفة حيث كان طلاب الفلسفة في جامعة هايدلبرغ يمشون قبل مئات السنين ليتناقشوا حول المعارف. كانت ممرات جميلة تمتد لميلين على الضفة، وتمر معظمها عبر كروم العنب. من هناك يمكن المضي عبر غابات مليئة بأحراش التوت والتوت البري الذي كنا نأكله حتَّى الشبع. عند القمة هناك قلعة مهدمة، كنيسة وكافيه حيث بوسعنا شراء الكيك أو عصير الليمون أو الجعة لو امتلكنا النقود، كنا عادة نعود عبر وادي هيرسجيس، ولكن حين نفعل ذلك كنا نشكل أنفسنا في مجاميع من ستة أفراد أو أكثر حيث كنا نخشى أن نلقى مجاميع من تلاميذ كلية هايدلبرغ، ومن المعروف عنهم تجولهم في هذا الوادي وقد اعتادوا العراك مع الصغار بخشونة، ولم نرغب بأن نكون لقمة سائغة لهم. وفي منتصف أيام الصيف، المحسوبة ضمن العطلة كذلك، كانت التلال تمتلئ بطلاب

الكلية وهم يحملون عصي الألعاب النارية الحمر والخضر، كما كانوا يطلقونَ الألعابَ النارية في الأماسي، وكان يُسمَحُ لنا بالخروج لمشاهدتها.

عند نهاية فصل الصيف لا أعتقد أنني تعلمت شيئًا في المدرسة عدا التذاكي بالألمانية وشيء من اللغة الفرنسية والرياضيات ولا أتذكر أي دروس أخرى.

اكتشفت أمي فندقًا صغيرًا رائعًا يسمى فندق سكلوس خلف القلعة مباشرة على المرتفعات خلف هايدلبرغ. على ارتفاع ستمئة قدم فوق مستوى سطح البحر، بين الأشجار وعلى مساحة أرض هائلة الحجم، يسوده الهدوء والبرودة والظل، كان في الطريق إلى لا شيء، لذا لا توجد حركة مرور تعكر صفوه، مع ذلك كان موقعه مناسبًا بالنسبة للمدينة فالسكة الجبلية تمر من على السوق على أبواب القرية تقريبًا. وفي هذا الفندق قضينا عطلاتنا الصيفية.

كان وقتًا حافلاً بالمتعة على الرغم من الصعوبات والعقبات، في إنكلترا قضينا وقتنا كل صيف في لعب الكريكت وفي السباحة وذلك غير متوفر هنا، مع ذلك تمكنا على الدوام من تزجية الوقت بأعمال ممتعة، واستعدنا حريتنا دون قيود مثل أيام سويسرا وإيطاليا. لم يكن هناك شيء لفعله عدا التجول في الغابات وقطف الفواكه والأزهار والنوم على الأسرّة الألمانية الناعمة والوثيرة، نستيقظ في الفجر الدافئ منتعشين وكلنا حماس بمغامرة جديدة، وكانت هناك الكثير من المغامرات بالفعل، السقوط في الماء ومن الأشجار لا سيما في وقت قطاف التوت والضياع في الغابات.

مرة عندما كنت أنا وسيريل نتجول في البراري متجهين إلى النهر فجأة سمعت صرخة أخي، وقد اختفى عن ناظري، ناديته ولم يكن هناك رد، لذا عدت إلى البيت مفزوعًا، وشكّل كادرُ الفندق فرقةَ بحثٍ، وبعد فترة قصيرة وجدناه مغطى بالكدمات ومخربشًا وحائرًا إلى حد ما لكن بدون جرح خطير. كان قد سقط من أعلى شجرة كانت جذورها تمتد إلى عمق الوادي، الأفرع الأخرى تكسّرت من سقطته حتَّى استقر في القعر وفقد وعيه لبعض الوقت لذا لم يسمع ندائي.

في مناسبة أخرى كنا نلعب لعبة القلاع باستخدام بعض قطع سكك الحديد قرب الباب الأمامي للفندق، عندما وقعتُ بقوةٍ على رمحٍ حديدي صرختُ من شدة الألم، فهرع الناس للمساعدة بسرعة حيث رُفِعتُ من على الرمح وصعدوا بي إلى الأعلى. لسوء الحظ كانت أمي بعيدة في ذلك الوقت، لذا أخذ كل من كان في الفندق أمر رعايتي على عاتقه، قاموا بالإسعافات الأولية، ومُدِّدْتُ على بطني في سريري وقُصَّ بنطالي، وبدا لي أن أغلب سكان المدينة جاءوا زرافات لفحص جرحي وقدموا نصائحهم بشأن ما يتوجب فعله. في النهاية وصلت زوجة مالك الفندق السيدة كوهلر وأمرت الجميع بالخروج من الغرفة، ثم غسلت وضمدت جرحي الذي لم يكن مُميتًا رغم عمقهِ. كنت خائفًا أكثر من أي شيء آخر، وأعتقد

أن سيريل كان كذلك أيضًا لشعوره بأنه المسؤول عما حدث، وقد ذكره ذلك بحادثة السيف في شارع تايت. مضى بعض الوقت قبل أن أتمكن من الجلوس بطريقة مستقيمة على كرسي صلبٍ ومُنِعتْ لعبة القلاع.

لكن الحياة خلال تلك العطل لم تكن كلها لعبًا، وضعُنا المادي لم يكن جيدًا بالعموم، لذا شكلنا لجنة للبحث في الطرق والوسائل لحل مشكلة الفقر. الجاذب الأساسي في هايدلبرغ كان في قلعة سكلوس التي رغم كونها مهدمة بشكل كبير لكنها لا تزال تحوي على العديد من الأشياء المثيرة للاهتمام بضمنها برميل هايدلبرغ الشهير، وهو برميل ضخم للغاية يسع تسعة وأربعين غالونًا من النبيذ. يكلف الدخول إلى سكولس ماركًا واحدًا، ونصف المبلغ للأطفال. لذا كنا نتجول قرب محطة القطار الجبلي لجذب الأمريكان والإنكليز الذين يترجلون من القطار وكانوا يبتسمون لنا، وعادة ما يكون مجرد معرفتهم بكوننا إنكليزيين كافيًا لعقد صلة الصَّداقة.

الطريق إلى سكلوس من السكة الجبلية يمر عبر حديقة بيرة(110). كان من المفترض أن أصدقاءنا الجدد راغبون بمشروب وعلى الأغلب سيقدمون لنا الآيس كريم. البقية سهل، فبعد أن نشرح سبب وجودنا هناك كنا ندور المحادثة بشكل طبيعي لنصل إلى سكلوس. كنا نعرف الكثير عن القلعة التي جعلناها محورًا لدراسة مستفيضة اختصصنا بها.

السؤال التالي سيكون بلا شك حول: هل لديكم مرشد يتحدث الإنكليزية؟ ويا له من سؤال يصعب إجابته. بعض المرشدين يتحدثون الإنكليزية عندما يأخذون جولة مع جماعات كبيرة من متحدثي الإنكليزية ولكن ما من ضامن أنهم سيتحدثونها لا سيما لو كان الإنكليز أقلية في المجموعة. الحقيقة أن كل المرشدين كانوا يتحدثون الفرنسية والإنكليزية بطلاقة ودائمًا يقدمون العروض بكلتا اللغتين بالإضافة إلى الألمانية.

بعد ذلك نُسألُ فيما لو كان بوسعنا توفير بعض الوقت للذهاب إلى سكلوس معهم لشرح المعالم والترجمة، كان ذلك بوسعنا وفعلناه. وفي نهاية جولة طويلة تشمل الكثير من المشي والتسلق على الأنقاض سيكون من المستبعد ألا نحصل على قطعة آيس كريم كبيرة أخرى وهدية مالية صغيرة عادة مارك واحد. كبرنا وصرنا أكثر حكمة من أيام نيرفي، فلم تُكتَشفْ نشاطاتُنا تلك حتَّى لو كان العدو قريبًا للغاية، وعدونا في تلك الحالة أمنا الحبيبة.

كان مالك فندق سكلوس السيد كوهلر وزوجته، زوجان ودودان، وعلى الفور فُتِنا بنا بشكل كبير. جلست السيدة مع أمي للخياطة والحديث لساعات من أجل تحسين إنكليزيتها وألمانية أمي. أما السيد كوهلر فقد كان رجلاً ضخمًا وذا لحية سوداء كبيرة، كان جمعُ الطوابع شغلَه الشاغل بعد العناية بفندقه، وقد كان معروفًا بامتلاكه أفضل مجموعة طوابع ألمانية في العالم. لم يجمع أي شيء بعد ١٨٩٠، وبين ذلك العام وعام ١٨٤٩ أُصدِرتْ الكثير من الطوابع من قِبل عشرين ولاية ألمانية ومن قِبل مكاتب البريد، العددُ يربو على الألف

طابع، لكن عند حساب النسخ المعيبة وأشرطة الطوابع وفي بعض الأحيان طبقات طوابع كاملة يكون مجموع ما قد حازه السيد كوهلر أكثر من أربعة عشر ألف طابع. كان يسمح لي، ولأخي، أحيانًا بالنظر إلى جزء من هذه المجموعة ما دمنا لا نلمس أي شيء. غمرَنا ذلك بدهشةٍ لا مثيلَ لها رغم أننا لم نكن قادرين على تقدير قيمتها الدقيقة. وبطبيعة الحال أعطانا العديدَ من الطوابع لمجموعتنا التي في طور التكوين.

كان كاثوليكيًا رومانيًا ومتدينًا للغاية، رفضَ العمل أيامَ الآحاد، ولم يكن حتَّى لينظر إلى الطوابع في ذلك اليوم، لكن بعد الظهيرة وبعد قضائه النَّهار متعبِّدًا يمشي هو وصديق له إلى شليرباج عبر الغابات وأحيانًا يأخذوننا معهم. شليرباج قرية صغيرة أعلى ضفة نهر نيكار على بعد ميلين من الفندق لو كنت مسرعًا لكن بمشية الرجال وبالذات مع وجود صبيين تصبح المسافة تقريبًا مضاعفة، كنا نتطلع لمشية الأحد هذه كل الأسبوع. كان السيد كوهلر يمشي بخطوات بطيئة وغير مستقرةٍ، وأنا وسيريل نتجول هنا وهناك نبحث عن الفطر لنأخذه لأمِّنا. كنا نسير في طريق متعرج مغطى بالأشجار لكن من حين لآخر نمر بفسحة من العشب الأخضر والأزهار البرية والشمس.

سبب اختيار شليرباج كموضع لهذه الرحلة هو أن السكة إلى هايدلبرغ تمر عبرها، وحين ينتهي عملنا نذهب إلى حديقة من حدائق البيرة حيث ننعش أنفسنا بجعة باردة تُقدَّمُ لي ولأخي في كؤوس صغيرة بينما يتناول كوهلر ورفيقه عدة كؤوس كبيرة. كان مشروبًا لذيذًا بعد مشينا في الجو الحار، ورغم أنها أشعرتنا بالنعاس لكنها لم تسبِّب أيَّ أذى لنا على الإطلاق. بعد الاستراحة نستقل القطار عائدين إلى هايدلبرغ عبر السكة الجبلية. دائمًا يدفع كوهلر أجرة الركوب لنا ولا أعتقد أن أمي عرفت بذلك ولا عرفت بموضوع المشروب، وأشك في سماحها بحدوث ذلك، ولم نقل أي شيء عن ذلك.

خلال بعض أيام آب/ أغسطس من تلك السنة زارت أمي إنكلترا، وكانت معتادةً على الذهاب إلى هناك من وقت لآخر لرؤية أصدقائها ومعارفها لتحدثهم عن شؤونها وتناقشهم في كيفية إعادة بناء حياتنا وحياتها. كان من المبكر الوصول إلى قرارٍ نهائي بهذا الشأن لكنها شعرت حتمًا بأنَّ المنفى لا يمكن له أن يستمرَّ إلى الأبد، وعاجلاً أم آجلاً سنصلُ إلى تسويةٍ ما تجعلُ حياتَنا ممكنةً (111) في إنكلترا مجدَّدًا.

عندما غادرتْ تركتنا في عهدة السيدة كوهلر التي كانت في غاية اللُّطف معنا، وقد جعلتنا نتصرف بطريقة مهذبة وصرنا نحضر في وقت الوجبات ونذهب إلى الكنيسة صباحَ كلِّ أحد. لقد أخذتنا إلى كنيسة هيلجست في هايدلبرغ، هذه الكنيسة كانت فريدة بلا شك إذْ أُقِيمتْ فيها طقوس الكاثوليكية الرومانية والبروتستانتية معًا في مكانٍ واحدٍ. في عام ١٧٠٥ فُصِلَ صحنُ الكنيسة عن (الخورس) بجدار، وخُصِّصَ الصَّحنُ للكاثوليك؛ بينما اصبحَ الخورس مكانًا للبروتستانت.

أخذتنا السيدة كوهلر إلى الجزء الخاص بالكاثوليك، أشكُّ في تأثر أخي بذلك، أما أنا فتأثرتُ بعمقٍ بجلال الطُّقوس، كان ذلك أول تعرفي بالكنيسة الكاثوليكية، وعندما جاءت أمي أخبرتها عن ذلك وكيف أنني أحببتها أكثر من الكنيسة الإنكليزية «لأنَّها غايةٌ في الجَمال».

عند نهاية العطل أُخِذنا إلى المدينة لالتقاط الصور بزي إيتون، ولدان صغيران واعيان بذاتهما، بدا أخي وقورًا كالعادة، وأنا غير مرتاح وحساس قليلاً. أرسلت أمي نسخًا من تلك الصور إلى أبي وكانت في حوزته عندما مات. في رسالة إلى روبرت روس أرسلها أبي من بيرنفال(112) كتب فيها: «وصلني خبر من زوجتي، أرسلت لي صورًا للصبيين، ما أجملهما في بدلات إيتون لكنها لم تعطِ وعدًا بالسماح لي برؤيتهما، قالت إنها ستراني مرتين في السنة لكنني أريد أبنائي». لا أعتقد أن أخي قد تصور مرة ثانية عند مصور محترف في أستوديو رغم أن له بعض الصور ضمن مجاميع من الأفراد. أنا نفسي لم أتصور دون مجموعة إلا بعد اثنتي عشرة سنة. أعتقد أن ما من أحد من الذين سمح لهم بمعرفتنا كانوا مهتمين بصورنا.

ڤايڤيان / هايدلبرغ - ١٨٩٦

سيريل/ هايدلبرغ - ١٨٩٦

مرَّتْ عطلةُ الصَّيفِ بسرعة وعدنا إلى كلية نيونهام، وهكذا تلت واحدةً من أسعد الفترات في حياتي فترةٌ هي الأكثرُ بؤسًا. أخي بمعرفته وبنيته المتفوقة كان بطلي لكنه صار يفقدُ الاهتمام بي، وأعتقد أنه قد بدأ ينزعج مني، فأشعرني ذلك بألمٍ شديد. لم يكن عندي أصدقاء في المدرسة وشَعرت أن كلَّ راشدٍ وصبيٍّ يقفونَ ضدي. غالبًا ما أتساءل كيف تمكّنتُ من اجتياز ذلك الفصل، أعتقد أنه على الرغم من كون أسى الطفولة هو أحيانًا أشدَّ وطأةً وأقسى ألمًا مما نتعرض له عند نضجنا بعد أن يكتسب المرء قدرًا معينًا من الفلسفة، فإنَّ قوة المقاومة لدى الطفل كبيرة أيضًا.

بدأ الفصلُ بدايةً سيئةً نتيجة الظلم والجهل، أعطتني أمي خمسة ماركات عند عودتي إلى المدرسة ما عدا بضع بنسات، كان هذا كل ما أملك لكنه كان كافيًا للغاية، بما أن كل ضروريات الحياة مثل الحلوى والعصائر والكعك وأعواد الثقاب كانت رخيصة للغاية. لم أكن قد بلغت العاشرة، وأن تملك خمسة ماركات دفعة واحدة فذلك يعني ثروة. بعد عودتي، وفي أحد الأيام، جاءَ أحد الصبيان الكبار، وعمره حوالي ستَّة عشر عامًا، عرف بأمر النقود فطلبَ مني إعارته المال حتَّى اليوم التالي لأنَّ مَصروفه لم يصل بعدُ من إنكلترا، ففعلتُ ذلك من دون تفكير، وكانتْ تلك آخر مرة رأيت فيها نقودي. لم يرجعْها لي أبدًا، طلبتُ منه ذلك مرتين أو ثلاث، في المرَّة الأولى دفعني بإجابةٍ عنيفة، لكنَّه أرادَ ضربي في المرة الأخيرة، قائلاً: «اذهبْ إلى الجحيم أنت وماركاتك الخمسة». لذا كان عليَّ تجرُّع خسارتي بقلبٍ مثقلٍ؛ متحسرًا على عدم أمانة الجنس البشري.

بعد عشرين سنةً التقيتُ بذلك الصبي، لم يميزني لأنَّ اسمي لم يعنِ له شيئًا، ولأنه فقدَ بصره في حادث قبلَ بضع سنوات، وللحظةٍ رهيبةٍ تساءلتُ إن كنتُ أنا مَن لعنَهُ، وهل كان سيستعيدُ بصرَهُ لو أنه أعادَ لي الماركات الخمسة آنذاك!

بمجرَّدِ أن عدنا بأمان إلى المدرسة ذهبتْ أمي إلى أصدقائها في إيطاليا وتركتْنا دون دعمها الأخلاقي، ويبدو أن الحدود تفصل الأشخاص أكثر من المسافات، فما دامت أمي في نفس البلد نظل نشعر بقربها؛ لكن بمجرَّد ذهابها إلى بلدٍ آخرَ ستبدو بعيدةً بالفعل.

انتهى موسم الكريكت وبدأ موسم كرة الركبي، لا أستطيع القول إنني استمتعت بلعب هذهِ اللعبة، فمثل كل الألعاب في المدارس الإنكليزية تلك الأيام هذهِ الألعاب جميلة لو كنت تتقنُها وإلاَّ فهي مَطْهَر صرف(113). كان هناك أستاذ سادي أغفلتُ ذكر اسمه عن قصد، كان يستمتع في الأمسيات الباردة بأخذ الصبية الصغار لبدء تمرين يسمى «تمرين سكرام»، وقد كان ذلك التمرين الأكثر مشقة بين كل أشكال التمارين الرجعية في المدارس، يبدأ التمرين بجعل الصبية يجتمعون أزواجًا بشكل حلقة ويتدافعون فيما بينهم بينما يمر هو ليضرب مؤخراتهم بالعصا بالتسلسل، وحجته أن ذلك لحثهم على الدفع بشكل أقوى. في النهاية اشتكى أحد الصغار لأخيه الأكبر فتوجه الأخ بالشكوى للمدير، وغادر معذبنا بعد ذلك بفترة قصيرة ولكن ليس قبل أن يحاول التبرير لنفسه في حضور الأخ الأكبر بالقول إن ما فعله يصب في مصلحة الصبيان لأنه يقويهم، لكنه لم يزدني قوة، تتالت الأيام التي أعود فيها من ملعب الكرة خائر القوى وقد امتلأت مؤخرتي بآثار الضرب، أتكوّر منهكًا في أحد الزوايا حتَّى يزول الألم.

ألمان الطبقة الوسطى كانوا يتعلمون لعب الألعاب للتو، لذا كانوا يأخذونهم بجدية فعلية. الرياضات الوحيدة التي كان ينغمس فيها اليونكرز(114) تمثلت في الصيد والتجوال وكرع البيرة، كانوا يحتقرون الرياضيين وألعاب القوى الجَماعية حيث التمارين فقط للفقراء والمُعدَمين. لقد تمتعنا كثيرًا بمشهد الطلاب المتبخترين من الجامعة وهم يتجولون في المدينة أما في الأراضي المفتوحة أو يدًا بيد مشغولين بكلابهم الدنماركية الكبيرة على طول الممر. تغطي وجوههم الضِّماداتُ بعد العراك. كل الطلاب تقريبًا ينتمونَ إلى واحدٍ من نوادي الطلاب الكثيرة، ولكلِّ نادٍ منها قبعة مميزة. الشجارات بين أعضاء النوادي المختلفة كانت مشهدًا معتادًا بشكل يومي، كانوا يتشاجرون على أتفه الأسباب ولأدنى عذر. وعندما يخوض الطالب عراكًا لثلاث مرات يصير بوسعه ارتداء ألوان النادي بشكل أشرطة متوازية على صدره، ويرتدي شريطًا إضافيًا لكلِّ ثلاثة شجارات متتالية، بعض الطلاب كانوا يرتدون ما يقارب دزينة من الأشرطة.

لكن بعض أكثر المدارس الألمانية تقدمًا بدأت تصبح بالفعل مهتمَّة للغاية بكرة القدم، وفي مرة تلقينا تحديًا من مدرسة فرانكفورت في ماين على بعد خمسين ميلاً شمال هايدلبرغ وعرفنا من بُعدٍ مدى حمقِ القبول بذلك التحدي. جاء فريق فرانكفورت الى نيونهام وجاء حشد من حوالي ألفي شخص من السكان المحليين لحضور المباراة. فازت كلية نيونهام بفارق مدهش ٦٠ إلى صفر. كان هذا مذهلاً للألمان، فاتهمونا بالغش، وكانوا على حق طبعًا. الحشد الألماني الغاضب رجم المدرسة بالحصى وكسروا بعض النوافذ، صاروا أكثر

عدوانية حتَّى أننا كنا نهرب ما إن نلمح رجال الإطفاء المحليين الذين هددونا. كانت تلك المرة الوحيدة التي لعبنا فيها ضد الألمان طَوال فترة بقائنا هناك.

لن أكثِر في وصف بؤس ذلك الفصل، البرد القارس ومحاولاتي إخفاء نفسي لكيلا أتعرض للتنمر، الى التمييز بيننا حيث لم نعد ندعى هولاند الصغير وهولاند الكبير، بل صرنا هولاند رقم واحد وهولاند رقم اثنان(115)، وكم كنت أتقزز عند سماع صوت من يناديني هولاند رقم اثنان، وهو أمر لم يكن ليبشر بخير. ميثاق شرف الصبيان في المدرسة منعني من الشكوى للأساتذة، كنت في ذلك الوقت محتاجًا لأبي بشدة لأبوح له بما يحدث معي، وعندما حلت عطلة عيد الميلاد لم أستطع سوى الإدلاء لأمي بكل ما حدث، وقد أدركت أن الأمور لا يفترض أن تسير بهذا الشكل.

قضينا كل عطلة الميلاد في فايربرغ مع آل بلاكر. كانوا من العوائل القليلة التي لا نزال نعرفها، وهم أصدقاؤنا من جهة أمي وأبي. قضينا وقتًا مميزًا حيث كانت الأرض مغطاة بالثلج أغلب الشتاء. تزلّجنا وتزحلقنا وذهبنا في نزهات إلى المناطق المجاورة للمدينة. أخذني كارلوس بلاكر وأخي إلى كاتدرائية، كانت واحدة من أفضل البنايات القوطية في ألمانيا وفيها برج يبلغ ارتفاعه ٣٨٠ قدمًا فوق ارتفاع الكاتدرائية نفسها مما يعطيها هيبةً مؤثرة، علِمنا الفروقَ الأساسية بين أبسط أشكال الهندسة ليظهر لنا من الكتب كيف تطوَّر الطراز القوطي من العمارة النورماندية والطراز الإنكليزي العمودي(116)، وقد تمتعنا في الأمسيات بحيل الشعوذة التي كان خبيرًا فيها على ما يبدو.

فايربرغ واحدةٌ من أكثر المدن جمالاً في ألمانيا لكنها فسدت في تلك الأيام بطلاب الجامعة الذين ملأوا الشوارع يتنافسون مع ضباط الجيش الشباب في مزاحمة المواطنين -بالذات النساء والأطفال- من الأرصفة إلى الطرق. هنا أيضًا مثل هايدلبرغ، الطالب الأنيق فعلاً كان يبدو كأنه يرتدي الملابس بشكل غير لائق للشارع ما لم يكن برفقة كلبٍ دنماركيٍّ كبير يشغلُ مساحة أكبر من الطالب نفسه.

خلال تلك العطل حدَّثتني أمي عن الكنيسة الكاثوليكية التي كنت منجذبًا لها للغاية عندما تركت في رعاية السيدة كوهلر في هايدلبرغ. وسألتني فيم لو كنت أرغب بالذهاب إلى المدرسة الكاثوليكية الإيطالية، ولأنني وصلت الى مرحلة جعلتني أفضِّل الذهاب الى أي مكان عدا نيونهام فقد أبهجني الأمر، لذا مرة أخرى انفصلت مدرستي ومدرسة أخي. في الواقع لم ندخل إلى نفس المدرسة مُجدَّدًا.

بعيدًا عن تعاستي في كلية نيونهام أعتقد أن عاملاً آخر قد دخل في القرار. كانت أمي خائفة فعلاً من أنْ يفضحَ بقاؤنا، معًا في نفس المكان، هُويَّتنا بسبب أسمائنا المميزة، خاصَّةً وأعمال والدي كانتْ لا تزال تُقرأ ومنتشرةً في الأوساطِ الأدبية، وقد ظهرَ اسمانا مرَّةً في أحد حوارات كتاب (النَّوايا)(117).

على أي حال كانت كلية نيونهام خشنة جدًا بالنسبة لي وأنا في العاشرة. لم يبدو أن أخي يمانع الخشونة، إذ بدأ بالفعل مهمة تولاها طَوال حياته لاستعادة اسم عائلتنا وتنقينه بإظهار شخصية قوية تتجاوز كل الضعف والعقبات. بعد أن غادرت نيونهام تلقيت رسالة منه يقول فيها: «اكتب لك هذه الرسالة في الحجز، لقد خضنا قتالاً رائعًا وسيأتي الأستاذ لضرب الجميع بالعصا. هذه الرسالة قصيرة للغاية. أخوك المحب سيريل»، كان بوسعي تخيل الموقف، أردت الهرب من أمثال تلك المواقف بالضبط.

بقي أخي في نيونهام حتَّى صيف ١٨٩٨ عندما عاد كلينا إلى إنكلترا. بعد الحرب العالمية الثانية حاولت اكتشاف ما الذي حدث في المدرسة ولم أفلح في ذلك. مجلة المدرسة (نيونهايمر) كانت تنشر بصورة دورية لكن لا توجد نسخة منها في المتحف البريطاني. لدي دليل مقنع على أن المدرسة بقيت حتَّى عام ١٩٣٩ حين بدأت العديد من العوائل الألمانية ترسل أبناءها لاكتساب القليل من الثقافة الإنكليزية، لكن لا أتوقع بقاء أي مدرسة إنكليزية في ألمانيا إبَّان الحرب العالمية الثانية. مؤخرًا كتبت رسالة عنونتها إلى مدير كلية نيونهام، وضعتُ بها بطاقة رد عالمي، عادت إليَّ الرسالة ومعها البطاقة وكلُّ شيء، وقد كُتِبَ عليها بالألمانية: «تُعاد إلى المرسل، الكلية يشغلُها جيشُ الولايات المتحدة الأمريكية».

لذا عاد سيريل إلى كلية نيونهام وأنا أخذتني أمي مطلع العام ١٨٩٧ إلى موناكو وسلَّمتني إلى القسِّ في كلية الزوار(118)، مرة أخرى صرتُ وافدًا جديدًا على نظام مختلفٍ كليًّا للحياة.

الفصل الرابع

(102) في الأصل عن الألمانية (Oxford Kollegium).

(103) (الطالب المناوب) نظامٌ في المدارس الإنكليزية، حيث تُختَارُ مجموعةٌ من الطُّلاب في الصُّفوف المتقدمة لفرض النظام بين الطُّلاب الأصغر سنًّا.

(104) الصِّفةُ المستخدمة هنا هي (dour scot)، نوع من الصور النمطية عن الإسكتلنديين؛ تُشير إلى كونهم يفتقرون لروح المرح ولهم مزاج سيء.

(105) البفنغ أصغرُ جزء من العُملة الألمانية.

(106) من سِفْر الخروج [خر ٢: ٢٠].

(107) جائزةٌ تُمنحُ لأفضل الطَّلبةِ الإنكليز من الرِّياضيينَ في جامعتي أكسفورد وكامبريدج.

(108) سيفُ ديموقليس: سيف الشهرة. فمعنى (ديموقليس) أساسًا هو (المشهور بين الناس). وقصة السيف ذكرها شيشرون بأنَّ خطيبًا شهيرًا يُدعى ديموقليس بالغ في مديحه لحظِّ حاكم صقلية، ظنًّا أن المنصب والمال الذي يملكه دليلٌ على حظٍّ سعيد لا يتكرر. سمع الحاكم بذلك وأراد تلقينه درسًا بسبب كلامه اللاعقلاني، فعرض عليه تبادل المناصب، وافق ديموقليس على الفور، وما إن جلس على كرسي الحاكم حتَّى وجد سيفًا معلَّقًا فوق رأسه بشعرة على وشك أن تنقطع في أي لحظة ويصيبه بأذىً، فجلس قلقًا وجلاً، عندها أخبره الحاكم أن هذا القلق والخوف هو ضريبةُ الشُّهرة، وضريبة أن تكون ملكًا هي في الخطر الذي يهدِّدُك في كلِّ لحظة.

(109) في الأصل عن الفرنسية (Secret de Polichinelle).

(110) حدائقُ البيرة، تقليد ألماني انطلق ليشمل الكثير من الأماكن حيث تُباع المشروبات الكحولية الباردة في حدائقَ بفضاء مفتوحٍ بدلاً عن الحانات المغلقة.

(111) في الأصل عن اللاَّتينية (Modus Vivendi).

(112) منطقةٌ في شمال فرنسا.

(113) المَطْهَر: عقيدةٌ يؤمنُ بها المسيحيون من الكاثوليك دون سواهم. مكانٌ تذهبُ إليهِ أرواحُ (الخُطاة من المؤمنين) بعد موتِهم، لتُعذَّبَ فتتطهَّر قبل الدُّخول إلى ملكوتِ السَّماء الأبديِّ.

(114) من ألقاب الطبقة الأرستقراطية الألمانية. أصله يعود إلى عهود الإقطاع والتمييز في ولاية (بروسيا) تحديدًا، أشهر ولايات ألمانيا التاريخية على الإطلاق.

(115) في الأصل عن الألمانية (Holland Einz… Holland Zwei).

(116) العِمارةُ النورماندية طِرازٌ من العِمارة الرومانسيكية أي المنسوبة للعصر الروماني. ويشير مسمى النورماندية لتطورها في دوقية النورماندي بفرنسا، وقد اتَّسمتْ بالأقواس المدورة الكبيرة للغاية.

(117) كتاب مقالات نقدية في الفن والأدب والمجتمع، من تأليف أوسكار وايلد، نُشر عام ١٨٩١ في قمَّة مَجدِ الكاتب.

(118) في الأصل عن الإيطالية (Collegio della Visitazione).

مُوناكو

قد يبدو غريبًا اختيارُ موناكو مدينةً لدراستي، لكنَّها اُختِيرتْ لأنَّ الأميرة أليس تعيشُ فيها، وهي من القلَّة الذين ما زالوا أوفياء لأبي، ولطالما احتجَّتْ على غياب الإنسانية في التعامل معه. كانت كاثوليكية مخلصة، وهي التي اقترحتْ ذهابي إلى هذه المدرسة، وَوعَدَتْ أمي أن ترعاني وتحرص على سعادتي، ودعتني للقدوم واللعب مع عائلتها في أيام الآحاد وفي العطل ومتى ما رغبتُ بذلك. كما كان لأمي منذ بعض الوقت ميل قوي للكنيسة الكاثوليكية رغم أنها لم تذهب لأخذ القربان أبدًا. كان أبي كذلك منجذبًا للكاثوليكية على الدوام، في رسالة موجهة لأمي -والتي دمرت مع رسائل أبي الأخرى من قبل أعضاء عائلة أمي- قال إنه سيكون من الرائع لو أن أبناءه أصبحوا كاثوليكًا. وأخيرًا فقد كانت موناكو قريبة من الحدود الإيطالية وعلى بعد مسافة قصيرة من نيرفي.

اقترحت أمِّي، عليَّ وعلى أخي، الذهابَ إلى المدرسة لكن سيريل كان سعيدًا إلى حدٍّ ما في نيونهام حيث تقدم بشكل كبير في العمل والرياضة وقال إنه لا يريد المغادرة. فيما بعد أخبرني أنه لم يكن سعيدًا للغاية، كما لو أنه لا يتعذب، لكنه شعر أن هويته الإنكليزية البعيدة لم تكن ستكتشف. أنا من ناحيةٍ أخرى لم أكن سعيدًا في نيونهام وانتهزتُ فرصة التغيير بحماس.

لذا، في أحد الأيام في كانون الثاني/يناير ١٨٩٧، بعد عودة أخي إلى نيونهام، أخذتني أمي إلى مونت كارلو. بعد يومين في فندق بريستول لإعطائي الفرصة لرؤية القصر وتقديم احترامنا للأميرة سلمتني أمِّي إلى إدارة المدرسة التي استقبلتني كطفل بروتستانتي وبالتالي بوصفي كافرًا بكل حماس الأفعى الأصلة العاصرة وهي تستقبل أرنبًا. بقيت أمي في مونت كارلو لبضعة أيام، قضيت خلالها جزءًا من كل يوم معها حتَّى أعتاد بالتدريج على محيطي الجديد والغريب ثم ودعتني وعادت إلى نيرفي من أجل أن تعود بقرب راني سَرَواق.

لم يكن المشهد أو بعضه على الأقل مشرقًا عندي، كان كل الأساتذة قساوسة إيطاليين، ومعظم الصبيان كانوا إيطاليين كذلك مع بعض الكلمات من لهجة موناكو الفرنسية. لم تكن فرنسيتي سيئة، وكان بوسعي فهم الألمانية لكن لغتي الإيطالية كانت كارثة، هي ببساطة جزء مما تلقيته من السكان المحليين في نيرفي وسوري. من حسن الحظ أن الكثير من اليسوعيين كانوا يتحدثون الفرنسية.

شُيِّدتْ المدرسة بين عامي ١٦٦٥ و١٦٧٥ كديرٍ وقد خدمت أغراضًا متنوعة. خلال الثورة الفرنسية أصبحت مستشفى عسكريًا لكنَّ الراهبات أُجلِينَ عام ١٨١٦ وعاد المكان كثكنةٍ عسكريةٍ. في العام ١٨٦٠ أصبحت مدرسة يسوعية، وفي العام ١٨٧٠ عندما حُظِرَ التعليم

اليسوعي في إيطاليا صارت مدرسة للصبيان الإيطاليين من العوائل الجيدة الذين تريد لهم عوائلهم تعليمًا يسوعيًا. بقي الإيطاليون يرتادون المدرسة حتَّى العام ١٩٠٠ عندما رفع الحظر وعادوا إلى إيطاليا وحل اليسوعيون الفرنسيون مكانهم. منذ العام ١٩١٠ أصبحت مدرسةً لمن هم دون التاسعة عشرة(119) مع أساتذة تعيِّنُهم الحكومة الفرنسية.

كانت بناية كبيرة غير منظمة الشكل ومقدمتها تطل على قصر الزوار(120) الذي أخذت المدرسة اسمها منه. على أحد الجوانب توجد الكنيسة التي بنيت في نفس وقت بناء الدير، ويبدو عليها تأثير الطراز الباروكي بشكل واضح. هذه الكنيسة تسمى كنيسة الزوار(121) وكانت مفتوحة للعامة الذين كانوا يصلون إليها عبر المدخل الرئيسي للقصر. للمدرسة مدخل جانبي خاص يصلها بالكنيسة عن طريق ممر الطابق الأرضي. خلف هذا الممر يوجد الفِناءُ الذي لا بد أنه كان جزءًا من الدير أيام الرهبنة. لا يبدو أن الشمس قد اخترقت هذا الفِناءَ أبدًا إذْ كان يحاذي النوافذ الكبيرة ذات القضبان الثقيلة للغاية مما يضفي على المكان مظهرًا أشبه بالسِّجن. لا أعرف أي غرفة حوت على نوافذ تطلُّ على القصر، لكن أي غرفة من تلك لم يكن ليُسمَحَ للأطفال بالبقاء فيها؛ ولأن مؤخرة المبنى تطل على البحر لم يستطع أي أحد أن يلقي نظرة على العالم الخارجي. لم يسمح للأولاد أبدًا بالخروج لوحدهم، وكان ذلك مقيِّدًا للغاية لحبي للحرية الذي تطور للغاية خلال الثمانية عشر شهرًا السابقة. أتذكر المدرسة بكونها غرفًا خافتة الضياء وأتذكر الممرات والمراقبة المستمرة.

كل طوابق البناية رُصِفتْ بالقرميد الأحمر. السجادة الوحيدة والكراسي المنجدة وأي شكل من مظاهر الراحة الفعلية رأيتها فقط في غرفة الاستقبال. وفي هذه الغرفة كان الآباء يلتقون بأبنائهم.

الإحساس الطاغي بالكآبة الذي يملأ المدرسة عزّزه حقيقة أن مواضع الدراسة والملعب هما المكانان الوحيدان المسموح فيهما بالمحادثة. يجب التزام الصمت في الممرات التي نمشي فيها بطابور واحد بمحاذاة الجدار. حتَّى المحادثات في غرفة الطعام كانت ممنوعة إلا في أيام الآحاد وأيام الولائم المهمة. في الأيام العادية تُقرَأ مقاطع من حياة القديسين من قبل الأولاد الكبار. بالطبع كان الهمس موجودًا لكن كل الآباء اليسوعيين كانوا يأكلون معنا وأعينهم مثل الصقور وآذانهم مثل الخفافيش، كان من الصعب عدم كشفنا، لذا من الحصف تجنّب الهمس لأن سرعان ما سيتلوه قصاصٌ سريعٌ.

الكنيسةُ وقاعةُ الطعام كانا المكان الوحيد الذي يلتقي فيه الطلاب. في كل قسم من الحياة الدراسية يجتمع الصبيان في أربعة فرق لا غير تبعًا لسنّهم، وهذا جزء من النظام التعليمي اليسوعي حول العالم. كنا بطبيعة الحال نقضي قدرًا عظيمًا من وقتنا في الكنيسة، وعندنا أماكن مخصصة لنا كلٌّ حسب قاطعه من الفرق الأربعة لكن المقصف كان المكان الأكثر مرحًا في المدرسة. يقف المبنى على حافة منحدر جنوبي صخرة موناكو، تمامًا أعلى البقعة التي يوجد فيها حاليًا متحف المحيطات، لذا فإن الطابق الأرضي كان على مستويين

منفصلين، يقف المقصف في الطابق السفلي مواجهًا البحر عبر ساحة لعب الأولاد الكبار، وهو المكان الوحيد الذي يحوي شبابيك كبيرة اعتادت الشمس المرور عبرها في الأيام الصافية، ولم يكن ذلك كثيرًا كما جعلنا سكان الريفيرا نعتقد.

يحتوي المقصف على خمس طاولات طويلة وطاولة قراءة للواعظ. الطاولة الأولى للأساتذة والبقية للصبية الذين يقتعدون مصاطب على جانبي الطاولة حسب الفرقة التي ينتمون لها. ويحرص أحد الأساتذة على تطبيق الجلوس بانتظام وحسب التقسيم، وكانت مسؤوليته رعاية الأطفال والحرص على عدم كسر أي قاعدة. لكل صبي جرعة صغيرة من النبيذ المخفف بالماء عند وقت العشاء، وكان ممنوعًا إعطاء نبيذك لغيرك مقابل الكرات الزجاجية. لم يكن مسموحًا امتلاك أموال حقيقة، لذا كان هناك شكل من أشكال العملة المتداولة وهي الكرات الزجاجية. كانت العقوبات قاسية لمن يُكتَشفُ بأنَّه باعَ حصته من النبيذ.

في المجمل كان الطعام جيدًا جدًا لا سيما في الآحاد وفي أيام القديسين عندما كنا نحصل على الشكولاتة بدلاً عن القهوة على الفطور ونتناول الدجاج في العشاء. كانت تلك طريقة جيدة للغاية لجعلنا نقدر الأعياد الدينية. في الصيف يقف أحد الأساتذة على باب المقصف بينما نتوافد لتناول الفطور، ويعطى لكل واحد منا ملعقة حلوى ممتلئة مصنوعة من الكبريت والعسل الأسود. كان طعمها لذيذًا للغاية فلم يتجنب أي صبي تناولها، كنا نأكل جميعًا بالملعقة عينها، ولا يبدو أن أي مرض قد انتشر جراء ذلك.

لكل قسم من الصبيان يوجد صف خاص وقاعة مذاكرة خاصة ومنام منفصل، وليس مسموحًا لأي صبي بالحديث مع صبي آخر في قسم ثانٍ ما لم يكن أخاه أو قريبًا له. حتَّى عندما كانت المدرسة تتوجه إلى شاطئ الكوندامين تتوجه المجاميع الأربعة في أوقات مختلفة. نتيجة لذلك لم يكن هناك نظام التلميذ الأكبر، ولم يكن ممكنًا حدوث أي تنمّر.

تغدو قاعة المذاكرة مكانًا للعب عندما تمطر السماء وبعد غياب الشمس. حينَ وصلت أول مرة كنت في القسم الأدنى الذي يحوي حوالي خمسة وعشرين صبيًا، أشعرتني الغرفة بخوف رهيب؛ كانت غرفة مربعة كبيرة، صُفَّتْ فيها الطاولات والمقاعد المصنوعة من القصب بمحاذة الجدار وقد ولَّتْ ظهرها للغرفة، تحوي كل طاولة على جواريرَ ورفٍّ مرتفع توضع عليه الكتب وباقي المحتويات. هذا الترتيب يمنع المرء من رؤية أو محادثة الصبيان الآخرين على جانبيه ولكنه لم يمنع المشرف من رؤية الجميع وهو الذي يجلس على منصة بين النافذتين التي لا يمر منها سوى ضوء ضئيل للغاية. الضوء في أماكن الدراسة لا يعدو ما يصلنا من مصباح واحد معلق في وسط السقف. بعد سنوات عديدة قرات كتاب جوليان غرين المسمى (منتصف اللَّيل)(122) الذي يشابه تمامًا جوَ تلك الغرفة. كنا جميعًا نشتكي من عدم قدرتنا على تحضير دروسنا لكن لم يُتَّخذْ أيُّ إجراءٍ بخصوص ذلك. أعرف أن ذلك قد دمر نظري، وأتذكر رفع رأسي من طاولتي والنظر حولي لأجد كل شيء ضبابيًا. كان

نظري جيدًا للغاية حتَّى دخولي المدرسة ولكن عند عودتي إلى إنكلترا توجب عليّ ارتداء النظارات.

في وقت الترفيه لم يكن هناك الكثير مما يمكن فعله، كنا نقرأ ونلعب بالكرات الزجاجية ونثرثر ونكاد نموت من الملل. ليس من متسع لأي ألعاب حماسية لكننا لعبنا رمي السهام وتعلمت لعب الشطرنج.

إجراءات النظافة كانت بدائية، ثمة حمامات واحدة صغيرة على طريق قاعة المذاكرة، وأنا متأكد أنها تعود في الأساس لفترة تأسيس الدير. لم تكن هناك مياه جارية لا فيها ولا في غرفة المنام. إذا أردنا شرب الماء يوجد مرشح كبير للماء في واحدةٍ من زوايا قاعة المذاكرة، وكانت تملأ بالمياه المعلبة من قبل أحد الخدم.

غرفة المنام قريبة من قاعة المذاكرة وقد أثثت بوحدات نوم مفتوحة من الأمام وفواصل خشبية. في كل مهجع يوجد سرير ومغتسل حديدي يحوي على حوض من الفخار الصيني فيه ماء. لم تُشجَّع النظافةُ وبالتأكيد لم تُربَط بالإيمان، مطلقًا. أعتقد أنهم مضوا على نفس المبادئ الفيكتورية التي تقول إن المرأة التي تستحم أكثر من مرة في الأسبوع مشكوك بعفتها.

كان هناك مكان واحد للاستحمام في المدرسة وكان ذلك في المشفى. اكتشفت ذلك لأنه كان مسموحًا لي بالاستحمام فقط عندما يكون موعد وصول أمي إلى مونت كارلو. وفي تلك الحالة النادرة كُنتُ أُعطى بدلة استحمام لكي أرتديها وأنا أغتسل! في يوم الثلاثاء مرة كل أسبوعين كان الماء الساخن يُوفَّرُ أما لغسل الأقدام أو لغسل الشَّعر الذي كان محكومًا عليه بالقص دائمًا. أُعتُبِرَ ذلك تنظيفًا كافيًا لنا. بالطبع لم نكن نقوم بتمارين عنيفة مثل الصبيان الإنكليز الصغار، لذا أشك في كوننا أقذر منهم.

ارتدينا كلنا زيًّا موحّدًا حتَّى في ملابسنا الداخلية وقميص النوم. أُخِذتْ منامتي بعيدًا وأُعطيتُ رداءَ نومٍ قطني طويلاً بدلاً عنه. بخيوط قطنية حمر من المقدمة وعند الرسغين، وغطاء رأس لليل! كان هذا ضروريًّا للغاية في الليالي الباردة، فكما قلت حُلِقتْ رؤوسنا تمامًا. ملابس النهار تتكون من زي موحد محشو وبنطال طويل وجاكيت بصدار واحد يعلق بشكل غير مريح بالرقبة. كانت الملابس سوداء في الشتاء ومرقّطة بالأسود والأبيض في الصيف، وكلاهما بأزرار برَّاقة. تحت الزي سواء في الصيف أو الشتاء كنا نرتدي ملابس داخلية طويلة يتغير وزنها قليلاً تبعًا للموسم. ونرتدي في الصيف والشتاء على حد سواء بسطارًا بلاستيكيًا دائمًا ما بدا ضيقًا للغاية، ويصعب ارتداؤه على صبي صغير لا سيما حين يكون البسطار جديدًا. الزي كله يتوج بقبعة المدرسة وهي تشبه القبعات العسكرية مطرز عليها شعار المدرسة بخيوطٍ ذهبية في أعلاها.

كان نمط الحياة واحدًا لكل الصبيان، من أصغرهم حتَّى أكبرهم. لم يُمنح الأكبرُ سِنًّا حرية أخرى؛ بل كنا جميعًا تحت نفس المراقبة. كانوا يأكلون الطعام نفسه، مثلنا، ويرتدون نفس الملابس ويعيشون في نفس جو الكآبة والظلام.

سلسلة أراض لعب مكسوة بالحصى تقع خلف الكلية، أرض لكل قسم، وتنفصل عن بعضها بقضبان حديدية، ومن الذكاء عدم الاقتراب من القضبان كثيرًا خشية أن يشتبه بخوضنا محادثة ودية مع الجانب الآخر. أتساءل كيف لم نمت من الملل؟ لم توجد أي ألعاب تتضممن اللعب بالكرة إبدًا إلا لو اعتبرت الكرات الزجاجية لعبة من ألعاب الكرة. اللعبة الوحيدة التي يبدو أننا كنا نلعبها هي نوع مخفف من لعبة قاعدة المساجين حيث يصطف لاعبو كل فريق في طابور، ويحاول من يصل له الدور الاتجاه إلى آخر الطابور دون أن يلمسه أفراد الفريق الخصم؛ لم تكن لعبة حماسية للغاية، وعادة ما يحول الجو الحار في الصيف وأزياؤنا الثقيلة دون لعبها. يبدو أن الأولاد الكبار كانوا يسلّون أنفسهم بالمشي في مجاميع من ثلاثة أو أربعة صبيان، لم يُشجَّعْ التجمع بين شخصين فقط، إذ كان ذلك يثير الريبة. من المدهش أن يبقى لأي من الطلاب أي حس بالفردانية بعد انقضاء عشر سنوات في تلك المدرسة كما فعل معظمهم.

ربَّما نمضي في تمشية طويلة، ويمشي الأستاذ المشرف على قسمنا في المؤخرة، مثل جهاز إنذار السكك(123) يطلق إنذاراته كل حين، اعتدنا السَّيرَ غربًا عبر مونت كارلو من أجل تجنُّب الخوض بالوحل أدنى طريق كرونجي، وهناك اعتادت السيارات المخترعة حديثًا على المضي بما بدا في حينها سرعة قصوى، تتأرجح من جانب لآخر مطلقة أبخرة بترول قذرة وترعب الخيول، وقد يلوِّحُ راكب الخيل أو الحوذي بسوطه لسائقي السيارات المتهورين. بعد المضي بهذا الطريق لبعض الوقت كنا نتركه ونذهب إلى التلال حيث يسمح لنا بأخذ استراحة والمشي بين شجيرات الزيتون ونقطف قرون الخرنوب الحلوة من على الأشجار.

أحيانًا، في مناسباتٍ خاصة خلال الصيف نزورُ بعض المشاهد المقدسة المحلية والبعيدة في الغالب، إذ يتضمن الوصول إليها ركوب عربات الشاربان(124) التي تجرها مهور جبلية قوية. إحدى تلك الزيارات كانت إلى ضريح فوق الجبل هو مقام سيدة لاغيت(125) على ارتفاع يتجاوز الألف ومئة قدم فوق مستوى سطح البحر ويحتاج لرحلة يوم كامل، وحين وصولنا تقام الصلاة ويقدم لنا غداء في المطعم. لا حاجة للقول إن تلك كانت متعة عظيمة وأحيانًا كنا نذهب إلى التوريب(126) إذا اتجهنا إلى الطريق الآخر صوب كاب مارتين مشينا عبر جادة دي مولينيس، ومن هناك بوسعنا أن نطل على الكازينو الملعون عبر الحدائق. مثَّل لنا الكازينو تجسيدًا لكل الشرور وشعارًا لها. كان ذلك كازينو هايدي في مونتو كارلو أكثر أماكن القمار حداثة في العالم. لم يكن هناك من لعبة أكثر حماسًا من لعبة النرد والأحصنة الصغيرة(127) لكن مونتو كارلو احتوت غرف الروليت القانونية الوحيدة في أوروبا. صوَّرنا لأنفسنا الشهوات الجامحة والدناءة بل وحتَّى الوثنية التي لا بد من أنها

تحدث خلف هذه الأبواب التي تبدو كالخطايا، وكانت لنا أحلام عن حالات انتحار لا تنتهي وعن عذاب النفس في أعماق الجحيم؛ لأننا كنا بطبيعة الحال متشددين دينيًا وقد آمنا بأكثر الجوانب رعبًا للجحيم كما وصفت لنا من قِبل القساوسة خلال المواعظ الدينية.

عندما تركتني أمي في موناكو شعرتُ بأنها تخلَّت عني. كانت لغتي الإيطالية متواضعةً كما قلت، لذا لبضعة أسابيع كُلف أحد الآباء بمهمة تعليمي اللغة لكنه كان على وشك الذهاب إلى إنكلترا عن قريب، لذا قضى معظم الوقت في المِران على لغته الإنكليزية معي، سألني: «كيف للإيطاليِّ أن يخاطب نبيلاً إنكليزيًّا؟»، هل يجب أن أقول له «يا سيدي؟»، بطبيعة الحال لم يكن عندي أدنى فكرة لذا كنت أحزر. كانت معظم أسئلته تدور حول طريقة التصرف مع النبلاء، لا أعرف إذا ما ذهب إلى إنكلترا وقابل النبلاء بالفعل، وإنْ حدث ذلك فأتمنى أنهم دُهِشُوا بلغته.

على أي حال، فإن العقل الشاب له مرونة قوية لا سيما عندما تكون المسالة مهمة في التعامل مع الصبيان الآخرين، وقد حققت تقدمًا جيدًا للغاية، فلم يبدو أن وقتًا كثيرًا مرَّ قبل أن آخذ مكاني في الصَّف مع باقي الطلاب من عمري، لكن الأمر كان أشبه بإعادة الدراسة من جديد. بالإضافة إلى التراجع الناتج عن وجوب إنجاز كل دروسي بلغة لا تزال غريبة عليّ فقد كانت الدروس غريبة للغاية عما كنت معتادًا عليه. اللُّغة اللاَّتينية كانت غريبة كليًا عندي مع لفظ كلماتها بطريقة إيطالية مبالغ بها. دراسة الرياضيات بلغة جديدة، سببت لي تشوشًا. تاريخ وجغرافية الإمبراطورية الرومانية وإيطاليا الحديثة، وبالطبع تاريخ الكنيسة الكاثوليكية بدا أن كل ذلك موجه بشكل مباشر لنقد البروتستانتية وحركة الإصلاح وهنري الثامن، بل حتَّى الملكة بيس الطيبة(128) قُدِّمتْ كمثال على الوحشية وانعدام الإنسانية في إعدامها للشهداء الكاثوليك.

رُكِّزَ الانتباهُ على تعليماتي الدينية، وتوجَّبَ عليَّ تعلُّمُ كل الصَّلوات باللاتينية كما شُرِحَ لي القداس والدعاء واستخدام المسبحة. أنا المعتاد على الفكرة السديمية النمطية عن الدين لدى أي فتى إنكليزي عادي، وجدتُ نفسي منقادًا إلى كلِّ المراسيم والتصوف في الكنيسة الكاثوليكية من زاوية النظر الإيطالية المتشددة بحكايتها عن كل الأماكن المقدسة في إيطاليا وقبور وآثار القديسين والبيت المقدس والأجزاء الحقيقة للصَّليب.

هؤلاء اليسوعيون الإيطاليون كانوا أكثر البشر رقَّةً ولطفًا والأكثر تعاطفًا ممن التقيتهم في حياتي حتَّى ذلك الوقت عدا أفراد عائلتي. أتذكَّر ثلاثةً منهم بودٍّ عميقٍ: مشرف وحدتي الأب دومينو غوستا الذي لم أسمع منه أي كلمة قاسية إلا لو كنت أستحقها بجدارة. ثانيًا الأب ألفونسو ستراديلي المنحدر من واحدة من أقدم العوائل الرومانية، الذي كان الأب الروحي للطلاب، والأب الروحي في المدرسة اليسوعية هو قديس بوسع الطلاب اللجوء إليه في أي وقت عند الحاجة المُلِحَّة سواء أكان ذلك الأمر دينيًا أم أخلاقيًا أم فكريًا. وطَوال سنواتي الثماني في المدرسة اليسوعية لم أعرف أبًا روحيًا لم يهدِّئ ويطمئنْ أولئك

الذين في مشكلة. القسُّ الثالث أتذكره خير ذكرى، كان الأب موديستو سيروتي، رئيس أساتذة الكلاسيكيات، وهو الصديق الحقيقي، الذي تفهَّم قلقي وحزني وطمأنني وزوَّدني بكميةٍ لا تنتهي من الطوابع لمجموعتي. بقيتُ على تواصل معه لبضع سنوات بعد عودتي إلى إنكلترا لكن هذا التواصل تضاءل بالتدريج نتيجةَ عدم وجود اهتمامات مشتركة بعد أن غادر موناكو وذهب إلى شيري. آخر مرة كتبتُ له كان في كانون الثاني/ يناير ١٩٠٧.

لم تكن هناك عقوبات جماعية في كلية ديلا فيستزيونا، ومع ذلك يمكنُ إشعارُ الفتى المخطئ بتقصيرهِ. باختصار طُبِّقتْ العدالةُ بشكل صفعة سريعة على جانب الرأس، في ذلك ميزة غير عادلة للأستاذ، ففي كل مرة يخاطب الصبي أسقفًا يتوجب عليه تقبيل يده، وفي لحظة غفلة من الصبي يتخلى الأب عن تقبل التحية ويتوجه بيده لصفع الصبي على رأسه. على أي حال، لو شَعر الصبي بارتكابه ذنبٍ فيمكنه أن يتجنب الصفعة المتوقعة بالانسحاب في الوقت الملائم، ومثلما ينصُّ القانون الإنكليزي على أن المرء لا يمكن أن يعاقب مرتين على نفس التُّهمة، كذلك إذا نجحتَ في تفادي الصفعة فلن تُلاحقَ.

كانت تلك طبيعة العقاب غير الرسمي، بينما العقوبات الرسمية ظلت محرجة ومزعجة؛ رغم أنها ليست مؤلمة جسديًا. عدا الفصل من المدرسة الذي أفترض أنه موجود رغم أنني لا أتذكر حدوثه يبقى أسوء عقاب يمكن فرضه على صبي أن يجبر على أكل وجباته جاثيًا على ركبتيه في وسط المقصف أمام الطاولة العليا حيث يجلس الأساتذة الكبار. ذلك لم يكن يحدث غالبًا، في الحقيقة لا أعتقد أن ذلك قد حدث سوى نصف دزينة من المرات طَوال فترة بقائي في موناكو. العقوبات الأخرى في المقصف تضمنت الحرمان من حصة النبيذ أو يُجبَرُ التلميذُ على نظام غذائي من الخبز والماء فقط؛ بينما يجلسُ وسط الآخرين المستمتعينَ بطعامهم.

شكل آخر من أشكال العقاب الجدية تمثّل في فرض السكوت لفترة من الزمن، أحيانًا لنصف ساعة فقط أو لعله يمتد على مدى يوم كامل. عقوبة الصمت أمر مفزع بنفس قدر تناول الطعام جاثيًا في المقصف. ويمكن أيضًا أن يجبر المرء على ملازمة مكتبه خلال وقت الترفيه أو في زاوية من الملعب ولا يسمح له بالتحرك.

وحدهم الأساقفة كان مسموحًا لهم بتطبيق العقوبات. كل الآباء اليسوعيين في إيطاليا كانوا يخاطبون بصفة الأب سواء أكانوا قد وصلوا مرتبة الأسقف أم لا، فترة التحضير طويلة وفي العادة لا يصبح اليسوعيون قساوسةً حتَّى يتجاوزوا الثلاثين من العمر.

أعظم أصدقائي في مدرسة موناكو صبي يدعى سيزار كالسياتي، كان ابن أخت الأب الروحي. هذا الصبي لديه موهبة مميزة بقدرته على ترويض الطيور؛ كان يجلس على صندوق فخ في الملعب وَوضعَ طعمًا في قطعة صغيرة من الجبن في نهاية خيط مرتبط بنهاية غصن يسند الصندوق، الطير الغافل سيلتقط الجبن ويسقط عليه الصندوق ليسجنه،

عندها يرفع كالسياتي الصندوق على القدر الذي يسمح له بإمساك طائرٍ غالبًا ما يكون عصفورًا صغيرًا ولكن ليس دائمًا، يأخذه إلى زاوية الملعب ويقضي حوالي عشر دقائق يتحدث مع العصفور ويرعاه، ومن بعدها يستدير فإذا العصفور جالس على أصبعه هادئ ومستقر بينما هو يربت عليه، بعد بضع دقائق يلقي بالطائرِ إلى الهواء مناديًا «حَلِّق!»(129) وسيحلِّق بعيدًا.

رأيت كالسياتي يفعل ذلك عدة مرات لكن القساوسة لم يشجعوه على ذلك، وفي النهاية منعوه من هذه اللعبة على أساس أنها وحشية بحق الطير. شعرتُ أنهم اعتقدوا أن كالسياتي امتلك قوة نظر غامضة مرتبطة غالبًا بالجيتاتورا أي العين الشريرة التي يؤمن بها كل الإيطاليين تقريبًا.

بعد بضع سنوات صار عندي دليل قاطع على أن الكنيسة أخذت مثل تلك الأمور بجدية؛ كنت في ساتزيما(130) مع شارلز سكوت مونوكريف المترجم الموهوب لبروست إلى الإنكليزية، وكنت أتفحص سجلات الكنيسة في القرن الثالث عشر، صادفت إشعارًا مطبوعًا في مطبعة المعترفين يوجه الكهنة حول الخطايا التي يجب إحالتها إلى سلطة أعلى قبل أن تُغفَرَ. يتكون ذلك من خمس: القتل، التجديف، الامتناع عن الأسرار المقدسة(131) لما يزيد عن سنة (والذي يعتبر قطعًا للتواصل)، إغواء القاصرين وأخيرًا الانغماس في الشعوذة بأي شكل لا سيما الجيتاتورا. في نفس الوقت وجدت في محلِّ بيعٍ للكتب المستعملة في فلورنسا نسخةً من كتاب (التنين الأحمر)، وفيه تعليمات للسحر والشعوذة وتحضير الجرع السحرية كجرعة الحب وما شابه. كانت حيازة نسخة من مثل هذا الكتاب جريمةً نكراء في نظر الكنيسة، ورغم أنني أنا نفسي لم يكن عندي إيمان بالسحر فقد حجبته عن أعين أصدقائي الإيطاليين، فمن الممكن أن يثير ذلك صدمةً في نفوسهم.

صديقي العظيم الآخر هو صبي يدعى مورينو، كان مواطنًا من موناكو، وصفة المواطنة هناك كانت (وغالبًا لا تزال) صعبة المنال، إذ يجب أن يكون كلا الوالدين قد ولدا هناك ويجبُ أن يولد المرء في موناكو كذلك. كان والد مورينو موزِّعَ ورقٍ في الكازينو وهو عمل وراثيٌّ تقريبًا.

تكلَّم مورينو الفرنسية والإيطالية والبروفنسالية(132)، أول ما جمع بيننا قدرته على تحدث الفرنسية. كنا نجمع الطَّوابع وَعلمته القليل من الإنكليزية وعلمني الكثير من البروفنسية باستخدام أعمال فريدريك ميسترال(133) كمنهج لدراستي، بالذات عمله (ميرييو). اعتدنا تكلم البروفنسية معًا رغم أن هذا لم يكن جزءًا من المنهج.

بعد ذلك بخمسٍ وعشرين سنة كنت في كازينو مونت كارلو عندما اقترب مني رجل صغير وسألني إذا كنت أنا السيد هولاند، عندما أجبته بنعم، قدم لي نفسه وكان مورينو. كان موزع ورق، وموزع الورق لا ينسى وجهًا. أخذته لتناول الغداء في اليوم التالي، وأخبرني

بحكايات مدهشة عن الكازينو، وفقًا له هناك طريقة واحدة تكون مؤكدة للفوز لمدة طويلة في لعبة ثلاثة وأربعين(134)، النقابة النمساوية تعرف ذلك منذ سنوات لكن هذا معناه وجود شخص ما من النقابة في الغرف طَوال الوقت، وأحيانًا عدم اللعب لعدة أيام.

كنَّا، أنا وكاليساتي وموريتو، جامعي طوابع لا مثيل لنا في المدرسة، وقضينا ردحًا طويلاً من وقت الترفيه نحدق في مجاميع بعضنا البعض ونتسول الطوابع من الأساتذة ومن الصبية الآخرين. أخي سيريل كان جامع طوابع متحمسًا هو الآخر، وقد كتبنا لبعضنا بشكل متكرر عن هذا الموضوع.

عندي في هذا الشأن رسالة كتبتها إلى أخي بتاريخ تِشرين الثاني/ نوفمبر عام ١٨٩٧:

عزيزي سيريل

حصلتُ على بعض الطوابع البرتغالية المستعملة التي أُصدِرتْ لثمانية عشر يومًا، وإذا أرسلتَ لي شلنًا وثمانية بنسات ونصف(135) سأشتري لك أربعَ طبقات، والأفضل أن أرسل لك عنوانَ بائع هذه الطوابع وبوسعك إرسال المبلغ له لشرائها. لا أعرفُ كم يساوي ذلك بعملة البفنغ(136) لكنَّ ثمنَ الطبقاتِ، على أيِّ حال، شلن وترنر وسيكلفك البريد شلنين ونصفَ شلنٍ من أجل إعادة إرسالها إلى عنوانك. لقد أُصدِرتْ احتفالاً بالمئوية السَّابعة لولادة القديس أنطوني(137). هذه طوابع بريدية نادرةٌ للغاية؛ واحد منها مثل ذاك الذي أعطيته لأمي. هل تريد طوابع جديدة لعيد الميلاد؟ أربعة طوابع من جوهور(138) وأربعة طوابع برتغالية، كل طوابع جوهور تشبه التي تملكها، طوابع السنت والسنتين والثلاثة والأربعة سنتات. ستكلفني أحدَ عشر شلنًا ونصفَ شلنٍ، ثم سأضيف طوابعَ فرديةً. ما من أخبار، يجب أن أنهيَ رسالتي الآن.

أخوكَ المحبُّ/ڤايڤيان هولاند

عادة ما كُنَّا نوقع بأسمائنا الكاملة، عندما نكتب لبعضنا، وعليَّ الاعتراف أن هذا يبدو غريبًا الآنَ. جزءٌ كبير من رسائل أمي أيضًا كانت حول الطوابع، وكانت في غاية اللباقة وهي تقسِّم بيننا أيَّ شيء تجده كما لو كنا صوصين صغيرين نتشاجر على الديدان. كنا نضايقها على الدوام بطلب المزيد من الطوابع، إذ نعرف أن الراني تصلها رسائل من سرواك ودوق شرق الهند وولايات مالي الفيدرالية. ولأمي قريبةٌ متزوجةٌ من القنصل البريطاني في يوكوهاما التي يمكن الاعتماد عليها دائمًا في الحصول على طوابع جديدة.

كان افتخاري بمجموعة طوابعي كبيرًا، فلم أكن قادرًا على تحمل فكرة أنني في المستقبل البعيد سأموت يومًا وسيأخذ مجموعتي شخص آخر، حتَّى أنني تساءلت لو كان من الممكن أن آخذها معي إلى القبر. أعتقد أن هذا كان قلقي الوحيد بشأن الموت لأن متع الفردوس

كانت توضع دائمًا أمامنا وبشكل واضح في المدرسة لدرجة أن الكثير من الطلاب وأنا منهم تطلعوا لدخول الجنة. لا أعتقد أننا فكرنا أبدًا باحتمالية ألا نكون أهلاً لها.

بدأتِ المدرسة أواخرَ كانون الأول/ديسمبر، وانتهت في آب/ أغسطس من السنة التالية، لم تكن هناك عطلة لا في عيد الميلاد ولا الفصح. هذه الأيام المقدسة كان يجب قضاؤها في المدرسة بسبب أهميتها الدينية. لم يُنجَز أي عمل لبعض الوقت قبل أو بعد هذه الأعياد، لذا لم تكن هناك أعياد فعلية في المدرسة.

ظنت أمي أن من القسوة حرماني من عطلة عيد الفصح، لكن الآباء اليسوعيين أصروا على بقاء كل الصبيان في المدرسة خلال أسبوع الفصح بكل طقوسه، أحزانه وأفراحه. لذا رتبت لي أمي رحلة إلى نيرفي في منتصف آذار. قضيت معها ثلاثة أسابيع هناك متبجحًا بلغتي الإيطالية التي اكتسبتها حديثًا، وقد كنت مغترًا بذلك كثيرًا. وما إن عدت إلى موناكو توجب عليها الذهاب إلى فرايبرغ والبقاء مع آل بلاكر من أجل التواصل مع أخي الذي تعطلت الدراسة في مدرسته قبل وقت قصير من عيد الفصح. كان ذلك جيدًا لها نوعًا ما حيث كانت برفقة واحد منا طَوال الأسابيع الستة الأولى بعد إطلاق سراح أبي وما حدث في التاسع عشر من أيَّار/ مايو ١٨٩٧.

بطبيعة الحال شعرت أمي أن ذلك يعني أزمة كبيرة أخرى، لكن عائلتها تدخلت وأقنعوها بالانتظار لفترة قبل السفر لرؤية والدي. توجَّبَ عليها الذهاب إليه وأخذه تحت جناحها بدلاً من تركه وحيدًا، لكن عائلتها أرادت منها قطع علاقتها به إلى الأبد، ونجحوا بشكل مثير للإعجاب في ذلك لأن أمي وأبي لم يلتقيا مرةً ثانية أبدًا.

المرة الأولى التي ذهبت فيها إلى قصر موناكو، قبل الذهاب إلى المدرسة، انحنيت فقط للأميرة كما وُجِّهتُ ولكن في المرات التالية عندما أخذني أحد الآباء اليسوعيين دخلت وقد قيل لي أن أجثو أمامها وأقبِّلَ يدها، وبمجرَّد أنْ فعلتُ ذلك أُرسِلْتُ إلى حديقةِ القصر للَّعِبِ مع الأطفال الذين كانوا يكبرونني سنًّا بقليلٍ. كانت الحدائق كثَّةً ومتداخلة، لذا اعتدنا لعب لعبة الاختباء حتَّى وقتِ الشَّاي.

في زياراتي إلى القصر لم أكن أرى الأميرة دائمًا، كانت غائبة في الغالب ولديها مشاكلها، إذ كان الأمير صعب المراس قليلاً فَبذلتْ أقصى جهدها لتكون في أفضل حال وتجاريه. بعد سنوات كثيرة عندما كنت أقود السيارة إلى جنوب فرنسا، أنا وصديق لي دُعِينا إلى بيتٍ ريفي ضخم حيث عاشت إبان تقاعدها. لم تتحدث الإنكليزية منذ فترة طويلة، وعندما قدمني صديقي بالفرنسية بوصفي ابن أوسكار وايلد كانت مصدومة وقالت بالفرنسية: «حتى أنني نسيت أن لدى أوسكار أولاد»، وعندما ذكرتها بأيامي في مدرسة موناكو ندمت على ما قالت وانغمست في ذكرياتها عن أبي وأمي والراني.

مرَّ شتاء ١٨٩٧ وكذلك الربيع، ومع قدوم الصيف جاء موعد العيد الكبير لكل الصبيان الإيطاليين في الحادي والعشرين من حزيران/يونيو في عيد القديس ألويسس من غونزاكا(139) والذي يتلقى فيه كل الصبيان الإيطاليين القربان المقدس للمرة الأولى. كان يومًا محزنًا للغاية بالنسبة لي لأن واحدًا من شروط السماح لي بدخول هذه المدرسة هو عدم أخذي للقربان في الكنيسة الكاثوليكية. ومع هذا كنت هناك تقيًّا مثل أي صبيٍّ في المدرسة، أرى رفاقي الصغار يدخلون إلى القداس وأُمنَعُ. توسلتُ بالطبع لكن دونَ جدوى.

لم يكن هناك دليل قاطع فيم لو كنت قد عمّدتُ أبدًا في أي كنيسة مثل كل الصبيان الكاثوليك أو حتَّى في كنيسة بروتستانتية، لذا لم يكن ممكنًا أن أتناول القربان مثلما كنت توّاقًا لذلك. توجب عليّ البقاء في مكاني في الكنيسة مجللاً بالعار بينما سارت البقية إلى المذبح. يا لها من تجربة مرة أن أراهم بأشرطة اليد البيضاء المزينة بزخارف ذهبية بينما أحدق بهم مثل المنبوذ.

في السنة التالية، ١٨٩٨، جاء أسقف تورين إلى المدرسة لإعطاء الصبيان الجدد القربان المقدس للمرة الأولى. أُخبِرتُ مرةً أخرى أنَّه ليس بوسعي أن أكون واحدًا منهم لكنني تعزّيت قليلاً بالإشارة لي لاتِّباع الأسقف إلى المذبح وحملِ عصا الأسقف بينما يسير إلى جواري صبي حاملاً تاجه. أتذكَّر حدوث جدالٍ كبيرٍ حول ذلك حيث أراد كلانا حمل العصا. كاد ذلك أن يتسبَّبَ بعدم السماح لكلينا بحمل أي شيء لكنني فزتُ في النهاية. قُدِّمتُ إلى الأسقف كذلك، وانحنيت أمامه وقبّلت خاتمه؛ باركني ووعدني بأني سأتناول القربان المقدس رغم كل شيء لو بقيت هنا في السنة القادمة.

قبل ذلك بوقتٍ قصيرٍ في التاسع عشر من أيَّار/مايو أُطلِقَ سراح والدي من سجن ريدينك، وعبر القنال الإنكليزي من نيوهيفن إلى دييب(140) برفقة روبرت روس وريجنالد ترنر(141) عند قدومه إلى فرنسا اتخذ له اسمًا مستعارًا هو سيبستيان مالموث، تيمّنًا باسم الشخصية الرئيسية في كتاب مالموث الأعجوبة الذي كتبه عمّه الأكبر شارلز ماتورين، وتحت هذا الاسم سجل نفسه في فندق ساندوج في دييبي. في البدء بدا أنه سعيد للغاية هناك مع أصدقائه، والعديد منهم جاء من إنكلترا لرؤيته؛ لكن هويته عرفت بالتدريج وتمادى الأشخاص الإنكليز والأمريكان معه، وذلك بإزعاجه أولاً ثم وصلوا إلى حد إهانة كرامته. لذا بعد عشرة أيام انتقل إلى فندق دي لا بلايج في بيرنفال سورمير، وهو سكن صغير عند الشاطئ حوالي خمسة أميال شرق دييب.

اجتمع المتعاطفون معه وجمعوا له المال لمساعدته في الوقوف على قدميه، واعتاش من ذلك المال لبعض الوقت ريثما يقرر خطوته التالية. في نفس الوقت وعدته أمي بالاستمرار بإرسال مصروف له قدره ثلاثة جنيهاتٍ أسبوعيًا حتَّى إشعار آخرَ، واستمرَّتْ بالدفع له حتَّى وفاتها.

في مصادفة غريبة؛ في الحادي والعشرين من حزيران/يونيو ١٨٩٧، أي في نفس الوقت الذي كنت أتوق فيه للحصول على القربان المقدس أقامَ أبي حفلاً للأطفال في بيرنفال(142) وقد وصفه في رسالةٍ إلى صديق كالتالي:

كانت حفلتي(143) ناجحةً بشكل كبير، استمتع ١٥ طفلاً(144) بالفراولة والقشدة والمشمش والشكولاتة والكيك وشراب الرمان(145)، تناولتُ كعكة كبيرة رسم عليها شعار يوبيل الملكة فيكتوريا(146) بالسُّكر الوردي، وزينت باللون الأخضر، وحلقة كبيرة من الزهور الحمر طوّقت كل شيء. طُلب من كل طفل سلفًا أن يختار هديته؛ واختاروا كلهم أدوات موسيقية!

ست آلات أكورديون

خمسة أبواق

أربعة من الكلارينت

غنوا النشيد الوطني الفرنسي وأغان أخرى، ورقصوا في حلقة ولعبوا لعبة «حفظ الله الملكة»، قالوا إن هذا هو اسمها ولم أشأ معارضتهم. أعطيتُ أعلامًا للجميعِ. كانوا في غاية الإشراق والحلاوة. قدمتُ تحيةً لملكة إنكلترا(147) ونادى كلهم: تعيش ملكة إنكلترا(148)، وثم وجهت التحية إلى فرنسا أم الفنانين كلهم(149)، وأخيرًا إلى رئيس الجمهورية(150). اعتقدتُ أنني أجدت ذلك، فقد صاحوا من بعدها بصوت واحد «يعيش رئيس الجمهورية ومونسيور مالموث»(151)، وهكذا وجدتُ اسمي يقترنُ باسم الرئيس.

بقوا هناك من الرابعة والنصف حتَّى السابعة مساءً ولعبوا الألعاب: عند مغادرتهم أعطيت لكل واحد منهم سلة تحوي قطعة من الكعك المزين باللون الوردي والحلوى.

يبدو أنهم قاموا بعمل استعراضٍ عظيمٍ في بيرنفال، وذهبوا إلى بيت حاكم المدينة وصاحوا «يعيش السيد الحاكم! تعيش ملكة إنكلترا! يعيش السيد مالموث!»(152)، ارتعبتُ في مكاني.

عندما اكتسبت ما يكفي من الإيطالية لمتابعة طقوس الكنيسة كنتُ محتارًا بشكل كبير بما يسمى البذاءة(153)، التي يبدو بأنَّها واحدة من أكثر الخطايا شرًّا، ممَّا يمكن للإنسان ارتكابه، إنَّها خطيئةٌ أخلاقية في الواقع. رويدًا، رويدًا تبيَّنَ لي تعلُّقُها بكشفِ الجسدِ، وصارَ الأمر محيِّرًا أكثر. ببراءتي الطفولية لم يحدث أن ظننت أن عرض الجسم لمرأى العامة أو نظرك له يمكن أن يكون خطيئةً، بل هو أمر محرج فقط. ووجدت نفسي فجأة عالقًا في عالم يُعَد فيه جسم الإنسان أمرًا غير مقبول وأجساد الآخرين بالذات. أعطاني ذلك أول

إحساس شرير؛ لا يمكن أن أتخيل ما الفائدة من جعل الصبي متهيبًا من جسده ولديه أفكار غير صحية عن وظيفته.

عبسَ وجهُ ناصحي الروحي، عندما أخبرته أن الصبيان في المدارس الإنكليزية كانوا يستحمون عُراةً سويًا وأن الأساتذة كانوا ينضمُّون إلينا أحيانًا... ضمَّ يده برعب وقال: «خطيئةٌ مميتة!»(154).

كنت في حالة فظيعة للتفكير أنني كنت أرتكب خطايا مميتة لا حصر لها عبر فترة من الزمن لكن الكاهن الطيب طمأنني بإعلان أنني ما دمت لم أكن أعرف أنها خطيئة فهي ليست خطيئة لكنني يجب أن أكون أكثر حذرًا في المستقبل. بمعرفة أن أملي بالنجاة قد يتحطم، رفضت خلال عطلاتي القادمة نزع ثيابي أمام أخي أو البقاء حين يبدِّلُ ثيابه. أطلق عليَّ أخي لقب منافق لا يُحتمل. كان محقًّا للغاية.

جاءت العطلات أخيرًا حيث يعود كل الصبيان تقريبًا إلى إيطاليا، ويذهب العديد من الأساتذة إلى روما، كان من السهل للغاية إيصالي إلى نيرفي التي تقع على الخط المباشر بين موناكو وروما. في اليوم التالي ذهبت أنا وأمي إلى فرايبرغ. كان سيريل هناك بالفعل، قادمًا من هايدلبرغ لوحده. شققنا طريقنا بوسائل نقل متعددة إلى قرية هوجينس وآند الصغيرة، واحدة من أعلى النقاط في الغابة السوداء(155).

قضينا شهرًا تقريبًا في القرية، كان وقتًا مجيدًا للأزهار والعواصف الرعدية. بدت الغابة والمروج مثل كتلة من الألوان، ولطالما جلبنا حفنة أزهار في طريقنا إلى الفندق لتزيين غرفة أمنا. كانت العواصف هائلة ولم أكن قد خفت العواصف الرعدية أبدًا قبل ذلك الصيف؛ عند تجربة واحدة من أقوى العواصف الثقيلة في أعلى الغابة السوداء؛ سيتولد لدى المرء شعور دائم بالمقت لها. كانت إحدى العواصف قوية للغاية حتَّى لم يبق فاصل زمني أبدًا بين هزيم رعدٍ وآخرَ. كانت العاصفة قريبة للغاية واستمر الهزيم طويلاً، إذ يومض الضوء مثل شاشات سينما بدائية. تزاحم كل أهل القرية في الكنيسة، مقتنعين أن يوم الدينونة قد حلَّ. أمي التي طالما كانت تعاني من الصداع عند العواصف حبست نفسها في غرفتها وأنزلت الستائر واستلقت على سريرها، لكنني وأخي وقفنا عند نافذة غرفة نومنا نراقب البرق وهو يلاعب مانعة الصواعق في برج الكنيسة في نفس مستوى أسلاك التليغراف، أو نراقبه من العلية، ومن هناك بوسع الزوار في الأماسي الجيدةِ رؤية الشمس وهي تغيب خلف الأشجار، وليس في ذلك جرأة، كل ما في الأمر أننا استمتعنا بذلك حقًا.

قبل أن أغادر علمني سيريل ركوب الدراجة. استغرقني التعلم وقتًا طويلاً، ثم فقدت توازني وأنا أقود الدراجة على أحد الشوارع المنحدرة خارج القرية، وسقطت سقطة قوية وبقيت أتدحرج حتَّى اصطدمت بسياج خشبي عند استدارة الطريق، رميت من على

السياج وسقطت وسط حقل من الذرة، ونجوت ببضعة خدوش وجروح لكن الدراجة تحطمت كليًا.

تقع القرية على ارتفاع ٣٣٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر، ومن هذا الارتفاع يبدأ الجو هناك بالبرودة مع بداية أيلول/ سبتمبر، لذا عدنا إلى فرايبرغ وقضينا بقية العطلة مع آل بلاكر. في فرايبرغ ارتكبت أول مخالفة قانونية لي، فخور بما اكتسبته حديثًا من قدرتي على قيادة الدراجة الهوائية. أقنعت أمي بتأجير دراجة لي من المدينة، كنت أقود بمرح على الرصيف في الضواحي عندما أوقفني رجل شرطة وسأل عن اسمي وعنواني. يبدو أن قيادة الدراجات الهوائية على الرصيف قد ازدادت بشكل كبير مع انتشار السيارات، فعزمت السلطات على إنهاء تلك الحالة. لم أُسَقْ إلى المحكمة لكنني غُرِّمتُ خمسة ماركات، وذلك مبلغ كبير في تلك الأيام، عزَّ علي دفعه من جيبي.

انتهتِ العطلة بسرعة وعدنا إلى مدارسنا. فكرة عشرة أشهر مستمرة في مدرستي كانت لا تحتمل عندي، لذا عشت في كآبة لا تنتهي، كتبت لأمي رسائل مليئة بالدموع أتوسل بها لأخذي من هناك. كانت قدرتي على كتابة الرسائل بالإنكليزية نقطة في صالحي أتفوق بها على باقي الصبيان في المدرسة، فكل الرسائل الصادرة والواردة كانت تُقرأ، ولأن ما من أحد في المدرسة كان قادرًا على القراءة بالإنكليزية فقد نجت رسائلي من الرقابة. ولم يكن ممكنًا طبعًا أن يمنعوني من كتابة الرسائل إلى أمي وأخي. أرسلت لي أمي رسالة مطمئنة هدّأت من روعي وعدت إلى جو الدراسة.

كانت صحة أمي تتداعى بسرعة ولم يعد ممكنًا عندها تحمّل الحياة في الفندق في نيرفي أكثر. شعرت أن من الضرورة أن تجد لها ولأطفالها منزلاً حتَّى لا يضطروا لقضاء كل عطلهم في الفنادق. لذا وجدت شقة في فيلا الفيرا في بوليغاسكو تكاد تكون مواجهة لفيلا الراني فأجرتها لسنتين. أعتقد أنها كانت سعيدة للغاية هناك لأول مرة منذ غادرنا لندن. قربها من الراني جعلها تكتسب حلقة جديدة من الأصدقاء، والخدم الإيطاليون كانوا يحبونها ولم يتكاسلوا أبدًا في العمل بالشقة.

ذهب سيريل للبقاء معها خلال عطلات عيد الميلاد بينما توجب عليَّ البقاء في موناكو للمشاركة في المراسم الدينية. أتذكر أنني كنت خجِلاً من نفسي بعد أن تغلّب عليّ النوم بسرعة في الليالي الثلاث لقداس منتصف الليل السابق لليلة الميلاد، توجب حملي إلى فراشي. كنت في الحادية عشرة من العمر فحسب، مستيقظًا منذ السابعة صباحًا إن لم يكن أبكر من ذاك، لكنني شعرت أنني لو كنت أشد إيمانًا وأكثر إخلاصًا في مسعاي لما حدث ذلك.

لتعزيتي بعدم حصولي على إجازة في عيد الميلاد زارتني أمي لمدة أسبوع في منتصف شباط/فبراير من العام ١٨٩٨. رغم أن طيبتها لا يمكن أن تزداد أكثر، فقد بدت لي أكثر حنوًا

ورقة من أي وقت مضى، وأبقتني ملاصقًا لها طَوال الوقت. حتَّى أنها حصلت على رخصة لي لأنام خارج المدرسة، وتشاركنا أنا وهي نفس الغرفة في فندق بريستول. في نهاية الأسبوع عندما جاء أحد القساوسة لأخذي إلى المدرسة مجدَّدًا بكت قليلاً. لكننا كلانا لم ندرِ أن هذهِ آخر مرة نرى فيها بعضنا البعض.

استمرت صحتها بالتدهور، وسلبتْها مشاكلُها العائلية كلَّ طاقتها وقدرتها على المقاومة، والإصابة التي حدثت لها عند سقوطها من الدرج في منزلنا في شارع تايت كانت أقوى مما اعتقدت. بدأ الشلل في جذعها وذراعها اليمنى، وعانت لعدة أشهر من صعوبة في الكتابة، واضطرت لاستخدام كاتب على آلة طباعة للرد على المراسلات. لكن في أحد الأيام في مطلع نيسان/أبريل تلقيت رسالة طويلة منها مكتوبة بخط يدها، لا بد أن كتابتها كلفتها جهدًا فظيعًا. في الرسالة ذكرت أبي، كتبت:

«حاول ألا تشعر بالقسوة تجاه أبيك، تذكر أنه والدك وهو يحبك. كل مشاكله نشأت من حقد الابن على أبيه، أيًا كان ما صنعه فقد عانى الأمرين بسبب ذلك»، كانت تلك آخر رسالة منها لي.

بعد ذلك بفترة قصيرة ذهبت إلى دار رعاية في جنوا من أجل إجراء عملية لتخفيف الضغط على عمودها الفقري الذي كان يتسبب لها بألم لا ينقطع. أخبرتني الراني وكذلك فعل خالي أن أمي لم تكن تظن أنها ستموت، لكن بوسعي فقط أن أخمّن من خلال محتويات رسالتها الأخيرة لي أنها قد شعرت في أعماقها أن آلامها وأتراحها على وشك الانتهاء قريبًا.

في أحد الأيام أرسل الأب سترايدلي، الأب الروحي، في طلبي للحضور إلى غرفته عند المساء. وعندما وقفت بجانب طاولته قال: «يا طفلي، هل تعرف أن والدتك كانت مريضة للغاية؟»، لم أكن أعرف لكن غريزتي كانت تعرف بذلك، فسألته بالإيطالية: «هل توفيت والدتي؟» سكت الأب لبرهة ونظر إلي، ثم أجاب في الإيطالية: نعم، يا ولدي. بكيت قليلاً، ثم سألته عن أبي، أردت معرفة مكانه. هز رأسه قائلاً إنه لا يعرف. ومجدَّدًا وبدافع غريزي سألته: «لقد كان في السِّجن، أليس كذلك؟»، أجابني: «نعم، لكنه حرٌّ الآن»، رغم أنني شككت منذ وقتٍ طويل باحتمالية أن يكون أبي سجينًا، فإنَّني لم أسألْ أحدًا عن ذلك، وتلك أول مرة تتأكد فيها شكوكي. شعرت باطمئنان بالغ عند سماعي «لكنه حرٌّ الآن»، في الحقيقة كان حُرًّا منذ حوالي سنة ويعيش في نابولي.

كان حزني على أمي صادقًا وعميقًا، كنت أقدسها، وبدا لي أن كل ثقل العالم اجتمع على صدري عند سماعي بوفاتها. ومن الطبيعي أن تساءلت بقلق فيم لو كانت أمي كبروتستانتية مؤهلة لدخول الجنة، لكن الأب ستراديلي طمأنني في هذا الموضوع.

أول شيء صنعته هو الجلوس والكتابة لأخي. لا توجد عندي نسخة من رسالتي لكن لا تزال معي رسالة أخي لي وهي كالتالي:

ڤيڤيان الغالي،

أليس ذلك قبيحًا؟ أمي المسكينة الفقيرة! من الصَّعب إدراك معنى ذلك. نحن معتادون عليها. ما الذي سنفعله في العطلات بدونها؟ ذهبتُ إلى المسرح قبلَ أيام ولم أشعر بأي متعةٍ في ذلك. اشتريتُ مسدسًا له ستُّ طلقات. دفعتُ فيه اثني عشرَ ماركًا، حصلتُ عليه قبلَ شهر، عندما أرسلتْ لي أمي عشرة ماركات لكوني الأول على صفي. فكِّر بأمِّي دائمًا، وتذكَّر بأنَّها تراقبُكَ في كلِّ ما تفعل.

أخوكَ المحبُّ/ سيريل

النعي الأخير لوالدتي جاء من طرفِ روبرت شيرارد في كتابه (حياة أوسكار وايلد)، إذْ كتبَ:

«كونستانس وايلد التي كانت مريضةً منذ فترة طويلةٍ، ولم تتعافَ من الصَّدمة الفظيعة التي دمرت بيتها، حرَّرها الموتُ من عالم بشعٍ وقاسٍ يصدمُ الأشخاصَ الطَّيبين والبسطاءَ. ماتتْ في جنوا بعد عام من مغادرة زوجها للسجن. كانتْ امرأةً جميلة ومتواضعةً في غاية اللُّطف، استحقَّتْ أفضل من القدَرِ الذي فرضتْهُ عليها الحياةُ. ثَقُلَتْ وطأةُ موتِها على أوسكار وايلد فضاعفَ من يأسهِ وضياعهِ. كان حبُّه لها حقيقيًّا، عميقًا ومبجِّلاً».

في اليوم التالي لسماعي بنبأ وفاة والدتي، ذهبتْ المدرسةُ كلُّها في رحلة على متن الشارابان، وقد رافقتُهم لأنشغلَ بالرِّحلةِ؛ فلا أغرقُ في الحزن. أتذكَّر أن الرحلة أشعرتني بخفةٍ وجوٍّ روحانيٍّ عزلني بعيدًا عن العالم. لم أكن قد استوعبت بعدُ فداحةَ خسارتي لأمي. أنا وأخي لا نحظى بالكثير من الأمور المشتركة لكن من ذلك الحين، فصاعدًا، صرنا مثل الصياد والسمور في كتاب (اصطياد سنارك)(156) «تماشينا معًا، بسوءِ نِيَّةٍ، وبأعصابٍ متوتِّرةٍ دائمًا».

بعد أسبوعين جاء خالي أوتو لرؤيتي من جنوا حيث أقام كلَّ ترتيبات جنازة أمي. كان لطيفًا وودودًا كعادته، لكنه غارق كل الغرق في حزنه على أخته الحبيبة التي ترعرع معها، كما أن عائلته كانت بانتظاره في بيافو.

وصلتني كذلك رسائل من أفراد عائلة أمي، الذين صاروا من الآن فصاعدًا مسؤولين عنا. أظن أن هؤلاء الأقارب كانوا متأثرين بصدق بالظروف المأساوية التي حلّت عليّ وعلى أخي لكنهم في ذات الوقت كانوا يشعرون أننا أشخاص سيئون قليلاً، حيث لا بد أن تنعكس ذنوب أبينا علينا. كل المدرسة تعاطفت معي بشدة، ولحوالي شهر وَضِعتُ فيما يمكن

وصفه كواجب خفيف، لم أكلّف بالكثير من العمل، وكان يصحبُني للمشي أيُّ مدرِّسٍ غير مشغول.

قبل وقت قصير من وفاة أمِّي نُشِرتْ (أنشودة زنزانة ريدنك)، عن نفسي لم أرَ نسخةً من العمل حتَّى دخولي كامبريدج عام ١٩٠٥، ولا أعتقد أن أمِّي قد رأت العمل أبدًا(157). التكتم حول أبي كان فعالاً، وأشك أن أحدًا لفتَ انتباهها له.

شاغلي الأساس الآن أن يسمح لي بالاستمرار بدراستي الدينية. بقائي في موناكو لم يكن ممكنًا لكن رئيس المدرسة كتب إلى رئيس كلية ستوني هارست في لانكشاير وتلقى بعض المنشورات والنشرات الإعلانية له والتي أعطاني إياها لآخذها معي عند عودتي إلى إنكلترا.

بقيتْ في المدرسة عندما حلَّت العطلة منتظرًا تعليمات من الأهل. في النهاية عدت إلى إنكلترا برفقة قسيس لا أعرفه قضى كل الوقت في قراءة الأدعية ولم يحدثني أبدًا ما عدا تكلُّفه بالإجابة على بعض أسئلتي.

الفصل الخامس

(119) في الأصل (Lay School).

(120) في الأصل عن الفرنسية (Place de la Visitation).

(121) في الأصل عن الفرنسية (la Chapelle de la Visitation).

(122) في الأصل عن الفرنسية (Minuit).

(123) في الأصل عن الفرنسية (en crocodile) جهازٌ لتحسُّسِ حركة القطاراتِ يوضع بين قضبان السكك الحديد ليطلقَ صوتَ الإنذار، بشكلٍ آليٍّ، بمجرَّد اقترابِ القاطرةِ.

(124) عربةٌ أشبهُ بالسَّيارة، لكنَّها بلا محركٍ، وإنَّما يجرُّها حصانٌ واحدٌ إلى أربعةِ خيولٍ بحسب حجمها وسِعتها.

(125) في الأصل عن الفرنسية (Norte Dame De Laghet)، وتعني ضريح سيدة لاغيت. ولاغيت في الأصل تعني البُحيرة الصغيرة. المكان يقع في جنوب فرنسا في إقليم الألب البحري، وهو موضع للحجيج من حول العالم حيث يؤمن الناس بقدرة مقام السيدة العذراء، هناك، على شفاء الأمراضِ المُستعصيةِ.

(126) مدينةٌ فرنسية خارج موناكو. اشتُهرتْ بـ(كنيسة القديس ميخائيل) التي تضمُّ بقايا النصب الروماني الذي يخلِّد انتصار الإمبراطور أغسطس على القبائل التي استوطنتْ جبالَ الألب.

(127) لعبةُ قِمارٍ شَهيرةٍ أشبهُ بلُعبة (لودو) بأقسامها الأربعة، يتحرك بها حصانٌ صغير لكلِّ لاعبٍ.

(128) محاولاتُ الإصلاحِ في المسيحية كثيرةٌ، بلا شكٍّ، وأشهرُها طبعًا الإصلاح الذي بدأ به القسُّ الألمانيُّ (مارتن لوثر)، الذي نشرَ في العام ١٥١٧ -حين كان أستاذًا للاَّهوت =

= الأخلاقي في جامعة ويتنبرغ الألمانية- أطروحتَهُ التي ضمَّتْ خمسةً وتسعين مُقترحًا لإصلاح الكنيسة، سجَّلَ فيها اعتراضاتٍ على الكثير من الأمور التي روَّجتْ لها الكنيسةُ الرُّومانيةُ (أي الكاثوليكية)؛ لا سيما بيعُ صكوكِ الغُفران. تُعتبرُ هذه الأطروحةُ شَرارةَ (البروتستانتية) التي سُمِّيتْ أوَّلَ الأمر بـ(اللوثرية)، انتشرَ ما كتبهُ بسرعةٍ وتُرجِمَ إلى أكثر من لُغةٍ بسبب الجدلِ الذي أثارهُ. وسُرعان ما انتشرتِ الكنائسُ التي عُرِفَ بعضُها باسم الكنائس (الكلفانية) نسبةً إلى عالم اللاَّهوت الفرنسي (جون كالفن). توسَّعتِ اللوثرية والكلفانية التي باتتْ تعرف بالبروتستانتية (أي الاحتجاج أو الاعتراض)، وصارتْ تتحدَّى البابويةَ. وتوطَّنتْ في إنكلترا (حيث سُمِّيتْ بالإنجليكية) عن طريق الملك (هنري الثامن) الذي كان معارضًا لها أوَّلَ الأمر، لكنه تبنَّاها بعدَ أن وجد فيها فرصتين لا تكرَّرانِ تمثَّلتِ الأولى في فصلهِ الكنيسة الإنكليزية (الإنجليكية) عن الكنيسة الرومانية (الكاثوليكية)، والتَّحرُّرِمن سُلطةِ البابا بجعل نفسهِ رأسَ الكنيسةِ مجادلاً بحقِّ المُلك الإلهيِّ في الحكم، أو ما يعرف بـ(الإصلاح الإنكليزي). أمَّا الفرصةُ الثَّانيةُ فتمثَّلتْ في تَمكينهِ أخيرًا من تطليق زوجته (كاثرين) من أرغون (حيثُ إنَّ البروتستانتية لا تعارضُ الطَّلاق عكسَ الكاثوليكية التي تُحرِّمهُ) لأجل الزَّواج بحبيبتهِ (آن بولين) التي أنجبتْ لهُ بنتيْنِ هما: ماري الكاثوليكية وإليزابيث الأولى. حاولتْ (ماري) إبَّانَ حكمِها إعادةَ الكنيسة الكاثوليكية في إنكلترا، حتَّى أنها سَجنتْ أختَها لعامٍ كاملٍ بتُهمةِ التَّواطُؤِ مع البروتستانت، إذْ كانت (إليزابيث الأولى) المَعروفةُ بـ(بيس الطيبة) والملكة العذراء (حيث رفضتْ الزَّواجَ طَوال حياتِها) متحمِّسةً للبروتستانتية، وخلال أيَّامِ حُكمِها سارتْ على خُطى والدِها في تثبيتِ دعائم البروتستانتية في البلاد.

(129) بالأصل عن الإيطالية (via).

(130) بلدةٌ تقعُ في إقليم توسكانا الإيطاليِّ.

(131) الأسرارُ المسيحيةُ المُقدَّسةُ في العقيدة الكاثوليكية سبعةٌ: سِرُّ المعموديةِ وهو الماءُ المقدَّسُ، وزيتُ المريون للتمسُّحِ، سِرُّ الشُّكر أو القُربانُ المقدَّسُ، سِرُّ التَّوبةِ وهو الاعترافُ، سِرُّ مَسحةِ المَرضى، سِرُّ الزِّيجةِ بالإكليلِ المُقدَّس الذي يوضعُ على رأسِ العروسيْنِ دلالةً

على العِفَّةِ، سِرُّ الكهنوتِ ويتمثَّلَ في يد الأسقُفِ. إجمالاً هي حزمةٌ من الطَّقوسِ الغايةُ منها «نوالُ نِعمةٍ سِريةٍ (غيرِ مَنظورةٍ) بواسطة مادةٍ مَنظورةٍ».

(132) البروفنسالية (Provençal) نسبةً إلى مقاطعة (بروفانس) جنوب شرق فرنسا. يعتبرُها البعضُ لغةً منفصلةً، بينما يغلبُ اعتبارها لهجةً فقط. يُشارُ إليها أحيانًا بـ(الأوكسيتانية)، وقد تطوَّرتْ في حدود القرنِ الحادي عشر.

(133) ميسترال، كاتب فرنسي حاصل على جائزة نوبل ١٩٠٤. كان بالإضافة لذلك كاتبَ معاجمٍ للبروفنسالية التي كتبَ بها أدبه. من أشهر أعماله قصيدته الطويلة التي تحمل عنوان (ميرييو)، ويعني بالبروفنسالية صيغةَ مبالغةٍ لكلمة (أعجوبة، أعاجيب، عجائب).

(134) في الأصل عن الفرنسية (Trente et Quarante)، شكلٌ من أشكال لعبةِ الروليت.

(135) حتَّى العام ١٩٧٢ كان لدى المملكة المتحدة عملات عديدة يحمل كل واحد منها اسمًا ورمزًا. فالباوند يساوي عشرين شلنًا، وكل خمس عملات من الشلن تسمى كراون، بينما يسمى الاثنان منها فلورن، والشلن يعادل اثني عشر بنسًا، وكل ستة بنسات تسمى ترنر، وهناك عملة أصغر ذُكرت من قَبلُ وهي الفاذرنغ التي تعادل ربع بنس. في هذه الرسالة يستعمل الكاتب الصغير مختصرًا هو (s.81/2d.) ويشير حرف (s) للشلن، بينما (d.) إشارة للبنس.

(136) كما ذكرنا من قَبلُ فإنَّ عملة البفنغ كانت عملة ألمانية، ومصدر التساؤل لكون سيريل كان لا يزال يدرس في ألمانيا حينذاك.

(137) القديسُ أنطوني بادوا، قديس برتغالي، يعتبرُ حامي مَدينة لشبونة. يُحتَفى بولادتهِ سنويًّا بإصدار طوابعَ بريديةٍ خاصَّةٍ بهذهِ المناسبة.

(138) جوهور، مدينةٌ ماليزيةٌ اليوم. كانت مملكةً مستقلَّةً قبلَ أن يحتلها البرتغاليون.

(139) قديسٌ إيطاليٌّ، ولد لعائلة أرستقراطية ورث منها لقب مركيز، لكنه زهد -منذ طفولته - بكلِّ مغريات الرخاء، وبدأ دراسته الدينية. رغم محاولات العائلة في ثنيه عن ذلك فإنَّهُ استمرَّ في مسعاه، واختار أن يكون قسًّا ومبشِّرًا يسوعيًّا رغم أن ذلك عنى حرمانه من ميراثه.

(140) مدينتان ساحليتان، (نيوهيفن) في إنكلترا و(دييب) في فرنسا.

(141) كاتبٌ إنكليزي، عضوٌ في الحركة الجَمالية وصديقٌ مقرَّبٌ من أوسكار وايلد.

(142) منطقةٌ في الشمال الفرنسي.

(143) في الأصل عن الفرنسية (fête).

(144) في الأصل عن الفرنسية (gamins).

(145) في الأصل عن الفرنسية (le sirop de Grenadine).

(146) في الأصل عن الفرنسية (Jubilé de la reine Victoria) وقد أُحتُفيَ باليوبيل الذهبيِّ للملكةِ في يومي العشرين والحادي والعشرين من حزيران/ يونيو ١٨٨٧.

(147) في الأصل عن الفرنسية (La Reine d’Angleterre).

(148) في الأصل عن الفرنسية (vive La Reine d’Angleterre).

(149) في الأصل عن الفرنسية (la France, la mère de tous les artistes).

(150) في الأصل عن الفرنسية (La Président de la République).

(151) في الأصل عن الفرنسية (Vive le Président de la République et Monsieur Malmouth).

(152) في الأصل عن الفرنسية (Vive Monsieur le maire! Vive la reine d’Angleterre! Vive Monsieur Malmouth!).

(153) في الأصل عن اللاتينية (immodestia).

(154) في الأصل عن الإيطالية (peccato mortale).

(155) غابةٌ جبليةٌ ضخمةٌ، تقعُ في جنوب غرب ألمانيا، وتمتدُّ على مساحةِ ١٢ ألف كم^2.

(156) قصيدةٌ للكاتبِ الإنكليزي، لويس كارول، صاحبِ رواية (أليس في بلاد العجائب).

(157) ظنُّ ڤايڤيان ليس في محلهِ، فالكثير من المصادر تُشيرُ إلى كون كونستانس من أوائل من أثنوا على العمل الأخير لأوسكار وايلد إبَّانَ نشره.

العودةُ من المنفَى

عند عودتي إلى لندن توجهت صوب خالة أمي السيدة نابير التي تعيش في حدائق كوتميس في كينغستون مع ابنتها إليزا، التي لطالما عرفناها أنا وأخي باسم ليزي. مرافقي اليسوعي أوصلَني ببلادةٍ إلى باب المنزل وانصرف لشأنه.

هاتان السيدتان أصبحتا منذ ذلك الحين وصيتين علينا. كان عندنا وصي رسمي ووظيفته إدارة المال القليل الذي تركته لنا أمنا كان كافيًا لتأمين تعليمنا، لكنه لم يتصرَّف بأيٍّ من واجباته الأخرى بجدية. نادرًا ما رأيناه، وقد تخلّى عن سلطته الكاملة لآل نابير. كما عيّنت لنا المحكمةُ وصيًّا لكن ذلك لم يؤثّر على وضعنا كثيرًا. القاضي الذي حكم لخالة أمي بالوصاية علينا هو السيد جاستس كيكوج، رأيته مرة واحدةً فقط عندما أُخِذنا أنا وأخي إلى مكتبه في لينكولن، حيثُ ألقى علينا عِظةً قصيرةً حولَ حُسن السُّلوك.

كانت الخالة ماري سيدة متقدة الذكاء، اهتمت بأشياء كثيرة للغاية بشكل معمق ومن ضمن ذلك اهتمامها بالسياسة؛ فقد كانت ليبرالية متحمسة. ولدت في مقاطعة ويليام الرابع ولم تختلف في مظهرها عن الملكة فيكتوريا، أنجبت سبعة أبناء عملوا كلهم في خدمة الملكة، وهكذا رأت أنها أدَّتْ واجبها للأرض التي تعيش عليها. مضت حياتها في اطمئنان تام دون أن يعكر صفو حياتها شيء، لذا تركت أمر رعايتنا لابنتها ليزي، امرأة ملائكية، وإلى جانب ذلك تمتلك أفكارًا صارمة للغاية عن حسن السلوك والحس العميق بالمسؤولية.

كلتا السيدتين عشِقتا أمنا، لكن شبح أبي ظل حاضرًا على الدوام. خضعتْ كلُّ خطواتنا للمراقبة عن كثبٍ كما لو أنَّنا نعاني خَطْبًا ما، بينما كُنَّا مجرد صبيين صغيرين تعيسي الحظ وطبيعيين للغاية. كانتِ العائلةُ من نبلاء إسكتلندا، وقد افتخروا بذلك أيَّما افتخارٍ، ومسألة أنني وأخي كنا أيرلنديين لم تكن في مصلحتنا جدًّا. نُهِينا بشدة عن الإشارة إلى أصلنا الأيرلندي خوفَ أن يقدمَ ذلك فكرةً عن هُويتنا دونَ قصد.

لا بد أنني كنت غريبًا في نظر آل نايبر المتحفظين؛ عندما جئت للمرة الأولى من موناكو برأسي الحليق وزي المدرسة أتساءل عما كان سيقوله أبي لو تسنّت له رؤيتي. ولا بد أن متاعي كان هو الآخر محيّرًا نوعًا ما؛ الزي الموحد للمدرسة، وزوج إضافي من البسطار البلاستيكي، بعض الكتب المدرسية الإيطالية وأقدم أشكال الملابس الداخلية الإيطالية. لقد كبرتُ وكلُّ ما امتلكته سابقًا من ملابس إنكليزية لم يعد مناسبًا لي.

كما كنت شديد الفخر بامتلاكي لسلطعون، اعتبرته أعزَّ أصدقائي فحملته معي طَوال الطريق من موناكو. كان حيًا حين بدأت رحلتي، وميتًا كل الموت حين وصولي.

على الفور بدأت عملية إعادتي لهيئتي كفتىً إنكليزي مجدَّدًا، كما أُعِيدَ ضبطُ كل أفكاري ومعظم قيمي. تضمنت العملية تزويدي بأطقم ملابس جديدة كليًا، وقد استمتعت بذلك للغاية أول الأمر. لم يصل سيريل إلا بعد بضعة أيام حيث كان ينتظر العثور على شخص ليجلبه من ألمانيا. وفي آخر الأمر سافرَ وحيدًا كل الطريق من هايدلبرغ إلى لندن، وهو أمرٌ مذهلٌ بالنسبةِ لفتىً في الثالثة عشرة من العمر. تأخره في الوصول كان نعمة لي، وما أن وصل اُكتُشفَ بأنه كبُرَ على ملابسه، ولو أننا وصلنا في الوقت نفسه لسلمت لي ملابسه القديمة بلا شك. ولأنه تأخر ارتدى كلانا ملابس جديدة.

بالطبع طلبتُ ألعابي، ظنًّا مني أنها ستكون هناك في استقبالي، ويا لها من خيبة أمل رهيبة أن أعلم بأنها ضاعت إلى الأبد. لم أكن خائب الظن فحسب بل شعرت بإحساس عميق بالظلم. كانت تلك ألعابي، وليسَ من حقِّ أحد تضييعها، ناهيك بالتخلص منها. حرمانُ طفلٍ من ألعابه المفضلة أمر قاسٍ بقسوة كسر وعدك معه، ذلك يضعف إيمانه بالطبيعة البشرية. في هذه القضية بالطبع لم يكن غياب ألعابي ذنب العائلة، ولا بد أنهم شعروا بالعجز التام لعدم قدرتهم على شرح التفاصيل.

في الطابق الأرضي من المنزل كانت هناك غرفة الصباح، وهي مكتبة في ذات الوقت، هناك صادفت نسخة من كتاب الأمير الصغير، ولم أكن قد رأيتها منذ ثلاث سنوات. كنت جذلاً لرؤيتها مجدَّدًا، فأخذت النسخة من على الرف لكن صدمني أن يُشطب اسم أوسكار وايلد من على الغلاف ويُحجبَ بقطعة من ورق الطوابع لصقت فوقه في الصفحة الأولى. مرة أخرى شعرت بحَيرةٍ، وسألت نفسي عن حقيقة ما يحدث.

عند عودتي إلى إنكلترا، انصبَّت معظمُ جهودي في إقناع عائلة أمي، المخلصة للبروتستانتية بشدة، لتسمحَ لي بإكمال دراستي الكاثوليكية. قبل وفاتها بوقت قصيرٍ كتبت أمي رسالة إلى أخي:

«ڤايڤيان يزداد حماسًا للكاثوليكية الرومانية أكثر من أي وقت مضى، ولأنه دين القانون والانضباط، وڤايڤيان لا يمتلك الكثير منهما، أعتقد أن هذه الدراسة أمر يفيده للغاية».

قلت مسبقًا إنني لم يسمح لي بتلقي القربان المقدس في الكنيسة الكاثوليكية، في المدرسة بموناكو؛ ما مثَّلَ مصدرَ أسىً عميقٍ لي. الأولاد الإيطاليون يتلقون القربان أول مرة بسن الثامنة أو التاسعة لكن لم يكن بوسعي الحصول عليه. وفي النهاية اعترفت إلى القس أنني بحرماني من ذلك ستسوء صحتي العقلية جدًا لشعوري أن كل خطاياي تزدحم حولي.

كنت متدينًا للغاية في تلك الفترة من حياتي بحيث نظرت لكل الناس نظرة إشفاق متسائلاً كيف يمكن أن يكونوا في غفلة تامة عن مصالحهم وسعادتهم فلا يصبحوا رهبانًا، وحتَّى الرهبان العلمانيين نظرت إليهم ببعض التشكيك. كان الأمر عندي إما الدين أو لا شيء. كنت مصممًا للغاية على أن أصبح قِسًّا يسوعيًا عندما أكبر.

أوَّلَ شيءٍ فعلته عند وصولي إلى إنكلترا هو تسليمُ قريبتي، ليزي، المنشورات الدعائية لكلية ستوني هيرست التي جلبتها معي من موناكو. توقعت نقاشًا طويلاً، لكن حقيقة أن أمي قد أرسلتني إلى موناكو، ووضوح اهتمامي العميق بالكنيسة الكاثوليكية لا بد أن يكون لذلك أثر على رُعاة أمري. بُلِّغتُ على الفور أنني سألتحق بستوني هيرست عند انتهاء العُطلة.

بينما كانت جهودي مسلطة على الدخول إلى مدرسة كاثوليكية، كانت جهود عائلة أمي مركزة على حذف أي ذكرى عن أبي عندي وعند أخي، وفي نفس الوقت تحطيم أيِّ شيءٍ يربطنا بعائلة وايلد.

كانت أول خطوة في هذا الاتجاه بإخبارنا أن أبانا قد توفي، لم يُقال لنا أكثر من ذلك لأنَّها كذبةٌ، ولا أعتقد أن أي فرد في تلك العائلة كان يجيد الكذب، لكننا اقتنعنا بالكلام واتخذناه كحقيقة. مرَّةً أخرى نُهِينا عن ذكرِ اسم أبينا لأي شخص، ولا سيما صِلتنا به.

الخطوة التالية تمثلت بفصلنا عن بعضنا. من الأسهل حفظ السر حين يكون المرء بمفرده، فعندما يكون برفقة أحدهم يصبح المرء مهملاً، وربما أثر ذلك على تخفينا.

أشك بأن تكون تعاستي في كلية نيونهام هي السبب الوحيد لإرسالي إلى المدرسة في موناكو بينما بقي سيريل في ألمانيا. كل القرارات التي أثَّرت على حياتنا اتُّخِذتْ فيما يشبه مجلسًا للأسرة، وحقيقة اشتراط عدم أخذي القربان المقدس في الكنيسة الكاثوليكية بينما أدرس في مدرسة كاثوليكة ربما تكون نتيجة مساومة من قبل مجلس الأسرة وانتمائهم للبروتستانتية. على أي حال عندما أُرسِلتُ إلى ستوني هيرست لم يكن ممكنًا الإبقاء على هذا الشرط. وحقيقة أن معتقد أخي الديني أصبح الآن مختلفًا عني، وفّر سببًا ممتازًا لفصلنا عن بعضنا.

منذ تلك السنوات الأولى رغب سيريل بشدة بأن ينضم للقوات البحرية لكن عدم قبوله في البحرية كان صدمةً مُرَّةً لفخرِه الطفولي، لذا أُدخِلَ إلى رادلي(158) لكيلا تتحطم آماله في الالتحاق بالجيش.

ما تبقى من العطلة انقضى بسعادة مع أحد أبناء الخالة ماري، الذي كان جنديًا يتمركز في ويموث بدورسيت(159)، هذا القريب أصبح صديقًا لنا ووقف إلى جانبنا في أكثر من مرة عند حدوث سوء فهم في العائلة. مقولة «في أي فصيل حي دائمًا ما تكون الإناث أشد فتكًا من الذكور» لم تكن أصدق مما كانت عليه في الشعب الإنكليزي في خاتمة القرن التاسع عشر. بوسع الذكر أن يكون أوسع أفقًا لو تجرأ لكن الحكم الأمومي الفيكتوري وصلَ ذُروته؛ خلال السنوات السابقة شُدِّدَتْ التقييدات الاجتماعية والفصل في محاولة لمواجهةِ وإيقافِ التطور الحاصل في تسعينيات القرن التاسع عشر، والذي شجعه أمير ويلز(160). كل المناسبات الاجتماعيةِ سيطرت عليها نساء ذوات قبضة حديديةٍ. كلمة واحدة من

مضيفة اجتماعية بارزة أو تلميحٌ عن فضيحةٍ لفتاةٍ غير متزوجةٍ (أو حتَّى المتزوجة الشابة) ستسحبها إلى الظلام، ويُشطبُ اسمُها من كلِّ قوائم الدعوات. بوسع الرجال فعل ما يرغبون به ضمن حدود ما داموا متكتمين على الأمر، لكنهم أيضًا كانوا يتعاملون بهدوء خشية المساس بالحكم الأمومي.

في نهاية العطلة فُصِلنا أنا وسيريل عن بعضنا، ذهبَ إلى رادلي وذهبتُ إلى ستوني هيرست. منذ ذلك الوقت فصاعدًا لم أعد أراه إلا قليلاً. أنجزت العائلةُ عملَها وأبقتنا بعيدين عن بعضنا بكفاءة، واستخدموا اختلاف الدين بيننا كحجة. لم يكن هناك سبب مقبول لهذا التصرف بالذات لأنني قضيت معظم أيام العطل أتنقل بين العوائل البروتستانتية. أعتقد أن أقاربي ظلوا خائفين قليلاً من رؤيتي طَوال الوقت؛ في نظرهم الصبي الذي يتعلّم في مدرسة يسوعية يسوعي من كل النواحي، لذا ليس من المعروف ما قد يقوله أو يفعله. والسَّنتانِ اللَّتانِ قضيتُهما في مدرسةٍ إيطالية تركتا -من وجهة نظرهم- آثارًا مدمرةً عليَّ.

أحدُ أسباب تغريبي عن أخي هو أننا لم نكن نتوافق مع بعضنا جيدًا، لكننا بالتأكيد لم نكن نختلف عن معظم الأخوة، ولو أن أمي لا تزال حيةً لقضينا كلَّ العطل سويًا. رغم ندرة لقاءاتنا بعد إرسالنا لمدارس مختلفة لم تتمكن العائلة من منعنا من الكتابة لبعضنا، كنا نتواصل بانتظام ونتوق على الدوام للقاء مجدَّدًا.

سيريل المسكين! شبابُهُ أكثر مأساوية مني. امتلأ صِباي بإحساس التشوش والغموض وعدم القدرة على فهم ما يحدث، بينما كان صباه مثقلاً بمعرفةٍ هو أصغر من أن يتحملها. منذ لحظة اكتشافه مغزى اللافتة التي رآها من شارع بلاكر بدأ يجتمع في داخله إصرارٌ ظلَّ يتراكم بمرور السنوات. لمحتُ ذلك في عدة مناسباتٍ ولكن لم يتضح لي الأمر كلِّيًا حتَّى حزيران/يونيو ١٩١٤ وهو في التاسعة والعشرين، حينَ كتبَ لي من الهند جوابًا على رسالتي عن سنوات طفولتنا:

«عندما عدت إلى إنكلترا عام ١٨٩٨ استوعبتُ موقفنا بشكل كامل. بالتدريج صرت مهووسًا بفكرة وجوب استعادةِ ما فُقِدَ. بحلول عام ١٩٠٠ أصبح ذلك شغلي الشاغل في الحياة. أخبرت روس بذلك منذ سنوات مضت؛ قلت له إنه بجهوده المذهلة ونكران الذات، حقَّق غايتي تقريبًا، لكن لم يكن بوسعه فعل كل شيء. كل هذه السنوات كانت حافزًا كبيرًا لي لمسح هذه اللطخة وإعادة إحياء اسم عائلتنا الذي لم يعد محترمًا في هذا البلد بعد الآن من خلال أفعالي لو كان ذلك ممكنًا. كلما فكرت بذلك أكثر زاد اقتناعي أولاً وقبل كل شيء أنني يجب أن أصبح رجلاً ولا أبكي على فنانٍ منحطٍ، محبٍّ للجمال الخنثوي، منحلٍّ ضعيفِ العزيمة. كانت تلك الخطوة الأولى، لأجل ذلك عملت ولأجل ذلك كافحتُ، وعندما كنت أقاسي الصعاب شهرًا بعد شهرٍ في سهل التبت الرهيب وعندما كنت أشقُّ طريقي في رحلةٍ مضنية ساعةً بعد ساعةٍ، ويومًا إثر يومٍ. لكن مؤخرًا وجدت نفسي في أراض وعرة في أوقات خطرة، مرهقًا ومريضًا بالزحار، ووحيدًا في أرضٍ غريبة منعزلة، هذا الغرض

همس بأذني: «هذا هو السَّبب، روحي هي السبب». بعد سنواتٍ عديدة استقررت إلى الحقيقة المرعبة التي سمعناها في (هاملت):

الهدف ليس سوى عبدٍ لذكرى

ولادة عنيفة، لكنه ليس حقيقًا تمامًا

كان هذا هدفي لستِّ عشرة سنة ولا يزال كذلك. كنت غالبًا ما أنجرف بعيدًا، اختفيت غالبًا، لعنتُ قدري وسخرتُ من الآلهة المزيفة، عشتُ على الفكرة لا المشاعر. لم أسألْ سِوى عن نهاية المعركة بين مُلْكي والبلاد».

اقتبست هذه المقاطع لإثبات كيف قسَى قلبُه وجفَّت روحُه وكيف نجحَ في جعل سجله المدرسي ينفي أي اتهام بالتخنُّث.

في رادلي، وهي مدرسة معروفة للرياضيين، صارَ صاحب الإنجازات الرياضية الأعلى بين أقرانهِ. في العام ١٩٠٢ في سنته الأخيرة في المدرسة قبل الذهاب إلى الأكاديمية الحربية الملكية، في ولوش، حقق لرادلي المركز الثامن في سباق التجديف للصبيان في هنلي، وعمرهُ سبعة عشر عامًا. فازت رادلي بأول وسام لها ضد كلية جيسس التي كانت في المركز الرابع في النهر في كامبريدج، لكنَّهم غُلِبوا في الجولةِ التالية من قبل كلية أكسفورد الذين كانوا يتصدرون المسابقة. تقرير عن السباق ذُكر: «هناك توافقٌ، بشكلٍ عامٍّ، على أن فريقَ تجديف رادلي الشاب قد قدَّم واحدةً من أفضل الألعاب هذا اليوم، وَأظهر حُكمًا صائبًا يفوقُ سِنَّهُ».

في تلك السنة كذلك فاز بمسابقة قفز الحواجز بالميل والنصف ميل في المسابقة السنوية وتلقى الميدالية الفضية لتكريم الشباب ذوي الإنجازات الرياضية الأعلى. كان أفضل سباحٍ في المدرسة وطالبًا مثاليًا، وعُيِّنَ رئيسًا للطُّلاب.

الأشخاص الذين عرفوا أخي في رادلي مثل نيكولاس هاتين ولويس ويلكنسون أكَّدا لي أن ما من أحد في المدرسة قد امتلك أدنى فكرة عن هُويته. في الواقع إن هذا الإبحار تحت أعلامٍ كاذبة(161) هو الذي منعني وأخي من تكوين أي صداقات حقيقة على مدى فترة الدراسة. حتَّى هذا اليوم في سجل مدرسة رادلي، وهي قائمة تنشر بشكل دوري عن كل الصبيان المتعلمين في رادلي، وحدهُ أخي كُتِبَ أمام اسمه: «ابن -- - - لا يزالُ ناجحًا».

في والوش عام ١٩٠٥ فاز بسباق الميل والميلين ضد ساند هارست. فيما بعد حقق المركز السابع في المسابقة العسكرية في هنيلي وعُيِّنَ ضابطًا تلميذًا في الجيش البريطاني.

رغم ذكائه لم يتقنْ أخي اللّفظ الصحيح للكلمات، كان يرى الدقة في التلفظ بوصفها حذلقةً ومضيعةً للوقت.

مرةً، حدث بيننا شجارٌ بسبب لفظه لإحدى الكلمات فأجاب: بم يهمُّ ذلك؟ أنت تفهم مقصدي. لدي رسائل كتبتْها له أمي تكشف فيها عن انزعاجها من سوء تهجِّيه في المدرسة، وَأعطته قائمة بأخطائهِ اللُّغوية في رسائله. في إحدى الرسائل قالتْ له إنْ واصلَ عدم الاكتراث بالتَّهجي فسيمنعهُ ذلك من النجاح في أي امتحان. لكن، أحيانًا، يصعبُ معرفة ما يقصده عندما تتلاحق الكلمات المشوهة. في رسالةٍ إلى أمي كتبَ كمًّا كبيرًا من الأخطاء في نصٍّ قصيرٍ.

عندما التحقَ بالجيش صرتُ أراه أقلَّ من ذي قَبل، في الواقع آخر مرةٍ رأيته فيها كان قبل ثلاث سنوات من وفاته، بينما هو على وشك الذهاب الى الهند مع فرقته العسكرية. لم يحظَ بالشعبية بين رفاقه الذين اعتبروه متزمِّتًا ولا يُحتمل. لم يكن لينضمَّ لجلسات الثرثرة وأغلبها عن الفضائح أو عن الرياضة، ولم يكونوا ليفهموا كيف لشخصٍ قضاء إجازته في السفر حول أوروبا يدرس الهندسة ويزور معارض الفن عِوضًا عن الصيد والرماية والإبحار أو صيد السمك. بدأ يزدري الرياضةَ فيما عدا التمرن للحفاظ على اللياقة، ومع سجلِّ إنجازاته الرياضية لم يكن ممن يقولون عن العنب بأنَّه حامض! وكان دائمًا ما يحصل على إجازة خاصة خلال «الواجبات العسكرية» التي تعني غيابه أحيانًا لأسابيع. جمعت بعض الأفكار عن طبيعة هذه الواجبات من حقيقة أنه تكلم الألمانية بطلاقة مثل المواطنين مما جعله مستطلعًا ممتازًا، وكان يطلق لحيته أحيانًا.

عام ١٩١٣ حصل أخي على إذن لمدة ستة شهور قضاها في التمرن بمفرده على الرماية وأنهاها برحلة إلى بكين عبر التبت. أرسل لي بطاقة بريدية في حزيران/يونيو من مدينة لياه(162) مطبوعة بطابع الملكة فيكتوريا ذي الآنة الواحدة(163) غالبًا من بقايا طوابع يانغهازبند(164)، وتلقيت رسالة طويلة منه في آب/أغسطس مكتوبة في بايوم في بلتستان(165)، هذه الرسالة خليط من الوصف، الفلسفة والكشف الذاتي، وذلك ما هو معتاد منه، وأعتقد أن لا بأس علي في أن أقتبس الخلاصة منها. فبعد الإشارة إلى بعض القصص القصيرة التي نشرت لي في جريدة وصف الجزء الأول من رحلته التي أكملها للتو:

«إن الطبيعة تضحك منا حين نحاول ترجمتها إلى كلمات. معظم الكلمات تتحول إلى صورة تافهة. لو جلست مصممًا وحاولت إعطاء وصف لانطباعاتي الجَمالية وجدتني أفتقر الكلمات. الكلمات بوسعها تثبيت الأفكار، المفاهيم، يمكن توظيفها في المنطق، في العلم، لكنها تفشل بالإمساك بجناح الحياة، تفشل في إعطاء أكثر من لمحة من شيء من الشعور الفني.

أحيانًا أمسك بعبارة تبدو حقيقية لكن بعد لحظة تأمل أتذكر أنها عبارة قديمة استُخدِمت مرات عديدة من قبل واستهلكت وصارت صورة نمطية. مع هذا فهذه العبارات هي الأصدق. في الأساس فإن الجنس البشري بشكل عام له نفس التوق منذ الأزل. الأوصاف النظرية صادقة، الجَمالية والكليشيهات صُوِّرتْ بمنطق حزين وكئيب بينما كانت مرة تعبيرًا وانطباعًا. الصفات الصامتة للحياة، للطبيعة، لا تزال بيانات مشتركة للبشرية، إذا مضينا قدمًا واتفقنا مع «المنهج العملي» لبرجسون(166)، لو تبعنا طريق أفكاره حول موضوع الزمان والمكان لا يمكن أن نفشل في رؤية عقم وصف الطبيعة في ظاهرتها التي لا تطوى بشكل جديد. لا يمكنُ تغيير محتوى الطبيعة، العالم.

أعتبر أن برجسون قدَّم أصدق وأدقَّ تفسير للفكر المادي والأناني الذي شهده العالم حتَّى الآن. والاستنتاج الأقل إثارة للاهتمام الذي يمكن استخلاصه من نظريته عن النشاط الحركي التي تجهد لتوضيح التناقض المظهري الذي مكَّن الإنسانية من التطوُّر تقريبًا بدون مساعدة الفلسفة. قِيلَ وبصدق إنَّ الرجل ذا الأفعال هو الضابط المنفذ للرجل المفكر، مثل روبيسبار لروسو(167) أظهرَ أن الفكر لا يسبق العمل، والفكر لا يتبلور إلى عادة، ولا ينعكس على المفكر. ومن البعيد اعتباره كخيار أو حكم. لكن فكرة كهذه حُمِلتْ دائمًا على طبيعة العمل المنظور لا مجرد تخمينات نظرية. العقد الاجتماعي -العملُ الذي دائمًا ما يُقتَبَسُ منه ونادرًا ما يُقرَا - كان برأيي مجرد حجةٍ، جدال عن طبيعة الحال لدعم السلوك السياسي تجاه الموقف السياسي، موقف كان قد تشكل بالفعل، واستُمِّدَّ عن طريقِ الحياة نفسِها لا التفكير.

غالبًا ما أعدنا تشكيل حياتنا بهذه الطريقة، في الحقيقة متى ما قارنا ظواهر الحاضر بما يعادلها من ظواهر الماضي لغرض خلق مفهوم أو فكرة عامة نعيد بطبيعة الحال تشكيل الماضي ونعيد فحص أحكامنا السابقة في ضوء المعرفة المكتسبة لاحقًا. ربما يكون هذا الموضوع الغني مذهلاً لكنه بالكاد موضوع رسالة.

أتمنَّى أن تكونَ في ازدهارٍ.

أخوكَ المحبُّ/ سيريل».

الحربُ العالمية الأولى ألقتْ بظلالها على سيريل؛ كانت له معرفة عميقة بالسياسات الدولية، وقد أخبرني أحد رفاقه الضُّباط في الهند أنه عند وصول أخبار اغتيال ولي عهد الأرشيدوق فيردناد تسبب بضجة وقال سيريل بصوت جَهوَري:

«هذا يعني أنه في غضون ستة أسابيع ستكون هناك حرب في أوروبا، ستشمل إنكلترا وفرنسا وألمانيا وروسيا».

سأله الكولونيل: «لم أنت متأكد؟».

أجاب: «لأنني درست السياسات الأوروبية دراسة خاصة».

«حسنًا، ولكن هل تراهن على ذلك؟» سأله مجدَّدًا.

أجابه سيريل «بالتأكيد».

«خمس باوندات؟» اقترح الكولونيل.

«لا، ذلك لا يكافئ جهدي، اجعلها خمسين» قال أخي.

لم يقاوم الكولونيل العرض وحصد أخي خمسين باوند.

مع نهاية آب/أغسطس ١٩١٤ تلقَّى سيريل الأنباء المدمرة بأن فرقته الميدانية ستبقى في الخلف للدفاع عن الهند في حالة حصول أي اعتداء. في ذلك الوقت لم يعتقد أحد أن الحرب بالأسلحة الحديثة قد تستمر أكثر من ثلاثة أو أربعة أشهر، لذا بدا أن ما من حرب سيراها من تركوا ولو مؤقتًا في المؤخرة.

سعى أخي بكل جهده ليرتب نقله إلى منطقة كالفاري في الهند التي كانت ستذهب إلى فرنسا للحرب. هذا يعني تضحيته بعمله لتسع سنوات والبدء من الصفر كمتدرب في نظامه الجديد، هذا بحد ذاته يظهر طبيعة تفكيره. في النهاية تغيرت الأمور وذهب كل الجنود من الهند إلى فرنسا ليُعوَّضوا بمتدربين من إنكلترا، لذا وصل أخي إلى فرنسا مع كتيبة ميروت في عام ١٩١٤ وقتل في التاسع من أيَّار/مايو ١٩١٥، فيما يفترض أنها مواجهة مع قناص ألماني.

كنت أنا نفسي في الجبهة عندما سمعت بوفاته، لا أكاد أبعد ثلاثة أميال عنه. أُبلِغتُ برسالة من مشرف عائلتنا الذي سجل اسمه للاتصال في حالات الطوارئ.

عندما ذهب سيريل إلى رادلي ذهبت أنا إلى هودر، وهي مدرسة تحضيرية مرتبطة بستوني هيرست وتبعد عنها حوالي ميل. كانت تلك مغامرة مدهشة، صور المدرسة في المنشورات الدعائية جعلتني أرى المدرسة كمكان رومانسي مقارنة بمدرستي القديمة المغلقة والمزدحمة في موناكو. في الحقيقة عندَ المدخل الرئيسي إلى قاعة الرعاة القدماء، التي تطورت منها المدرسة، ثمَّةَ منظر جميل بشكل متفرد، حيثُ يمكن رؤية قمتها على بعد نصف ميل في الطريق المباشر؛ ومعها ساحات للعب كرة القدم في المدرسة وبحيرتين على شكل مثلث يطوف فيهما البجع تحت الجدران.

كانت هودر مكانًا منفصلاً عن ستوني هيرست، رغم أنها تحتوي على أساتذتها وتنظيماتها فإنَّ منهجها أُخِذَ من ستوني هيرست وأُجرِيتْ امتحاناتها هناك. عند وصولي استقبلني

المشرف الأب فرانسيس كاسيدي، رجل في منتصف العمر وكاهن مثير للإعجاب من كل النواحي. عشقه الصبيان الصغار الذين تتراوح أعمارهم بين سبعٍ إلى اثنتي عشرة سنة. كانت له خبرة كبيرة معهم وقد فهمهم بشكل ممتاز. تلك موهبة لدى كل الآباء اليسوعيين ما عدا بعض الاستثناءات. لقد حاولوا فهم الصبيان ومساعدتهم، لم يلجئوا للعقاب، بل سَعوا لصداقتنا، رغم أنَّهم اتَّبعوا التَّشديد في بعض الأوقات، فهم لم يكونوا ليحتملوا أي تفاهة وحذَّرونا من الإزعاج، والحذلقة.

توجب عليَّ، في هودر، إعادة دراستي مجدَّدًا منذ البداية مع الاختلاف المهم في دروسي التي أصبحت باللغة الإنكليزية. بالطبع أُعِيدَ ضبطُ تلفُّظي اللاَّتيني، مع ذلك كنت أعرف عن اللاتينية أكثر من الصبيان الآخرين من عمري في المدرسة، بما أن اللاتينية هي الدرسُ الأهمُّ في موناكو. دروس الرياضيات كذلك في مستوىً أعلى من المعتاد، وكنت منجذبًا إلى دراسة هذه المادة، فهي المادة الوحيدة التي لا تحدُّها قيود اللُّغة.

كانت سَعادتي هائلة لأنَّ أول الأشياء التي أخبرني بها الأب كاسيدي أنني سأتلقى القربان المقدس في الكنيسة الكاثوليكية. بالطبع لم أحتج إلى إرشادات ما عدا تعلم قول صلواتي بالإنكليزية بدل اللاتينية، وفي غضون أسبوع كنت منتميًا إلى الكنيسة كما كنت أتمنى في السنتين الماضيتين. عمّدني الأب كاسيدي، رغم أنني لم يكن عندي شكوك بأني قد عُمِّدتُ بلا شك في كنيسةٍ مسيحية وأنا طفل، واستمرَّ خوفي من احتمالية أن يكون ثَمَّة مَن قد ارتكب خطأً أو قال شيئًا يمكن أن يجعلَني بلا تعميدٍ طوال حياتي، لذا لن أدخلَ الجنة!

كنتُ غير مرتاح في هودر أول الأمر، كما كنت في موناكو، فالصبيان يكرهون الصبي المختلف عنهم، وقد كنت مختلفًا ومن مدرسة أجنبية وبوسعي تكلم الفرنسية والألمانية والإيطالية. بالنسبة لباقي الصبيان بدا ذلكَ غيرَ إنكليزيٍّ بالمرَّة. كانوا متشككِين وخائفين وربما غيورينَ قليلاً لأنني كنت محبوبًا بين الأساتذة الذين كانوا مهتمين بسماع كل ما بوسعي قوله عن مدرستي القديمة.

سرعان ما وجدت نفسي قد عدت إلى عالم العقوبات الجَماعية، رغم ذلك فهي في هودر خفيفة إذ تتكون بشكل رئيسي من الضرب على اليدين أو المؤخرة دون قوة كبيرة لكنها بالتأكيد أقل من العذاب الذي يعانيه المرء في كلية نيونهام.

سبب آخر لعدم محبتي في البداية لهودر إنني كنت في الثانية عشرة تقريبًا، ولأن معظم الصبيان في سني كانوا في هودر منذ سنتين على الأقل أو أكثر لذا أُعتُبِرتُ حالةً شاذة بالذات لأنه مع نهاية الفصل الأول نجحت الأول على المدرسة في الامتحانات، كما كنت متحولاً من مذهب آخر ولم أتناول القربان المقدس بعد، وهو أمر غير معتاد لمن هم في مثل سني. أصبح ذلك رابطًا بيني وبين صبي يدعى أنطونيو سيلر الذي رغم كونه كاثوليكيَّ المولد لكنه لم يتلقَّ القربان بعدُ.

انتهى فصل الميكائيلية(168) وكنت متطلعًا بحماس للذهاب إلى جنوب إنكلترا لكن ما عرفته حطَّم أمالي كليًّا؛ إذ يمكن أن توجد غرفة لسيريل بطريقة ما، لكنني كنت ثقلاً إضافيًا لم يرد أحدٌ حملَه. الحل على أي حال بسيط للغاية؛ ما دام عدد من الصبيان من كلا ستوني هيرست وهودر لن يذهبوا إلى منازلهم في عيد الميلاد بسبب بعد مساكنهم، ومرد ذلك في جزء منه إلى أن عطلتنا أسبوعان فقط، حشدت معهم، وأُرسِلنا برعاية أحد الآباء اليسوعيين إلى منطقة منتجع صحي للاسترخاء.

وهكذا قضيت عطلة عيد الميلاد في الميناء الجنوبي، وهو بلا شك مكان مبهج في الصيف لكن ليس في ذلك الوقت. كان هناك حوالي دزينة منا سويًا في رعاية نائب مدير ستوني هيرست، الأب سيدني كاننك، الذي تركنا على هوانا إلى حد كبير. الصبيان القادمون من غرب الأنديز ومن الهند وجنوب إفريقيا كانوا هادئين وانعزلوا بعيدًا لكن هناك أربعة إسبانيين وإيطالي متنمرين بطبعهم، واجتماعهم سوية يجعل حياة الصبيان الصغار لا تُحتمل.

لم يكن هناك شيء لفعله عدا الذهاب إلى الحدائق الشتائية، وهي سلسلة من الهياكل الزجاجية تحوي أعمالاً شمعية وبضعة أحواض مهملة تحوي أسماكًا غريبة المظهر، وقاعة موسيقى، وعلى فترات متباعدة قد تعزف فيها فرقة صغيرة منعزلة بعض الألحان الشعبية في ذلك الزمن.

هجرت جهة البحر التي تعصف بها الرياح، وحتَّى المحال بدت نصف مفتوحة، لكن العناية والمحبة التي حصلنا عليها جعلتها أشبه بملجأ للأيتام. الصبيان الآخرون وردتهم رسائل من عوائلهم ولم يصلني شيء. والأولاد الأصغر قضوا معظم وقتهم في محاولة الابتعاد عن المتنمرين.

واحد من الأشياء المؤلمة في عدم وجود أب أو أم عندك هو الوعي المستمر بأنك لست الشخص الأهم في حياة أحدهم. ولو أنك مت فما من شخص قد يذرف دمعة يتيمة أو حتَّى يفكر بك. كنت في الحقيقة أشغل فكر أبي على الدوام لكن أُقنِعتُ بأنه ميت، فلم أكن لأعرف بذلك.

أُعطِينا شلنين كمصروف جيب أسبوعي، ولم يكن هذا المبلغ يصمد طويلاً بالذات بسبب السماح لنا بلعبة واحد وعشرين(169) في الأمسيات أو الأيام الممطرة. من الصعب اعتبارها لعبة مناسبة للصبيان الصغار خاصة حين تُلعبُ مقابل المال لكن لم يكن هناك سؤال عن كونها مسموحة أم لا لأن الأب كاننك انضم إلينا أحيانًا. كان بقشيش اللعب يبلغ عُشر البنس وأقصى رهان عشرة بنسات. لم يكن مسموحًا مضاعفة الرهان ولكن من الطبيعي أن تكلفنا خسارة أقصى رهان ثلاثة بنسات.

ما لم نخسره في هذه اللعبة كان ينهبه منا اللاتينيون بالتهديد. اكتشفوا بسعادة كل شيء عن شفرة شرف الأولاد في المدارس الإنكليزية واستفادوا من ذلك أقصى استفادة. لم يعرفوا بعدُ مغزاها الكامل وبالذات فقرة أن لا شيء يمنعنا من الشكوى للصبيان الآخرين. أنا وصبي آخر من هودر تعبنا من سلبنا مالنا واشتكينا إلى الصبي الأكبر، المشرف في العطلة ويدعى ديفيد من سانت لوكا، وقد كان مشرفًا في ستوني هيرست. حدثَ اضطراب وتوقفت عملية التنمر، أنا سعيد بإبلاغكم أنَّ معظم الصبيان المتنمرين فُصِلوا من المدرسة لاحقًا.

انتهت العطلة أخيرًا وعدت إلى هودر شاكرًا، وبقيت هناك حتَّى الصيف. لم تكن هناك عطلة فصح في ستوني هيرست في تلك الأيام، مع ذلك لم تكن هناك الكثير من الواجبات في أسبوع الفصح الذي قُضيَ معظمهُ في الكنيسة أو في مُصلَّى المدرسة. لكن فصل الصيف كان لطيفًا للغاية. لم يكن هناك معنى لعدم اللعب أيامَ الآحاد؛ بعد الانشغال الكبير في صباح الأحد فإن بقية اليوم لو سَمحَ الجو يكرس للكريكت، وهو نوعًا ما أمر شائنٌ بين السكان المحليين من البروتستانت.

مع مطلع ١٨٩٩ كنت مقتنعًا بأن والدي ميت، رغم أنَّه في شباط/فبراير من ذلك سافرَ إلى جنوا لزيارة قبر أمي. قال لي روبرت روس بعد سنوات أنه ظلَّ يسأل عنا باستمرار ويتساءل عن مكاننا. أُخفِينا تمامًا، لم يجب أحدٌ على تساؤلاته ولم يهتدِ إلينا أحدٌ من أصدقائه.

ذكرت أن المدارس اليسوعية الإيطالية جعلت الصبيان يتلقون القربان للمرة الأولى في الحادي والعشرين من حزيران/يونيو الذي إلى جانب كونه منتصف الصيف؛ فهو أيضًا عيد القديس ألوسيسوس من غونزاجا حامي الشَّباب. في ستوني هيرست كان عيد القربان المقدس(170) مخصصًا لهذه الطقوس. كان هذا عيدًا متنقلاً يأتي دائمًا في يوم الثلاثاء بعد أحد الثالوث(171)، وفي عام ١٨٩٩ صادف الأول من حزيران/يونيو... يومٌ عظيم انتظرته لسنتين ونصف. جرت مناولة أول قربان خلال يومين أو ثلاثة من أجل الحصول على الحالة العقلية المثالية. الضغط العاطفي للحظة تلقِّي القربان لا يحتمل تقريبًا، وشعور القداس يستمر طِيلةَ اليوم، شعرت بالأمن، مطهرًا، وقد ثبت أول قدم على الممر الذي يقود للنجاة.

في نهاية فصل الصيف في هودر عدت إلى لندن بثلاث جوائز، جائزة في الرياضيات وأخرى في مادة الكلاسيكيات، والثالثة لكوني الأول على المدرسة. كتبت إلى ولي أمري أخبره بنجاحي ولكنه لم يتكلف حتَّى بإبلاغي أنه استلم الرسالة. بالكاد كانت عائلة أمي أكثر حماسة، لم يكن بوسعي سوى التفكير بأنهم انزعجوا قليلاً بأني في طريقي للتميز بين رفاقي لكنني عرفت كم سيفخر والداي بي.

بالتدريج بدأ أصدقاء أمِّي القدماء بمعرفة مكاننا. قضيت عطلة الميلاد عام ١٨٩٩ القصيرة جدًا في منحدر باباكومب مع الليدي ماونت تامبل التي أصبحت الآن مسنَّةً للغاية، لا تكاد تفارق منزلها. كانت لطيفة للغاية لكن تتعب بسهولة، ورأيتها لبضع دقائق فقط كل يوم. ثم في صيف ١٩٠٠ لمحت شعور الاطمئنان في بيت للمرة الأولى منذ وفاة أمي.

وجودي قد لاحظته بطريقة ما ألطفُ امرأة في الوجود هي الخالة كورونيليا كوشرين، لم تكن على صلة قرابة فعلية بنا لكنها متصلة بعائلة أمي بالزواج. زوجها كان من مناصري الكنيسة الإنجليكية لكنها أصبحت مخلصة للغاية للكنيسة الكاثوليكية وعضوة في الرتبة الثالثة للقديس فرانسيس(172). حقيقة أنني كنت كذلك متحولاً إلى الكاثوليكية لا بد أنها قد أثرت عليها، على أي حال فقد دعتني لقضاء عطلة الصيف في منزلها، منزل ويندلشام قرب باغشوت(173). شعرت هناك بغرابة كبيرة، مرة أخرى علقت في محيط مختلف للغاية، فالصيف بارد هناك كما نمت حبةٌ كبيرةٌ في مؤخرتي. لم يكن ممكنًا تفادي برد الصيف لكنني أخفيتُ الباقي قدرَ استطاعتي حتَّى لُوحِظَ عجزي عن الجلوس دون ألم وكُشِفَ عنها. خالتي نيليا كما دعوتها أخذتني في حمايتها لأنها كانت منزعجة من الإنجليكانية التي فرضتها عائلة نابير، وجدتها أشبهَ بأمٍّ حقيقية لي، وقد أحبَّت أمي للغاية، هي الأخرى صديقة لراني سَرَواق. زوجها بحَّارٌ معروفٌ، وهو الأدميرال باسيل كوجران، هي نفسها جاءت من عائلة مشهورة في البحرية، من عائلة أوزبورن.

أخرجتْني من قوقعتي وجعلتْني أخبرها عمَّا يدور في ذهني. طمأنتْني، ومضتْ تخبرُني بألاَّ أنزعجَ من سلوك عائلة أمِّي، وبأنَّ كلَّ شيءٍ سيكون على ما يرام.

بعد هذه العطلة البهيجة عدت إلى المدرسة شاعرًا أن الحياة ربما لم تكن سيئة للغاية، بدأ عودي يشتد وقضيت وقتًا في لعب الجمباز، وقد وجدت أن لدي مهارة طبيعية في الجمباز والملاكمة الرياضتين الوحيدتين اللَّتين تفوَّقت بهما في المدرسة.

يومًا ما بعد حوالي شهر من عيد ميلادي الرابع عشر أرسل مشرف ستوني هيرست الأب جوزيف بروني في طلبي عند استراحة الصباح وأخبرني أن أبي قد قضى نحبه.

«لكنْ، حسبتُهُ ميِّتًا منذُ وقتٍ طويلٍ!».

الأب المحتار نوعًا ما الذي لم يعرف بطبيعة الحال بتلك الكذبة التي قيلت لنا وقد أخذ على عاتقه إخباري الخبر دون أن يكلفه أحد كان بلا شك قد قرأ النعي في جريدة (التايمز) وأراد استباق ما يمكنني رؤيته. نظر إلي وقال:

«لا، لقد توفي منذ يومين في باريس. لقد تلقَّى القربان في الكنيسة قبل موته، لذا فإنَّ نهايته سعيدة» الصَّدمة، التشوش، والمفاجأة التي تحلُّ دائمًا على الشَّباب عند ذكر الموت كل ذلك كان كثيرًا علي، لذا بكيت. أردت بيأس في تلك اللحظة أن أسأل القس عما حدث

لأبي لكن شجاعتي خانتني. الأب براوني قال لي: «لقد كتب قصصًا جميلة» فقُلت: «نعم، أدرك ذلك».

لم يكن هناك الكثير مما يمكن قوله وغادرت الغرفة لأنضم لباقي الصبيان في الملعب.

أحبَّ الصبيةُ دائمًا اللعبَ في الصباح، وسرعان ما حصلت على شارة حداد لأضعها على ذراعي كما فعلت عند وفاة أمي. هذا بطبيعة الحال قاد بقية الصبيان للتساؤل. قلتُ إن أبي ميت، لطالما أُخبِرتُ بذلك. كان هذا غريبًا، وفكرت بسرعة ونسجت حكايةً من خيالي؛ أخبرتهم بما ظننت أنها قصة مقنعة وهي أن أبي كان مستكشفًا، وقد اختفت سفينته، وأُفتُرِضَ موتُه حتَّى اُكتُشِفَ مؤخرًا في جزيرة جنوب البحر وقد فقد الذاكرة نتيجة ما عاناه، تعرَّفوا عليه وتُوفِّي بعدها بوقتٍ قصيرٍ. أعتقد أن الأولاد صدَّقوا قصتي بالفعل، وأصبحت بطلاً نوعًا ما.

عطلة عيد الميلاد حلت بسرعة وعدت إلى لندن. لم أكن في بيت خالتي أكثر من أربع دقائق حتَّى تمزيق شارة الحداد من على ذراعي، ومرة أخرى انطبع في ذهني أنني مختلف عن باقي الصبيان وليس من المسموح أن أحزن على أبي. قِيلَ لي إنَّه لن يسعني بناء أي حياة لي في إنكلترا، وعليَّ أن أبحث عن مستقبلي في مكان آخر. فيما بعد تمكَّنتُ من استجماع شجاعة كافية للتساؤل عن سبب ذلك، وأُجِبتُ: «لسنا بحاجة لنخوض في ذلك الآن».

ليس عندي شك أن موت أبي جاء كراحة كبيرة لعائلة أمي إذ أن بقاءه على قيد الحياة ظلَّ خطرًا يتهدَّدُهم، من وجهة نظرهم ربما كان سينجح في التواصل معنا مع تقدمنا بالسن وبالتالي يخرب خططهم. من ناحيتي أعرف أنني لو كنت قد تلقيت رسالة منه لأجبت عليها، ولم أكن لأذكر ذلك لأي شخص سواء أكان من العائلة أم من خارجها.

لم نتراسل أنا وأخي عند موت أبي، ففكرة وجوده كانت سرًا احتفظنا بهِ لأنفسنا، لكنه مرة أخرى لم يكن محظوظًا كما كنت لأنه رأى الإعلان في الجريدة وسمع النقاش عنه بين الصبيان الأكبر سنًا على طاولة الإفطار في رادلي.

في هذا الوقت كتب روبرت روس رسالة لنا حملها راعي العائلة. أُرسِلتْ الرسالةُ إلى أخي، لم أرَ ذلك بنفسي، وفي الحقيقة لم أسمع عن ذلك حتَّى توفي أخي، وبعد ذلك أراني روس جواب سيريل على الرسالة وأعطاني نسخة منه. يتوجب أن أذكر أن أخي كان في الخامسة عشرة ونصف وقتذاك، وله أكثر من خمس سنوات سابقة من المرارة. رسالته هي:

عزيزي السيد روس؛

شكرًا جزيلاً على رسالتك اللطيفة التي أرسلتها لي. لطفٌ كبير منك إرسال الأزهار لنا. يسعدني قولك إنه قد أحبّنا. آمل أن يكون موته رحيمًا بالفعل؛ أعتقد أنه لا بد قد اعتنق الكاثوليكية وتقديري للكنيسة الرومانية ازداد أكثر من ذي قبل. من الصعب على عقول صغيرة كعقولنا فهم لما تكون الآلام والمآسي من نصيبنا لا سيما في عمر صغير كعمرنا. وأنا هنا بين وجوه سعيدة، بين صبيان لم يعرفوا ساعة أسى أبدًا وعليَّ أن أحتفظ بأحزاني لنفسي، وليس عندي من يتعاطف معي، رغم أنني متأكد من أن أصدقائي سيتعاطفون معي على الفور لو عرفوا؛ لكن عندما أكون متجهّم الوجه ولا أجاريهم في نكاتهم أجدهم يحدقون بي ويتصرفون بطفولية مع حزني.

بالطبع مرَّ وقتٌ طويلٌ منذ رأيت أبي لكنني أتذكّر عندما عشنا بسعادة سويًا في لندن وكيف كان يأتي ليلعب ويبني معنا بيوتًا من الطوب في غرفتنا. آمل فقط أن يكون ذلك درسًا لي ليمنعني من السقوط في أوحال وأرذال هذا العالم. في يوم السبت ذهبت إلى لندن لرؤية السيدة نايبر وعدت يوم الأحد بعد الظهر.

قرأتُ نبأ وفاته أول مرة في الجريدة عند الإفطار، ولحسن الحظ لا يكون بوسع المرء الشعور بحجم الخسارة عند قراءة النعي وإلا لما علمتُ ما يمكن فعله، مع ذلك فالشخص العادي يقرأ الخبر بلا عاطفة ودون أن يكترث تمامًا.

ليس بوسع الكلمات وصف أفكاري، لذا يتوجب عليَّ إنهاء الرسالة.

صديقكَ المحبُّ للغاية/سيريل هولاند

خلال عطلة عيد الميلاد في عام ١٩٠٠ التي قضيتها مع خالتي الكبرى ماري حدثت حادثة غير سعيدة غيرتْ مسار حياتي. على مسافة قصيرة يعيش قريب من أقرباء مضيفتي، جنرال متقاعد، منزله هو المنزل الأكبر في المنطقة. له حفيدان صبيان في حوالي سني، والدهم كان في حرب جنوب إفريقيا، وهو رجل نبيل هادئ الطَّبع، بسبب أصابتهِ بداء النقرس تجده يجلس دائمًا على كرسي منجد قرب النار مع قدم مربوطة باللفاف، ومرفوعة على كرسي أمامه، وقد قضى ردحًا طويلاً من وقته يلعب الشطرنج مع إحدى بناته.

مع نهاية العطلة وفي صباح اليوم الذي توجّب عليَّ فيه الذهابُ إلى لندن متجهًا إلى ستوني هيرست طلبت الذهاب وقضاء الوقت مع الصبيان. وصلت على دراجتي الهوائية في حوالي العاشرة صباحًا ولاقتني واحدة من بناته قالت إنها آسفة جدًا لكن ليس مسموحًا لي الدخول إلى المنزل. سألت عن السبب وأُخبِرتُ أنه بسبب شيء قلته لأحد الصبية. ثم سألت إن كان بوسعي رؤية الصبية ووداعهم، وبعد تردد سُمِحَ لي بذلك، وهكذا عرفت ما حدث.

في اليوم السابق كنت أردد أغنية سخيفة، سمعها سيريل في المدرسة وكررها أمامي، ويفترض أنها طريفة للغاية. من الواضح أن لها معنى مزدوجًا ولم أكن قد تبينت ذلك، فقد وجدتها مضحكة لا غير ورددتها أمام الصبيان. وهم بدورهم أعادوها أمام خالاتهم اللواتي قررن أنني لست مناسبًا لصحبة الصبيان. بت في حالة نفسية فظيعة للغاية، ولو أنهم تفكروا للحظة لأدركوا لو أن أيًا منا اشتبه بوجود شيء خاطئ بخصوص الأنشودة لكنا بالتأكيد لن نكررها أمام الكبار.

كان يفترض بي قضاء اليوم في منزل الجنرال ألعب مع الصبيان، ووجدت نفسي في موقف مزرٍ. الأنشودة المنحوسة التي كانت أساسًا تقدم في إحدى قاعات الموسيقى في لندن في ذلك الوقت أصبحت فجأة حاملة لمعانٍ غامضة لا يمكنني سوى أن أحزرها بصورة ضبابية. تخيلتُ وجودَ شيء فظيع بخصوصها، رغم أن السبب الحقيقي لم يكن سِوى أنها لغة شارع وليس بسبب قلّة الاحتشام. لم يكن ممكنًا أن أذهب إلى البيت دون أن أفسر لهم ما حدث ولم أجرؤ على ذلك. ومرة أخرى شعرت أن الجميع يقفون ضدي، وبدأت أفكر بضرورة وجود شيء سيء في عائلتي يجعلني دائمًا سيء الطبع. وعندما صرت قريبًا من المنزل الذي كنت أقيم فيه جررت خطواتي حتَّى توقفتُ تمامًا.

كان هناك ثلج خفيف يتساقط في ذلك الصباح لكنه صار يتساقط بشكل كبير. لذا تركتُ دراجتي الهوائية وبدأت أمشي دون فكرة محددة عما أنوي فعله. ينتهي الطريق الذي مشيتُ فيهِ إلى غابة، وقد قررت التخلص من كل مشاكلي وعدم إكمال هذا النضال. قرأت في أحد أعمال جاك لندن على الأغلب أن المرء إذا استلقى على الثلج ونام فلن يستيقظ أبدًا وسيموت بهدوء دون ألم. ومع تلك الفكرة في رأسي أسندت دراجتي إلى شجرة وتجولت في الغابة. عندما اعتقدت أنني لن أمضي أبعد وأضيع، وجدت مكانًا مكشوفًا ينجرفُ منهُ الثَّلج، واستلقيت عليه وأغلقت عيني واسترجعت حياتي حتَّى تلك اللحظة. فكّرت بالمنزل في شارع تايت وفي تجوالي لكن معظم أفكاري كانت عن والدي ووالدتي ولغز أبي، وتمرغت في مأساة كوني يتيمًا لا يرغب به أحد. لم يبدو أنني قد شعرت بالبرد وفي النهاية استسلمت للنوم.

في الحقيقة قبل أن أصل إلى بيت الجنرال وقبل رفضهم دخولي، كانوا قد اتصلوا مسبقًا بأقربائي لمنعي من القدوم. ولسوء الحظ اتُّصِلَ بعد خروجي، فلم أعلم شيئًا عن ذلك، ولو أنهم أبلغوني لما تكلفت عناء الذهاب وأُعفيتُ من ذلك الألم النفسي، لكن ذلك لم يتبد لهم. عندما مر الوقت ولم أرجع بدأ القلق ينتابهم بالذات لأن الثلج ظل يتساقط بغزارة أكثر من ذي قبل. وعندما مرت ساعتان بدون ظهوري قرروا فعل شيء، وشُكِّلَتْ فرق بحث لإيجادي.

لم يستغرق الأمر طويلاً حتَّى تتبعوا خطواتي، وبما أن دراجتي الهوائية كانت تستند على شجرة قرب الطريق فقد قادتهم إليَّ مباشرةً. عُثِرَ علي وأُخِذت إلى المنزل ووضِعت في

حمام دافئ. لم أخلع قفازاي، لذا فيدايَ لم تتضرَّرا من الثلج لكن أذنيَّ كانتا مكشوفتين للهواء، فتعرضتا لقضمة صقيع خفيفة، ووصلَ الثَّلج إلى الجزء الداخلي من أذني اليسرى، وتطور الأمر إلى التهاب اضطررت للخضوع بسببه إلى عملية في يوم وفاة الملكة فيكتوريا. كانت العملية خطيرة للغاية وتسببت في تركي المدرسة لمدة سنة كاملة في عام ١٩٠١.

هذه المشكلة لم تنتهِ هناك، فقد كُتبَ تقرير كامل عن سوء تصرفي غالبًا مع كلام عن الإنشودةِ وأُضِيفتْ بالتأكيدِ بعضُ التفاصيل، وقد أُرسل إلى قريبتي ليزي لتنعقد الحواجب وترتفع الأيدي بسؤال استنكاري: «ماذا كنت تتوقع؟». لم أكد أصحو من التخدير حتَّى وجهت لي محاضرة مرعبة حشر فيها اسم والدي؛ الفكرة العامة أنه ما لم أكن في غاية الحرص فستكون نهايتي سيئة. كان هناك أيضًا اقتراح بأنني لو لم أكن مريضًا لضُرِبتُ، مع أني لم أعرف من أراد ضربي لكن ليس ليزي بالتأكيد.

جعلني مرضي أصمًا لسنة كاملة. ورغم أنها لم تكن إعاقةً كبيرةً، فقد استُثنِيتُ من دخول أي مجال تتطلب مهنته فحصًا طبيًا صارمًا أو يتطلب درجة سماع عالية، ومنعتني من إرضاء طموحي الرئيسي في تلك الفترة وهي أن أصبح مهندسًا مدنيًا في كلية كوبر هيل.

قضيت معظم عام ١٩٠١ في منتجع صحي في قرية في مدلاند(174)، وقد أُرسِلتُ مع سيد نبيل حسن النية شغلَ منصبًا ومكانة عالية في الكنيسة الإنجليكانية، ظلت تدر عليه بمورد مكنه من عيش حياة جيدة للغاية في الريف الغربي ولكنه تحول إلى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية في منتصف العمر. مع فقدانه عمله فقدَ كذلك مصدرَ دخله الوحيد، ولكونه متزوجًا وله زوجة لا تزال حية لم يكن ممكنًا أن يصبح قسًا كاثوليكيًا. لذا وجد حلاً وسطًا يعيش حياة زهد وتقشف وقضاء جزء كبير من وقته في قراءة الصلوات الكاثوليكية. أتخيل أن هذا الجزء لم يكن بالذات صعبًا الالتزام به لكن زوجته المسكينة التي أهلكها حمل الأطفال والواجبات الأبرشية بدت أكبر من سنها بكثير، رفضت تبني دين زوجها الجديد، وأصبحت تعاقر الخمر حد الإدمان بدلاً عن ذلك، وبما أن زجاجة الويسكي بثلاث شلنات فقط فقد كان صعبًا للغاية منع امرأة أحكمت عقلها على الاستمرار في الانغماس في هوايتها.

كانت لدي غرفة في العلية، وكان غريبًا إلى حد ما الاستيقاظ في الليل وحمل شمعة بلا ظلال بالذات لأن العلية فُصِلتْ عن باقي المنزل بسلالم مغلقة وباب من الأسفل لكنني أحببت الغرفة، صار عندي طاولة وكرسي ورف كتب، وصنعت لنفسي هناك مكانًا أشبه بالمعتزل، وتخيلت نفسي مثل ناسك بعيد عن كل مغريات الحياة. هناك كنت أجلس وأكتب رسائل إلى ليزي نابير وأخي وقد أحاول تأليف الشعر.

بدأت أقرأ بقدر كبير، أخشى أنه لبعض الوقت كان كاتبي المفضل هو ماري كرويلي وأويدا(175) رغم أنني في لحظاتي الأكثر جدية كنت أفضِّل هنتي وفيتشت(176). أكثر ما أحببت فعله تأجير زورق كندي(177) والتجديف حتَّى نهر ليم، وهناك قد أدخل المياه الساكنة وأقرأ وأتخيل نفسي في كل الأدوار البطولية. لكن كل هذا الوقت لم أرَ كتابًا لأبي؛ في الحقيقة أشك بوجود أي نسخ من أعماله إلا في معارض الكتب المستعملة في تلك الفترة.

في الأسبوع الثاني من كانون الثاني/يناير ١٩٠٢ عدت إلى ستوني هيرست. خلال سنتي بعيدًا عن المدرسة صرت أقوى جسديًا وبدأت بالدخول أكثر وأكثر في روح المدرسة، ومع ذلك لم أكن سعيدًا للغاية في المدرسة. كنت متأخرًا كثيرًا في الدراسة وقد تراكمت الواجبات. معظم رفاقي في المدرسة كان لهم نمط حياة ساكن تقريبًا، محددون بحياتهم المنزلية وزيارات للأقارب من حين لآخر، وربما زيارة سنوية للبحر، لكن أنا حتَّى أكثر من أخي كنت أدور حول نفسي في دوائر غير مجدية لنصف حياتي القصيرة تقريبًا.

الحياة في ستوني هيرست مختلفة في نواح كثيرة عنها في المدارس العمومية المعتادة. كما في موناكو لم يكن هناك نظام الطالب الأكبر ولا توجد عقوبات انضباط قوية، كان هناك مراقبون حافظوا على جعل الطلاب الأصغر بعيدين عن المشاغبة في الكنيسة، ويفترض بهم إرسال تقرير عن أي تغيرات كبيرة إلى المراقبين اليسوعيين -وعددهم أربعة- وهم مسؤولون عن فرض النظام والقانون. في تلك الأيام لم يدرس الصبيان دراسات دينية متخصصة، في الحقيقة لم يكن هناك أي اختلاف بسيط في المعاملة بين الصبيان. هذا مفهومٌ كليًا حيث تُطبَّقُ قوانين النظام الديني الذي يجب أن يصبح وفقه القسُ راعيًا إقليميًا يومًا ما، مع القوة الكاملة فوق كل أعضاء النظام اليسوعي في بلده فقد تجد قسًا متعلمًا يتواضع للراعي الإقليمي الجديد الذي كان بالأمس فقط ضمن رعيته هو.

ذكرت أنني كنت محبط الهمة قليلاً عندما وصلت إلى ستوني هيرست لأجد أنني قد عدت إلى منطقة العقاب الجسدي الذي أُعِيدَ مع حرية كاملة وهو رادع كبير للصبية الأكثر عصبية. كانَ العقابُ ضربًا على كف اليد بقصبة يسميها الصبية «تولي»، وهي عصا من شجر الطبرخي(178) بطول قدم، عرضها إنشان ونصف وسمكها إنش واحد. النسبة المعتادة للضربات تمثلت في تسع أو اثنتي عشرة ضربة، رغم أن بعض الصبيان الصغار تلقوا ضربة واحدة فقط إلى ستِّ ضربات. الحدُّ الأقصى لأيِّ مُعاقَبٍ في يوم واحد هو ثماني عشرة ضربةً. يُسمى ذلك: تسعٌ مضاعفةٌ، ومن أجل ألاَّ تنشأ ضغينة شخصية تؤثر على شدة الضرب بالعصا، الأب الذي يقر العقاب لا ينفذُه بنفسه بل يجب أن تذهب بدم بارد إلى أحد المشرفين الأربعة وتقول: «أريد اثنتي عشرة ضربة عصا من أجل الأب الفلاني». كانت تلك الصيغة الصحيحة رغم أن الكلمة «أريد» مفردة غير ملائمة. يعطيك المشرف العدد الذي طلبته ويسجلها في كتاب. كان عملاً مؤلمًا للغاية في أحسن أحواله، لكن هناك اختلاف معتبر في الشدة وفي سرعة الضربات الموجهة، كما سُمحَ لنا اختيار من يعاقبنا وسرعان ما

اكتشفنا أخفهم يدًا ومن هو الأقسى. في الحقيقة لم يكن الضارب بخفةٍ هو الأكثر إنسانية على أي حال. معظم الطيبين لهم ضربات قاسية، واعتادوا على الضرب بقوة وببطء، بالتدريج استنتجنا أن السبب في ذلك هو لعدم تشجيع الطلاب على اختيارهم لتنفيذ العقوبات. حصلت على حصتي الكافية من الضربات لكنني حصلت على تسعة مضاعفة مرة وحدة فقط، بسبب ذنب لم أرتكبه، أما المذنب الحقيقي فلم يكشف عن نفسه رغم توجّب ذلك لأن العدالة تحقَّقتْ بعد أن وصلت إليه عن طريق الصبيان الأكبر، وأنا متأكد أن عقوبته كانت أكثر ألمًا بكثير من تسعتي المضاعفة.

يقولون إنه في مكان ما من الطبيعة ثمة ترياق لكل مرض، وأنا بالتأكيد وجدت ترياقًا ضد العصا ولم أخبر عن ذلك أي أحد ما عدا صديق معين اتخذتهُ موضع ثقتي دون بقية الصبية. بما أن الضوء الكهربائي لم يصلِ المدرسة التي ظلتْ تضاء بمصابيح الغاز، فإذا فركت يدك بقوة بالجزء الخشن من فرشاة الشعر ثم تضعها على الغاز الصادر من لمبة الغاز دون أن تشعلها لحوالي نصف دقيقة سيعمل ذلك كمخدّرٍ موضعي ويجعل العصا غير مؤلمة تقريبًا. حتَّى الآن لا أزال أرتجف عندما أتخيل ماهية عقابي لو كُشِفتُ وأنا أتحدى العدالة بطريقتي تلك.

يُجلدُ الصبي بسبب سوء تصرف كبير أو عدم انضباط متكرر. في الحقيقة إن الجلد عادة ما يترافق مع الفصل من المدرسة. عن نفسي لم أعاقب بذلك، لذا لا يمكنني وصف التجربة لكن استنتجت من أحد الصبيان أنها كانت مراسيم ضخمة تحدث في حضور مدير المدرسة وأحد أساتذة الصف ومشرف الدراسات، وهو الأب المسؤول عن كل الأعمال البحثية. الأداة المستخدمة للجلد تشبه بالعصا المستخدمة على اليدين لكن أطول، وتُنفَّذُ العملية على جسد عارٍ، العدد المعتاد للضربات هو اثنتا عشرة ضربةً. أتساءل إذا ما كان ترياق العصا سيكون نافعًا في هذه الحالة.

كُره العراك في ستوني هيرست، ويعاقب عليه دائمًا بالعصا إذا كُشفَ أمرُهُ. وبما أننا كنا طَوال الوقت تقريبًا تحت مراقبة مشرف واحد أو أكثر فالكشف أمر لا يمكن تفاديه تقريبًا. هذا يتسبب بوضع المرء في موقف صعب لأنه رغم كون العصا مرعبة فإن سخرية الزملاء إذا رفض أحدهم قبول التحدي للدخول في عراك كانت أسوء. ذلك أشبه بمأزق الضابط البروسي تحت النظام القديم؛ إذا ما تحدَّاه آخرُ في مبارزة فعليه أن يختار بين رفضها وفقدان احترام إخوته الضباط، أو الفصل من الجيش في حال قبِل بها. خضت بضعةَ شجارات، وفي كلِّ مرة يُلقى القبضُ عليَّ واتعرض للضَّرب.

أود لو أركز على حقيقة أن الوصف الذي قدمته عن الحياة في ستوني هيرست هو عن الوضع قبل خمسين سنة مضت. مثل الكثير من المدارس الإنكليزية العامة تغيَّرت الظروفُ بشكلٍ معتبرٍ منذ ذلك الوقت. صار الضرب بالعصا أقل، والإشراف الصارم انحسرَ بشكل

ملحوظٍ، وصار للصبيان الكبار دراستهم الخاصة. عندما قدمت هذا الفصل الى أحد الآباء الحاليين الذي كان معاصرًا تقريبًا لفترة وجودي في المدرسة رد عليّ برسالة قائلاً:

«ما قلته عن ستوني هيرست كان حقيقيًّا للغاية قبل خمسين سنة مضت، أنا أعرف! لقد استغرقنا وقتًا طويلاً للتخلص من بعض العادات التي اكتسبناها خلال قرنين من الحياة في الغربة في فرنسا أو بلجيكا».

في سن الرابعة عشرة توقفت عن دراسة اليونانية وأخذت بدلاً عنها دروسًا إضافية في الرياضات واللغات والعلوم. جاءَ ذلك بناءً على رغبة الوصي علي، ولو صح ذلك فهو سوء حكم كبير من قبله؛ فبحلول ذلك الوقت صار مؤكدًا تقريبًا أنني سأذهب إلى الجامعة، واليونانية موضوع إجباري في امتحانات القبول كما اكتشفت لاحقًا، وحتَّى لو لم يكن ذلك فالأمر كله لم يكن مقنعًا عندي. أشك أن حقيقة كون والدي أبدعَ في هذه اللُّغة، لها دورٌ في حرماني منها.

يُحدَّدُ مكانُ المرء في الصف عن طريق الامتحانات في نهاية كل فصل والمسماة التعديل. حيث يُوضَعُ الصَّبيُّ صاحب المجموع الأعلى في مقدمة الفصل، وتُعطى أعلى النقاط عن اليونانية واللاتينية، وتلك أعلى من النقاط المعطاة عن المواضيع الحديثة، ذلك أمر ليس في صالحي حيث خسرتُ نقاطَ اليونانية كلها، مع ذلك فقد تمكَّنت على الدوام من أن أكونَ قرب المقدمة وفي السنة الأخيرة كنتُ الثاني.

الأب ريجنالد كولي، رئيس الدراسات، ظلَّ على الدوام لطيفًا للغاية معي، كنت ناجحًا بامتياز في فصوله، رأى أنني كنت متغطرسًا للغاية في قصائدي اللاتينية، وانتقدَ ذلك دائمًا. لذا في أحد الأيام أدخلتُ مقطعًا صغيرًا من خطبة لشيشرون في أحد واجباتي. عندما قدمته للأب كولي قال إنه كان شعريًّا للغاية ومزخرفًا ومزوقًا وبناء على ذلك أشرت بانتصار إلى المقطع، بعد لحظة تردد نظر إلي الأب كولي ببساطة وقال: «نعم يا عزيزي، لن يحاسب شيشرون على كتابة مثل تلك لكنك تحاسب».

مواد قراءتنا التَّرفيهية سُيْطِرَ عليها بحذرٍ شديدٍ؛ كلُّ كتابٍ يجلب إلى المدرسة يُفحصُ بحذر، وإذا استوفى الشروطَ فسيُختمُ بختم دائري مصنوع من المطاط مكتوب عليه: ستوني هيرست في الأعلى وفي الأسفل مسموح. أحدُ الصبيان في المدرسة جلبَ نسخةً من كتاب (البعث) لتولستوي، وهو ليس من الكتب التي يُشجَّعُ على قراءتها في مدرسة يسوعية. تمكَّنَ مالكُ الكتاب من الحصول على ختم «مسموح» واستخدامه على الكتاب. مرَّ وقتٌ طويل قبل اكتشاف تزويره، وبحلول ذلك الوقت طافَ الكِتابُ على العديد من الأيادي، حتَّى صار الاهتداءُ إلى مالكه الأصلي مستحيلاً؛ فنحن أنفسنا لم نكن متأكدين من هُوية المزور. احتُجِزَ الجميعُ صباحَ يوم عطلة حتَّى يخرج المذنب. كانت العقوبةُ الضربَ بلا شك، إنْ لم تكن فصلاً، لذا لم يكن اعتراف أحدِهم بالذنبِ مرجَّحًا. بعد نصف ساعةٍ صار

واضحًا بأنَّ العقوبةَ لن تُطبَّقَ، ووحدَه المسكينُ الذي قَبِضَ عليه متلبِّسًا بحيازة الكتاب ضُرِبَ تسعَ عصيٍّ مضاعفة.

بدأتُ أستمتع بجو المدرسة بالفعل لأول مرة منذ العام ١٩٠٢. أخذت دروس الجمباز ولعبت التنس بشكل جيد مقبول. لم أتفوّق أبدًا في كرة القدم أو الكريكت، ونادرًا ما لعبت هذه الألعاب بعد مغادرة المدرسة، لكنني أحسنت صنعًا للغاية في عملي واجتزت اختبار أكسفورد وكامبريدج للشهادة الدنيا وحصدت أعلى الدرجات في اللاتينية والفرنسية والرياضيات.

في صيف عام ١٩٠٣ صرتُ في السادسة عشرة والنصف وبدأت أهتم بالفتيات. كان أمرًا تجريبيًّا للغاية وبريئًا حقًا، قبلةٌ وعناقٌ وضحكٌ غالبًا ما ينتهي بالهرب وإحراجٌ خفيف في المرة التالية التي نلتقي فيها. لكن الأمر كله جزء من تعليم المرء، وكما أتذكر فهو شعور مبهج للغاية، أحيانًا قد يتمادى المرء وليس من ضرر فعلي في ذلك.

بعد عطلة الصيف تلك انطلقتُ إلى كنيسة كارمليت في شارع الكنيسة في كينغستون لأجل الاعتراف، فقد شعرت بالخجل من الاعتراف بخطاياي إلى الكاهن في ستوني هيرست. قَرَّ عندي شعور غريب أنني غشَّاشٌ بلا نزاهةٍ، وقد أرهق ذلك ضميري الشَّابَ، فعقلي كان منطقيًّا للغاية ولم أصدقْ نفسي عندما أقول للكاهن إنني مصمم على عدم التغزُّل بالبنات مجدَّدًا.

في نهاية هذه السنة الدراسية اجتزتُ امتحانات الشهادة وفزت بجائزة الخمسة باوندات في الرياضيات وجائزة الدرجة العليا(179)، وهي جائزة تُمنح لكل الصبيان الذين حصلوا على ثُلثي مجموع السنة الممكن في كل الاختبارات. هذه الجائزة كانت مرغوبةً للغاية وقد تلقيتها في كل سنة من سنوات دراستي في المدرسة.

عندما غادرت ستوني هيرست لم يكن عندي فكرة أني لن أحتاج للعودة وإكمال دراسة صف البلاغة، المُكافئ للصف السادس الإعدادي في المدارس الإنكليزية العامة الأخرى. لم أُبلَّغْ بذلك حتَّى عدت إلى لندن. اعتقدت أن الوصيَّ عليَّ لن يفعل ذلك، لكنه اعتادَ على مثل تلك الأفعال.

عبر كل سنوات دراستي لم نرَ لا أنا ولا أخي تقريرًا لنتائجنا في المدرسة رغم أننا لا بد قد حصلنا على حوالي خمسة عشر تقريرًا لكلِّ واحدٍ منا. أفترضُ أنَّها أُرسِلتْ إلى الوصي الذي لم يكن مهتمًا ونساها أو رماها في سلَّة المهملات. لقد توفي في العام ١٩٠٤ ولم يكن بوسعي أن أُفْرِطَ في الحزن عليه، فلم أكن قد رأيته سوى ثلاث مرات خلال السنوات الست التي كان فيها مسؤولاً عني، ولم يكتب لي خلال ذلك الوقت كله ولا مرة.

الفصل السادس

(158) مدرسةٌ داخلية للصِّبيان تؤهِّلهم للانضمام إلى الجيش.

(159) قريةٌ جنوب غرب أوربا، على ساحل القنال الإنكليزي.

(160) أميرُ ويلز، لقبٌ يُطلقُ على وريثِ العرش الإنكليزي. كان الوريثُ يومئذٍ ألبرت إدوارد (تُوِّج عام ١٩٠١ بلقبِ الملك إدوارد السَّابع) وقد كان داعمًا للتَّطورِ الاجتماعيِّ. ورغم أنه رفضَ السَّماحِ للنِّساءِ بالتَّصويتِ في الانتخابات، ورفضَ إشراكهنَّ في لجانِ إصلاحِ القوانين (تحديدًا قانون الطَّلاق)، فإنَّ النِّساءَ البريطانياتِ في عصرهِ وعصر والدتهِ كُنَّ قد بدأنَ بتثبيتِ أُسُسِ الحركةِ النَّسويةِ، وصارتْ لأصواتهنَّ مكانةٌ سياسيةٌ، كما وأثَّرنَ على النَّسوياتِ في كلِّ العالَم.

(161) كناية عن تغيير الاسم.

(162) مدينةٌ في الهند.

(163) طابعٌ أصدرته الشركة البريطانية (شركة الهند الشرقية) التي كانت تحتكرُ حركة البريد الهندي، والآنة (عنة) عملة استُخدمتْ قديمًا في الهند وباكستان، تعادل ١٦/١ روبية.

(164) كولونيل في الجيش البريطاني كان المسؤول مع آخرين عن تطوير البريد الهندي، وبريد التبت.

(165) اليومَ هي منطقة جبلية خاضعة للحكم الباكستاني، تُسمى غالبًا (التبت الصُّغرى).

(166) هنري برجسون، الفيلسوف الفرنسي الشهير، الحاصل على جائزة نوبل في الأدب ١٩٢٧. يُعرف برجسون بالفلسفة التطبيقية أو العملية التي ترى أنَّ التجربة المباشرة والحدسَ؛ أكثرُ أهميةً من العقلانية المجرَّدةِ والعِلم لفهْم الواقع.

(167) لا يَخفى الفيلسوفُ الفرنسي جان جاك روسو عن القارئ. أمَّا ماكسميليان روبيسبار، فهو المحامي الذي لعبَ دورًا حاسمًا خلال (عهد الإرهاب) بين عامي [١٧٩٣-١٧٩٤] الذي أعقبَ الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩. تحدى الأسس القانونية والأخلاقية للمجتمع يومذاك، كما قادَ حملاتٍ لنشر فكرة حقِّ التصويت وأنْ يكون للرِّجال رأيٌ سياسيٌّ في حكم فرنسا. استمدَّ إلهامه من روسو محاولاً تطبيق أفكار (العقد الاجتماعي) واقعًا.

(168) فصلٌ دراسيٌ في العديد من المدارس الإنكليزية، يبدأ من عيد القديس ميكائيل في التاسع والعشرين من أيلول/سبتمبر حتَّى عيد الميلاد.

(169) في الأصل عن الفرنسية (vingt-et-un) وهي لعبةُ ورقٍ بسيطة.

(170) عيدٌ يحتفي بسرِّ القربان المقدس، تحتفلَ به الكنائسُ الكاثوليكية والإنجليكية والأرثوذكسية الغربية. يمثِّلُ تذكيرًا بغسل (المسيح) لأقدام تلاميذهِ، وبالعشاء الأخير الذي تناوله معهم عشية الآلام وما تبع ذلك.

(171) عيدٌ مسيحي سنويٌّ يحتفي بعقيدةِ الثالوث (الآب، الابن، الروح القدس).

(172) أسَّسَ الرَّاهبُ الإيطاليُّ فرانسيس الأسيزي الرَّهبنةَ (الفرنسيسكانية) في القرن الثالث عشر، وثبَّتْ قوانينها. حيث الرتبة الأولى للرُّهبانِ، والرتبة الثانية للرَّاهبات، والرتبة الثالثة للمتديِّنينَ المتزوجينَ على الأغلب ممَّنْ ينذرون حياتهم لخدمة المسيح ورسالته دون أن يضطرُّوا للعيش في الدير، والتي تعرف الآن بـ(الرهبنة الفرنسيسكانية العلمانية).

(173) مناطقُ تقعُ جنوب شرق إنكلترا.

(174) وسطُ إنكلترا، الذي يضم العديد من المدن الشهيرة مثل توتنهام، ديربي، برمنغهام وغيرها.

(175) ماري كرويلي، الاسم المستعار للكاتبة البريطانية ماري مكاي (١٨٥٥-١٩٢٤). الروائية الإنكليزية الأكثر شهرةً في عصرها، والأكثر مبيعًا بين الكُتَّاب. لها طبقة واسعة من القراء بين الشباب، غير أن النقاد لطالما تعرضوا لأعمالها بالسخرية الشَّديدة بسببِ كتاباتها العاطفية. أمَّا (أويدا) فهو اسم مستعار للكاتبة الإنكليزية ماري لويس راميه (١٨٣٩-١٩٠٨)، التي كتبتْ ما يزيد عن أربعين عملاً سرديًّا بضمنها أعمال للأطفال، ولقتْ رواجًا كبيرًا في زمانها. ذكرها جاك لندن بوصفها أكثر الكُتَّاب الذين تأثر بهم في صباه.

(176) هنتي: جورج ألفريد هنتي (١٨٣٢-١٩٠٦)، روائي إنكليزي اشتُهرَ بكتاباته للروايات التاريخية والمغامرات، وقد كتب ١٢٢ عملاً نالت رواجًا كبيرًا في حينها، لكنَّ شهرته تراجعتْ بالتدريج لأنَّ أغلبَ أعماله كانت تدور حول ثيمة الحرب العالمية. أمَّا فيتشت فهو ويليام هنري فيتشت (١٨٤١-١٩٢٨)، رجلُ دينٍ وكاتبٌ وصحفي أستراليٌّ؛ كتبَ في التاريخ والسياسة والدين كما كتبَ الروايات.

(177) ما يُطلق عليه (الزورق الكندي) هو في الأصل زورق رفيع مصنوع من لحاء أشجار البتولا، ابتكره السكان الأصليون للأمريكيتين لتسهيل المرور في جداول الماء الرفيعة والمحاطة بأشجارٍ كثيفةٍ.

(178) الطبرخي أو الكوتابركا (Gutta-Percha): شجرٌ استوائيٌّ استُخدم في صناعات عديدة منها عوازل البرق، وفي المواد المستخدمة لحشو الأسنان، وفي الأثاث. كما يُستخرج المطَّاطُ من بعضِ أنواعهِ.

(179) في الأصل عن اللاتينية (praemium primi ordinis).

المُراهَقةُ

حياتي وحياة أخي كانت ستكون أسعد بعد وفاة أمي لو سُمح لنا بالتواصل مع أصدقاء أبي الذين ظلُّوا أوفياءَ له؛ ولمكَّننا ذلك من الحفاظ على الثقة الطبيعية بالنفس، لدى الشَّباب، والتي سُلِبتْ منا ببطءٍ. هناك الكثير من الناس الذين كانوا راغبين بل متحمسين لأخذنا في حجرهم. لقد سألوا عنَّا وعن أحوالنا وقُوبِلُوا بالبرود وبجملة أننا سعداء للغاية حيثما نحن، ولا ينبغي التَّشويشُ علينا. كان المبدأ وجوبَ قطعنا، وبشكلٍ تامٍّ، عن أيِّ علاقةٍ بآل وايلد. ابنة عمي دورثي وايلد، ابنة ويلي وايلد، ولدت في نفس وقت عودتنا إلى إنكلترا. بعيدًا عن السماح لنا بلقائها فلم أكن مدركًا لوجودها أصلاً؛ حتَّى بلغتْ الثانية والعشرين من عمرها؛ حينَ جُلِبتْ إلى منزلي من قبل صديقٍ مشتركٍ. أما أخي فلم يعرف بوجودها أبدًا.

لو تمكنتِ العائلةُ من مَحو كلِّ ذكرىً لأبِينا من قُلوبنا، لبثَّ ذلك في أنفسِهم راحةً عظيمةً. رغم أن محوَ ذكراه مستحيلٌ بالطبع، فإنَّهم بذلوا أقصى جهودهم. عندما يدخل المرء إلى امتحانات القبول في كلية القانون، يجب إعطاء اسم الأب، ويظهر اسمك في حفلة العشاء التي تلي إعلان النتائج ضمن قائمة عائلتك، في حالتي وجدت نفسي في قائمة «ابن السيد ويلز وايلد».

شعرَ روبرت روس بمرارةٍ أمامَ سلوك العائلة. بعدَ لقائه بيومٍ كتبَ لي في السَّابع من آب/أغسطس ١٩٠٧:

«كم يؤسفني منعي من رؤيتكما، كلاكما أنت وسيريل، في السنوات التي مرت منذ المأساة التي ألقت بظلالها عليكم وجلبت العَتمة لحياتكم، التي أعرف منك أنها قد تركت في نفسك مرارةً عظيمة. أعتقد أنه كان بوسعي جعل طفولتك أسعد، ولكان ذلك يسعدني أيضًا لو أدركتما كم كنت مولعًا بكما وعلى أهبة الاستعداد لتكريس حياتي لكليكما لأنَّكما كنتما ابنيْ أعظم أصدقائي، والكاتب الأكثر تميُّزًا في السَّنوات الأخيرة من القرن الماضي».

أعتقد أنني كنت طموحًا مثل معظم الأولاد، ولكن منذ فترة مبكرة من حياتي متى ما حلمتُ بتميُّزي وجدتُ من يشير إلى أصلي ويسخرُ منه وتوقَّعت الإهانةَ مسبقًا. كان والدي موجودًا دائمًا مثل ظلٍّ يخيم على كتفيَّ، وفي الوقتِ نفسِهِ أضناني الشُّعورُ بكمِّ النِّفاق الذي أعيشُهُ، تساءلت طَوال الوقت عما سيفكر به الناس لو عرفوا الحقيقة عني؟ هل سينبذونني؟ هل سيتعاطفون معي؟ وذلك سِرٌّ أحكمتُ إخفاؤه بين ثنايا عقلي على الدوام، سِرٌّ لم أتشاركْهُ مع أي أحدٍ واعتقدت في حينها أنني سأحمله معي إلى القبر.

أُتلِفتْ كلُّ الأوراق المتعلِّقة بأبي، بضمنها معظم رسائله إلى أمي، وبعضها كتبت قبل فترة قصيرة من وفاتها. بعضُ الرسائل الأولى قيلَ إنَّها قد وصلت إلى أمريكا ونُشِرتْ هناك. لم

أعرف أحدًا قد رآها، وبوسعي الاستنتاج أنها أما مزورة أو قد تكون أصلية وسرقت من منزل شارع تايت خلال المزاد عام ١٨٩٥. رسائل أبي إلى أمي ظلت مغلقًا عليها في صندوق جلدي أزرق، غالبًا ما رأيت أمي تحملها لكن ذلك الصندوق ضاع إلى الأبد.

بعد وفاة أبي تضاءلت ذكراه تحت تأثير عائلة أمي بالتدريج وصارت بعيدة عن فكري. لا ألوم أبدًا العائلة على سلوكها، فهم حتَّى قبل الكارثة كانوا يمقتون أبي بشدة لأنه يمثّل كل ما يرفضونه.

كل شيء في عالمهم الصغير يجب أن يوجد في إطار محدد. لم يكن هناك من بأس في كتابة الشعر، في الحقيقة فإن كتابة بعض الشعر كان أمرًا جيدًا جدًا لكن لا يجدر بالمرء أن يكون شاعرًا. أما الرَّسامونَ فلا بأس بهم ما داموا يرسمون البورتريه، فعلى المرء التواصل معهم. على أيِّ حالٍ فإنَّ رسامي المواضيع الكلاسيكية الذين استخدموا موديلات عارية وكتَّابَ الدراما كانوا أفضل بقليلٍ من الممثِّلينَ. معظم الرجال النُّبلاء امتلكوا عقارًا ولكن بعيدًا عن امتلاك الأرض فإن العمل الوحيد الذي يمكن أن يمتهنه الرجل دون أن ينقص من قدره هو العمل في خدمة التاج أو في السياسة أو الكنيسة، ولو كنت ذا عقل متحرر للغاية فيمكنك العمل في الطب أو القانون.

حتى الملابس التي ارتدوها خضعتْ لمعاييرَ قاسيةٍ. إذا ارتديت قميصًا على سبيل المثال فيمكنك ارتداء دبوس زينة واحدًا فقط شرطَ أن يكون من الذهب الخام أو يتكوَّن من لؤلؤةٍ واحدةٍ. زينتان اثنتان أو ثلاث على مقدمة القميص تشير لكون الشخص «منعدم الذوق» أو أجنبيًا، وكلاهما يعني الشيء نفسه عندهم. وارتداء أي نوع من المجوهرات عدا الذهب الخام أو اللؤلؤ كدبوس بوسعه أن يصمَ الرجلَ بالتَّخنُّثِ يا سيدي!

قام أبي في أكثر من مرة بإهانة شروط الذوق الرفيع تلك، وظلَّ مغروسًا مثل شوكة حادة في جنب عائلة أمي. تطرُّفه، أزياؤه الغريبة التي ارتداها خلال أيامه الأولى في لندن عندما كان يحاول جذب الانتباه له وآراؤهُ غير المألوفة عن الفن وعن العديد من المؤسسات شبه المقدسة في عرف الطبقة العليا والطبقة الوسطى في إنكلترا، اجتمع ذلك كله لجعله غير مفهوم، لذا فهو موضع للكُرْهِ والاشمئزاز.

لطالما قيل إن نكران الحقائق بالتظاهر أنها غير موجودة عادة معروفة ومتأصلة في الشعب الإنكليزي، رغم أنني ليس بوسعي الزعم بكوني إنكليزيًّا للغاية، فإنَّ تربيتي منذ سن الثانية عشرة وما بعدها كانت إنكليزية جدًا. ولذا مع وقت مغادرتي المدرسة عام ١٩٠٤ نجحت في وضع أبي في موضع بعيد من عقلي، وحرمت على نفسي الشعور بالفضول تجاهه ما عدا فضول موضوعي، فقد عرفت أنه كتب قصصًا خيالية ومسرحيات رغم أنني نسيت ما هي. إضافة لذلك فإنَّ مأساة والدي لا تزال غامضةً، وقد تجنبت التساؤل عن ماهيتها، مرد ذلك جزئيًا لإحساسي بهشاشتي، وكذلك نتيجة الخوف من التنقيب وكشف

فضيحة مرعبة يبدو أنها اختفت عن الأذهان بالتدريج. ومن ناحية أخرى عرفت أنني سأتنوّر عن الموضوع حين يحين الوقت.

خلال سنتي الأخيرة في موناكو والسنوات الأولى في هودر وستوني هيرست كانت عندي فكرة واحدة فقط عن المستقبل وهو أن أصبح أبًا يسوعيًا. معظم الأطفال الأكثر إخلاصًا حملوا هذه الرغبة سواء سرًا أم علنًا. تلكَ حياة مطمئنة للغاية، كريمة وآمنة، مع القليل من الإغراءات الدنيوية بل لا فرصة لاعتراضها طريقك، ولو بوسع المرء البقاء في ذلك النظام حتَّى الموت فإن حياته بلا شك تصير جواز سفر للفردوس. لكن على أي حال لم أُشجَّعْ على ذلك، وأُخبِرتُ بأنَّه لن يكون لدي إجازات، وغالبًا سيكون حالي أفضل في العالم الخارجي. لكنني أعتقد أن السبب الرئيسي هو أبي؛ رغم أن الكاثوليك بشكل عام أوسع أفقًا من أتباع الكنيسة الإنجليكانية، لكن وضعَ أبي المؤسفَ لم يزل حديثًا للغاية، ونُظِرَ إليه من منظورهم للفضيلة، ولطالما كان اليسوعيون حذرين بالذات عند اختيار القساوسة.

لذا توجَّب عليَّ التخلي عن فكرة أن أصبح راهبًا وتوجيه فكري إلى اتجاه مغاير. في البداية أردت أن أصبح مهندسًا بسبب اهتمامي بالرياضيات والميكانيك، لكن في نظر الوصي العمل في الهندسة محترم فقط عند دراسة الهندسة العسكرية في الكلية في كوبر هيل، هذا يعني اجتياز اختبار جسدي مشدد للغاية، وهو أمر لا أملك فرصة فيه مع صممي في أذن واحدة، رغم أن هذه الإعاقة لم تمنع انضمامي للجيش عام ١٩١٤. كان خياري التالي يتمثل في أن أصبح طبيبًا لكن هذا الخيار استُبعِدَ بسرعة لأن العائلة خَشِيتْ افتضاحَ صِلتي بالسير ويليام وايلد ممَّا سيهدم كل عملهم الطيب. علاوة على ذلك لم يكن ممكنًا عند حدوث ذلك تحقيق هدفهم الأساسي وهو إخراجي من البلد.

كلا، توَّجبَ إرسالي في الخدمة القنصلية في أقصى الشرق. بالطبع بعد أن ثُبِّتَ المبدأ الأساسي المتمثل في منعي من معرفة أي خطط يعدونها لحياتي لم أسمع أبدًا بأي شيء عن هذا القرار حتَّى عودتي من ستوني هيرست في صيف عام ١٩٠٤، تمثَّلَ البرنامجُ المعَدُّ لي بقضاء ستة أشهر في سويسرا وستة أشهر في ألمانيا ثم الذهاب إلى الجامعة لاجتياز امتحان المكاتب القنصلية وتوديعي إلى الأبد. على الفور بدأت العائلة بوضع الجزء الأول من البرنامج قيد التنفيذ، وحُزِمَتْ أغراضي إلى لوزان في عمر السابعة عشرة.

من الغريب أن شخصًا غامضًا نادر الحديث مثل الوصي عليّ قد اختار سويسرا باعتبارها البلد الذي يمكن أن أحسِّن فيه لغتي الفرنسية، لكن السبب لذلك هو وجود خالة لي هناك. تزوج خالي أوتو من زوجته الأولى نيلي في نفس وقت زواج أمي وأبي، لم يكن زواجهما ناجحًا للغاية، وبعد الطلاق تزوجت من طبيب سويسري يدعى هنري كراندجين ويعمل في لوزان.

غادرتُ ستوني هيرست يوم الثلاثاء، الثامن والعشرين من تموز/يوليو ١٩٠٤، ووصلت سويسرا في الخميس التالي. لذا كان يوم الجمعة يومًا حافلاً، إذ توجّب أن أتأقلم مع مرحلة جديدة من حياتي. تخلَّصتُ من حقيبة مدرستي القديمة وصندوق ألعابي، وأُعطِيتُ حقيبة دراسية جديدة وحقيبة أخرى لحمل متعلقاتي. اشتريت دراجةً هوائيةً جديدةً، وقد امتلكت بدلتين وبنطالين تمزق أحدهما تمامًا بسبب كلبٍ كان يلوكها وهي على الكرسي، لحسن الحظ أنني لم أكن أرتديها في ذلك الوقت.

قضيت نهاية الأسبوع في ويندلشام مع آل كوجران، وشعرت أنني قد وصلت بالفعل لمرحلة الرجولة أخيرًا عندما عرض عليَّ الأدميرال سيكار بعد العشاء. وفي الثلاثاء برفقة متاعي الجديد، دراجتي الهوائية الجديدة وصندوق من خشب البلوط صنعته لنفسي في المدرسة، كنت جاهزًا للعيش في سويسرا.

ذهبَ الأقارب البعيدون مسبقًا بالفعل إلى منتجع صيفي جبلي يدعى شامبري، يستغرق الوصول إليه رحلة لحوالي ثلاث ساعات ونصف من سانت مورياس في وادي روني، وهناك انضممت لهما. قضيت صيفًا لطيفًا للغاية، تسلقت الجبال، لعبت التنس ومارست الرقص. مع نهاية أيلول/سبتمبر عدنا كلنا إلى لوزان وبدأت العمل في أوجي، وهي مدرسة نهارية للصبية الكبار يديرها بروفيسور ألماني يدعى دكتور كومور.

الانضباط في هذه المدرسة لم يكن موجودًا حيث لم يكن لدى البروفيسور سلطة على الصبية بأي شكل من الأشكال. العقاب الوحيد الذي كان بوسعه تطبيقه تمثل بإرسالهم إلى البيت وهو أمر لائم معظمهم. كان الطلاب مجموعة مختلفة من الشباب، كل واحد منهم يدرس في تخصص مختلف وهذا جعل التعليم المنتظم صعبًا للغاية. الأولاد في نفس الصف بالذات في مؤسسة مكتظة يتوجّب أن يكونوا ضمن مجموعة تشاركهم تخصصهم، وبذلك يتعلمون أكثر بكثير حيث بوسعهم النقاش والجدال بين ساعات العمل والمساعدة في تذليل الصُّعوباتِ التي تواجههم.

من بين الضروريات الأخرى التي جهَّزتها لنفسي قبل مغادرة إنكلترا هو دفتر فارغ للكتابة يحتوي على حوالي مئتي صفحة، نويتُ أن أجعله مفكرةً لي، وكنت بالفعل أكتب المذكرات بانتظام لا بأس به لحوالي سبعة أشهر. الدفتر في حد ذاته وثيقة مثيرة للاهتمام حيث تظهر جدية العاطفة والشعور التي يمكن أن تراود المراهق في حبه الشاب. حتَّى وقت قريب لم أكن قد نظرت أبدًا إلى الصفحات التي كتبتها في ذلك الوقت، وحين فعلت اندهشت ببساطتها وصدقها وقد ارتفعت فيها علائم بطولة كبيرة؛ وفي نفس الوقت كانت مزيجًا محيّرًا من الجهل واللامبالاة إلى حد متطرف.

كل هذا الحب كان صوب امرأة شابة التقيتها في درس للرقص، من نفس عمري تقريبًا وترتاد كلية سوبرير للفتيات الشابات في لوزان. أشادتْ بها معظم صفحات مذكراتي، لو أن

هناك بالفعل حبًا بلا مقابل لكان ذلك الحب. في الستة أشهر التي عرفتها فيها لم أقبلها حتَّى، مع هذا فذكراها حلوة الآن حتَّى بعد كل تلك السنوات. المأساة الكبيرة لحُبِّ الشَّاب(180) أنه مهما كان قويًا في نفس الشاب حتَّى لو بدا حُبًّا أبديًّا لا يضمحل، فهو يعلم بشكل تام أن هذا الحبَّ لا يمكن أن يمضي قُدُمًا، لأن طريقه في العالم طويل قبل أن يحلم بالزواج، وفي سن الثامنة عشرة قد يحلم الشاب بأي شيء إلا الزواج.

لا بد أنني كنت مزعجًا للغاية لتلك الفتاة المسكينة، وهي الأخرى لها مشاكلها حيث كانت تصبو حبًّا إلى رجل نبيل أكبر سنًا، لمْ يبادلها ذات المشاعر. حرَّرتها من عبء مطاردتي لها بعد ما عرفت أنها اعتادت على قراءة رسائلي إلى صديقاتها وسط ضحكاتهنَّ، لا ألومها الآن، فقد احتفظت بنسخة أو اثنتين منها، وبوسعي أن أرى سبب الضحك، لكن في ذلك الوقت كنت أظن أن رسائلي يمكن أن تقارن برسائل بيلار وهولواز(181) بل أفضل منها.

من المصادفات الغريبة أنني في الوقت الذي كنت أقاسي فيه هذه العاصفة العاطفية وأسجل مشاعري في قصائد بدائية للغاية؛ نُشِرَ كتاب أبي (من الأعماق) في إنكلترا. لم أعرف شيئًا عن ذلك، المرة الأولى التي رأيت فيها نسخةً من هذا العمل كان بعد تسعة شهور. وبعد أسبوعٍ من نشر العمل أخبرتني خالتي عن الحقيقة بخصوص والدي.

حتى سن الثامنة عشرة كلَّما حاولت التقرب من موضوع والدي وجدتُ عائلةَ والدي أو حتَّى أخي يغيرون الموضوع ولا يجيبون تساؤلي. لكن، في أحد الأيام، في لوزان بالغتُ في الإلحاح على خالتي، ولكونها امرأة بسيطة لم تحظَ بالكثير من التخطيط، أعطتني إجابةً كاملة. الخروج الكامل لهذه المعلومات لم يصدمني على الفور، شَعرتُ يومذاك براحةٍ عظيمة. التكتم الكبير لعائلة أمي خلال السنوات قد قادني لتخيل كلِّ أشكال الجرائم التي يمكن أن يكون والدي قد اقترفها. تبدَّى لي في خيالي مجرمًا أو محتالاً، وأحيانًا تخيلت أنه قد يكون ارتكب محرمًا بزواجه من أمي، وأنني وسيريل قد نكون ولدين غير شرعيين، في الحقيقة كان هذا الخوف الأكثر إلحاحًا علي. وعندما قلت إنني ارتحت فذلك لاكتشافي أننا لم نكن أطفالاً غير شرعيين آخر الأمر، وأنَّ ما فعله والدي لم يجلب الحزن لأيِّ شخصٍ سوى عائلته. كتبت في مذكراتي لذلك اليوم: «بعد الشاي جاءت خالتي نيلي إلى غرفتي وتحدثنا عن أبي. كانت مندهشة لقلة ما عرفته عن أبي وقد أخبرتني الحقيقة»، تلك هي إشارتي الوحيدة لأبي في كل مذكراتي.

بالتدريج اكتشفت أن خالتي، ويمكنُ القولُ إنَّها واسعة الأفق، نظرت لكل هذه السرية بخصوص والدي باعتبارها عبثًا، وقد أخبرت كل أصدقائها في لوزان عن هويتي. أخبرتني مرة أنها عن نفسها لا تفهم مغزى الضجة. في الحقيقة أعتقد أن الأخبار قد ترشحت ووصلت لصديق من أصدقائي، لأنه في إحدى رسائله لي كتب: «أيُّها الصبي المسكين، لا أعتقد أنك قد عشت حياة سعيدةً للغاية».

رحلتي إلى سويسرا انتهت نهاية مؤسفة. كانت هناك جالية إنكليزية معتبرة في لوزان في ذلك الوقت؛ كما وجد ناد إنكليزي مليء برجال الخدمة المتقاعدين الذين وجدوا سويسرا أرخص من إنكلترا، وفيه ناد لكرة القدم حيث لعبت أحيانًا، وهناك مقهيان اثنان على الأقل يسكنها بشكل خاص المقيمون والزوار الإنكليز والأمريكان. بالإضافة إلى عدد جيد من الصبية الإنكليز الذين يدرسون الفرنسية والألمانية في الجامعة، وفي نهاية الفصل عندما تكون شلة منهم على وشك الرجوع إلى إنكلترا تقام حفلات وداع. أنا عن نفسي لم أكن معتادًا على شرب الكحول، ونادرًا ما شربت أكثر من كاس من النبيذ في العشاء، وربما كأس من البيرة في بار أوتامتيكو في سانت فرانسوز. لكن في يوم ما من أبريل، في واحدة من هذه الحفلات، قدم أحدهم الويسكي. لم أشرب الويسكي من قبل أبدًا أو أي مشروب روحي من أي نوع، وكان لهذا تأثير متأخر علي، كنت متماسكًا للغاية ما دمت في غرفة دافئة لكن حين خرجت إلى الهواء البارد للعودة إلى المنزل حوالي العاشرة أنهرت واحتجت لمساعدة صديق. ليس تصرفًا مقبولاً للغاية، أعترف بذلك لكنه لا يوصف كخطيئة أخلاقية.

قبل ذلك بأيام تركت مفاتيحي في المنزل عندما ذهبت إلى معهد كومر في الصباح؛ وجدتها خالتي وعلى الفور توجّهت إلى صندوقي ومذكراتي؛ كانت تعرف بوجودها وكثيرًا ما طلبت إذني بالاطلاع عليها، وهو طلب بالتأكيد لم يكن ممكنًا الموافقة عليه. لسوء الحظ فقد حوت المذكرات ملاحظات عنها وعن مستواها التعليمي وذكائها، انتقمتْ لنفسها بحذف الملاحظات السيئة بالحبر على كل صفحة تقريبًا. وضحكت بشكلٍ لاذعٍ من أغاني الحب التي كتبتها. كان فعلها مقزِّزًا، وعندما اكتشفت ما حدث انفجرتُ بها غاضبًا وأخبرتها رأيي بها بالضبط.

أعتقد أنها كانت لا تزال حانقة مني بسبب ملاحظاتي، ورأت في هفوتي الكحولية فرصة من السماء لتنتقم مني، لذا كتبت رسالة طويلة إلى قريبتي ليزي في إنكلترا تتهمني فيها بالبطالة والكسل (حقيقة)، انعدام الأخلاق (كذب) والعصبية (صحيح فقط في تلك المرة). لم أرَ تلك الرسالة أبدًا لكنها مسَّت أشد مخاوف ليزي وأكثرها رعبًا التي يعتبر عقلها الفيكتوري حتَّى فقدان الأعصاب الخفيف جريمة تكاد تقارب القتل. حفظت رسالتها كمثال مذهل عن عقلية النساء الفيكتوريات الصالحات. الرسالة كالتالي:

«عزيزي ڤيڤيان،

أتساءل إن كنت تدرك كم أنا مصدومة ومحبطة بسبب التقرير الذي وردني من خالتك نيلي عما فعلته: لقد حُمِلتَ سكرانَ إلى المنزل، ليلةَ السبت، من قِبل بعض الرجال الذين التقطوك من الشارع.

(هناك فرق كبير بين مساعدة صديق بإيصالي إلى المنزل والوصف التالي الذي أُخِذَ حرفيًّا من رسالة خالتي بلا شك).

التفكير بسماع شيء كهذا عنك! ڤيڤيان، أنت الذي قَدم كل شيء لك، لأجل أن تقوم بالعمل الصائب، أنت الذي تعرف أن هناك من يحبك وأصدقاء يؤذيهم ما تفعل، أنت الذي حاولنا كل شيء لإصلاحك.

هل تدرك كم هو مُخزٍ ما اقترفته؟ أيُّ خطيئةٍ ارتكبتَها أمامَ الرَّب؟ فكِّر بتقاليد ستوني هيرست التي تعلَّمتها، فكِّر بالصَّلوات التي تلوتها في الكنيسة، ومع ذلك بعد ستة أو تسعة شهور من مغادرتك للآباء الطيبين؛ ها أنت ذا تُلتَقطُ من الشارع سكرانَ.

ڤيڤيان آملُ أن تنغمسَ في الأسى والندم على خطيئتك.

أنت بالتأكيد لا تريد أن تغوصَ في الوحل. مع هذا أنت تتأرجح بين الخطايا الآن. آه، يا ولدي العزيز، لو أنك اعترفت ولو لمرة في حياتك اعترافًا حقيقًا، فاذهب وقدِّم اعترافك الآن، هلا فعلت؟ هناك العفو، هناك أمل لك فقط لو كنت تبحث عنه، فقط لو كنت تكترث. ويعلم الله كم كنا قلقين عليك، كم سنكون سعداء وشاكرين لو أدرت ظهرك لكل ذلك وتركت رفقة السوء التي لا بد أنك قد سقطت فيها...».

تمضي الرِّسالةُ للقول إنني على ما يبدو لستُ أهلاً للثقة ما دمت وحدي وكل الأفكار عن ذهابي إلى ألمانيا يجب التخلِّي عنها وإنه يتوجّب عليَّ العودة إلى لندن وإنني سأوضع في مكان أكون فيه عرضة للانضباط الصارم.

عندما عدت إلى إنكلترا كنت بطبيعة الحال في حالة من الذعر، وزاد من محنتي ذلك الانطباع الذي بدأ على العائلة التي تمتلك حِسًّا مشوّهًا من التقاليد. قبل شهور قليلة فقط أعطتني قريبتي ليزي محاضرة طويلة عن التجديف لأنها سمعتني أقول «آه، يا رب»، ومخاوفي كانت مُبرَّرةً تمامًا. عُومِلْتُ كما لو كنتُ على وشك الانغماس في الخطيئة متى ما تُركت لنفسي، والخَزانة التي حُفِظتْ فيها المشروباتُ أُحكِمَ إغلاقُها بعد كلِّ وجبة. أخو ليزي، الجندي الذي أصبح الآن قائدًا في الجيش، صادف وجوده في المنزل في إجازةٍ من الهند، لذا أخبرته بما حدث بالضبط وتوسَّلتُ بهِ ليكلِّمهم عني بالحُسنى. هزَّ كتفيه وأجاب: «هذا هو المتوقع، عند النَّظر إلى طريقة تربية الفتيات قبلَ عشرين سنة. ما من فائدة لقولي أيَّ شيء، إما أن ليزي لن تتقبل كلامي، أو ستظنُّني سيئًا مثلك وتزيد من إحباطها أكثر. من سوء حظك أنك قد كُشفت».

الانهيار لهذه الرحلة السويسرية جعل الأوصياءَ عليَّ يقررون إلغاء جزء ألمانيا من البرنامج في الوقت الحالي، وإرسالي إلى كامبريدج مباشرة. أنا عن نفسي أردت الذهاب إلى أكسفورد لأن والدي درس هناك لكن ذلك لم يكن مسموحًا لهذا السبب بالتحديد. لكن هناك صعوبة لم يروها من قبلُ نشأتِ الآنَ، وهي قبل بدء الدراسة الجادة في أي جامعة يجب على المرء اجتياز الامتحان التمهيدي في كامبريدج (أو امتحان الاستجابات في أكسفورد) وإلاَّ سيُرفَضُ، وكانتِ اليونانيةُ مادة إجبارية. لو أن شهادتي الأخيرة تحوي اليونانية

كموضوع دراسة لأعفِيتُ من دخول الامتحان. لذا توجَّب عليَّ أداء الامتحان كاملاً وتعلّم اليونانية من جديد.

لحُسن الحظ لم يكن الفصل الصيفي في كامبريدج قد بدأ بعد، وأنا بطبيعة الحال لم أكن لألتحق بالجامعة قبل العطلة الطويلة(182)، أعطاني هذا كل الفصل الصيفي للتجهز للامتحان في حزيران/ يونيو لذا أُرسِلتُ إلى كامبريدج للتجهز للامتحان برفقة جوشوا كودلاند الذي عشت معه في شارع ترينتي. كرهتُ هذا جدًّا، واعتبرته تخلِّيًا مَرةً أخرى، كما لو أُلقِيَ بي للأُسودِ.

كان كودلاند يكبرني بحوالي اثني عشر عامًا. وهو رجل ودود للغاية، أصبح فيما بعد واحدًا من أعز أصدقائي، لكن في ذلك الوقت قاومت كل ما بذله من جهد لبدء صداقة بيننا. لم أكن بعد عضوًا في الجامعة ولم أعرف أحدًا هناك بينما أخذ هو شهادته في القانون السنة الماضية منها وله معرفة بعدد كبير من الأشخاص. شعرت أنني أعيقه عن ممارسة حياته، وحاولت الابتعاد عنه قدر الإمكان. عملت بجهد ولم أشرب ولم أدخن أبدًا ولم أتكلم كثيرًا حتى. قضيت معظم وقتي عندما لا أكون في الدروس أو في التمرين على اليونانية أقرأ كتاب أدلة المسيحية لبيلي(183) في غرفتي. في أحد الأيام عندما استمر ذلك لأسبوعين استدرجني كودلاند للحديث عن الموضوع بعد العشاء. وأخبرته بصراحة أنني أعرف أنني كنت عقبة في خططه اليومية، وارتأيت أن أبتعد عن طريقه على قدر المستطاع، قال لي في حينها:

«انظر لا بد أن يكون هناك خطأ في مكان ما؛ عندما رأيت الوصي عليك أول مرة أخبرني أنك حالة صعبة للغاية، وأنك سكير، ولك رفقة سوء. مع ذلك فأنت تعمل بجد للغاية، ترفض حتَّى شرب كأس من الجعة، وبعيد للغاية عن رفاق السوء، لا يبدو أنك تتحدث لأي شخص على الإطلاق».

كان هذا متوقعًا من «العائلة» الجذلة لإيجاد خطأ في سلوكي ليثبتوا لأنفسهم أنني فاسد كليًا.

كم كنت متحمِّسًا لاجتياز الامتحان حتَّى بالغت في القراءة لدرجة حصولي على أعلى مرتبة في الجزء الأول الذي يتضمن اختبار اللُّغة اليونانية، وحصلت على المرتبة الثانية في الجزء الثاني من الامتحان، وقد كان جهدًا ضائعًا، فلم يكن مطلوبًا مني سوى النجاح في الامتحان فقط، وكان بوسعي قضاء وقت أكثر في لعب التنس الذي كنتُ شغوفًا به في تلك الفترة.

أوسكار وايلد

صورة في نابولي بعد إطلاق سراحه من السِّجن

عندما حلَّت العطلة الطويلة صارت مشكلةُ التخلُّص مني ملحةً مرةً أخرى. كان كودلاند ذاهبًا إلى إسكندنافيا مع صديقه المقرب بيتر والس؛ وهو زميله في ترينتي. عرض أخذي معهما، وقبِل الوصيُّ بذلك وسَمحتْ لي المحكمةُ بالسفر من إنكلترا إلى النرويج والدنمارك والسويد.

في حقيقة الأمر غيَّرنا فكرنا في آخر لحظة وذهبنا إلى ريجا(184) بدلاً عن ذلك على متن سفينة شحن روسية عبر قناة كيل(185)، من ريجا ذهبنا إلى سانت بطرسبورغ حيث ركبنا سفينة بخارية إلى ستوكهولم. في النهاية وصلنا إلى قرية صغيرة تدعى بايدلين حوالي ثلاثمئة ميل شمال غرب ستوكهولم حيث بقينا لحوالي شهر قبل الرجوع إلى إنكلترا. كان عليَّ أن أتحفظ عن ذكر الذهاب الى روسيا لأنَّ البلد في وضع غير مستقر

للغاية بعد المذبحة أمام قصر الشمال(186) في سانت بطرسبورغ، والمحكمة لم تكن لتمنحني أذنًا للذهاب إلى هناك.

ولكوني دخلت كطالب جامعي في ترينتي هال فقد قضيت باقي العطلة الطويلة في سيفورد(187) مع كودلاند ومحامٍ آخر. وهناك تعلمت لعب الغولف للأسف، هذا الإدمان الذي لم أتمكن من التعافي منه.

ترينتي هال مختصَّةٌ بالقانون، وقد مدَّت البلدَ بعددٍ من أمهرِ محاميه. لذا فُرضت عليَّ قراءة القانون، وهكذا مرة أخرى تغيرت حياتي بالكامل. لم يتوجَّب عليَّ بدء حياة جديدة كليًا بدراسة القانون فحسب، ولكن ترينتي هال اشتُهرت كذلك بالتجديف، وممارسة الرياضة أمر إجباريَّ تقريبًا لطلاب في الدراسات الأولية. كان الأمر يعتبر تقريبًا خيانة لو فضل الطالب رياضة أخرى، ورغم وجود معجبين بالكريكت وكرة القدم فقد نُظِرَ إليهم بلا إعجاب بل وحتَّى بتشكك كبير.

فاز فريق قوارب ترينتي هال بالمركز الأول في سنتي الأولى وحافظ على موقعه خلال كل الوقت الذي قضيته في كامبريدج، ولا أعتقد أن الكلية قد حصدت مركزًا أدنى من المركز الرابع لحوالي أربعين سنة. في سنتي الخامسة حصدنا خمسة أوسمة زرقاء في التجديف.

عندما أقول إن حياتي مرة أخرى تغيّرت للأبد فأنا لا أشتكي. أنا لا أحسد أي شخص قضى تعليمه كله من الدراسة الأولية حتَّى التخرج وهو يدرس في نطاق واحد ضيق؛ يبدأ بتعلم اللاتينية في عمر السابعة واليونانية بعد ذلك بقليل، وبعد اثنتي عشرة سنة تجده لا يزال يدرس هاتين اللغتين في محاولة الحصول على شهادة جامعية. الأمر مماثل في اللعب، سيلعب الكريكت أو كرة القدم أو يجذف في المدرسة، وسيفعل الشيء ذاته في الكلية. ستكون صدمته كبيرة حين ينتهي كل هذا.

حياتي في كامبريدج كانت بلا أحداث؛ حاولت أن أكون مثلي مثل أي طالب آخر على قدر المستطاع أرتدي نفس ملابسهم، أتحدث نفس لغتهم العامية، وأرتاد معهم نفس الأماكن. كونت عددًا من الصداقات الجديدة وأصبحت عضوًا في نادي بت، النادي الاجتماعي الوحيد في كامبريدج الذي يستحق الانتماء إليه، ومثل العديد من الطلاب الآخرين قبلي وبعدي استفدت فائدة عظيمة من حريتي الجديدة.

نشأت لدينا كلنا فكرةٌ مبالغ فيها عن مدى أهميتنا، ترجمنا كلمة «جامعة» بكونها مركز العالم الذي يدور حوله كلُّ شيء. الأوصاف المعطاة في الصحافة عن أحداث مثل سباق القوارب في أكسفورد وكامبريدج عزز ذلك الوهم؛ خلال سنتي الأولى صارَ رئيس فريق القوارب موضوعًا للكاريكتير في جريدة (فانتي فير)، وهو شرف محفوظ لأكثر الرجال أهمية في بريطانيا العظمى. لقد اعتقدنا بصدق أن حياة المرء تنتهي عندما تنتهي الكلية لتبدأ جولة

منهكة من العمل الطاحن للحفاظ على الجسد والروح، واعتقدنا أنه في سن الأربعين يجب أن يموت كل الرجال.

أتذكر قول أحدهم في لندن إن رقصة فالس بوسطن أصبح موضة عتيقة وتراجع بوجود رقصات أخرى. بدون تردد شهقت بقوة وقلت: «أوه، لا! أنت مخطئ تمامًا في ذلك. في كامبريدج لا يزال فالس بوسطن متسيدًا». أفترض أن ذلك جزءًا من عدم تسامح الشباب وعلامة على الشغف الصحي. أحيانًا تساءلنا كيف يستمتع الناس بحياتهم في العالم الخارجي بينما نحن أسياد الإبداع الحقيقي ندرس في جامعاتنا. بعد وقت قليل من وصولي هناك رأيت للمرة الأولى نسخة من (أنشودة زنزانة ريدنك) على رف كتب صديق تعرفت عليه حديثًا، وقبل ذلك الوقت لم أعرف بوجود هذا الكتاب. يبدو غريبًا أن خالتي نيلي لم تذكره لي في سويسرا، لكن من المرجح جدًا أنها لم تسمع به كذلك. طلبتُ استعارته وأخذته لأقرأه.

تعليمي الأدبي حتَّى تلك الفترة كان في حالة غريبة؛ لم يبذل أي أحد جهدًا لتوجيهي في اختياراتي للقراءة، ومعرفتي بالشِّعر اقتصرتْ على أعمال مثل (أطلال روما القديمة) و(اصطياد سنارك)، و(أنشودة باب)، وشيء صغير من سوينبرن وبرهام(188). من ناحية أخرى كان لي معرفة لا بأس بها بفرلان، بودلير ومالارميه(189) لذا أثَّرَ بي هذا الكتابُ، تأثيرًا بالغًا.

شعوري الأول أنه ذكرني بقصيدة حلم يوجين آرام(190) واعتقدت أنها مروعة للغاية. ثم عدت مجدَّدًا لقراءة العمل؛ ببطء تسلل إليّ جمال وقوة القصيدة وشعرت بإلحاح عظيم لقراءة المزيد من كتابات أبي. حتَّى ذلك الوقت فإن الكتاب الوحيد الذي أتذكره له هو (الأمير السعيد)، فقد رأيته عند عائلة أمي مع اسم أوسكار وايلد مَشطوبًا.

أعدت الكتاب إلى مالكِه وذهبتُ إلى مكتبة الجامعة لأجد ما يمكن العثور عليه، ورغم الكثير من المدخلات التي تحمل اسم وايلد لكنها كانت مفقودة بمجملها عدا نسخة متضررة للغاية من كتاب (النوايا) الذي أدهشني بجمال كلماته ووقعها الموسيقي. أحببت بالذات مقالة تحلل الكذب، قرأتُها مرة تلوَ أُخرى. في الكتاب وجدت اسمي واسم أخي ليقرأهم الجميع، وبدأت أشعر بالقلق خوفًا من أن يعثر عليَّ أحدُهم وأنا اقرأ هذا الكتاب ليكتشف الصلة بيننا بطريقة ما.

باتَ من الصَّعب للغاية الحصول على كتاب لأوسكار وايلد في ذلك الوقت، النسخة الأولى لأعماله الكاملة لم تظهر بعد، وما من نسخة مرخصة من أي عمل له نشرت منذ سنوات. حتَّى النسخ التي قد تعثر عليها أحيانًا في متاجر الكتب المستعملة كانت في الغالب سيئة الطباعة وكثيرة الأخطاء. كتبتُ لأخي أخبره عما اكتشفته، ورد عليّ بإرسال نسخة من كتاب (من الأعماق) الذي قرأته في عيد ميلادي التاسع عشر.

صدرَ (من الأعماق) للمرة الأولى عام ١٩٠٥ بأجزاء مقتطفة من رسالة طويلة كتبها أبي في زنزانة ريدنك إلى ألفريد دوغلاس ليظهر له دوره في المأساة. الرسالة الكاملة لم تكن نشرت بعدُ، ولأسباب تتعلق بالرسالة نفسها لم يكن ممكنًا نشرها في حياة دوغلاس. تلك النسخة عبارة عن مقاطع مقتطعة من مواقع مختلفة من الرسالة، وعندما قرأتها للمرة الأولى صدمتني بكونها مصطنعة قليلاً. ظننت أن تحت جمال اللغة بوسعي تشخيص تأثير الحدث حتَّى وإن بدت كما لو أنها كتبت لأسلوبها الفني وليست انطباعًا صادقًا من رجل يشعر بالمرارة. بعد سنتين من ذلك حين التقيت بروبرت روس وأراني النسخة الكاملة بدأت أقدر قيمتها الحقيقية وفهمت كم هي عمل مذهل. أعتقد أنه كان من الخطأ نشر النسخة المختصرة منها عام ١٩٠٥ بدل انتظار السنوات لتغطي على القصة.

بحلول ذلك الوقت صارَ رفاقي الطلاب يظهرون فضولاً لمعرفتي. من هو أبي؟ ماذا صنعَ في حياته؟ لماذا ذهبتُ إلى المدرسة في موناكو؟ صَعُبَ عليَّ جوابُ هذه الأسئلة، خصوصًا بعد أن نسيت نفسي وأنا أجيب دون أن أنتبه على السُّؤال الأول:

- لقد كان كاتبًا.

- ماذا كتب؟

- مجرد كتب.

- لكن ما هي تلك الكتب؟

- ليست ذا بالٍ، من المؤكد أنكم لم تسمعوا بها.

وأعدت تدوير قصة المستكشف وقلت إنه كتب كتبًا جامعية في عِلم الأعراق والأناسة، ولم تكن كتبًا جيدةً للغاية على أي حال.

لم تتصوّر العائلةُ نتائج الخداع الذي أجبروني على ممارسته، ولم يشككوا بكم ما نسجته من طبقات من الأكاذيب لدعم هذا الخداع. أعتقد أن كلَّ رؤساء الكلية علموا بهُويتي، ولا بد أن أساتذتي في الكلية عرفوا بها كذلك، لكن رغم أن العديدين عرفوا السر لم أكن على دراية بذلك مما وضعني في موقف غريب.

بقيت في كامبريدج لوقت طويل من العطلة الصيفية أدرس القانون الذي بدأت أمقته بشكل كبير، وفي الجزء الأخير منها ذهبت إلى باباكومب للبقاء مع الابنة المتبناة لليدي ماونت تمبل، جوليت، التي ورثت المنزل. وهناك للمرة الأولى في حياتي التقيت بنساء وفتيات من عمري على قدم المساواة. وأنا هنا لا أعد حياتي في لوزان بضمنها حيث كانت هناك رفيقة أنثى واحدة، ولقائي بها مقتصر على دروس الرقص مرتين في الأسبوع،

وحفلات الشاي أحيانًا والرقصات الخاصة. ولا أعد اللقاءات الثابتة أكثر والرسمية في أسبوع أيَّار مع الفتيات من عائلات أصدقائي الطلاب، فلطالما رافق تلك اللقاءات خجل معين وغرابة. كانت تجربة غريبة أن أكون قادرًا على الذهاب إليهن متى أشاء، والاتصال بهن كل الوقت، لعب الغولف معهن والذهاب في رحلات عبر البر في سيارة مبكرة لها هيكل يشبه هياكل العربات الصغيرة التي تجرُّها الخيول مع مدخل واحد عبر باب صغير في المؤخرة. بالطبع وقعت في حب معظم الفتيات لكنني كنت أصبح أكثر مناعة مع كل هجوم. كنت أكبر بسرعة وأصبحت شخصًا مختلفًا تمامًا عن الشاب الغِرِّ ذي الثمانية عشر عامًا؛ قبل أشهُرٍ في لوزان.

في فصل الميكائيلية عام ١٩٠٦ وصل رونالد فيبرانك كطالب دراسات أولية في ترينتي هال. ما من كلية في الجامعة ما عدا ربما بيمبورك أسوء من ترينتي هال لشخصيته وطبعه. لم يكن مناسبًا للعب أي لعبة ولا أعتقد أنه أبدًا قد بذل أي جهد كبير. لم أعرف أبدًا ما كان يقرأه ولا بد أنَّه قرأ كتابًا أو اثنين وإلاَّ لما سُمحَ له بالبقاء هناك(191). خلق وصوله مشاعرَ عظيمةً حيث شاعَ أنه لم يكن مؤلِّفًا فحسب بل أن له كتابًا منشورًا بالفعل! العديد منا ممن لهم طموح أدبي سرعان ما وضعوا أعينهم عليه، أصبحنا -أنا وهو - أصدقاء بسرعة.
أعطاني نسخة من كتابه المنشور، يحتوي قصتين: «أوديت» و«دراسة في الطباع»، نُشرَ في عام ١٩٠٥ من قبل كيلين ماثيوز، وعلى الغلاف كتب سعر الكتاب «فلورين واحد». مثل أبي في دراسته الأولية لم يكن رونالد قد بسط اسمه بعد، وظهر اسمه الكامل على غلاف الكتاب: آرثر إنيزلي رونالد فيبرانك. أول قصتين أُعِيدَ نشرهما في العام ١٩١٦ مع حذف بعض أخطاء المراهقة من هذه النسخة، واختُصِرَ عنوانُ الكتاب إلى (أوديت) وكذلك اسم الكاتب ليكون: رونالد فيبرانك، بل حتَّى سعر الكتاب قلَّ ليصبحَ شلنًا واحدًا.

في وقت وصول فيبرانك كنتُ مُحرِّرًا لمجلة الكلية المسماة (كريسنت)(192)، وقد سميت بذلك تيمنًا بالهلال الذي يظهر في مركز شِعار الكلية. كانت المجلة تصدر في نهاية كل فصل دراسي ولم تكن مشهورة للغاية، كرست بشكل كبير لتسجيل أخبار النشاطات الرياضية لأعضاء الكلية. أرسل لي رونالد مشاركة، للأسف فإنَّ أسلوبَه في الكتابة يصعب تقبله على طلاب الدراسات الأولية، وقد كانوا في تلك الفترة شلة من السكارى المحبين للشتائم والتجديف بالقوارب، وعندما قدم فيبرناك نصًا فانتازيًّا حقيقيًّا للمجلة توجَّبَ عليَّ رفضه. أتمنَّى لو أنني احتفظت بنسخة على الأقل حيث لا أظن أنها قد نشرت أبدًا.

مع نهاية فصل الصيف عام ١٩٠٧، بعد سنتين في كامبريدج، شعرت أنني ما دمت ذاهبًا إلى الخدمة في المكاتب القنصلية في الشرق الأقصى كما تريد لي عائلتي فقد كنت حقًا أهدر وقتي في دراسة القانون. كنت في خطر أن أنسى كل المواضيع التي يجب أن أنجح فيها لأجتاز امتحان المكتب الأجنبي.

إلى جانب ذلك دراسة القانون بالذات فلسفة التَّشريع تطلّبتْ مني جهدًا كبيرًا، وجدت من الصَّعب عليَّ حفظ واستذكار ما تعلمته حيث ينمحي من ذهني رغمًا عني كلُّ ما قرأته بمجرد أن أضع كتبي جانبًا. القانون الجنائي، قانون الأضرار وقانون الأدلة كانت في الحقيقة مواضيع مثيرة لكنها كانت إلى حد ما قليلة الأهمية في نظر الأساتذة والفاحصين مقابل نصوص دستور جستنيان وغاويس(193) والقانون الدستوري وقانون الملكية العقارية والنظم، وكل هراء المرافعات والمحاكم، التي لم أتمكن من حفظها إلاَّ بالترديد دون فهم مثل الببغاء.

لي عقلٌ منطقي، وقد بدا لي أنه بشفرة صحيحة يمكن حذف تسعة أعشار قانون العمل للمحاكم المدنية. في التخصصات الأخرى ربما يرتكبُ الرجال في قمة ذلك التخصص بعض الأخطاء أحيانًا؛ ربما يشخص الطبيب مرضًا بشكل خاطئ وقد تنزلق شفرة الجراح، وقد يكون بوسع شخص ما الذهاب إلى روما أو أي مكان آخر، وتبقى لحرفتهم أهمية هناك لكن في كل قضية للمحاكم المدنية يجب أن يخسر أحد الطرفين، مما يعني نصف المستشارين الموكلين يجب أن يكونوا على خطأ مهما كانوا متفوقين؛ وفي القضايا المهمة التي تذهب لمحكمة الاستئناف ومنزل اللوردات نسبة كبيرة من القضاة يتوجّب أن يكونوا على خطأ أيضًا.

لذا بعد أسبوع آخر من أيَّار/مايو قلت وداعًا لترينتي هال ولأصدقائي هناك. يبدو لي غريبًا الآن أن في كل الوقت في ستوني هيرست وكامبريدج أصدقائي المقربين مثل جوشوا كودلاند، جيرالد سليغمان ورونالد فيربانك، لم يعلموا بهويتي. لكن قبل أن أذهب أخبرت واحدًا أو اثنين منهم. عندما أخبرت صديقي القريب جوشوا كودلاند، قال: «لطالما شعرت أن هناك أمرًا غامضًا يخصك، والآن بت أعرف سر هذا الشعور. لكن هل ذلك مهم فعلاً؟ لقد كان والدك كاتبًا عظيمًا». وقد سرتني مقولته تلك أكثر من أي شيء آخر.

خلال ذلك الصيف بدأت أدرك أن الكل على ما يبدو على علم بهويتي. ومع ذلك عندما أخبرت العائلة بالأمر رفضوا تصديقي وقالوا إنَّ جولييت ماونت تامبل هي الشخص الوحيد الذي ربما يعلم بالأمر، ويستحيلُ أن تنبسَ ببنت شفة. كانت جولييت امرأة ثرثارةً لم تكلف نفسها عناء المكر والتخطيط، وعدمُ الحديث في مثل هذه الحالات، مخالفٌ لطبيعتها تمام الاختلاف. مع هذا احتفظت العائلة بالصمت غاضبين على ما أظن لرؤية أن كل جهودهم قد ذهبت سدى.

بعد عطلة الصيف عدت إلى لندن ووجدت غرفتين في (بوابة الإمبراطور)، في كينغستون، بالطابقِ العلوي لمنزل فيكتوري صغير. كانت الغرفة على الأغلب للخدم في عصر حيث راحة وصحة العاملين أمر لا تفكر به سيدة المنزل التقليدية. وهناك شهدت عيد ميلادي الحادي والعشرين.

الفصل السابع

(180) في الأصل عن الفرنسية (Jeunes Amour).

(181) أشهرُ رسائلِ الحُبِّ في القرون الوسطى، هي رسائل الراهبة (إلواز) والفيلسوف الفرنسي الأشهر في القرن الثاني عشر القس (بيار بيلار)، ولهما في الحبُّ قصَّةٌ مأساويةٌ، لا تزال مضربًا للأمثالِ.

(182) في لندن الفيكتورية كانتْ هناك عطلةٌ سنويةٌ من العاشر من آب/ أغسطس وحتى الرابع والعشرين من تِشرين الأول/ أكتوبر.

(183) هو عالم اللاهوت الإنكليزي، ويليام بيلي (١٧٤٣-١٨٠٥)، اشتُهر بكتبه الجَدلية لإثباتِ وجود الله، وإثبات أدلَّة المسيحية. وهو صاحبُ التَّشبيه الشَّهير (صانعُ السَّاعات) في الإشارة إلى التصميم الذكي للكون، وهو ما سيسخر منه ريتشارد دوكينز، بعد سنواتٍ طويلةٍ، عند إصداره كتاب (صانعُ السَّاعات الأعمى).

(184) عاصمةُ لاتفيا.

(185) قناةٌ نهريةٌ في ألمانيا.

(186) تُعرف تلك الحادثةُ بيومِ الأحد الدَّامي، حدثتْ في الثاني عشر من كانون الثاني/ يناير ١٩٠٥، عندما أطلقَ جنود الحرس الإمبراطوري النَّار على متظاهرين غير مسلحين بقيادة الأب جورجي جابون؛ أثناء توجُّههم نحو قصر الشتاء في سانت بطرسبرغ، وهو القصر المخصَّص لسكن قياصرة روسيا وقتذاك. أثَّرتْ هذهِ الحادثة في روسيا بشكل عام، وكانت البداية لعدة ثورات وأول جذوة لثورة ١٩١٧ البلشفية التي ألغتْ الحكم القيصريَّ في روسيا، لتبدأ الحقبة السُّوفيتية.

(187) مدينةٌ ساحليةٌ في إنكلترا.

(188) (أطلالُ روما القديمة) مجموعةٌ من الشعر السردي، بعضُها مستمد من التاريخ القديم، وهي من تأليف ثوماس ماكولي. ذكرنا في هامش سابق (اصطياد سنارك) للويس كارول. أمَّا (أنشودة باب) فهي مجموعة من القصائد الخفيفة السَّاخرة المزودة مصحوبةً برسومٍ كاريكاتورية للسير ويليام جيلبرت. وقد ذكرنا سيونبرن في طائفة زوار كونستانس وايلد. أما برهام فهو ريتشارد هاريس برهام، شاعرٌ وروائي وقسٌّ بريطانيٌّ.

(189) بول فرلان (١٨٤٤-١٨٩٦) أشهر الشعراء الفرنسيين في عصرهِ، اُختيرَ من قبل أقرانه بوصفه (أمير الشِّعر في فرنسا). عاشَ علاقة حبٍّ عاصفة مع آرثر رامبو الذي شجَّعه فرلان

على القدوم إلى باريس، وافترقا بعد سنتين من ذلك إثر دخول فرلان السِّجن نتيجة حادث إطلاق نار. أما الشاعر الفرنسي الآخر شارل بودلير (١٨٢١-١٨٧٦) صاحبُ قصيدة النثر، فهو أشهرُ من أن يُعرَّفَ به. وكذلك الأمر بالنسبة لمواطنه ستيفان مالارميه (١٨٤٢ - ١٨٩٨) الشَّاعر الرمزي والناقد الذي ألهمتْ أعماله الكثير من الحركات الفنية الكبرى في القرن العشرين مثل التكعيبية والدادائية والسريالية.

(190) قصيدةُ (حلم يوجين آرام) للشاعر الإنكليزي توماس هوود، وهي قصيدة عن حكاية عالم اللُّغوياتِ البريطانيِّ يوجين آرام (١٧٠٤-١٧٥٩)، الذي اتُّهم بقتل صانع أحذيةٍ محليٍّ يُدعى دانيال كلارك بسبب افتراض وجود علاقة غير شرعية بينه وبين زوجة يوجين، وقد أُعدِمَ شنقًا نتيجة لذلك، لتنتهيَ حياة هذا العقل المتميز الذي علَّم نفسه بنفسهِ العديدَ من اللُّغات منها العَربية والسِّريانية والعِبرية وكان أول من صنَّفَ اللُّغات السِّلتية.

(191) كتبت بالفعل استذكارًا لرونالد فيبرانك في كامبريدج، في كتاب رونالد فيبرانك (ذكريات إيفان كيرلي فليتشر) مع استذكاراتٍ شخصية من لورد بيرنرز وڤايڤيان هولاند وأوغسطس جون وأوسبيرت سيتويل، مطبعة دكورث ١٩٣٠ [هامش الأصل].

(192) Crescent وتعني (هلال).

(193) نسبةً إلى الإمبراطور البيزنطي جستنيان الأول (٥٢٧-٥٦٥ ميلادية)، الذي أنشأ دستوره بناءً على أعمال القاضي الرُّوماني غاويس (١٣٠-١٨٠ ميلادية)، وكانت موادُّ هذا الدستور تُدرَّسُ لطلبةِ القانون.

سنواتٌ سعيدةٌ قادمةٌ

رغم أجواء المسكن الرثة، نوعًا ما، فقد عثرتُ على نفسي في ذلك المكان وكنت في قمة السعادة هناك. للمرة الأولى منذ سنوات شعرت أنني حر تمامًا من قيود الوصاية دون وجود من يراقب تحركاتي ذهابًا وإيابًا.

رُتِّبَ ذهابي، للضرورةِ، إلى مدرسة سكونس وهي المكان الأكثر أهمية واحتشادًا من بين كل أماكن التجهيز لامتحان القنصليات الخارجية. تقع المدرسة في شارع غاريك، تكاد تكون مقابلة لنادي غاريك(194)، وأكثر من نصف المؤهلين للعمل في المكاتب الخارجية مروا عبرها في وقت ما. أساتذتها لهم غريزة طبيعية لمعرفة ما يوجد في رؤوس الفاحصين، وقد تمكنوا من جعل طلابهم يقرأون الكتب المناسبة للامتحان ويتعلمون الحقائق الفلسفية الغريبة التي سيسألون عنها باستمرار.

ذهبتُ إلى سكونس في نحو النصف من تموز/يوليو، وعلى الفور شعرت بكوني خارج بيئتي؛ كل الطلبة تقريبًا كانوا قد قضوا السنتين الماضيتين خارج البلاد على الأكثر في جامعات فرنسا وألمانيا، وسرعان ما اكتشفت أنني قد نسيت نصف اللغة الألمانية خلال تلك السنتين وأن لغتي الفرنسية رغم كونها طلِقة جدًا فهي في أغلبها حوارات يومية، ولا تفيد سوى القليل في الامتحان، ولجعل الأمر أسوء توجّب عليَّ دراسة موضوع جديد كليًا وهو الاقتصاد السياسي.

لو أنَّ القانون قد بدا لي غير منطقي فإن الاقتصاد السياسي كان ببساطة بلا معنى. حيث إن نصف خبراء القانون قد يكونون على خطأ، أما في الاقتصاد السياسي فلا يبدو أن هناك أي شخص على صواب أبدًا. لكل سلطة نظريات مختلفة ومتناقضة وكنت غارقًا تمامًا بكل ذلك. عزائي الوحيد إنَّني لن أُنْفَى إلى الشَّرق الأقصى إذا ما فشلتُ باجتياز الامتحان، لكنني كنتُ أعي جيدًا حقيقةَ ضياع الوقت، وقد بدأتُ بالفعل ألتفت بحثًا عن وظائف بديلةٍ. بعد أيام قليلة من وصولي إلى سكونس عقدتُ صداقةً مع السير كوليردج كينارد الذي أوشك على الدخول في الخدمة الدبلوماسية. بعد أسبوع أخبرني أنه عارف بهُويتي وأن والدته السيدة هيلين كاريو التي تعيش في هانز بليس متحمسةٌ للقائي؛ وهي صديقة لأبي وتكنُّ لذكراهُ مودةً عميقة. لذلك في تلك الأمسية بعد دراستنا عدت إلى منزلهم برفقة كينارد وبقيتُ على العشاء. حدثتني السيدة كاريو عن أبي وقالت كم وجدته رجلاً مذهلاً. هزّني ذلك للغاية، وباستثناء ملاحظة كودلاند عندما أخبرته عن هويتي كانت تلك المرة الأولى التي أسمع أي أحد يتحدث عن والدي بتقدير منذ غادرت إنكلترا قبل اثني عشر عامًا. سماع الحديث عنه كفنانٍ ورجل أدبٍ مميزٍ أحرجني نوعًا ما، وقد حسدوني على كونه أبي بدلاً من الشفقة علي.

السيدة كاريو آرتني نسخًا من كتب أبي، وقد خطَّ عليها إهداءه لها، وفيها رأيت -حسبما أتذكر- خط يده للمرة الأولى، لا بد أنني رأيتُ خط يده كثيرًا من قبلُ لكنني نسيته.

نحو نهاية الأمسية طرحت السيدة كاريو موضوع روبرت روس، هل أعترض على لقائه؟ حيث يرغب بلقائي كذلك، وأخي أيضًا إن أمكن؟ وعندما اكتشفت أن لا فكرة عندي عن الشخص الذي تتحدث عنه، لم تكد تصدقني، وأعطتني سيرة مختصرة عما قد فعله لأبي خلال السنوات الست الماضية. شرحت لها كل ظروف نشأتي، أعتقد أنها قد توقعت أن دماغي لا بد قد سمم ضد أصدقاء أبي، وارتاحت لمعرفة أنني متحمس جدًا للقاء أي واحد منهم.

أهدى روبرت روس النسخة المختصرة من كتاب (من الأعماق) الذي نشره في العام ١٩٠٥ إلى السيدة كاريو، وهي التي وفرت ألفي جنيه لشراء المدفن في بيري لاشيس الذي نقل إليه جثمان أبي، ودفعت لابستاين ثمن النصب الذي يحيط به الآن.

في الأسبوع التالي تناولتُ العشاء مع السيدة كاريو مجدَّدًا، وهناك التقيت بروبرت روس، ماكس بيربوهام، وريجنالد ترنر، الذين كانوا أصدقاء أوسكار وايلد المقربين. كان لقاءً عاطفيًّا للغاية؛ منذ اللحظة التي التقيت فيها روبرت روس عرفت أنني قد وجدت صديقًا حقيقيًا لي، صديقًا مخلصًا وحقيقيًا لن يخونني أبدًا. وهذا الانطباع بقي ملازمًا لي حتَّى وفاة روبرت روس بعد أحد عشر عامًا بالضبط.

وجدتُ روبرت روس مختلفًا للغاية عمَّا توقعته؛ تخيلته في ذهني رجلاً طويلاً كئيبًا، حليق الذقن مع مسحة من شعر رمادي وربطة عنق منسدلة أشبه بصورة الشاعر ييتس، في حقيقة الأمر تبين أنه رجل قصير وأنيق بشارب مشذب، وقد حرمته متاعب حياته الكثير من شعره لكن كان عنده مكر، وله منظر صبياني تقريبًا جذبني على الفور، وضحكته المعدية تصدر منه بعفوية تامة.

أعتقد أنني حين ذهبت للمرة الأولى إلى سكونس كنت قد وصلت إلى القاع بعد فترة دراسية ناجحة إلى حد معقول، كنت قد تكاسلت في لوزان وتكاسلت قليلاً في كامبريدج ما عدا في اجتياز امتحان العبور، وكنت أواجه امتحانًا تنافسيًّا للغاية، كنتُ أعرف أنه أكبر من طاقتي حتَّى قبل دخوله. احتجت على الأقل لستة شهور في ألمانيا وثلاثة في فرنسا، ناهيك بالاقتصاد السياسي والمواضيع الأخرى التي يتوجّب دراستها، وامتحاني سيحدث في حزيران/ يونيو السنة التالية في أقل من تسعة شهور. وكنت أعيش في غرفتين مظلمتين في قمة منزل في كنجستون، وكانت وجباتي هناك تُحمَل في صينية بينما أجهد في دراسة الاقتصاد السياسي. ثم فجأة مع دخول السيدة كاريو إلى حياتي وجدت نفسي في غضون أيام لم أعد وحيدًا بلا أصدقاء، مخلوقًا خائفًا مثلما كنت لسنوات عدة، لكن في وسط العالم الفني والأدبي في لندن مصحوبًا بمن يرجون لي الخير.

بدأ روبرت روس ينتقل معي ويأخذني لرؤية أصدقاء والدي القدماء، وبدأت أتعرف شيئًا فشيئًا عن أوسكار وايلد وسحره. زرنا أول الأمر الآنسة أديلا شوستر، التي أشار إليها والدي في رسائله باسم «اللَّيدي ويمبلدون» وهي التي أعطته ألف جنيه لتمكينه من دفع تكاليف المحامي في محكمة أولد بيلي، وقد ساعدته مجدَّدًا عند إطلاق سراحه. أذكى ذلكَ اللقاء بعض ذكريات الطفولة لأنَّني بمجرَّد أنْ رأيتُ عشبَ حديقةِ المنزل منحدرًا نحو البحيرة الاصطناعية، تذكَّرتُ طفولتنا -سيريل وأنا- وكيف كنَّا نتدحرجُ لينتهيَ بنا الأمرُ داخلَ البُحيرة؛ ممَّا يوجبُ بعدها التقاطنا ثمَّ تجفيفنا.

أرتني الآنسةُ شوستر «نثرًا شعريًا» تلاه عليها أبي وسجلته هي من ذاكرتها، وقد نقلت إليّ بعض حماسها عن مسرحياته. كانت سيدة كبيرة بحلول ذلك الوقت، وقد زرتها مرارًا في منزلها الجميل في ويلمبدون. لطالما ندم والدي غاية الندم على عدم إهدائه أي عمل له للآنسة شوستر، لذا حين نشرت المجموعة الكاملة لأعماله للمرة الأولى عام ١٩٠٨ لبّى روبرت روس رغبته بإهداء عمل دوقة بادو لها.

سيدة أخرى أصبحت صديقة عظيمة لي وهي السيدة إدا ليفرسون، التي أسماها والدي «الفينكس المطلية بالذهب ذات الذاكرة الذهبية»(195)، هي وزوجها آويا أبي في فترة ما بين المحاكمتين، لكونها واحدة من أعز أصدقائه. يا لها من شخصٍ مذهل! وجدتُها لا تزال بديعةَ الجَمال تطوِّق وجهها هالةٌ من شَعرها الذهبيِّ الذي أوحى لأبي باللقب الذي منحه لها. كما أنَّ لها صوتًا واطئًا وعميقًا إلى حدٍّ ما، تتوقف في المسائل في نهاية كل جملة لتكثف التأثير الذي تصنعه كلماتها عليك. الأشخاص مثل الآنسة شوستر والسيدة ليفرسون منحوني نظرةً منعشة عن الحياة والطبيعة البشرية، لقد وسعوا أفكاري وكسروا تحيزاتي وترددي وبالتدريج سحبوني من قوقعتي التي حاولت أن آوي إليها.

عندما التقيت بروبرت روس للمرة الأولى أراد التعرف على أخي أيضًا بطبيعة الحال، لذا رتبت للقاء بينهما وتناولنا نحن الثلاثة الغداء معًا في نادي ريفورم(196) الذي كان روس عضوًا فيه.

حذَّرتُ روس بأنه قد لا يجد أخي متقبِّلاً للأمر مثلي، وقد وعد بإبقاء المحادثة ضمنَ مسارٍ آمنٍ. أعترف أنني كنت خائفًا قليلاً من احتمالية أن يقول روس شيئًا يجذب ردًّا قاسيًا من سيريل لكن خلال لقاء الغداء كلِّه لم يكن هناك ذكر لأوسكار وايلد، وقد دارت المحادثة بالذات حول الأدب والفن والمسائل ولكلٍّ واحد منا رأي يختلف فيه عن الآخر. بالتدريج أصبح سيريل وروبرت روس أصدقاء مقرَّبين، وعندما ذهب سيريل إلى الهند تبادلا مراسلاتٍ طويلةً. لم أرَ رسائل روس أبدًا لكن رسائل سيريل بقيت عند روس وأطلعني عليها، وأظن أنها كانت موجهة للأجيال القادمة أكثر من كونها موجهة لروس نفسه.

بعد ثلاثة أشهر من لقائي روبرت روس بلغت السن القانوني. لم تكن هناك أي اقتراحات من أي فرد من أفراد عائلة أمي للاحتفال بذلك. أفترض أنهم اعتقدوا أن لا شيء متصل بولادتي يستحق الاحتفال، لكن روبرت روس عوَّض النقص وأقام لي حفلة عشاء ساحرة في المنزل الخامس عشر في حدائق فيكراج في كينجستون، حيث يتشارك منزلاً فيكتوريًا ساحرًا مع مور إيدي(197). جلس اثنا عشر ضيفًا حول الطاولة، وهم السير ويليام ريتشموند، آر. إي. شارلز شانون، شارلز ريكيتس، هنري جيمس، ريجنالد تيرنر، ويليام روثنستاين(198)، السير كوليردج كينارد، رونالد فيربانك، مور إيدي وأخي سيريل. يا للحسرة! فقد ضاعت منِّي قائمة الأسماء في تلك المناسبة رغمَ أنني امتلكتُ واحدةً وقعها كلُّ مَن حضر. بلا شكٍّ أُقتُرِحَ أكثرُ من نخبٍ على شَرفي، وفيما بعد عدنا أنا وكينارد وأخي إلى منزل كينارد في هانز بليس حيث تناقشنا بالفلسفة والحياة والأدب حتَّى منتصف الليل.

مرَّ شهر آخر ثم جاء جوشوا كودلاند في أحد الأيام لرؤيتي وأخبرني أنه هو وبيتر والس الذي سافر معنا إلى روسيا والسويد كانا على وشك الذهاب إلى كندا في رحلة صيد شمال كيبك، وسألني فيم لو كنت أرغب بالذهاب أيضًا. ولأنَّ رحلتهما ستبدأ في غضون أسبوع لذا لم يكن هناك وقت كافٍ للتحضير. لكن العالم كان حرًا في حينها، ما من جوازات مطلوبة في الأراضي الأمريكية، لم تكن هناك قيود على العملة ومن السهل المرور. لكن كانت هناك العائلة التي يتوجب التعامل معها، وهذا لا يبشر بخير، لكنني عند الوصول إلى السن القانوني حصلت على وديعةٍ صغيرة من أمي لذا كنت سيِّدَ نفسي، مؤقَّتًا على أي حالٍ.

كما توقعتُ عندما حملت الأخبار عن رحلتي لوصيي السَّابق وللعائلة أزعجهم ذلك للغاية، واستخدموا كلَّ الحُجج من أجل من منعي من أخذ خطوة كتلك. لم يقفْ في صفي سوى سيريل؛ وذلك بعد أن شرحتُ له السَّنتين اللتين قضيتهما في دراسة القانون وعدم ملائمتي للامتحان القادم، وعلاوة على ذلك لم أرد الانفصال عن أصدقائي الجدد والإقصاء من إنكلترا نحو الشَّرق الأقصى كي أعيش هناك حياة مثيرة للشَّفقة حتَّى يضعَ المُناخ أو الاكتئاب الحادُّ نهايةً رحيمةً لحياتي.

نفس هذه الحجج لم يكن لها أي اعتبار لدى العائلة التي التجأت إلى استخدام العبارات الغامضة والتأكيد القديم على كونهم يعرفون ما هو أفضل لي وأن كل ما فعلوه لي عبر السنين يصبُ في مصلحتي وأنني الآن في خطر وعلى وشك أن أهدر جهدهم كله. كان موقفي هو أن الكثير من الأشخاص باتوا يعرفون هويتي الحقيقة حتَّى ما عاد ممكنًا إخفاؤها أكثر، وأن الكذب والنفاق الذي كنت أعيشه يُحرجني.

على أي حال فقد تجاوزت كل الصعوبات وقلت وداعًا لسكونس والنَّفي في الشرق الأقصى. وفي الثاني والعشرين من تِشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٠٧ أبحرت من ليفربول على متن سفينة

فيكتوريا لشركة الآن لاين متَّجهًا نحو هالفيكس في نوفا سكوتيا(199)، هذه الرحلة الأمريكية استغرقت كلها خمسة أشهر، وقد أنفقت خلالها قدرًا كبيرًا من المال ووصلت أقصى إمكانيتي. كودلاند ووالس لم يستقرا وقررا الذهاب إلى اليابان، لكنني بدأت أقيّم الأمور وشعرت بأنني قد نلت كفايتي من اللعب(200) وقررت العودة إلى إنكلترا وحدي، لذا تركتهم في مونتيري وركبت القطار من سان فرانسيسكو إلى نيويورك. وبدأ عندي شعور بالذنب من «الحياة حقيقية، الحياة جادة»(201)، وعليَّ ارتداءُ درعي وشقُّ طريقي فيها.

على متن القطار أصبت بنوبة برد وألم في صدري؛ كنت مقتنعًا أنني سأموت وكتبت الرسائل للعديد من الأشخاص لتُرسلَ بعد وفاتي. عند وصولي إلى شيكاغو وجدت أن أمامي ثلاث ساعات انتظار، فبحثت عن طبيب، وقد أبلغني أن عندي التهاب قصبات بسيط وأن ما من داع للقلق، لذا قضيت بقية الرحلة في سلام.

قارب ما عندي من مالٍ على النفادِ، وعندما حجزت في الدرجة الثانية إلى إنكلترا على متن قارب الخط الأمريكي مقابل خمسة عشر جنيهًا توجَّب عليَّ الحفاظ على كل سنتٍ. لذا في زيارتي الوحيدة إلى نيويورك قضيت الوقت أمشي في الشوارع معجبًا بناطحات السحاب وزرت المتاحف ومعارض الفن خلال الأيام الثلاثة التي توجّب عليَّ الانتظار فيها حتَّى تبحرَ سفينتي.

يجدر بي أن أذكر إنني رأيت من نيويورك في هذه الأيام الثلاثة أكثر مما يراه معظم الزوار في رحلة شهر.

لم يحدث شيء ذو بالٍ على متن السفينة. لعبت البريدج معظم الوقت بعشرة سنتات للمئة وجنيتُ نحو عشرين دولارًا مكَّنتْني من منح المشرف على اللعبة مكافأة جيدة. عندما وصلت إلى لندن، لمْ يبقَ عندي سوى ثلاثةٍ وثلاثينَ شلنًا، وذلك جيد بعد تلك الرحلة من سان فرانسيسكو.

في اليوم التالي لوصولي، ذهبت للقاء روبرت روس الذي استقبلني بحفاوةٍ لكن مع شيء من عدم الرضا عن تسكعي وتضييع وقتي في أمريكا. كانت تحيته متسقة مع حِسِّه الفكاهي؟ «أرى أن المسرف قد عاد، سمعت أنك كنت تقتلُ العجولَ السِّمانِ؟».

قررت أن أستمرَّ بالقراءة لامتحان العبور. كنت قد دفعت أجرة الامتحان وصرفت الكثير من المال واجتزت بعض الامتحانات، وبدا من المؤسف تضييع كل تلك الجهود. لذا وجدت نفسي في شقة صغيرة غير مؤثثة في نزل في كينجستون، بأجرة ٧٥ جنيهًا في السنة شاملاً الخدمات، واستقررت للعمل. كان ذلك في أواخر نيسان/ أبريل ١٩٠٨.

رأيت روبرت روس والسيدة كاريو كثيرًا في تلك الشهور، والتقيت بمعظم الشخصيات الأدبية والفنية في ذلك العصر. تكونت بيني وبين بعضهم صداقات ومنهم هنري جيمس، توماس هاردي، السير ويليام ريتشموند، ويلز وأرنولد بينيت(202)، وجدت نفسي أخيرًا في جو أدبي لطالما أردت الانتماء إليه، بالذات صداقتي مع ويلز استمرت طيلة ما تبقى من حياته، وقد التقيت به بصورة مستمرة.

فيما بعد صرت صديقًا مقربًا جدًا لماكس بيرهوم، واعتدت الجلوس في غرفته والتحدث معه بينما يرسم الكاريكاتور. أخبرني مرة أنه كان المثال العالمي لانتصار العقل على المادة. قال إنه ولد برأس صغير ويدين وقدمين كبيرتين، لكنه حقَّقَ طموحَه بالتَّركيز المستمرِّ، وبالإصرار على صناعة رسومات لا تُحصى لنفسه؛ من أجل الحصول على رأسٍ كبير ويدين وقدمين صغيرتين جدًا.

الأخ غيرُ الشَّقيق لماكس بيرهوم، هربرت بيرهوم تري، أصبحَ صديقًا لي أيضًا. عندما التقيته عام ١٩٠٨ تذكَّرَ أنني في عمر السَّابعة كنت قد جلست على ركبته في مسرح هايماركت وكرَّرتُ على مسمعه الملاحظة التي سمعتها عن (امرأةٍ بلا أهمية). لقد عملَ مديرًا لأعمال الممثلين الأكثر تميزًا في جيله حتَّى هنري إيفرنغ؛ لكنه لطالما تحدث بشيءٍ من الغموض والضبابية، وهي وسيلة دفاعية ابتكرها للخلاص من المُملين ومنعدمي الموهبة، أولئكَ الذين استمروا بمطاردته بلا هوادة... وقد رافقه هذا الغموض في كل مراحل حياته.

أخبرني تري أن والدي كان «مزعجًا بشكل جهنمي» خلال تمارين مسرحية (امرأة بلا أهمية) عام ١٨٩٣، وبقي يقاطعهم بالاعتراضات والاقتراحات حتَّى أسبوع قبل العرض، عندها أعطى تري أوامر بعدم السماح له بالدخول خلال التمرينات لأيِّما سبب. بعد يومين كان أبي يسير إلى مسرح هايماركت حين التقى بتري أمام المسرح بالضبط. كان واحدًا من الأيام الدافئة في نيسان/ أبريل وقد هبَّت أولى نسائم الصَّيف، وارتدى تري معطفًا طويلاً مزينًا بقرنفلة، يحملُ قبَّعة عاليةً رسميةً في يده، قبَّعةً جديدة، وفيها شريط أحمرُ مبهجُ اللون. نظر إليه أبي، بسرورٍ، وأبدى ملاحظة:

«عزيزي هربرت، يا له من شريط ساحر هذا الذي يزيِّنُ قبعتك!».

أجابه تري: «أوسكار العزيز، هل أعجبك حقًّا؟».

«نعم، أعتقد أنه الأمثل في جماله» أجاب والدي.

نزع تري الشريط من قبعته وسلمه إياه قائلاً: «إنه ملكك»، وذهب إلى المسرح، وبذلك تجنب أي مناقشة محتملة عن إنتاج المسرحية.

كان هناك شخص واحد لم يطلب إليَّ مقابلته أبدًا وهو اللورد ألفريد دوغلاس. أقرب ما كنت منه في إحدى أمسيات المسرح مع السيدة كاريو، فجذبَ شخصٌ في الصف الخلفي انتباهها في الفاصل وتحدَّثَ معها. بعد انتهاء المسرحية قالتْ لي: «لم أقدِمْك له، لأنني ظننت أن هذا هو الحل الأفضل، فذلك هو بوسي دوغلاس».

في حوالي العام ١٩٢٩ تلقيت رسالةً من مؤلف أمريكي، كان يكتب في حينها كتابًا عن فرانك هاريس؛ وأرادَ رأيي في كتابه (حياة واعترافات أوسكار وايلد)، أجبته أنني لا أعرف أي شيء عن الموضوع لكنني سمعتُ روبرت روس يقول: «رغم كون الكتاب سيئًا، والغرض الوحيد للعمل هو تمجيد هاريس لنفسه، فإنَّه بالمجمل يحتوي على بعض عناصر الحقيقة». أعتقد أن روبرت روس عنى أن فرانك هاريس وضعَ ألفريد دوغلاس في موضعه الحقيقي. للأسف، لم تعد عندي نسخة تلك الرسالة. بعد ستة أشهر تلقيت رسالة حانقةً من ألفريد دوغلاس، ولأنَّ هذه الرسالة ورسالة أخرى عن الموضوع ذاته هي المرة الوحيدة على الإطلاق التي تراسلت فيها مع ألفريد دوغلاس؛ أظن أنَّه لَمن المثيرِ للاهتمامِ إدراجها هنا(203). المرَّة الأولى والوحيدة التي التقيت فيها ألفريد دوغلاس على الإطلاق بعد عام ١٨٩٥ كانت بعد فترة قصيرة من الحرب الأخيرة، في حفل لفخامة الليدي جاين دوغلاس، تكلمنا عن مواضيع عامة لحوالي خمس دقائق وانفصلنا ولم أرَهُ مرة أخرى.

منذ سنوات مضت أصبحت صديقًا للورد كوينزبيري الراحل الذي كتب عن عمه ألفريد دوغلاس في كتابه (أوسكار وايلد ودوغلاس الأسود)، والذي أهداه إليَّ كما قالَ في سبيل إكمال «دورة كاملة». أمر كثير على ألفريد دوغلاس.

دخل كوليردج كينارد امتحان الخدمة الدبلوماسية في صيف ١٩٠٨ وعندما أكمله ذهبنا إلى البندقية سويًا في عطلة قصيرة. كنت أعمل بجهد كبير وبحاجة لإجازة. قضينا وقتًا رائعًا في المسبح لأسبوعين، بعد البقاء في فندق غراند في البندقية والاسترخاء في الجندول أو المضي عبر الجزر الخارجية في قارب بخاري.

في البندقية اقترح كوليردج كينارد أنني يجب أن أتخذ اسم قايڤيان وايلد على سبيل التجربة. وافقتُ على ذلك، ثم صار هذا سببًا للإحراج، إذ سعى إليَّ باستمرار مراسلون إيطاليون أرادوا إجراء مقابلات معي، لذا تخليت عن التجربة.

بعد شهرٍ من ذلك عُدنا إلى لندن عبر باريس حيثُ جاءت السيدة كاريو للقائنا. أخذتني في جولة حول باريس وأخذتني إلى فُندق دي إلساك حيث توفيَ أبي، وإلى مدفن باغنيكس حيث دُفِنَ. على عكس ما قيل مرارًا إنَّ والدي توفيَ في فقر وعوز من قبل أناس يتمنون ذلك، فالفندق لم يكن سيئًا ولا حقيرًا. كان ولا يزال صغيرًا لكنه مشرق للغاية وهو فندق مريح، وله فِناء في وسطه، حيثُ تنمو شجرة تين تظلل الغرفتين اللتين استأجرهما أبي، وهما غرفتان مشمستان لهما طابع بهيج. لم أكن في باريس من قبلُ إلاَّ لليلةٍ واحدة خلال

الرحلة الكابوسية مع أخي والمربية في الطَّريق إلى سويسرا، منذ حوالي ثلاث عشرة سنة مضت.

عند عودتي إلى إنكلترا أخبرني أخي عن إشاعة تتداولها العائلة تقول إنني فُصِلتُ من كامبريدج، من قبل إدارة الجامعة. لذا ولوضع نهاية للقصة كتبت إلى أستاذي في ترينتي هال جي بي شايرس، وسألته أن كان بوسعي القدوم لسنةٍ أخرى، وشرحتُ له الموقفَ. وافق على الفور، لذا تركت شقتي في لندن وعدت إلى كامبريدج طالبًا من جديد مع مطلع فصل الميكائيلية عام ١٩٠٨.

بعد سَنةٍ من الحرية الكاملة صارَ من الغريب العودة مجدَّدًا إلى الانضباط الجامعي الصَّارم نسبيًا. وجدت بضعة أصدقاء ما زالوا موجودين، أخصُّ رونالد فيبرانك، الذي كان في نفس الغرفة ويتصرَّفُ بالضَّبط نفس تصرفاته قبل سنتين مضتا. لا أعتقد أنه بدأ أي عمل بعد، وتمكنت من التعرف على روبرت بروك وإي سي لاندسبيرغ، واعتدنا إقامة جلسات شعرية في مسكن فيبرانك. للأسف لم أحصل على مسكن في الكلية لكنني حصلت على غرفة مفروشة تطل على الأراضي المشتركة في مدسمر(204).

ذهبت إلى لندن من حين لآخر، وحضرت حفل عشاء أقيم لروبرت روس في الأول من كانون الأول/ديسمبر ١٩٠٨ بمناسبة نشْر الأعمال الكاملة لوالدي، وهو نتاج عمل حبٍّ ومودَّةٍ، وقد استهلكَ معظم وقته في السنتين السابقتين. منذ تاريخ وفاة والدي جهد روبرت روس لاستعادة سمعةِ صديقه الأدبية. بدأ ذلك العمل عندما تمكَّن من أن يصبح الوصيَّ الأدبيَّ على أعمال أبي، هذا بحد ذاته عملٌ بطوليٌّ فعلاً، في منظور حقيقة أنه لم يكن قريبًا له وأن أبي كان مفلسًا. لقد قاتل مثل قطٍّ بريٍّ ضد العراقيل التي واجهته في كلِّ مكانٍ، وعند استخلاص حقوق الأعمال من المنتجين للمَسرحيات في ألمانيا.

حضرَ العشاء أكثرُ من مئةٍ وستين ضيفًا، ومنهم السير مارتين كونواي الكاتبُ والمستكشفُ الشَّهير. من الحاضرين كانت دوقة سوذرلاند، لورد هوارد دي والدن، اللورد غريمثروب، السيد والسيدة إدموند غوس، هـ. ج. ويلز، غيرترود كينجستون، ويليام آشر، أوسكار براوننغ، هربرت ترينج، سومرست موم، جورج ألكسندر، السيدة بيلوك لونديز، السيد والسيدة لورنس بنيون والعديد غيرهم من مشاهير الأدب والعلم والفنون. جلست مقابل سومرست موم، وجلس سيريل هناك أيضًا بين ويليام روثينستاين وإي. في. لوكاس(205).

خلال السَّنة الأخيرة في كامبريدج وصلت المرحلة التي لا بد أن يصلها الرجل الشاب عاجلاً أم أجلاً، حيث الشيء الأهم في الحياة والشيء الأكثر أهمية في الفن غالبًا هو فن الحوار. اعتدنا على إبهار أنفسنا بإقامة حوارات سقراطية عن مواضيع اليوم في العالم ككل، وفي كامبريدج، نتغنى بعمق أفكارنا في بديهتنا السماوية وهجائنا المدمر.

في أحد أيام أيَّار/مايو سمعت من روبرت روس أنه قادم إلى كامبريدج لليلة من أجل بعض الأعمال مع متحف فيتزويليام وأنه يأمل بتناول العشاء معي، وطلب مني أن أصطحب من شئت من أصدقائي معي. أنا ورونالد فيربنك كان لنا رأي مختلف وقدمنا له العشاء بدلاً عن ذلك.

توجَّبَ عليَّ اختلاسُ الطعام من مطبخ الكلية، بينما سيحاول رونالد الحصول على النبيذ من والده الذي يمتلك خزانة معتبرة. النَّبيذ المطلوب هو مويت وشاندون من عام ١٨٨٤ ذلك نبيذ معتَّقٌ أكثر ممَّا يجب لتشربهُ في عام ١٩٠٩، ما لم يُحفظْ بعنايةٍ تامَّة. غير أننا في ذلك الوقت لم نكن لنعرف إلاَّ القليل عن النبيذ، وكنا فخورين للغاية بطولِ عمره. لا تزال عندي قائمة ذلك العشاء وقد وقعها الحاضرون. كان الضيوف هم روبرت روس، ربرت بروك، ماريو كولانا، أرنست كولدشميدت، أي. سي. لاندزبيرغ، إف. جي. أو. باريش(206) ورجل آخر يصعب فهم اسمه.

كنَّا، أنا ورونالد فيربنك، معًا في حزيران/ يونيو ١٩٠٩، خلال كل وقته في كامبريدج لم ينجح في أي امتحان قطُّ، بل لم يكن يدخل الامتحانات من الأساس.

بعد مغادرتي كامبريدج أخذني روبرت روس إلى فرنسا لأكون حاضرًا على نقل جثمان أبي من مقبرة باغنو إلى مقبرة الأب لاشيز. العملية حوربت بتعقيدات كثيرة وتنظيمات وأوراق لا تُعد ولا تحصى يتوجَّب التوقيع عليها وأختام باهتة يجب الدفع في سبيل توضيحها. أحد المتطلبات فرضتْ استخدامَ صندوقٍ لنقل الجثمان، من تلك الصناديق المصنوعة في معمل بمقبرة باغنو. أزعج ذلك روبرت روس، الذي طلب تصميم تابوت خاص قبل أن يعرف بهذا الشرط، ولم يعد ممكنًا استخدامه. كان صندوق باغنو مصنوعًا من خشب البلوط مع صفيحة فضية على المقدمة محفور عليها (أوسكارد وايلد ١٨٥٤-١٩٠٠)، تلك هي القشَّة التي قصمتْ ظهر البعير، فانفجرَ روس بغضبٍ إثْرَ ذلك. رغم أنَّ الدفَّان تداركَ الموقف وشطبَ حرف الدال الزائد ليخرب الصَّفيحة، لكن صُحِّحَ الخطأ لاحقًا.

عندما انتهى العمل على المقبرة وأغلق التابوت اقترب الدفَّان من روبرت روس وبطريقة مجاملة اقترح إضافة «نقش صغير»(207) على القبر ريثما يُنصبُ تمثال أبستاين، انتفض روبرت ورفع يديه في احتجاج مرعب صارخًا بفرنسية كندية للغاية: «يا إلهي! كلا، لا مزيد من النقوش!»(208).

الفصل الثامن

(194) نادٍ اجتماعيٌّ شهيرٌ للفنانين والممثلين، يقع في قلب العاصمة لندن، أُسِّسَ عام ١٨٣١، وشعاره (العالمُ كلُّه خشبةُ مسرح). وكان بوسعك أن تلتقي أشهر ممثلي وكتَّاب المسرح يومذاك في هذا المكان، وحتى العديد من مشاهير الأدب مثل ديكنز وويلز وغيرهم، وللنادي حِصة في رسومات العديد من الفنانين مثل ميلياسِ وروسيتي.

(195) (أنثى الفينكس) (العنقاءُ) هي الصورة المذكرة من أبي الهول، لها جسدُ أسدٍ مع وجهِ وصدرِ امرأةٍ وأجنحةِ صقرٍ، ويضيفُ لها البعضُ ذيلَ ثُعبان.

(196) نادي ريفورم (الإصلاح)، من أكثر النوادي الاجتماعية الخاصَّة رُقيًّا في لندن، مثله مثل باقي النَّوادي الرِّجالية المنتشرةِ في ذلك العصر. كان الانتماء والدخول إليه مقتصرًا على الرِّجال فقط، حتَّى أصبحَ أوَّلَ نادٍ إنكليزي يكسرُ هذهِ القاعدة بسماحهِ في العام ١٨٩١ بانضمام النِّساء إليه.

(197) ويليام مور إيدي، ناقدٌ فنيٌّ إنكليزيٌّ، ومن أصدقاء أوسكار وايلد المقرَّبينَ.

(198) ذكرْنا ريتشموند من قبلُ. أمَّا شارلز شانون فهو فنان بورتريه إنكليزيٌّ شهيرٌ. وشارلز ريكتس مؤلف ورسام وفنان تصويريٌّ، عملَ في تصميم الكتب. وهنري جيمس هو الرُّوائي المشهور الذي يعتبر من أهم الأسماء الروائية في تاريخ اللُّغة الإنكليزية. أمَّا تيرنر فذُكِرَ في هامشٍ سابقٍ. وويليام روثنستاين فنَّانٌ وكاتبٌ بريطانيٌّ. والبقيةُ ذُكروا مِن قبلُ وعُرِّفَ بهم.

(199) أماكنُ على السَّواحلِ الكندية.

(200) الجملة المستخدمة هنا مأخوذة عن اللاَّتينية (lusisti satis)، جملة مقتطعة من قصة يونانية قديمة تُغنَّى، أحيانًا، كموعظةٍ لمواجهة الصِّعاب برباطة جأشٍ، والقصَّة هي قصة الذُّبابةِ التي سقطت في الحساء فقالت: (Lusisti satis edisti satis atque bibistis: tempus abire tibi est) أي (لقد نلتُ كفايتي من اللَّعب والمرحِ، وأكلتُ وشربتُ بما فيه الكفاية، والآنَ ها قد حانَ وقتُ الرَّحيلِ).

(201) مقطع من قصيدة (مزمور الحياة)، للشَّاعر الأمريكي هنري وودزورث لونغ فيلو.

(202) الروائيُّ الكبيرُ توماس هاردي أشهرُ من أنْ يُعَرَّفَ به، وأرنولد بينيت ألمعُ نُقَّاد الأدب الإنكليزي في ذلك العصر، أمَّا البقية فعرَّفنا بهم من قبلُ.

(203) انظرْ الملحق الرابع. [هامش الأصل].

(204) الأراضي المُشتركة هي مساحاتٌ واسعة من الأرض في إنكلترا، كما يوحي اسمها تكون ملكيتها مشتركة بين عدة أشخاصٍ، وتُستخدم للزِّراعة ورعي الحيوانات. والأراضي المشتركة في مدسمر تكون قريبةً من كامبريدج على الضِّفة الغربيةِ من نهرِ كام.

(205) أسماءُ الأعلامِ كالتَّالي:

- دوقة سوذرلاند، هي ميلسنت ليفنسون غاور (١٨٦٧-١٩٥٥). بالإضافة لوضعها في الطبقة المُخملية فقد كانتْ كاتبةَ مسرحياتٍ ومصلِحةً اجتماعيةً وكاتبةَ رسائل تحتَ الاسمِ المُستعار (أرسكين غاور).

- لورد هوارد دي والدن، هو توماس سكوت إيليس. بالإضافة لمكانته فقد مثَّلَ بريطانيا في سباق القوارب.

- لورد غريمثروب، هو أرنست ويليام بكيت. ناشطٌ سياسيٌّ، ومن أصدقاءِ أوسكار وايلد المُقرَّبينَ.

- إدموند غوس، شاعرٌ وناقد وأستاذ الأدب الإنكليزي في كامبريدج. كان راعيًا ومشجِّعًا للفنون. أمَّا زوجتهُ فهي إيلين آيبس، رسَّامة من جماعةِ (ما قبل الرَّفائيليةِ) وكاتبةُ قصصٍ.

- هـ. ج. ويلز الروائي الإنكليزي الشهير.

- غريترود كينجستون، ممثلةٌ مَسرحية إنكليزية شهيرة. لها أدوار لا تزال خالدة الذكر منها دور (كاترين العظيمة) الذي كتبه برنارد شو لها خصيصًا وفق ما يقول، كما كتبث بعضَ الأعمالِ المسرحيةِ جريئةِ الآراء كذلك.

- ويليام آشر، كاتبٌ مسرحيٌّ وناقدٌ فنَّيٌّ مهمٌّ. يعودُ له الفضلُ في ترجمة أعمال الكاتب النَّرويجي هنريك إبسن، وتقديمه للجمهور الإنكليزي. كما دعم برناردو شو في أوَّل مراحل حياته الأدبية. =

= - أوسكار براوننغ، من رواد التعليم في بريطانيا، مُبتكِرُ التَّدريب المهَني المبكِّر لتطويرِ المعلِّمينَ. كان كاتبًا غزيرَ الإنتاج ومؤرِّخًا في العديد من المجالات لا سيما التاريخُ الشَّعبي.

- هربرت ترينج، شاعرٌ أيرلندي

- سومرست موم، الكاتبُ الإنكليزي الشَّهير الذي كتب الرواية والقصة القصيرة والمسرحيةَ. وقد عُدَّ الكاتبَ الأعلى أجرًا في ثلاثينيات القرن العشرين.

- جورج ألكسندر، ممثَّلٌ مسرحيٌّ إنكليزي، لعبَ أدوارَ البطولةِ لعدَّةِ أعمال لوايلد، منها مسرحيته الأخيرة (أهمية أن تكون أرنست).

- السيدة ماريا بيلوك لونديز، كاتبةٌ بريطانية أصدرت ما يزيد على أربعين روايةً خلال حياتها، وهي ابنة الشَّاعرة بيسي بيلوك (مدام بيلوك)، واحدة من أهمِّ الناشطات النَّسويات في العصر الفيكتوري.

- السيد لورنس بنيون، شاعرٌ إنكليزي من شعراء الحرب العالمية الأولى، صاحبُ قصيدة (للذين سقطوا) التي تُترجمُ أحيانًا لـ(إلى الشُّهداء)، والتي لا تزالُ تُنشَدُ خلال قُداس الأحد في العديد من البلدان، وسبق له الفوز بجائزة (نيودجت) للشعر مثل أوسكار وايلد. أما زوجته فهي المؤرِّخةُ الإنكليزية سيسلي مارغريت بويل بنيون، التي كتبت العديد من الأعمال المهمة على رأسها كتاب (الأبطال في التاريخ) وكتاب (عقل الفنان).

- عُرِّفَ بوليام روثنستاين في هامش سابق. أمَّا أي. في. لوكاس فهو من كُتَّابِ الكوميديا الإنكليز، عُرِفَ عنهُ كتابة شِعر المفارقات والمقالات السَّاخرة، وله قائمة طويلةٌ من الأعمال.

(206) روبرت بروك، شاعر إنكليزي من شُعراء الحرب العالمية الأولى، خطفهُ الموت وهو في السَّابعة والعشرين من العمر بسبب تسمُّم الدَّم. وصفه ييتس مرةً بأنه «أجمل رجل في إنكلترا». أمَّا ماريو كولانا، فهو على الأرجح أميرٌ إيطاليٌّ من عائلة كولانا الشهيرة.
كولدشميدت، هو كُتُبيٌّ وموسوعيٌّ اشتُهر بمعرفته الدقيقة بالأعمال النادرة. أمَّا لاندزبيرغ وباريش فلا معلومات عنهما.

(207) في الأصل عن الفرنسية (une petite inscription).

(208) في الأصل عن الفرنسية (Oh, ma foi, non! Assez d’inscriptions!).

الآنَ

توفي والدي عن ستٍّ وأربعين سنةً فقط، في عمرٍ يدخل فيه معظم الكتاب فترة أعظم إنجازاتهم. لكن ما عدا الرسالة إلى ألفريد دوغلاس المعروفة باسم (من الأعماق) و(أنشودة زنزانة ريدنك) فهو لم يكتب شيئًا بعد عام ١٨٩٥. انطفأت شعلة العبقرية فيه بسبب حياة السِّجن، ولم يكن ممكنًا أن توقد مجدَّدًا. لقد تحدث باستمرار عن أعمال يريد كتابتها لكن حينما حان وقت الكتابة حقًا قيَّدته الشكوكُ والمعضلاتُ؛ الشك فيما لو كان أي عمل من أعماله سيتم استقباله أبدًا، ومعضلة فيم لو كان ممكنًا لأي قوة بشرية إعادة تعمير حياته الأدبية.

كتب كثيرة بلغات كثيرة كُتِبتْ عن أوسكار وايلد، أكثر من أي شخصية أدبية عاشت خلال القرن الأخير. لكن عندما يمضي الزمن بشخصية ما وتمر عليها السنوات يميل الناس لفصلها عن طبيعتها الإنسانية؛ وعندما يكتب أشخاص آخرون عنهم تجدهم يزيدون وينقصون من حياة ذلك الإنسان ليتسق كل ذلك مع إطار من صنيعتهم هم أنفسهم حتَّى تتلاشى الحقيقة وتختفي. هذا الأمر ينطبق بالذات على أوسكار وايلد، فمعظم الأشخاص الذين كتبوا عنه عاملوه مثلما تعامل حشرة تحت مجهر الفاحص، فُحِصَ وشُرِّحَ وحُلِّلَ كمشكلة نفسية وليس كإنسان أبدًا، ولو أنهم ذكروا أي مزايا بشرية له لتعجبوا من ذلك كما لو أن تلك الملاحظة سببت لهم المفاجأة أو الإحباط. ومع هذا فالمنظور الأكثر أهمية في شخص والدي هو إنسانيته العالية، حبَّه للحياة ولرفاقه وتعاطفه مع المعاناة. أبي من ألطف وأرقَّ الرِّجال، لقد كرهَ أن يرى أي شخص يعاني. ما من مؤرخ لحياته ولا حتَّى فرانك هاريس افترض أنه ارتكب في حياته أيَّ فعلٍ حقيرٍ يفتقرُ إلى اللُّطف، وقد رُوِيَتْ الكثيرُ من القصص عن مساعدته للناس في أزماتهم حتَّى حين كان هو نفسه في فاقة.

مرَّةً، في سجن ريدنك، اكتشف أن ثلاثة أطفال صغار محبوسونَ معه، في السِّجن نفسه، بسبب صيد الأرانب، وقد فُرضت عليهم غرامةٌ لم تكن عوائلهم قادرةً على دفعها، وتوجَّب إرسالهم إلى السِّجن بدلاً عن ذلك. قد يبدو لنا ذلك غريبًا الآن، لكن قبل أقلِّ من قرنٍ كانوا سيشنقون على الأرجح أمام العامَّة. زُعجَ والدي للغاية من أن أطفالاً في سنِّ أطفاله يُعامَلونَ بوحشيةٍ كبيرة من قبل المجتمع المدعي للفضيلة، وقد تمكن من تمرير رسالة إلى أحد مشرفي السِّجن، وقد تكوَّنتْ بينهما علاقة طيبة، واستفسر منه عما يمكنه فعله لمساعدة الأطفال، وهل ممكن أن يدفع هو الغرامة، «أرجوك اِفعل ذلك نيابةً عني»، كتب له رسالة تقول: «يجب أن أخرجهم من السِّجن. فكِّرْ كم يهمني أن أكون قادرًا على مساعدة هؤلاء الأطفال الثَّلاثةِ الصِّغارِ، ولو بدفع الغرامة. أخْبِرْ الأطفالَ أن صديقًا لهم سيطلقُ سَراحهم غدًا، واطلبْ منهم أن يكونوا سُعداء، ولا تخبرْ أحدًا»، وقد حُرِّرَ الأطفالُ بالفعل.

انتُقِدَ أبي لعدم إعجابه بكل أشكال الرياضات الجَماعية العنيفة مثل الصيد، الكريكت وكرة القدم. مع ذلك فرسائله إلى وارد وهاردنك تظهر أنه قضى معظم عُطَلِهِ في أكسفورد في الرماية والصيد ولعب التنس. كان سبَّاحًا قويًّا واستثنائيًّا، وُصِفَ لي بأنه كان يشقُّ الأمواج في البحر الهائج في ورثنك مثل قرش بطريقةٍ تُدهِشُ النَّاظرين.

ومن الغريب، بما يكفي، أنه لعب الغولف بحماسٍ في فترةٍ ما، حاول المؤرخون لحياته القول بأنه تظاهرَ بلعب الغولف فقط لتبرير غيابهِ عن المنزل، وأنه لا يعرف عن اللُّعبةِ شيئًا. ولكنَّ أوَّلَ عصًا وحقيبةِ تجهيزاتٍ للَّعِبِ الغولفِ، رأيتها في حياتي، لَهيَ حقيبةُ والدي التي اعتدتُ رؤيتَها عند رُكنِ قاعةِ المدخل ببيتِنا في شارع تايت؛ بعد ذلك بسنوات أكد روبرت روس على شغف والدي بالغولف، ولو أنَّ ذلك غير كافٍ فأنا شخصيًا لا شكَّ عندي بأنني ورثت حُبَّ اللُّعبةِ والمهارةَ فيها منه.

الفترة التي مرت بها سمعة والدي الأدبية خلال أول عشرين سنة من هذا القرن لها اتساق غريب في طريقة تشكله في فكري خلال نفس تلك السنوات.

مشاعري نحو ذكريات والدي كانت بطبيعة الحال مختلطة على الدوام، أتذكر أمي بحب وتقدير كبير، لدي مشاعر ود كذلك نحو عائلة أمي الذين مهما أخطأوا فقد حاولوا إعادة بناء حياةٍ لي ولأخي على أساس من رمل. لكنني كذلك فخور بأبي وبمكانته في الأدب الإنكليزي رغم أنني أفترض أن كل أبناء الرجال المشاهير يشعرون بلا شك بالإحراج بسبب الضَّوءِ الذي يُسلَّطُ عليهم نتيجةَ مَجدِ آبائهم.

أتذكره كعملاق مبتسم، يرتدي ملابس مدهشة على الدوام، يلعب ويزحف على أرضية غرفة الأطفال معنا، وعلى الدوام تطوقه سحابة من الدخان ومن الكولونيا. خلال سنواته الأخيرة كان يسأل روبرت روس ويحاول معرفة شيء عنا، كيف حالنا، وكيف كنا نذهب إلى المدرسة. وأخبرني روس أنه بكى بمرارة وهو يجلد نفسه نادمًا على خذلانه لنا ولأسلافه. مع اقتراب نهايته أدرك أنه لن يرانا على الأغلب، وحاول أيصال الرسائل لنا. حتَّى أنه تواصل مع الوصي علينا خلال مور إيدي طالبًا السماح له بكتابة رسائل لنا تُسلَّم عند بلوغنا لكن الوصي أجاب أن أي رسالة منه ستدمر حال وصولها. كل ما بقي لوالدي ليذكره بنا تلك الصورتان اللتان أخذتا لنا في هايدلبرغ عام ١٨٩٧، ورسالة أو اثنتين كنا قد كتبناها له في الفصول التمهيدية قبل عام ١٨٩٥. عندما انفصلت عن أبي إلى الأبد مررت عبر مراحل الخوف، التشوش والإحباط. الخوف والإحباط يحطمانِ سلام العقل أكثر من أي عملية عقلية أخرى؛ وعندما وصلت تلك المشاعر بأبي بدأت أفكارُ الكرهِ تخالط رؤيتي له بالتدريج كلما خطر على بالي. وزاد من هذا الشعور سلوكُ عائلة أمي، وبلغَ الأمر ذُروته مع بلوغي سنِّ المراهقة.

خوفي من اكتشاف هويتي يومًا وإحباطي الناتج من وعي مستمر بأنني مختلف عن الصبيان الآخرين جعل نفسي تصور لي أنني إنسان منبوذ لا يمكن أن يأخذ مكانه في العالم ما عدا زاوية بعيدة منه.

شقَّ عليَّ التخلص من الخوف والإحباط، ولو أنني عرفت أي شيء على مدى حياتي فهو استحالة أن يخبئ المرء رأسه ويكون سعيدًا في ذات الوقت، ومن الأفضل الإبحار بلونك الحقيقي ومواجهةِ كلِّ شيء بشجاعةٍ ووضوح. وأظنُّ أنَّ هذا هو ما فعلتْهُ عائلتُنا مَعنا -وما دفعتْنا لفعلهِ- حتَّى لو عنى ذلك أن يكون كل تعليمنا بعيدًا عن إنكلترا؛ فنحنُ لسنا إنكليزيينَ على أيِّ حال.

كنتيجة للسرية التي أحطتُ بها في طفولتي عانيت كلَّ حياتي من الخجل والإحراج. بسبب وضعي الغريب والمخاتل كان يصعب عليَّ عقدُ الصداقات، وصداقتي أمر صعبٌ على الآخرين أكثر من صعوبته عليَّ. لطالما توجَّبَ عليَّ الشَّرحُ بل وحتَّى الاعتذار كلَّ الوقت، بالذات للرجال من الأعراق الإنكلوساكسونسية، فهم تقليديون بالفطرة. النساء كُنَّ أوسعَ أفقًا غالبًا، ودائمًا ما شعرت باليُسر مع النساء أكثر من الرِّجال. على قدر ما تكون النساء قادرات على التفهم فقد فهمتهنَّ، وعرفتُ أنَّهنَّ يفهمنني.

كنت في التاسعة عشرة عندما بدأتُ بقراءة أعمال والدي، عام ١٩٠٥، وقبل ذلك بشهور قليلةٍ لم أُلقِ له بالاً، بل كان مجرَّدَ اسمٍ يلفُّه الغموضُ. من الجيد حقًّا أنني أُطْلِعتُ على حياة أبي من قِبل خالتي في سويسرا؛ إذْ كان اسمه يذكر دائمًا في كامبريدج. العديد من الإشارات له أو أكثرها على الأقل ليست إشارات لطيفة لكن الجيل الصاعد بدأ بالفعل بتقدير جمال لغته، وقد شكل عمله واحدًا من المواضيع الرئيسية في المناقشات الأدبية في حلقات طلاب الدراسات الأولية.

بعد قراءة نسخة كتاب (النوايا) الذي وجدته في مكتبة جامعة كامبريدج نجحت في الحصول على نسخة مستعملة من (صورة دوريان غراي)، في ذلك الوقت كنت أمرُّ بمرحلةٍ مركَّزةٍ من الاهتمام بما وراء الطَّبيعة، وكنت أقرأ بِشَرَهٍ كتبَ الجرنون بلاكوود وآرثر ماشن(209) حتَّى أنني تحصلت على نسخة من أوائل القرن السادس عشر لعمل عن السحر لألبرتوس ماغنوس(210) الذي جهدت لفكِّ شفراته. لذا من الطبيعي أن يذهلني عمل (صورة دوريان غراي)، وعندها بدأت للمرة الأولى أشعر بالفخر لكوني ابنًا لرجل بوسعه كتابة مثل هذا الكتاب. وإلى هذا الحد تتوقف معرفتي بكتابات والدي لأنه كان من المستحيل العثور على أي نسخة من أعماله الأخرى. حتَّى الكتب المرجعية لذلك العصر لم تكن لتضع قائمة كتبه بينها. ومضت سنتان كاملتان قبل أن أقرأ له شيئًا آخر وذلك عندما أعارتني السيدة كاريو نسخها الغالية من كتبه، وكل واحد منها يحتوي على إهداء بخط يد والدي.

حتى بلغت الخامسة والثلاثين لم أقرأ عن حياة أبي سوى كتاب شيرارد، وحتَّى ذلك الكتاب تصفحته فقط. كنت مقتنعًا بفكرة أن أبي قاد أمي إلى أعماق البؤس وتسبَّب بموتها المبكر، هذا هو نوع الأفكار الذي غرسته فيّ عائلةُ أمي طبعًا، وهم الذين وقعت على عاتقهم مسؤوليةُ تربيتنا. على أي حال فإن الزمن يخدِّر الألم ويحوِّره، وقد جعلني أتخذ وجهة نظر أكثر تسامحًا، بتُ مقتنعًا أن أبي لم يكن إلا ضحية لهشاشته. ليست مهمتي أن أناقش الأحداث التي قادت إلى سقوط أبي؛ لكنه لو لم يكن سيئ الطالع لمعرفة ليونيل جونسن الذي قدمه إلى ألفريد دوغلاس، ولو أن والد ألفريد لم يكره ابنه إلى حد استخدام أوسكار وايلد ككُرةٍ بينهما، لربما كانت هناك حكاية أخرى لتروى هنا، ولربما اغتنى العالم بمسرحيات كثيرة مثل مسرحية (أهمية أن تكون أرنست).

لسَنواتٍ عديدةٍ تكرَّرَ حُلمٌ راودَني كثيرًا، كنتُ أرى أبي في غرفةٍ يعمُّها الهدوءُ، يكلِّمُني بلُطفٍ طالبًا المغفرةَ على التَّعاسةِ التي تسبَّبَ بها لعائلتِنا.

لا أحاول الدفاع عن سلوك أبي؛ لكنني أعتقد فعلاً أن العقوبات التي طُبقت عليه كانت شديدةً دون داعٍ. وأنا لا أعنى بذلك السِّجن فحسب، بل الحظر المطبق على كلِّ أعماله والإذلال والإهانة التي اضطرَّ للتعرض لها خلال السنوات القليلة التي سبقتْ وفاته. أسوء مظاهر النفاق الفيكتوري اختفتِ الآن، واليوم لم يكن أبي ليرسل إلى الموت مثلما حدث قبل خمسين سنة. ادعاء الفضيلة في ذلك العصر كان مثيرًا للتقزُّز، نفاق المجتمع، وبالذات أولئك الذين رفعوا أصواتهم لإدانة أبي، وكل واحد منهم لم يكن ليصمد اسمه، لو عرضت حياته الخاصة على الملأ. إنك لتجد الإنسان المذنب غاضبًا، يعلو صوته للتَّنديد بذنوب الآخرين، لا سيما لو تشابه ذنبه وذنوبهم.

من ناحية أخرى، تجد أن العديد من الناس المتدينين بعمق هم شرسون بطبيعتهم، ويعتبرون أن معتقداتهم الدينية وطقوسهم تغنيهم عن ضرورة اكتساب أي فضائل أخرى بالذات روح الخير. بينما يرقدُ أبي محطَّمَ القلبِ على لوحٍ خشبيٍّ، في زنزانته بالسِّجن، قُدِّمَ التماسٌ من أجلِ تقليصِ عقُوبتهِ، لكن معظم الناس خافوا من التَّوقيع. ومن بين من رفض التوقيع ويليام هولمان هانت، أحد مؤسسي ما قبل الرَّفائيلية، الذي قضى معظم حياته يرسم لوحاتٍ دينية، وأكثرها شهرةً لوحة (نور العالم). رسالة رفض هولمان هانت للتَّوقيع توضِّحُ الموقفَ السَّائدَ يومذاك. أضعها هنا كاملةً:

بحيرة، دريكوت في فولهام

الثامن عشر من تِشرين الثاني/ نوفمبر ١٨٩٥.

«سيدي العزيز؛

لم أفشل في إعطاء نفسي أقصى الفرص للبحث عن حجة تؤيد القضية التي تضغطُ عليَّ فيها بمشاعر الصداقة الإنسانية، وهي مسألة تقصير عقوبة أوسكار وايلد؛ لكن يتوجَّب عليَّ تكرار رأيي بأنَّ القانون قد تساهلَ معه بإفراطٍ، وأنني عند التدقيق في الحقائق أكثر أجدني مقتنعًا أن العدالة يجب ألاَّ تُطبَّقَ على طبقةٍ اجتماعية دون غيرها، ومن هنا يجب أن أضم صوتي إلى النداء لتحقيق العدالة في الاقتصاص من الشر بشكل تام، ولو أنني لعبت أي دور في تحريره قبل إكمال عقوبته فهذا أمر لا يصح، ولا يردعُ أفرادَ المجتمع ولا يحثُّهم على تقييد النفس وفرض الانضباط. أنا أعتذر لكوني أرفضُ الالتماسَ مجبرًا، فأنا أعارض رغبتك التي تنبعُ بلا شك من لطفك البالغ.

صديقك المخلص للغاية/

دبليو. هولمان هانت».

هذه الرسالة وُجِّهتْ إلى مور إيدي، الذي كان صديقًا لأبي وأمي. من العدل الافتراض أن هولمان هانت بكتابته تلك الرسالة قد نسيَ الاقتباس الذي ألهمه رسمَ لوحةِ (نور العالم):

«أتوقَّع المرورَ عبر هذا العالم مرَّةً واحدةً فقط، لذا إن كان هناك خير بوسعي فعله، أو طيبة يمكن إظهارها لأي مخلوق، سأقدم ذلك الآن، لن أؤجِّل أو أتجاهل أي شيء من ذلك، لأنَّني لن أمرَّ بهذا الطَّريق مرتين»(211).

يثير دهشتي استمرار ورود الرسائل التي أتلقاها من كلِّ مكان حول العالم، من مختلفِ مشارب الحياة، وهم يعبرون عن إعجابهم بكتابات أبي وبفلسفته؛ حتَّى أنني تلقيت رسالة باللغة اليابانية وقد أرسلتُها إلى كلية الدراسات اللغوية لتُتَرجَمَ. في الحقيقة بعد نشر النسخة الكاملة من كتاب (من الأعماق) عام ١٩٤٩ تلقيت رسائل عديدة حتَّى صار من المستحيل الإجابة عليها كلها مهما كنت راغبًا بفعل ذلك.

كان أوسكار وايلد بلا شك واحدًا من الشخصيات المتميزة في عصره، وقد هيمن على العالم الأدبي وعالم التمثيل في أوائل تسعينيات القرن التاسع عشر، لكنه فعل ذلك بطريقة خلقت له الكثير من الأعداء الذين امتازوا غيرةً وغيظًا منه. مسرحياته الخفيفة والمنعشة كما تبدو مشبعةٌ بحكمة عميقة. ليس هناك من دليل أفضل من ذلك على حقيقة أنها عند ترجمتها لم تكن تقريبًا تفقد أي شيء من حكمتها. أنا عن نفسي رأيتُ مسرحية (أهمية أن تكون أرنست) تعرض في نصف دزينة من اللغات الأخرى، وزوجتي حضرت مرة عرضًا لمسرحيته (مروحة السيدة ويندرمير)، في جنوب إفريقيا، وقد مثلت بلغة البلد، وكل الممثلين فيها كانوا من أصحاب البشرة الملونة. تُرجِمتْ أعمال أوسكار وايلد إلى كلِّ لغة حاضرة في العالم. في كلِّ بلد أوربي تقريبًا، وحتَّى تلك البلدان خلف الستائر الحديدية(212)، توجد مدارس نظامية وجامعات تستخدم كتبه كمواد منهجية لدراسة اللغة الإنكليزية.

وفي اللغة الإنكليزية نفسها يصعب أن يوجد مسرح، أو أكاديمية فنية لم تقدم عملاً لأبي في وقت ما.

في هذه الصفحات حاولت أن أظهر كيف هي الحياة حين تكون ابنًا لأوسكار وايلد، في المجمل عشتُ حياتي كلها في تستُّر وكبْتٍ. أما البقية من سلالتي فلن تعاني مثل معاناتي، كلما ابتعدوا أكثر فأكثر عن المأساة الفعلية. فما إن يتوارى السلف خلف ستار الماضي لا يعود الأمر شخصيًا للغاية، بل يشبه آراء أي عائلة إنكليزية عظيمة عن كون أحد أسلافها منذ زمن بعيد قد أعدم في نيوجيت أو تايبرون(213) بسبب الشذوذ الجنسي.

من المفارقات الوحشية أن يحكم القدر بخصوص أوسكار وايلد بالمعاناة بدلاً عن عدد لا يحصى من الفنانين الذين كانوا من قبله ومن جاءوا من بعده ممن تشاركوا معه نفس الضعف.

في السنة الماضية فخامة قاضي المحكمة العليا، السير ترافيس هيمفريس، كتب في مقال عن محاكمة وايلد التي كان له فيها دور فعال عام ١٨٩٥:

«عند التفكير بما حدث قبل ما يقارب ستين سنة مضت، ثمَّة حقيقة واحدة لا جدال فيها؛ لم يكن يجب أن تحدث محاكمة أوسكار وايلد».

الآن وبعد أن استعاد أوسكار وايلد موقعه في الأدب الذي خسره عام ١٨٩٥، أنا آمل أن ترقد روحه بسلام؛ ربما يقول لنفسه مثلما قال الملك الشاب في (بيت الرُّمان)(214):

«أمَّا ردائي فقد حاكتْهُ الأيادي البِيضُ للألم، على نوْلٍ من الأسى».

(209) كان بلاكوود (١٨٦٩-١٩٥١) مذيعًا بريطانيًّا، كتب الكثير من الروايات والقصص المختصَّة بالأشباح حتَّى اعتُبرَ أهمَّ كُتَّابِ هذا النوع. أمَّا آرثر ماشن (١٨٦٣-١٩٤٧) فهو كاتبٌ من ويلز، اشتُهر بروايات وقصص الغموض، له تأثير كبير على كُتَّاب الخَيال.

(210) ألبرتوس ماغنوس، أشهرُ الفلاسفة الألمان في القرون الوسطى. هو في الأساس قسٌّ وعالم، طُوِّبَ فيما بعدُ قِدِّيسًا وصار يعرف بالقديس ألبرت الكبير. كتبَ ما يربو على ثمانية وثلاثين عملاً. هو الذي نقل الشروح العربية لأرسطو إلى اللغة اللاَّتينية.

(211) مقولةٌ شهيرةٌ للمبشِّر الفرنسيِّ - الأمريكي ستيفان غريلت (١٧٧٢-١٨٥٥)، كان والده مستشارًا لملك فرنسا لويس السادس عشر. التحق هو كذلك بالحرس الشخصي للملك حتَّى قامت الثورة الفرنسية وحُكِم عليه بالإعدام، لكنه تمكن من الهرب وعاش بقية حياته في الولايات المتحدة مبشِّرًا دينيًّا.

(212) (السَّتائرُ الحديديةُ) إشارةٌ لنفوذ سُلطة الدَّولة السُّوفييتية الذي امتدَّ لأكثر من بلدٍ حتَّى عام ١٩٩١.

(213) أسماءُ سجونٍ إنكليزيةٍ شهيرةٍ. نيوجت هو نفسه سجن أولد بايلي؛ الذي سُجن فيه أوسكار وايلد.

(214) عملٌ لأوسكار وايلد.

الملاحق

الملحقُ الأوَّل ثلاثون رسالةً من أوسكار وايلد إلى ريجنالد ريتشارد (كيتين) هاردنك وويليام ويلزفورد (بونسر) وارد بين عامي ١٨٧٦-١٨٧٨

ارتاد ريجنالد هاردنك أكسفورد في نفس الوقت مع أوسكار وايلد. أما ويليام وارد فقد شغلَ غرفًا في نفس القاطع الذي سكنه أوسكار وايلد في كلية ماجدلين. كان أكبر من أوسكار بسنةٍ، وعند مغادرته الكلية في عام ١٨٧٣ أخذ أوسكار وايلد غرفه والتي تعرف الآن بغُرف أوسكار وايلد.

رسائلُ هاردنك، الأصلية، موجودة بحوزة السيد عضو البرلمان هارفورد مونتغمري هايد(215)، أما رسائل وارد فهي موجودة في مكتبة كلية ماجدلين جامعة أكسفورد حيث قدمت من قبل ابنته الآنسة سيسيل وارد.

الرسالة الأولى

إلى ريجنالد هاردنك: ٢٨ حزيران/ يونيو ١٨٧٦

كلية ماجدلين، جامعة أكسفورد.

عزيزي كيتين،

شكر كبير لرسائلك المبهجة؛ يا له من سلام، ويا لها من راحة تلك التي تنبعث في نفسي عند استلام رسائلك كل صباح عند الإفطار! (هذا تهكم) أعتقد أنك لبائسٌ شنيعٌ حقًا لعدم الكتابةِ لنا والعيش لوحدك تمامًا في تلك الكلية المعزولة. مع كوننا رفقة طيبة مبهجة، ولم نكن من محبي الثرثرة والنَّميمة.

عائلة بونسر سيبقون حتَّى يوم الإثنين، كما أفترض أنك تعرف من البرقية الغبية التي لا بد أن بونسر قد أرسلها لك.

كنا سعداء للغاية ومضينا إلى رادلي والكثير من الأماكن سويًا. أعجبت بالسيدة بونسر كثيرًا، والآنسة بي الكبرى ساحرة للغاية في الحقيقة. أخذناهم إلى كلية السولس وورسيستر والكثير من الكليات.

أنا مسحور أكثر من أي وقت مضى بكنيسة كلية ورسيستر. إنَّها قطعة فنية جميلة بديكور بسيط، جمالها مثاليٌّ للغاية ونوافذها مصنوعة بروحٍ فنية بديعة.

امتطينا، يومَ الإثنين، الجيادَ إلى أبيندغون(216) وتعشَّينا هناك. وفي يوم الثلاثاء احتسينا الشَّاي في رادلي عند ملاعب التنس. اللَّيلة تعشَّينا معًا في فندق المايتر. وكُنَّا في غاية الانسجام. في الحقيقة فإنَّ بونسر -ستكونُ سعيدًا لسَماع ذلك - أكثرُ لطفًا!

غدًا سأذهبُ إلى ريف لينكولن للبقاء مع عمي(217)، أفترضُ أنك أيضًا مشغولٌ جدًا بلعب الكروكيه(218) والتسكُّع والعزف على الأورغن بدلاً عن الكتابة لي. مع ذلك، إنْ وسِعَكَ التفرُّغُ لبعض الوقت فسأكونُ موجودًا في فيكراج، ويست أشبي، هورنكاسل، ريف لينكولن.

سأحضرُ الأسبوع القادم من أجل الامتحان الشَّفهيِّ يوم الثلاثاء أو الأربعاء، من أجل لا شيء على الأغلب فأنا أظن أنني قد فوَّت فرصةَ الحصول على المركز الأول(219) وعليَّ أن أبدو سَعيدًا بالمركز الفخري الثاني المشكوكِ فيه.

سأكون في نونتنهام مع آل مايلز لأسبوعٍ، ومن بعدها سأبقى في البيت حتَّى أيلول/سبتمبر حتَّى قدوم البابا الذي أتأمل رؤيته في حوالي الأول من تِشرين الأول/ أكتوبر. رجاءً اذكرني عند السيدة هاردنك وأختك.

المخلص أبدًا/

أوسكار. او.اف.اف.وايلد

آملُ أن باس(220) يقرأ بجدٍّ من أجل امتحانه الأول، بلِّغه محبتي.

الرسالة الثانية

إلى ويليام وارد: حزيران/ يونيو ١٨٧٦

فيكراج، ويست أشبي.

عزيزي بونسر؛

أنا في فزع رهيبٍ بعد قراءة تقرير مثير للشفقة في نشرة أخبار شرطة رينولدز عن «الموت جوعًا لشاب على جزيرة لوندي»، يا لها من فكرة أن تنسى طعامك! أرجو أن تصلك النُّسخة سالمةً، لقد أرسلتها في الساعة الثانية عشرة من يوم الخميس. وصلتُ إلى هنا وسط عاصفة فظيعة؛ حلَّتْ كما لو أنَّ جمعًا من الملائكة أراد الفتك بنا ناشرًا الرُّعبَ والنَّارا!

لحُسن الحظ التقيتُ ببعض الأشخاص الذين يعيشون هنا في منزل مانور، في القطار، لذا لم يكن الأمر مضجرًا رغم كل شيء، لكن ميلين على متن عربةٍ صغيرة، حصانُها حَرون هائجٌ بينما المطر الذي يهطل بغزارة لم يسدِني أيَّ خدمةٍ.

استُقبلتُ بالقُبلات والأحضان، وجعلتُ أتفحَّص كليَّات الجغرافية! لعبتُ التنس وتحدثت وغنيت وصنعت من نفسي «رجلاً لطيفًا»(221) في حفلة شاي. عمي ألطف من أي وقت مضى، لقد سألني: «عزيزي ألا تجدُ أن البريد الذي لا يكلف سوى بنسٍ أفضل من البرقيات؟»، حوالي ستّ مراتٍ في اليوم. لقد عرفت أنه قد دفع نصف كراون من أجل السؤال عني، الكلفة الكلية لا تتجاوز الخمس بينما هو... (باقي الرسالة مفقود).

الرسالة الثالثة

إلى ريجنالد هاردنك: مطلع تموز/ يوليو ١٨٧٦

كلية ماجدلين، أكسفورد، يوم الأربعاء.

عزيزي كيتين؛

أنا آسف للغاية لسماع أنك لم تلتقِ الفتى بونسر المسكين؛ انظرْ نتيجة أن يكون لك أصدقاء مشاكسون مغرمون بالمقالب. بالأمس وصلتني منه خربشاتٌ مريعة بقلم الرصاص جالسًا على الصخور في لاوندي. آملُ ألاَّ يحدثَ له شيء.

قضيتُ وقتًا طيبًا للغاية في ريف لينكولن -لكنَّ الجوَّ حارٌّ للغاية لفعلِ أي شيء سوى لعب التنس- وكما سيخبرك بونسر، على الأرجح عندما تراه في المرة القادمة (كتبتُ له تقريرًا كاملاً)، رأيتُ كليات الجغرافية والتاريخ، غنيتُ بفرحٍ، أكلتُ الفراولة وتجادلت بغضبٍ مع عمي المسكين الذي انتقم لنفسه يوم الأحد بتقديم موعظة عن روما في الصباح، وعن التواضع في المساء، كلتاهما كانتا «سيئتين للغاية» عندي.

ذهبتُ إلى المدينة بالأمس من لينكولن وأعطيت فرانك مايلز(222) سلَّة زهور عظيمة تقدِمةً من فندق ريكتوري. وجدته يرسم أكثر النساء جمالاً وخطورةً في لندن الليدي ديسارت، إنَّها حقًّا فاتنةٌ للغاية.

جئت في ليلة الإثنين للقراءة من أجل الامتحان الشفهي، لكن صباح الأمس في العاشرة أيقظني كاتبُ الكلية ووجدت أن الامتحان قد بدأ بالفعل.

كنتُ خائفًا للغاية من أن تُطلب مني ترجمةُ كاتلوس(223) ولكنِّي مُنحتُ امتحانًا طيبًا للغاية من رجلٍ مبهج للغاية. الامتحانُ ليس من المنهج على الإطلاق، وضع أسخيليوس

مقابل شكسبير، الشِّعر الحديث أو الدراما وكل موضوع قابل للنقاش. كنتُ متيقظًا ساعةً كاملة وشعرتُ بالأسى جدًّا لانتهاء الامتحان. كيف لا وقد كنت أرعى في أرضٍ مقدَّسةٍ.

أنا ذاهبٌ إلى بينغهام مع فرانك مايلز وآر. جوير(224) يومَ السبت ولمدة أسبوع. لديهم الكنيسةُ الأكثر جمالاً وحداثة في إنكلترا، وأفضل زهور الزنبق، سأكتبُ لك وأخبرك عن ذلك.

لأنني مفلس كليًّا لن يكون بوسعي الذهاب إلى المدينة حتَّى يوم الجمعة. يسيرُ الوقت ببطءٍ هنا -الآنَ وقد رحل بونسر- لكن الليلة تصل قائمة نتائج امتحان مرتبة الشرف، لذا سأحظى ببعض حماس التهنئة، أنا بالفعل لا أكترث البتة -الآن لم يعد أحدٌ يكترث- وأتوقَّع كثيرًا أن أحصلَ على المركز الأول مجدَّدًا بعد امتحان المنطقِ، رغمَ أنَّ عددًا من الرِّجال لامعي الذَّكاء قد خاضوا هذا الامتحان أيضًا (مثل هذا الخدِّ!)(225).

سترى القائمةَ على الأغلب يوم الخميس أو الجمعة، إذا ما حصلتُ على المركز الثاني فلا تبالِ وقرِّعني ببشاعةٍ، وإنْ حصلتُ على المركز الأول قل إن ذلك ما توقعته بالضبط.

انظر لنتائج عدم وجود شيءٍ لتفعله؛ رسالة من عشر صفحات!

صديقكَ إلى الأبد/

أوسكار. او.اف.اف.وايلد

سيكون عنواني في فندق ريكتوري، بينغهام، نوتس، بعد يوم السبت. أرجو أن تكتب سطرًا وتخبرَني فيه أكثر عن أحوال بونسر.

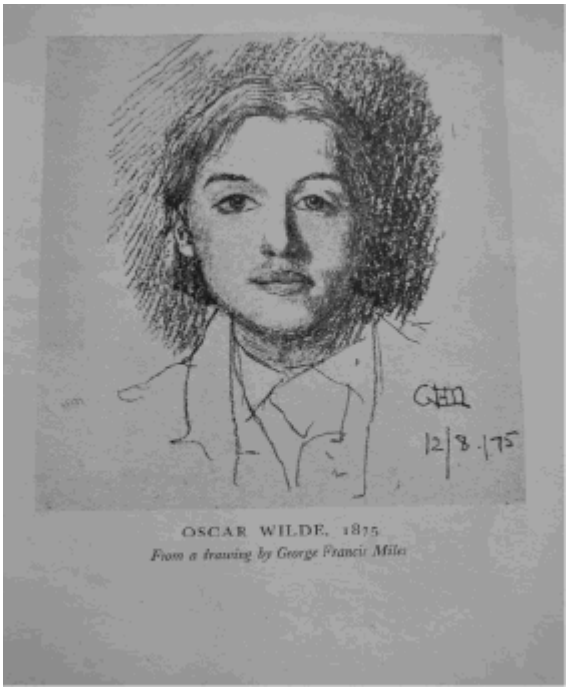

أوسكار وايلد - ١٨٧٥

من رسمة لجورج فرانسيس مايلز

الرسالة الرابعة

إلى ويليام وارد: العاشر من تموز ١٨٧٦

البيت الرابع، شارع ألبرت.

أيُّها الصَّبي العزيزُ،

أعرفُ أنك ستكون سعيدًا لسماع أنني حصلتُ على المركز الأول بالفعل. جئتُ من ريف لينكولن إلى المدينة يوم الإثنين، وذهبت تلك الليلة إلى كلية ماجدلين للاستعداد للامتحان، ولكن بينما أنا مستلقٍ على سريري مع كتاب سوينبرن (نسخةٍ منه)، صباح يوم الإثنين، أيقظني كاتبُ الكلية الذي أراد معرفة سببَ عدم حضوري للامتحان، إذْ حسبتُ أنه يوم الثلاثاء في الساعة الواحدة. قفزت من السرير، وعلى الفور انغمست في جوٍّ من الألُوهية، لقد كان امتحانًا شفهيًّا ممتعًا، بدأنا مع الأوديسة حيث تناقشنا بشعرٍ ملحميٍّ في العموم عن الكلاب والنساء. ثم عن أسخيلوس حيث تحدثنا عنه بالمقارنة مع شكسبير ثم عن والت

وايتمان والشِّعرية. طالَ النقاش في مقالتي حول محاورة الشِّعر لأرسطو، وكل شيءٍ كان ممتعًا، عرفتُ بالطَّبع أنني حصلتُ على المركز الأول، لذا كنتُ مختالاً بنفسي بشكلٍ فظيعٍ.

في اليوم التالي تناولتُ الطعام برفقة بي سي ونيكول في كنيسةِ الصليب، جاءت القائمة في الساعة السابعة بينما نحن نسير. قلتُ إنني لن أذهب إلى الكلية -لأنني أعرف أنني حصلت على المركز الأول كما قلتُ- وتسببت لهم بإزعاج كبيرٍ بلا شك. لم أعرف أن الحضور إلزاميٌّ إلاَّ في السَّاعة الثانية عشرة من اليوم التالي، كنتُ أتناول الإفطار في ميتري وقرأت ذلك في جريدة (التايمز). على أي حال صحيح أنني مختالٌ فظيعٌ لكنني سعيدٌ بنفسي حقًّا. أمِّي المسكينةُ في سعادةٍ عظيمة وقد غمرتني البرقيات يومَ الخميس من كلِّ معارفي. كانَ أبي سيُسَرُّ بذلك كثيرًا؛ أعتقد أن الربَّ كان قاسيًا معنا للغاية حتَّى حرمني من الشعور بأي سعادة رغم النتيجة، وأنا لا أمتلك الإيمان الكافي بالتدابير الإلهية للإيمان بأن كل تلك المعاناة تحمل خيرًا في طيَّاتها، أعلم أن لا خير فيها أبدًا، وأشعرُ بشعورٍ مقيتٍ للغاية حين أذهبُ إلى بيتنا وكلُّ ما فيه حافلٌ بالذكريات. سأذهبُ اليوم، وأبقى لأسبوعٍ في بينغهام، مع آل مايلز. لقد كنت أقيم هنا مع جوليا تيندل وهي في حالٍ عظيم. بالأمسِ سمعت الكاردينال في كاتدرائية برو يعِظُ في حفلٍ خيري، إنَّه مذهل أكثر من أي وقت مضى. التقيتُ ماكوكل وويليامسون هناك وقد ألقوا التحية عليَّ مع كثيرٍ من الإعجاب، أشعرُ بأنني دجَّالٌ وخائنٌ لنفسي في مثل هذه المناسبات ويجب أن أفعلَ ما هو مقرَّرٌ مسبقًا.

بعد أن ذهبتُ إلى حديقةِ الحيوان مع جوليا وأبناء بايتون الاثنين -توم بخير تقريبًا- ستيوي الشاب تعشَّى معنا يوم السبت. قال إنه يخشى أن تكون قد انزعجت منه بسبب أفعاله الفاحشة وهو على الطَّريق لإصلاح نفسه. على كلِّ حالٍ فقد وجدت أننا على حقٍّ في إظهار الانزعاج عن طريق إهمالنا لهم، في الفصل القادم لن أهملَهم.

آمل أن ترى عائلة كيتين، لقد تلقيت رسالة لطيفةً للغاية منه عن امتحان درجة الشَّرف. لقد سقطتْ أخته من تقديري بالفعل لغرامِها بالبجع، هذهِ الكائنات سريعة الانفعال برأي الرِّجال، ولا يمكن للنِّساء أن تطيقها على ما أعتقد. اكتب قريبًا إلى فندق ريكتوري في بكنغهام، ريف نوتنغهام.

المخلص أبدًا/

أوسكار. او.اف.اف.وايلد

الرسالة الخامسة

إلى ويليام وارد: السابع عشر من تموز/ يوليو ١٨٧٦

(ورق يعلوهُ ختمُ بينغهام، نوتس)

بينغهام، الإثنين.

أيُّها الصَّبي العزيز،

لم أسمعْ خبرًا منك قط عدا خربشاتك التي كتبتها على الصُّخور.

مع ذلك آمل أن أجد بعضًا من الرسائل تنتظرني في المنزل.

قضيتُ أسبوعًا ممتعًا هنا. الحديقةُ والمنزل في غاية الجَمال. لم أرَ زنابقَ مثلَ تلك أبدًا، بيضًا وحُمْرًا وذهبياتٍ. العائلةُ كلُّها تقريبًا فنانون جيدون، السيدة مايلز مذهلة للغاية. أفترض أنك تتذكر عندما أريتك رسوماتها في مدرسة روسكن في أكسفورد، عندما ذهبنا هناك مع أختك.

السيد مايلز، الأب(226) رجل إنجليكاني متمدِّنٌ للغاية وصديق قريب لنيومان، باوسي، ماننغ، غلادستون وكل باحثي الثيولوجيا الإنكليز.

أنه لمَّاح وذكيٌّ للغاية: لقد تعلَّمتُ منه الكثير.

إذا أردتَ كتابًا مثيرًا للاهتمام احصل على كتاب بومبينو ليتو(227) (تقريرٌ عن آخر مجالس الفاتيكان)، كتاب درامي مذهل للغاية. كم غريب أن يعلن البابا على الملأ يومًا ما عن عصمته من الخطأ، هذا يماثل في عُرف الكنيسة عاصفةً مخيفة تحلُّ على روما وصاعقتين من السَّماء. إنه كتاب يتحدث عن ثورٍ متكلِّم في إيفي وأمطار الدَّم التي كانت تحدث على الدوام.

لا أعرف بم أفكر، أتمنى لو تأتي معي إلى روما لنبحث في حقيقة الأمر؛ أنا أخشى الذهاب لوحدي.

لم أعرف من قبل كم أوشكتْ الكنيسة الإنكليزية على الالتحاق بروما.

قبل إقرار عقيدة الحبل بلا دنس(228) كان باوسي وليدون(229) وآخرون يعملون بجهد من أجل إحلال السلام والإتحاد مع روما، لكنهم الآن يتطلعون إلى كنيسة يونانية، لكنني أظن أنه محض حلم وغريب للغاية أن يكونوا متحمسين للغاية للإيمان بأن العذراء المباركة قد ارتكبت الخطيئة.

أما ما يخص الحياة على الأرض فقد شاركنا بحفلاتٍ ممتعة للغاية في الحدائق، وقدر هائل من اللعب بالتنس. المنطقة فخورة بعملاق هائل الحجم، واسمه لاسيلس، إنه في السادسة عشرة من العمر وطوله يزيد على مترين! إنه يدرس مع السيد سيمور بالقرب من هنا، إنه

رجل دين. كم سيكون وصوله إلى كلية ماجدلين حماسيًا، لكنه لن يذهب إلى هناك قبل سنتين من الآن، لذا لن نراه هناك.

أفترض أنك سترى كيتين بعد أن تغادر لوندي. أرسل لي عنوانك مثل فتىً طيب، عنواني سيكون المنزل الأول شمال ساحة ميرويون، دبلن، حتَّى أذهب إلى غالاوي قريبًا على ما آمل.

المخلص لك أبدًا/

أوسكار. او.اف.اف.وايلد.

الرسالة السادسة

إلى ريجنالد هاردنك: تموز/ يوليو ١٨٧٦

بينغهام، نوتس.

ولدي العزيز،

ألفُ شكرٍ لرسالتك. نصف متعة الحصول على المركز الأول تكمن في الحصول على تهانٍ رائعة كتلك. أنا حقًّا سعيدٌ قليلاً بإحرازِ هذه النتيجة رغم أنني تبخترتُ بشكل سيء وتظاهرت أنني لم أكترثُ البتة. في الحقيقة، لم أكن لأذهب لتلك الأمسية في الكلية يوم الأربعاء -قلتُ إنه أمر ممل- وحقيقةً لم أكن أنوي ذلك حتَّى الخميس في الثانية عشرة ظهرًا، عندما قرأت عن وجوب الحضور في جريدة (التايمز). الجزء السَّارُّ بالفعل هو أن والدتي في غاية السعادة. وصلتني كوْمة برقياتٍ يومَ الخميس من أيرلندا للتهنئة.

ذهبت إلى المدينة، يومَ الجمعة، وبقيت مع جوليا تيندل وقد قضينا وقتًا ممتعًا جدًّا. يومَ الأحد ذهبنا إلى حديقة الحيوان مع إلجي وتوم بايتون. توم بحالٍ جيد الآن، كان قد أصيب بشللٍ في وجهه.

جئتُ إلى هنا يوم الإثنين ولم تكن عندي فكرة كم هو رائع هذا المكان. حديقةٌ مذهلة مع ممشىً من الورد والزنبق الأبيض؛ المكانِ ينقصه أفعىً وتفَّاح ليصبح جنة. الكنيسةُ جيدةٌ للغاية. فرانك ووالدته فنَّانانِ جيدانِ جدًّا، رسما نوافذَ جميلة جدًّا وملائكة من الفريسكو على الجدران، وواحدة من أخواته نَحتتْ الواجهةَ والمذبح. إنها ببساطة جميلةٌ وقد فعلوا كلَّ شيءٍ بأنفسهم.

هذه العلامات الحمراء المريعة التي لطَّخت الورقةَ هي بقايا فراولة كنتُ آكلها على الفطور وخلال الفواصل بين مباريات لعبة التنس التي أتقنتها.

لآل مايلز أربعُ بنات، كلهن جميلات في الحقيقة، إحداهن تكتب على الجانب الآخر من الطاولة بشكل محبَّبٍ للغاية. قلبي محطَّمٌ بسببِ الإعجابِ بهنَّ جميعًا، وصحتي تفارقني لكوني عائدًا إلى أيرلندا في الأسبوع القادم.

لدينا، اليومَ، حفلة حديقة كبيرة هنا، وغدًا حفلة عند دوق روتلاند القريب جدًّا.

جعلتُ نفسي ساحرًا أكثر من أي وقت مضى ومحبوبًا للغاية. خضتُ مناقشاتٍ جيدةً مع العميد مايلز وهو صديق مقرب لنيومان، باوسي، ومانغ في أكسفورد وهو إنجليكاني متمدِّنٌ للغاية.

اكتب لي قليلاً عن قريب كأيٍّ فتىً جيد.

المخلص إلى الأبد/

أوسكار. او.اف.اف.وايلد.

سمعتُ الكاردينالَ يعِظ في حفل خيري في كاتدرائية برو في كينغستون، ماك كول كان هناك.

الرسالة السابعة

إلى ريجنالد هاردنك

شمال ساحة ميريون

العشرون من تموز/ يوليو، سنة ١٨٧٦

عزيزي كيتين؛

ألفُ شكرٍ على الشهادة؛ وضعتها بالطبع في أرشيف العائلة، عندما سيتم العثور عليها خلال مائتي أو ثلاثمئة سنة، عندما يكرس بعض أفراد العائلة أنفسهم للتاريخ الطبيعي وعادات العرق الأيرلندي، ستثير الكثيرَ من المناقشات بينهم. في حالة أصبحت مفلسًا أفترض أن تلك التواقيع ستساوي شيئًا ما بالذات تلك التي من الأطفال والنسوة العازبات أريد عنوان بونسر، هلا تتكرم بإرساله لي مثل فتى طيب متى ما تمكنت من تذكره؟

وجدت كومة من رسائل التهنئة من كل أنواع الأشخاص، برقية من هاموند والصبي، فتحتها أمي بالطبع، وقد أزعجها للغاية أن تبدأ بعبارة: «حقًا أوسكار؟» وهل كان القديس ألوسيوس أحد الفاحصين؟

لا تنسَ عنوانَ بونسر.

(تم قطع التوقيع)

الرسالة الثامنة

إلى ويليام وارد: أواخر تموز/ يوليو ١٨٧٦

المنزل الأول، شمال ساحة ميرويون، دبلن.

ولدي العزيز،

أرسلت لك رسالتين ساحرتين، واحدة من مركب جوليا تيندل في لندن وواحدة من بينغهام. هل حصلت عليهما؟ أم استُخدِمَتا من قبل الجهلة في لوندي كنماذج على كتابة الرسائل المهذبة؟ أتمنى ألاَّ يعتادوا على لفِّ السمك بهما مثلما حدث في جنازة صديقنا(230) (انظر نتيجة الحصول على مرتبة الشرف؟).

عدت هنا البارحة من بينغهام. حصلت على وقت لطيف للغاية هناك، العائلة بأسرها كانت ساحرة. السيد مايلز يعرف أباك عندما كان رئيس كنيسة سانت رفائييل في بريستول وتحدث كثيرًا عن فكره الحر العظيم وإخلاصه للكنيسة. كان مهتمًا للغاية بالحديث عنك.

وصلتني كومة مبهجة من رسائل التهنئة -الجزء الجيد من امتحان درجة الشرف- من مارك وجاك بورو والعديد من الزملاء الذين لم أتوقع أنهم سيتكلفوا عناء ذلك. برقية عبثية بشكل فظيع من هاموند والصبي أرسلت هنا وقد فتحتها ماما بالطبع، والتي كانت منزعجة لما قد يفعله السيد القديس ألوسيسوس معي، ولماذا عندما تكون البرقية تكلِّف شلنًا لكل عشرين كلمة، يبدؤها رفاقي بعبارة «حقًّا أوسكار؟».

ذهبت إلى مايو على الأغلب الأسبوع القادم، ومن ثم إلى غالاوي للقيام بصيد الأسماك. عنوان في غالاوي هو: إليانور، لينان، كو. لكنني لست متأكدًا من وقت ذهابي إلى هناك، لذا سأكتب هنا وأخبرني كل شيء عن أقرب قطط الملك.

أفترض أنك قد أُخبِرتَ عن الشهادة التي أرسلَها إليَّ الجميعُ، من بينهم جيشٌ من الأطفال.

سوف أقوم بتعديل كتاب أبي غير المكتمل عن حياة الفنان غابرييل بيرانغر لعيد الميلاد القادم، لذا بين ذلك وبين نيومان لن يكون هناك وقت لأي قراءة لأجل المنحة.

عن نيومان أعتقد أن أعلى مشاعره تعارض روما لكن المنطق جعله ينزلق لقبولها باعتباره الشكل المنطقي الوحيد من المسيحية. حياته مأساة رهيبة، أخشى أنه رجل تعيس للغاية. اشتريت الكثير من كتبه قبل مغادرة أكسفورد.

لحسن الحظ أُنجِزَ ثلاثةُ أرباع كتابِ (حياة بيرانغر)، لذا لن أتعبَ فيه كثيرًا، مع ذلك لا تزال تلك مسؤوليةً كبيرةً، لن أتوانى في عملي ولن أتكاسلَ.

أرجو أن تكون والدتك وأختك بخير.

المخلص لك أبدًا/

أوسكار. او.اف.اف.وايلد.

الرسالة التاسعة

إلى ويليام وارد: الخامس والعشرون من تموز/ يوليو ١٨٧٦

المنزل الأول شمال ساحة ميريون، دبلن.

ولدي العزيز،

أعترف أنني لم أكن متعبدًا في معبد المنطق، أعتقد أن منطق الرجل هو المنطق الأكثر ضلالاً وتخييبًا للآمال ما عدا ربما منطق المرأة. الإيمان كما أعتقد مصباح مشرق ينير الطريق لقدميك رغم أنه نبتة غريبة مزروعة في عقل الإنسان ويتطلب رعاية مستمرة. والدتي ستوافقك الرأي على الأغلب. ما عدا الأشخاص الذين تعتقد أن العقيدة ضرورية لهم لقد رفضت كل أشكال الروحانيات والعقائد بالذات أي فكرة عن القديسين والتضحيات القائمة بينهم وبين الرب، كان عندها إيمان قوي للغاية بمفهوم الرب، كنا ندعوه الروح المقدسة، الذكاء الإلهي الذي يقيم في الأرض. إنها قوية للغاية رغم أن الزمن المثقل بالمتاعب والاضطراب يجعلها تغوص في التشاؤم.

آخر المتشائمين الذين تستمع لهم هو شوبنهاور الذي يقول إن العرق البشري لا بد أن يأتي عليه اليوم الذي يحتج فيه بقوة، ولكن باحترام، على الرب لمشيه على البحر وتركه العالم دون رعاية. لكن بالطبع أنا أخشى أن بعض الجَماجِم البائسة ستداري وجهها وتسلمه لإيادي الناس مجدَّدًا.

دعني أسألك ألا ترى جمال وضرورة تجسد الرب في شخص المسيح، تجسد الرب كإنسان لمساعدتنا بإدراك اللانهائي. مفهوم التكفير عن خطايا البشر كما أعترف يصعب فهمه، لكن برأيي بما أن المسيح كان ميتًا وعاد إلى الحياة فقد عدنا للحياة كلنا. أعتقد أن الدليل الأعظم على مفهوم التجسد في المسيحية هو وجود رجال نبلاء كثيرين يتجسد في نبلهم الرب على الدوام كما يتجسد في أفكار نبيلة، ليس ذلك محض رواية لتاريخ غير مؤكد.

أعتقد أنك ملزم بالاعتراف (الاعتراف نفسيًا) أن القديس بيرنارد والقديس أوغسطين والقديس فيليب نيري -وحتَّى في يومنا هذا مع ليدون ونيومان - فلاسفة جيدون ومسيحيون صالحون. هذا يذكرني برواية (الجمهورية الجديدة) لمالوك في مجلة (بيلغرافيا)(231)، إنه عمل ذكي للغاية بالذات شخصية جويت. إذا كنت تمتلك مفاتيحَ تفسير الشخصيات أرسلها لي من فضلك.

أرسل لك هذه الرسالة ومعها كتاب، أتساءل أيَّهما ستفتحُ أولاً! الكتاب هو رواية (أرورا لي) (232) وأتذكر قولك إنك لم تقرأها من قبل.

إنه واحد من تلك الكتب المكتوبة من القلب بشكل مباشر، ومن قلب كبير للغاية لا قلب متكلف، لأنه كتاب صادق للغاية. لقد ضجرنا من الفن لكن ليس من الطبيعة بعد كل تمريننا الجَمالي. إنني أنظر إلى هذه الرواية مثلما أنظر للأعمال العظيمة في أدبنا.

أضع هذا الكتاب بمنزلة هاملت وبمنزلة قصيدة الذكرى(233)، إلى هذا الحد قد أحببته حتَّى كرهت فكرة إرساله لك بدون التأشير على بعض المقاطع التي أشعر أنك ستقدرها كثيرًا، لكنني وجدت نفسي أوشر على كل الكتاب. أنا آسف جدًا أن ذلك أشبه بإعطاء باقة زهور منتفة بدلاً من السماح لك برؤيتها بنفسك. لكن ليس بوسعي مقاومة الإغراء، فقد كان هذا هو الحل بدلَ الكتابة لك عن كل مقطع.

الخطأ الوحيد أنها تبالغ في استعمال الاستعارات، وعلى الرغم من أن الواحد لا يحب العواطف المصطبغة فإنَّها وعرةٌ فنيًا كذلك، كما تقول بنفسها فهي تطرق بالمطارق لتنحت صخرةَ الكرز(234). أتمنى أن يتسنى لك الوقت لقراءته، فأنا لا أصدق بتشاؤمك بخصوص امتحان الكلاسيكيات.

كتبت لكيتين طالبًا عنوانك وقد وصلت رسالته ورسالتك في نفس الوقت. أفكاره مثل حبره نادرًا ما تتجاوز الورق.

أحيانًا أمتطي الجياد بعد السادسة لكن لا أصنع شيئًا ذا بالٍ سوى السباحة، ورغم أنني أشعر على الدوام بالخلود حين أكون في البحر لكنني اشعر أحيانًا بكوني مهرطقًا حين يدخل الصبية الكاثوليك الرومان الطيبون إلى الماء وهم يعلقون التمائم الصغيرة والصلبان حول رقابهم وأذرعهم عسى أن تتلقاهم يد القديس كريستوفر الطيب(235).

أنا الآنَ ذاهب إلى الفراش بعد قراءة فصل من أعمال القديس توما الكيمبي(236). أعتقد أن نصف ساعة كل يوم تقضيها في تقويم ذاتك خير طريق إلى القداسة.

اذكرني عند أمك وأختك.

المخلص لك إلى الأبد/

أوسكار. او.اف.اف.وايلد.

الرسالة العاشرة

إلى ريجنالد هاردنك، آب أغسطس ١٨٧٦

البيت الأول ساحة ميريون.

يوم الأحد.

عزيزي كيتين،

أفترضُ أنك تقرأ بجهد كبير جدًا لا يترك لك وقتًا لكتابة أي رسالة. يبدو أن وقتًا طويلاً قد مر منذ سمعت أخبارك. وبالنسبة لبونسر فلم يصلني منه شيء منذ أسبوعين.

في آخر رسائله اشتكى بشكل رهيب من أن أمه وأخواته لا يدعنه يقرأ، آمل أن عائلتك أفضل حالاً ويدعمون عملك بكل الطرق.

كنت أكتب إلى أخي، وهو في جولة، وإلى فرانك مايلز الذي لا يستطيع الخلاص من المنزل حتَّى نذهب سويًا إلى غالاوي، أتوقع أن يأتي كلاهما غدًا. أنا متعب للغاية من السباحة في البحر ومن لعب التنس وسأكون سعيدًا حين أذهب هناك يوم الثاني عشر، بعد هذا المطر سيكون هناك الكثير من السمك لاصطياده.

أنا ذاهب الآن لاصطحاب فتاة جميلة بشكل منقطع النظير إلى قدّاس الظهيرة في الكاتدرائية، إنها في السابعة عشرة من العمر فحسب ولها أجمل وجه مثالي رأيته في حياتي، سأريك صورتها حين نلتقي مجدَّدًا.

ستروت وزوجته أو بالأحرى السيدة ستروت وزوج السيدة ستروت موجودان في المدينة، سأتصل بهما وأراهما في طريقي.

آمل أن تكتب لي قريبًا عنك وعن كل ما يخصك.

المخلص لك أبدًا/

أوسكار. او.اف.اف.وايلد

الرسالة الحادية عشرة

إلى ويليام وارد: الخامس من آب/أغسطس ١٨٧٦

المنزل الأول شمال ساحة ميريون

الأحد.

عزيزي بونسر؛

إنك متأكد أنك لم تستلم الرسالة والكتاب اللذين أرسلتهما لك منذ عشرة أيام. فلا يمكن أن تكون مثل مقاتل بربري هكذا، فلا تكتب لي كم سحرت برسالتي المبهجة وبالكتاب فيم لو حصلت عليهما. أرسلتهما إلى كليفت كورت. لو لم تحصل على الكتاب استفسر من مكتب البريد عندكم لأنني سأكون حزينًا جدًا لو لم تحصل عليه؛ إنه كتاب السيدة براوننغ «أرورا لي».

لدي ثلاث قصائد (وربما أربع!) ستنشر في الأول من أيلول/ سبتمبر في مجلات مختلفة -وأنا في سعادة عظيمة بها - سأرسل لك واحدة منها أود لو تقرأها. لم أتخذ لها اسمًا ولكن وضعت لها شعار «غنِّ ما شئتَ بألمٍ لكن دعِ الخيرَ يعمُّ»(237).

أنا مع ذلك العزيز مهافي كل يوم. هو يمتلك هنا منزلاً ساحرًا قرب البحر في مكان يدعى تل هاوث (واحد من القرون الهلالية التي تطل على خليج دبلن)، المكان الوحيد قرب المدينة بحقول من زهور الرتم الصُّفْر، وعلى مد البصر ترى الآس البري والخلنج الأحمر والسراخس. بالتجول في الجزر السحرية عند كنيسة بينغهام وآكل لوتس الحب(238) وعشبة مولي(239) للسلوى عن الحب. وصلت متأخرًا للغاية للذهاب إلى حفلة ساحرة إلى شمال أيرلندا مهافي، والسير أبلتون محرر (المجلة الأكاديمية)، وأخي قضوا وقتًا ملكيًا جدًا، لكن سيرسي وكاليبسو أخّرتاني (240).

حجزَ مهافي رحلةً إلى اليونان، سيذهب قريبًا، كنت أصحِّح بعضَ مقالاته وأحببت ذلك بشدة.

أتمنى ألا يكون قد أصابك أو عائلتك خطب ليمنعك من الكتابة.

المخلص لك أبدًا/

آوسكار. او.اف.اف.وايلد.

ملاحظة: هل كتبتَ إليَّ على عنواني في إيلينور؟ أرجو ألا تفعل، إنهم لا يستلمون الرسائل إلا مرة كل أسبوع هناك.

الرسالة الثانية عشرة

إلى ريجنالد هاردنك: آب/ أغسطس ١٨٧٦

منزل مويتري

الأربعاء.

عزيزي كيتين؛

هل سقطتَ في بئر أو لعلك تهتَ في مكان ما حتَّى ما عاد ممكنًا أن تكتب لي؟ أم أنك فقدت روحًا من أرواحك التسعة؟

أنا وفرانك مايلز نزلنا هنا الأسبوع الماضي، وقد قضيت وقتًا ملكيًا في الإبحار. نحن في قمة بحيرة كوريب والتي لو نظرت عليها في خريطتك ستجدها بحيرة طولها ٣٠ ميلاً وعرضها عشرة، وتقع في أكثر المشاهد رومانسية في أيرلندا. منذ مجيئه رسمَ فرانك لوحاتٍ مذهلة للشروق، وقد أعطاني المزيد من أعماله. هل حصلت أختك على لوحته المسماة «سيدتي الصغيرة»؟ اللوحة عبارة عن وجه بنتٍ صغيرةٍ لها طبقاتٌ كثيرةٌ من الشَعر المنسدل؟ لو لم تحصل عليها أحبُّ أن أرسلها لها مقابل توقيعها على برقية في الاحتفال.

لم يطلق فرانك النار من سلاحه طَوال حياته (ويقول إنه يأنفُ من ذلك)، لكن بما أن موسم الصيد المناسب هنا لا يبدأ حتَّى أيلول/سبتمبر فلم أرهقه بشيء. لكن يوم الجمعة سنذهب إلى كويميرا إلى ضِفة صغيرة ساحرة لصيد السمك

موجودة بين الجبال حيث آمل بأن يتمكن من صيد السلمون ويحصد صيدًا طيبًا. أتوقع أن يكون الصيد جيدًا جدًا هذا الموسم. اكتب لي هنا لو لم تُقْطَع مخالبُك! عنواني هو بحيرة أليانور، لينان، كو. غالاوي.

كل الحب إلى باس، أتمنى أنه يدرس بجدٍّ.

المخلص إلى الأبد/

آوسكار. او.اف.اف.وايلد.

الرسالة الثالثة عشرة

إلى ويليام وارد: الثامن والعشرون من أيلول/ أغسطس ١٨٧٦

بحيرة إليانور، كوينيميرا.

بونسر العزيز؛

سعيدٌ للغاية بسماع أخبارك أخيرًا: كنت أخشى أن تكون لا تزال متوعكًا.

لا أحتاج لقول كم كنت محبطًا لعدم تمكنك من القدوم ورؤية هذا الجزء من العالم: لدي رفيقان سيبقيان معي، ديك ترينج وجاك بارو، اللَّذان يتخذان لهما مقرًا عندَ بحيرة بالقرب من هنا طَوال شهر تموز/ يوليو، وجاءا ليبقيا معي منذ حوالي ثلاثة أسابيع مضت، كلاهما كبيران، في الحقيقة ديك ترينج على ما أعتقد أكبر أصدقائي سنًا. لكنني لا أقرأ أي شيء وأقضي الأماسي في مسبح إيكرايتي وبوثن بانج، أتمنى لو كنت حاضرًا هنا، يحتاج المرء رفيقًا ليقرأ.

مع ذلك فأنا أجهز مقالين، الأول عن الإغريق والثاني عن الفن، وهما يبقيانني أفكر إن لم أكن أكتب، لكن من ناحية الأعمال العظيمة فلم أنجز شيئًا. على أي حال أفترض أن هناك دراسات مربحة أكثر من دراسة مادة الكلاسيكيات، مع ذلك لا أزال راغبًا بشدة في دروس جيدة، وأود لو أعرتني ملاحظاتك في الفلسفة: أعرف أسلوبك وأظن أن من مصلحتي للغاية أن أحصل على ملاحظاتك عن كتاب الأخلاق، السياسة (الجمهورية) والفلسفة العامة، هل بوسعك فعل ذلك لي؟ هلا أرسلتهم إلي في دبلن؟ أو على الأقل إلى أكسفورد في الفصل التالي؟ وأيضًا انصحني بشيء لفعله فليس بوسعي تحمل الكبار في السن، الأمر أشبه بالوعظ لكنني أعتقد أنني سأرغب بنصيحةٍ منك أنت الذي تمكنت «من السير على النار».

الجو طيب لكنه ليس جيدًا للصيد، حصلت على سمكة سلمون واحدة فقط لكن «حقيبتنا» امتلأت بالأمس باثني عشرة سمكة تروت (سلمون مرقط) بيضاء وعشرين واحدة بنية، وذلك ليس سيئًا. كما حققت نتائج كبيرة في صيد الأرانب البرية لكنني لست موفقًا في تسلّق الجبال. وردتني رسالة من الآنسة فليتشر التي لا تزال في تايرول عبر نفس البريد الذي جاء برسالتك، وهي بالطبع ترسل لك أطيب تمنياتها. إنها تكتب بنفس ذكاء حديثها، أنا منجذب إليها من كل الجوانب.

رجاء أبلغ أختك أنني أتمنى لها كل الخير في زواجها القريب، أتذكر نافذة السيد سانت جون للغاية وأتمنى أن تسنح لي فرصة التعرف اليه يومًا ما، لا بد أن يكون فنانًا لتكون له نافذة كتلك، هل الزواج قريب؟ كيف ستبدو فيه؟

المخلص إلى الأبد، أوسكار وايلد.

أنا ذاهب إلى لونغفورد يوم الجمعة للرماية.

اكتب لي على عنوان منزل غلونفين، غرينارد، كو، لونغفورد.

الرسالة الرابعة عشرة

إلى ويليام وارد: أيلول/ سبتمبر ١٨٧٦

إيلانور لودج، كويميرا.

عزيزي بونسر؛

أنا سعيد للغاية لإعجابك بأرورا لي، ببساطة أظن أنه عمل «عميق» من كل الجوانب. أنا أغوص عميقًا في مقال مراجعة أعدُّه حول آخر كتاب لسيموند(241)، بوسعي الحصول على وقت وجو مشرق للغاية للصيد. وعَدَ مهافي بالاطلاع عليه قبل النشر. حتَّى الآن يسعدني القول إنني كنت مشغولاً للغاية بالعصا والسلاح ولست متفرغًا لريشة الكتابة (جملة أنيقة مثل جمل البابا؟).

لم أصطد سوى سمكة سلمون واحدة حتَّى الآن لكن حصلت على كومة من أسماك التروت البحرية وهي أسماك قوية. لم يمر يوم دون صيدي أي شيء حتَّى الآن. الصيد قليل لكنني اصطدت الكثير من الأرانب البرية لذا شغلت بها. آمل في السنة القادمة أن تكون حاضرًا أنت وآل كيتين وتبقون لشهر معي. أنا متأكد أنك ستحب ذلك الريف الجبلي البري، إنه قريب من المحيط الأطلسي وبوسعك ممارسة أي رياضة تحب. إنه مكان مذهل للغاية وقد جعلني أصغر سنًا مما هو مكتوب في الوثائق التاريخية.

آمل أن تقرأ بجد؛ لو لم تحصل على المركز الأول يجب أن يفصل القائمون على الامتحان.

اكتب لي مثل فتىً طيب إلى منزل مويتورا، كونغ، ولاية مايو، حيث سأغادر مكاني الحالي هذا الأسبوع.

مع أطيب التحايا لوالدتك وأخواتك.

المخلص لك أبدًا/

أوسكار. او.اف.اف.وايلد.

ملاحظة: فرانك مايلز معي، إنه مبتهج بكلِّ شيء.

الرسالة الخامسة عشرة

إلى ويليام وارد: أيلول ١٨٧٦

المنزل الأول في ساحة ميريون، الأربعاء.

عزيزي بونسر؛

أصبح ورق الملاحظات شحيحًا للغاية في الغرب وقد توجّب عليَّ التوقف عن إجابة رسالتك حتَّى أعود إلى البيت.

قضيت وقتًا ممتعًا وتريضت كثيرًا بالذات في الأسبوع الماضي الذي قضيته في الصيد حتَّى امتلأت جعبتي.

أخشى أنني يجب ألا أعبر إلى إنكلترا خلال بريستول حيث سمعت أن القوارب من نوع قديم! لكن ربما أفعلها وأذهب إلى بريستول مع فرانك مايلز إذ أريد رؤية كنيسة القديس رفائيل والصور في كليفديون.

أود كثيرًا أن أجدد صداقتي مع والدتك وأخواتك لذا سوف أكتب لك إذا وجدت أملاً في ذلك.

تخليت عن حجي إلى روما في الوقت الحالي؛ كان رونالد غيور وفرانك مايلز قادمين معي، (كنا سنصبح ثلاثيًا عظيمًا) لكن في اللحظة الأخيرة لم يتمكن رونالد من توفير الوقت، لذا سأبقى في دبلن حتَّى اليوم العشرين. عندها سأذهب إلى لونغفورد عسى أن يكون الصيد جيدًا هناك. سمعت من الكثيرين عن فكر والدك الليبرالي وروحه النبيلة، لذا أعرف أنك ستكون مهتمًا بالتقرير الذي أرسلته لك من مستشفى أبي، الذي بناه عندما كان في التاسعة والعشرين فقط ولم يكن رجلاً غنيًا، إنها ذكرى عظيمة لاسمه وهناك حركة قائمة لتوسيع المشفى.

وردتني رسائل ساحرة مؤخرًا من أصدقاء مقربين لأمي، أوبري دي فيرا، شاعر مثقف (رغم كونه بلا رغبات جنسية) ومتحول إلى الكاثوليكية. يجب أن أريك إياه؛ إنه مهتم للغاية بي وسينشر إحدى قصائدي في مجلة (الشهر)، لدي قصيدتان ستنشران هذا الشهر: الأولى في

(مجلة جامعة دبلن)، والثانية في (مجلة إيريش الشهيرة)، كلاهما مختصر وعلى أسلوب تينيسون.

آمل أن تنجز أعمالك بجد لكنني أفترض أن من الصعب أن تتمكن في المنزل من «التفكير المجرد» (أيًا كان معنى ذلك) دون إزعاج.

أنا منشغل بالعمل والكثير من الأشياء ووجدت العالم في «فوضى سياسية»(242) حاليًا وصخرة تاربيان(243) للرجال الصادقين. آمل أن تكتب لي حين يتسنى لك الوقت.

المخلص لك أبدًا/

أوسكار. او.اف.اف.وايلد

أحبُّ أن أوقِّع باسمي كله، كما لو أنني أوقِّع وثيقةً على قدرٍ كبيرٍ من الأهمية، كأن تكون أرسل حقيبتين من الذهب بيد حامل الرسالة أو دعِ الدوقَ يُذبح غدًا ولتنتظرْني الدوقةُ في هوسترلي. أرسلت لك إحدى رسائل أوبري دي فيرا، أعرف أنك ستعجب بها. أعِدها بعد أن تحفظها عن ظهر قلبٍ.

الرسالة السادسة عشرة

إلى ريجنالد هاردنك: السابع عشر من كانون الثاني/ديسمبر ١٨٧٦

المنزل ٨٥ شارع فيرمان، لندن، إس. أو.

الأحد

عزيزي كيتين؛

لم أحصل على سطر منك منذ استعجلت بالذهاب من أكسفورد لتتركني على فراش الانكسار؛ أفترض أن أعياد الميلاد شغلتك للغاية عن الكتابة لأي شخص.

قضيت وقتًا مبهجًا هنا؛ كم شاهدت من المسرحيات وكم تناولت العشاء خارج المنزل. يوم الخميس جلبت ماي الشاب إلى ويندسور قضينا يومًا رائعًا مع رونالد غيور الذي اشترى بيتًا جديدًا هناك (واحد من أجمل المنازل التي رأيتها على الإطلاق)، أخذنا إلى كنيسة القديس جورج في قداس الظهيرة ولم يعجبني الغناء كثيرًا. لم يتبقَ لنا وقتٌ بعدها إلا للحاق بقطار الساعة السادسة والنصف وذهبنا إلى قاعة ألبرت.

غنّى فولي بطريقة ساحرة وكانت الأغنية عن «نمر متقلب وأسد بشع».

أغنية جيدة لا بأس بها لكن ليمينز شيرنغتون كان مزعجًا نوعًا ما.

أعجبت للغاية بماي، إنه ساحر جدًا في كل شيء وفنان جميل.

تعشّى معي ليلة البارحة وذهبنا لرؤية هنري إيرفنغ يمثّل مسرحية (ماكبث)، لقد تمتعت بذلك للغاية طبعًا.

لم أسمع أي شيء عن بونسر ما عدا برقية لا يمكن فهمها أبدًا يوم نال درجته. على أي حال فقد وعد بالكتابة من «القصر».

أفترض أنك تعرف أنني حصلت على غرفه، أنا في قمة السعادة بذلك.

أنا راحل إلى أيرلندا الليلة وفي نيتي «التسلل مثل فأر» لحضور قداس الساعة الثالثة والنصف. دانسكي(244) ذهب بالأمس، كنا سويًا في مسرح كورت يوم الجمعة. أخبرني أن لانغ سيصبح كاثوليكيًا، يجب أن أتعرف عليه الفصل القادم لكن لا تقل ذلك لأحد.

مع حبي لبوس.

المخلص لك أبدًا/

أوسكار. او.اف.اف.وايلد

تذكر أن عيد الميلاد قريب، وهناك عادة قديمة في تقديم الهدايا. وقد منحتك زيارة لطيفة لمدينة أرندل عن قريب!

الرسالة السابعة عشرة

إلى ويليام وارد: كانون الثاني/يناير ١٨٧٧

المنزل الأول في ساحة ميريون،

الأحد.

عزيزي بونسر؛

أنا سعيدٌ للغاية بسماع أخبارك وأن أجد ملاحظاتك في الفلسفة جيدة للغاية كما توقعت دائمًا! إنه أمر رائع أن تكون جيدًا في موضوع يستحق أن تجهد فيه(245).

ما عدا آل مارك أعتقد أن القليل من الأشخاص قد ينشئون عملاً منتجًا على أساس أفكار مذهلة وأصلية. من المؤسف جدًّا أنك لم تؤلف كتبًا، أعتقد أن المرء يجب أن يكون من جبعون «يحتطب الحطب ويسقي الماء»(246) من أجل أن يضمن نجاح عمله الأول.

كلي أمل أن تبقى وتقرأ للحصول على منحة وليس لسبب أناني بأن تكون على مقربة مني في أكسفورد، لكن لأنني متأكد أنك ستحصل على منحة في غضون سنة، إن لم تحصل أنت على منحة فلا أعرف غيرك يستحقها أكثر.

سترى إيطاليا بمتعة كبيرة بعد أن تكسب المنحة وأنا أعتبر الحصول على المنحة شرفًا عظيمًا بالتأكيد. بعد عام قد تجد نفسك تعود لقراءة الفلسفة مجدَّدًا حتَّى يمنعك التعب من الرغبة في العودة لرحلة خضتها من قبل.

الجَّمال الأخَّاذ لإيطاليا قد يفسدك، أظن أنه قد فعل ذلك بي ليمنعني من العمل بجد مجدَّدًا، لكنني أظن الآن مع معرفتك التي لا تزال طازجة ودماغك الذي لا يزال متحمسًا أن بوسعك أن تعمل بجد ونجاح.

على أي حال فأنت أقوى مني بكثير، وربما لن تفقِدك إيطاليا أعصابك، وأعتقد أنها قاعدة ألا يكترث الناس أبدًا بالنصيحة التي قد يسديها لهم من هم بنفس عمرهم، على كل حال فلا وجود للتأثير والإقناع بلا تجاعيد أو شعر رمادي أو صلع.

كنت آسفًا للغاية لعدم قدومك إلى المدينة بعد انتهاء الفصل الدراسي. كان أسبوعي مبهجًا ورأيت كل شيء من نيلي برواملي ومحل القس في برومبتون، وحتَّى هنري إيرفنغ وغيبسون في مسرحية لهما. مسرحية رائعة بالمناسبة، يونانية للغاية، وتأثير الألوان في الديكور يمتد ليكون حقيقيًا وجميلاً. حظيت بيوم ساحر في ويندسور مع رونالد غيور وقد جلبت معي آرثر ماي ولم تشعر نفسي بمتعة مثل تلك منذ سنوات.

ذهبنا إلى كنيسة القديس جورج لقداس المساء بعد أن أنهينها غداءنا، وقد وصلنا في الوقت تمامًا إلى قاعة ألبرت.

التقينا أنا وآرثر ماي كثيرًا؛ إنه ساحر للغاية بكل أحواله وقد صرنا أصدقاء بسرعة.

دبلن بهية للغاية لكنني تعبت من حفلات المساء وأكل العشاء في المطاعم وهو أمر مرضٍ لغروري، خصوصًا لأن أهالي دبلن كلهم يعتقدون أنني في زمالة في كلية ماجدلين، لذا تجدهم يصغون لكل ما أقوله باهتمام عظيم.

تلقيت رسالة طويلة من آل كيتين، يطلبون مني الذهاب إليهم من أجل هذا لحفلة راقصة، لكنني رفضت مسبقًا دعوة مايلز الذي أراد مني الذهاب إلى بينغهام في نفس الأسبوع.

الحقيقة أن آمامي الكثير لفعله في دبلن وليس بوسعي مغادرة المنزل مبكرًا هكذا في العطلة.

أنا سعيد للغاية أن عائلتك قد أحبت الخاتم، ولو كان يكفي لنقش السطور اليونانية التي اقتبستها لكان ذلك ساحرًا، ربما نحفر أحرفنا الأولية من الداخل ومن الخارج «ذكرى الصداقة»(247).

وستكفينا المساحة بلا شك.

وجدت أنني قد كتبت اثنتي عشرة صفحة! يا لك من فتى مسكين! ولكن بما أنني لم أسمع منك خبرًا منذ وقت طويل فلدي الكثير لأكتب لك عنه.

بالتأكيد ستكون مفاجأة ساحرة لو وجدتك عند عودتي إلى أكسفورد؛ ليس بي حاجة لإخبارك أنني سأفتقدك كثيرًا لو ذهبت إلى إيطاليا. على أي حال آمل أن تأتي وترانا في الفصل القادم وسنعدك بعدم تسميتك العجوز الصدئ.

رجاءً بلِّغ أمَّك وأخواتك بأمنياتي لهنَّ بسنة جديدة سعيدة.

المحب/أوسكار وايلد.

ملاحظة: كيف لك وأنت شابٌّ محبٌّ للجَمال أن ترتدي زيًا صينيًا وتقدم نفسك لفتاة معجب بها؟ يجب أن تذهب إلى مطعم إيطالي متأبطًا أفلاطون تحت ذراعك. ألا تعتقد أن «القط ذا الجزمة» سيكون لقبًا مناسبًا للملك؟

الرسالة الثامنة عشرة

إلى ريجنالد هاردنك: آذار ١٨٧٧

كلية ماجدلين، أكسفورد.

عزيزي كيتين؛

بدأت رحلتي إلى روما في الأحد؛ اشترط مهافي أن يأتي جنوا معنا ليلحق بنا. أتمنى أن أرى القبة الذهبية لكنيسة القديس بطرس والمدينة الخالدة بحلول ليلة الثلاثاء.

هذا عصر أزمات في حياتي، كم أتمنى لو امتلكت القدرة على النظر إلى بذور الوقت لأرى أي ثمرة ستنتج منها.

لن أنساك في روما، سأوقِدُ شمعةً لك في مرقد سيدتنا.

اكتب لي مثل فتى طيب على عنواني في روما، فندق دي إنكلترا.

المخلص لك أبدًا/أوسكار.

الرسالة التاسعة عشرة

إلى ويليام وارد: فصل الربيع ١٨٧٧

(رسالة طويلة من صفحتين، الصفحة الأولى مفقودة).

... ويب وجاك بارو. ويزهر بسرعة ليكون رجلاً. على أي حال فهذا العمل قد قطع بسرعة من قبل العميد الذي رفض منحه شهادته بسبب تأخيراته. وي! وي! يا له من تعبير ذاك الذي كان على وجه مارك.

الطالب المستجد هو غور، صديق عظيم لتوم بايتون. غراي فتى لطيف من إيتون وقد جعلنا نتنبه جميعًا على فكرة أن وارتون ساحرة. إنه فعلاً يعجبني للغاية، رشحته مؤخرًا لنادي أبولو، ورشحت غيرهارد أيضًا، الذي خضت معه بضع جولات شرب وشهدت على طريقته اليهودية الصاخبة في السكر، وطالبين مستجدين هما فينتور وجانس كلاهما رفيقان تلقائيان جدًا. صرت شغوفًا جدًا بالماسونية مؤخرًا، وأومن بها بشكل كبير. في الحقيقة سيكون مؤسفًا حقًا أن يتوجّب عليَّ التخلي عنها في حالة نجوت من شرك العائلة البروتستانتي. أنا الآن أتناول الإفطار مع الأب باريكنسون، وذهبت إلى كنيسة القديس ألويسوس وصليت بعاطفة دينية، وأنا عالق حتَّى أخمص قدمي في حبال المرأة القرمزية حتَّى أنني قد أمضي قُدُمًا في التحوِل. لدي أحلام بزيارة نيومان وتناول السر المقدس للكنيسة الجديدة، وبالهدوء والسلام الذي سيعم روحي بعدها. لا حاجة بي للقول لكنني أخبرك أنني أتغيّر مع كل نَفَسٍ وأشطُّ بفكري بعيدًا، وأنا أضعف أكثر من أي وقت مضى.

لو أن عندي أملاً بأن تتمكن الكنيسة من إيقاظ شيء من الصدق والنقاء الداخلي فذلك خير سبب للانتماء إليها، لكنني لا أكاد أصبو بطموحي إلى هذهِ الدرجة. الانتماء إلى الكنيسة الرومانية سيكون تضحية، سيتوجّب عليَّ عندها التخلي عن أعظم إلهين عندي؛ المال والطموح.

مع ذلك لا زلت أمر بساعات من البؤس والاضطراب وضيق النفس فلا يعود بوسعي التخلص من ذلك المزاج اليائس إلا بالسعي لمأوى في الكنيسة التي ببساطة تفتنني بسحرها.

آمل أن تكون المدينة المقدسة التي أنت فيها الآن قد أيقظتك من الظلام الذي أعمى بصيرتك. هل لامسك ذلك الشعور بالسحر المذهل للكنيسة، إنه جميل إلى أقصى حد ومثير للعاطفة ويجعل الحركة تدب في كل جزء من روحك.

لقد مارسنا الكثير من الرياضات، ونحن الآن وسط سباق للتجديف، وغدا سنصطاد الحمام: للهرب من الصيد سأذهب إلى المدينة وأرى بعض الأعمال الفنية الكلاسيكية(248) مع آل كيتين المتحمسين للغاية للقدوم. عزيزنا بوس استيقظ، ورغم أن مظهره بائسٌ لكنه مشرقٌ ومبهجٌ كعادته. إنه شغوفٌ للغاية بفكرة الذهاب معي إلى روما في عيد الفصح، لكن لا أعرف إن كان بوسعي تحمُّل كُلفة ذلك، إذْ أُنتُخِبتُ في عضوية نادي القديس ستيفانس وعليَّ دفع ٤٢ جنيهًا، ولم أشأ أن أُنتَخَبَ لسنة أو نحوها، لكن ديفيد بلانكت سجَّلَ اسمي قبل حوالي ثلاثة أسابيع؛ دون أن يتكلَّف عناءَ إبلاغي بذلك.

سأتخلى عن العوالم كلها لأكون في روما معك أنت ودانسكي. أعرف أنني سأستمتع متعة لا مثيل لها لكن لا أعرف إن كنت قادرًا على تدبّر ذلك. سأشعر بالآمن من دانسكي عند معرفتي بوجودك.

أنا أتجهّز لامتحان «منحة أيرلندا»(249) يوم الإثنين. يا إلهي كيف ضيّعت الوقت هكذا! أراجع الأسابيع والأشهر من التبذير في الوقت والأحاديث التافهة والفراغ الكبير الناتج عن الكسل، كل ذلك يصيبني بمشاعر مريرة جدًا حتَّى أنني خسرت الإيمان بنفسي. أنا أتشتت بسرعة مثيرة للسخرية، لذا أتكاسل وحين أحصد عاقبة ذلك أشعر بالمرارة. لو أنني أقرأ بجدٍ لأبليتُ خيرَ بلاءٍ في المنحة لكنني لا أفعل.

أنا مستمتع بغرفك بشكل رهيب، الغرفة الداخلية ممتلئة بالفخار الصيني والصور وصورة شخصية لي، وبيانو وسجادة رمادية على أرضية مصبوغة. الأغلبية أعجبوا بها، وتلقيت القليل من السخرية في أماسي الأحد. إنها أكثر بهجة مما كنت أتوقع، شروق الشمس، نعيق الغربان وأغصان الأشجار التي تلوح عبر النافذة عندما يمر النسيم العليل، كل ذلك ساحر للغاية.

لا أفعل شيئًا سوى كتابة السونيتات وقرض الشعر، وقد أرسلت لك بعضًا منه رغم أن إرسال أي شيء مني من روما هو وقاحة فظيعة، لكنك كنت مهتمًا على الدوام بمحاولاتي لامتطاء صهوة بيغاسوس(250).

أعظم رفيق لي ما عدا كيتين بالتأكيد هو غاسي الساحر للغاية، ليس بسبب تعليمه الجيد بل لكونه «نفسانيًّا» وقد خضنا حواراتٍ طويلةً وتمشَّينا. بقية مجموعة توم رفاق جيدون فعلاً لكنهم أطفال فظيعون، لا يفعلون شيئًا سوى الثرثرة ببذاءةٍ. أنا مولع جدًا بالعزيز كيتين أكثر من أي وقت مضى لكنه لا يمتلك العزم الكافي ليكون أكثر من مجرد صبي عاطفي لطيف المعشر. إنه لا يرتقي لفكري أو عقلي بأي شكل، بين عقله وعقلي لا وجود

لرابط مشترك للحديث أو الكلام كما اعتدت معك. بالذات في تلك الجولات الغالية على متن الجياد عبر الأشجار الخضراء، أنا أركب الخيل كثيرًا الآن، وفي اليوم الماضي ركبت على متن حصان متوحش، رماني رمية ذكية على ظهري، مع ذلك نجوت دون أذى ووصلت البيت سالمًا.

العميد يأتي أحيانًا ونتحدث في علم اللاهوت لكنني عادة أركب وحدي، ويجب أن أحصل على بناطيل جديدة بسبب الكلاب! كتبت رسالة حمقاء للغاية تبدو عند قراءتها هذرًا سخيفًا للغاية لكن الكتابة لك أمر بهيج إذ أُسطِّر أيَّ شيء يخطر على بالي.

رسائلك ساحرة وتلك التي بعثتها من سيلسي تحمل عطر حدائق الزيتون، زرقة السماء وأشجار البرتقال، كان ذلك أشبه بالقراءة لثيوقراط في هذا الجوِّ الرديء.

إلى اللقاء، أيها الفتى العزيز أبدًا.

صديقك المحبُّ/ أوسكار وايلد.

بقيت لدي صفحة فارغة.

لن أكتب لك عن اللاهوت لكنني أقول لك فقط إن الشعور بسحر روما هو بالنسبة إلي أعظم السعادات. أعتقد أن هذا المدينة ستمنحني السكينة. وبالفعل فإن الذهاب إلى روما وعقلك مقيد بمخاوف المنطق أمر يعادل في سوئه الحركة البروتستانتية. لكنني أعرف أنك باحثٌ عن الجَمال، حاولْ أن ترى في الكنيسة لا يدَ الإنسان فقط بل أيادي الربِّ كذلك.

الرسالة العشرون

إلى ويليام وارد: فصل الشتاء، ١٨٧٧

عزيزي بونسر؛

أرسلت لك رسالة طويلة منذ حوالي أسبوعين آمل أن تكون قد وصلتك. اشتركت في منافسة منحة العميد لأيرلندا وقد خسرتها بالطبع. في قراءة ستة أسابيع لا يمكن أن تتوقع الفوز بجائزة يعمل عليها الناس لسنتين أو ثلاث. كنت سأكون في وضع جيد للغاية في الامتحان لولا فقه اللغة، وقد كانت هناك صفحة كاملة من الأسئلة حول هذا المادة. كم هو مقيت سماع التعليقات على نتيجتي من معظم طلاب الكلية. لن أكون آسفًا عند نهاية الفصل رغم أن لدي سنة واحدة لدراسة الكلاسيكيات، مع ذلك لا أزال أنوي أن أصلح حالي وأقرأ بجد قدر الإمكان.

أنا آسف على القول إنني لن أرى المدينة المقدسة في عيد الفصح أبدًا، أَنتُخِبتُ لنادي القديس ستيفانس، ومبلغ ٤٢ جنيهًا مبلغ كبير لدفعه، لذا سأذهب لمدة أسبوع إلى المدينة ثم إلى برينغهام ومن بعدها إلى المنزل. قبل ذلك أنا ذاهب لزيارة نيومان في برمنغهام لكي ألعب بالنار وأحرق أصابعي أكثر. هل تتذكر وايز الذي كان هناك؟ إنه عالق بشكل مريع بحيل المرأة القرمزية، وقد كتب لنيومان عن عدة مواضيع وردَّ عليه بأكثر الرسائل سحرًا ودعاه لزيارته. أنا أتطلع بحرارة لمقابلته ليس لغرض الجدل على الإطلاق، بل لمجرد البقاء في حضرة رجل قدسيٍّ.

سأرسل لك تقريرًا طويلاً بكل شيء، لكن ربما تخذلني شجاعتي، أخشى أن ليس بوسعي مقاومة الرهبة لهذا الرجل.

أكسفورد على عادتها تقريبًا، وأكل الطعام في القاعة مزعج كما كان على الدوام. بالطبع أنا وجوب لسنا على وفاق تام في الوقت الحالي، لكن حين كنا كذلك أعطيته برطمانًا كبيرًا، مع ذلك جاء هذا الكليبان إلى القاعة وصاح متنغمًا: «أنا سعيد للغاية لأنهم أعطوا الخمسة عشر جنيهًا لإعانة جونز»(251) (ضع كل العبارات القبيحة التي تستطيع التلفظ بها)، لذا قلت بكآبة: «أهٍ، أتقول إن والدك افتتح معرضًا، يا له من أمر مهم»، انزعج للغاية وردَّ قائلاً: «أنا أعني وانسبرغ جونز»، فرددت عليه: «لم أعرف أن هناك طالبًا بهذا الاسم»، عضَّ على شفتيه وانصرف ولم يحضر لقاعة الطعام ليومين متتاليين، فقد ظل ملازمًا سريره القذر.

حل هنا بعض الطلاب الجيدين جدًا في الشرب هذا الفصل؛ فليتشر وهو من إيتون، وأرميتاج الذي يمتلك ملامح إغريقي أكثر من أي شخص آخر لقيته في حياتي وهناك براودبنت. لقد أدَّيتُ واجبي وحفظتُ سُمعة تلك الغرف خلال الإفطار والغداء إلخ، مع ذلك أجدُ الأمرَ مُملاً جدًا ولا يُتيحُ الحديثَ مع أي شخص. يوم السبت السابق لاختبار المنحة أخذت العزيز كيتين إلى المدينة وشاهدنا الأعمال الفنية وقد جعله ذلك يظهر شيئًا من ميوله البابوية.

تناولت شاي الظهيرة مع فرانك مايلز، فقد ذهبنا لزيارة رونالد غيور وأخته دوقة ويستمنستر، وهي امرأة لماحة ومن أكثر النساء اللواتي التقيتهن في إنكلترا إثارة للإعجاب، إنها مثل سيرسي ساحرة للغاية. هل أخبرتك أنه بسبب ساعات تأخره رفض العميد منحَ مارك شهادته؟ مع ذلك فهو يأمل أن يحصل عليها في يوم سباق القوارب.

كولينز، كوبر وستيوي الكبير سيقيمون ثلاث حفلات عشاء في ثلاث ليال متتالية في المدينة لرياضات السباق وكلنا سنذهب.

المسابقات الرياضية مستمرة في الكلية وهي تسير كالمعتاد ما عدا مشاركة بلوك وبستر في سباق الجري؛ لقد كان ذلك أجمل ما رأيته في حياتي. في العادة يكون الرجال في هذهِ المسابقات في غاية الهزال، أرجل مثل العصي وصدر مرتفعٍ مثل صدر الحمام، أما هو

فرشيق، حلو الشمائل بشكل استثنائي، طوله حوالي تسعة أقدام ويهرول مثل حصان بديع، أما ما فعله في السباق فلم يسبق لي أن رأيت مثل ذلك قط؛ لقد ركض هو وستيفنسون سباق الثلاثة أميال وبقي خلف ستيفنسون حوالي ياردة طَوال الوقت حتَّى الربع الأخير عندما أسرع في تجاوزه وسط صيحات تشجيع كبيرة وصراخ، سترى في نابولي تمثالين برونزيين لصبيين إغريقيين يركضان مثل وبستر بالضبط.

رفعنا نخبه مرارًا حتَّى تعبنا، إنه قادم في فصل الصيف للتدريب (!) وتقديم الحفلات الموسيقية.

آمل أن أحصل قريبًا على رسالة منك وفيها كل شيء عن تجربتك في روما.

المحب أبدًا/ أوسكار وايلد.

الرسالة الحادية والعشرون

إلى ريجنالد هاردنك: الثاني من نيسان/ أبريل ١٨٧٧

كورفو

بطاقة بريدية.

لم أذهبْ إلى روما! كم ستظن أنني رفيق متقلب، لكن مهافي -أستاذي القديم- أخذني إلى اليونان معه لرؤية ميسينيا وأثينا، أنا خجلٌ فعلاً من نفسي إذ لم أستطع مقاومة ذلك، وسأمر بروما في طريق عودتي. ذهبنا إلى جنوا ثم إلى رافينا وتركنا بريندیسي الليلة الماضية، ولمحنا اليونان فجرَ اليوم في الساعة الخامسة والنصف. سنذهب غدًا إلى زانتي ونحط بالقرب من أولمبيا ومن ثم نستقل العربة إلى ميسينيا عبر أركاديا، اكتب لي على بريد مطعم أثينا.

حبي لبوس/أوسكار وايلد.

الرسالة الثانية والعشرون

إلى ريجنالد هاردنك: أيَّار/مايو ١٨٧٧

المنزل الأول شمال ساحة ميريون،

الثلاثاء.

أيها الصبي العزيز؛

أشكرُ لكَ رسالتكَ، استخلصتُ الحقائق بدراسةٍ حذرةٍ للتماثيل في المدينة، لكنه أمرٌ مطمئنٌ التأكيدُ على صحة ما استخلصته من قِبل شخصٍ مؤهَّلٍ مثل رجل الدين في الكلية.

حظيت بوقت ممتع في المدينة مع فرانك مايلز والعديد من الأصدقاء وجئت المنزل بحلول الجمعة، صدمةُ والدتي بالغةٌ بسماع أخباري، وتشعرُ بقرفٍ شديد من الغباء البائس لرفاقنا الطلاب بينما يشتعل مهافي غاضبًا! لم أرَه أبدًا غاضبًا بهذا الشكل، إنه ينظر لذلك كإهانةٍ شخصية له(252). الجو ساحر، فلوري(253) رائعة كعادتها، سأقدم محاضرتين عن اليونان في كلية أليكساندرا للبنات هنا، لذا أنسى بسرعة العميدَ ذا الملابس الداخلية النسائية القديمة وعدم اكتراثه(254) لروعة اليونان.

كما توقعتُ فكل أصدقائي هنا يرفضون تصديق قصتي، وأخي الموجود في مويتورا الآنَ يكتب لي رسالة مختومة بكونها سرية لسؤالي عن السبب الحقيقي لتغريمي ومنعي من السَّفر، إنه ينظر لتفسيري لما حدث بوصفه عبثًا طفوليًّا.

آمل أن تكتب لي وتخبرني كلَّ شيءٍ عن الكلية، مَن الذي يدنِّس غرفي الآنَ، وما هي آخر الفضائح؟

عندما يأتي دانسكي أخبره أن يكتب لي، واذكرني عند ديك وغوسي ودانلوب الصغير وكل شخص تحبُّ أو أحبُّ.

المخلص أبدًا/أوسكار.

أنا ذاهب الآن، وأتمنى أن يكون صيد أيَّار/مايو قريبًا، أنا مثقل بالأعمال من كل الأشكال.

اقتنِ كتاب (أرورا لي) للسيدة براوننغ واقرأه بحذر!

فلورنس بالاكومب

رسمها أوسكار وايلد

الرسالة الثالثة والعشرون

إلى ويليام وارد: ١٩ تموز/ يوليو ١٨٧٧

المنزل الأول شمال ساحة ميريون.

أيُّها الصبي العزيز؛

سمعت أنك قد عدت؛ هل وصلتك برقيتي على عنوان والدك؟ اكتب وأخبرني عن التُّرك. أحبُّ سلوكهم تجاه الحياة للغاية رغم أنه يبدو غريبًا أن يكون نسلَ العرب المتوحشين هم اليومَ سادةَ الترف الحسِّي(255)

أرسلت لك مجلتين إلى فرنشاي(256)، واحدة تحوي استذكارًا لكيتس والثانية دينية.

هل تتذكر زيارتك المبهجة لقبر كيتس وانزعاج دانسكي. دانسكي المسكين أعرف أنه ينظر إليَّ كمرتدٍ عن الدين لكنني أعاني من الحمى الرومانية كثيرًا ومن آثارها على عقلي وجيبي وسعادتي.

أنا ذاهب إلى كويميرا لمدة شهر أو أكثر في الأسبوع القادم للمحاولة والقراءة. لم أفتح كتابًا بعد أن كنت مشغولاً بالعمل وأمور أخرى. سأكون وحيدًا بشكل تام، هلا جئت؟ سأجعلك تصطاد وأريك مواضعَ جميلةً، اجلب كتبك وبعض الملاحظات من أجلي.

أنا مكتئبٌ بسبب مادة الكلاسيكيات.

أنت تعرف، لكن دعني أخبرك، لو جئت هنا ستحصل على:

١- فراش.

٢- طاولة وكرسي.

٣- شوكة وسكين.

٤- صيد.

٥- مشاهد جميلة لشروق الشمس والينابيع وجبال تغطيها زهرة الخلنج البنفسجية والبحيرات.

٦- ويسكي وسلمون.

اكتب لي وقل متى ستأتي، وكذلك أرسل لي على الفور رجاءً اسمَ وعنوانَ الآنسة فليتشر التي ركبت معها في روما وزوج والدتها. لم أرسل لها المقالات عن والتر باتر كما وعدتها.

أريد منك أن تقرأ مقالتي عن معرض غروسفونر في عدد تموز/ يوليو لـ(مجلة جامعة دبلن)، أوَّل مقالٍ فني لي.

حصلت على رسائل لطيفة للغاية من العديد من الرسَّامين ومديح ودي للغاية من باتر، لا بد أن أرسل لك تلك الرسائل، لكن أعِدها في الرسائل المسجلة في البريد القادم: لا تنسَ ذلك.

المخلص لك أبدًا/أوسكار.

على كل حال أنا لا أستطيع أن ائتمن ساعي البريد على رسالة بيتر لي، لذا سأنسخها لك هنا:

«عزيزي السيد وايلد؛

تقبل خالص شكري على المجلة ورسالتك. قرأت بسعادة بالغة مقالك الممتاز عن معرض غروسفونر؛ جعلني ذلك راغبًا جدًا بالتعرف عليك، وآمل أن تتصل بي أول عودتك إلى أكسفورد.

سأحب كثيرًا تداول الحديث معك حول بعض النقاط، مع ذلك فأنا أظن أن نقدك عادلٌ جدًا، وعُبِّرَ عنه بطريقة لطيفة.

يظهر المقال أن لديك ذائقة جميلة نُمِّيتْ بشكل استثنائيٍّ بالنسبة لعمرك ومعرفة معتبرة بالعديد من الأمور الجميلة.

آمل أن تكتب كثيرًا في الأيام القادمة.

صديقك الحقيقي جدًا/والتر بات».

هل تظن أنني مغرور لإرسال ذلك؟ مع ذلك فهذا أمر يستحق الفخر.

أو.اف.دبليو.

الرسالة الرابعة والعشرون

إلى ريجنالد هاردنك: تموز/ يوليو ١٨٧٧

المنزل الأول، شمال ساحة ميريون.

عزيزي كيتين؛

شكر كبير على رسالتك المبهجة، أنا سعيد أن تكون وسط مشاهد جميلة وأوروا لي.

أما أنا فمعنوياتي محبطة للغاية ومكتئب لأن أحدَ أقاربنا، وقد كنت متعلقًا به جدًا، قد توفي بشكل مفاجئ بعد أن أصابه برد بفعل ركوب الجياد. كنت قد تعشيت معه يوم السبت وإذا به يموت يوم الأربعاء. لطالما أُفتُرِضَ بأننا، أخي وأنا، سنكون وريثيه لكن وصيته حملت مفاجأة غير سارة مثل معظم الوصايا.

لقد تبرّع لمشفى أبي بحوالي ثمانية آلاف جنيه ومنح أخي ألف جنيه، أما حصتي فمئة فقط شريطة أن أظل بروتستانتيًا!

كان مسكينًا متعصبًا ومتحاملاً على الكاثوليك، رآني «على شفا حفرة» فحرمني من وصيته. إنها خيبة أمل فادحة لي، فكما ترى ها أنا أعاني كثيرًا من ميلي للكنيسة الرومانية من ناحية الجيب والعقل.

أعطاه أبي حصةً في بحيرة صيدي في كويميرا، وكان المفترض طبعًا أن أستعيدها بعد وفاته؛ والآن حتَّى هذه قد أخسرها إذا صرت كاثوليكيًا خلال خمس سنوات وهو أمر غير مقبول أبدًا.

مذهل كيف لرجل على وشك «لقاء الرب والصمت الأبدي» أن يقابل الرب فخورًا بتحيّزه البروتستانتي البائس وأن لا يزال متشبّثًا بعصبيته.

مع هذا فلن أزعجك بأمري أكثر، يبدو أن مقاييس العالم مختلة للغاية ومتروك لي شأنُ ضبطها.

أرسلت لك ملاحظةً صغيرةً عن قبر كيتس، كتبتها للتو وقد تثير اهتمامك، لقد زرته مع بونسر ودانسكي.

أذا كنت راغبًا بالاطلاع على رأيي عن معرض غروسفونر اطلب نسخة واكتب لي قريبًا.

المخلص لك أبدًا/ أوسكار وايلد.

سمعت من بونسر الصغير أن كونستابل قد قال مؤخرًا إنه عائد للبيت.

حبي لبوس.

الرسالة الخامسة والعشرون

إلى ريجنالد هاردنك: آب/أغسطس ١٨٧٧

بحيرة إليانور، بحيرة في.

عزيزي كيتين؛

سعيد للغاية بالسماع منك مجدَّدًا، كنت أصطاد طَوال الأسابيع الثلاثة الماضية، بقي جاك باربو وديك ترينج معي، لذا وجدت نفسي بعيدًا عن الوحدة، وللأسف هذا يعني أن القراءة ذهبت معها.

لم يكن الصيد هنا موفقًا كما كان، حصلت على سمكة سلمون واحدة فقط، تزن حوالي سبعة أرطال ونصف، أما سمك التروت فهو وفير جدًا، حصلنا على معدل ثابت يزيد على أربعة كل يوم، وكمية كبيرة من التروت البني، لذا ليس من الصعب أن يمتع المرء نفسه، وبما أن البحيرات المجاورة لم يصلها السمك فأنا مسرور جدًا. مع هذا فقط أصبحت كارهًا للبشرية، لن تتعرف علي في الفصل القادم.

حصلت على رسالتين مبهجتين بالأمس، الأولى من بونسر ويبدو أن محبرته قد نفدت أو هي على وشك ذلك(257)، والثانية من دانسكي وهو الآن كابتن كما يقول. هل أخبرتك عن الرسالة الرائعة التي وصلتني من باتر؟ يمتدح مقالي الخاص بمعرض غروسفونر، وأنا بالمناسبة سعيد أنه أعجبك. قدّمَ لي باتر مديحًا عظيمًا، لذا أنا أكثر غرورًا من المعتاد.

أسبوع آخر في هذه المنطقة الرائعة الجبلية المليئة بالبحيرات! أتسابق مع الأرانب البرية وسمك التروت! ثم أذهب إلى لينغفورد من أجل صيد طائر الحِجل ثم إلى المنزل.

حبي لبوس.

المخلص لك/أوسكار.

اكتب لي على عنواني في الساحة!

الرسالة السادسة والعشرون

إلى ريجنالد هاردنك: ١٨٧٧

كلية ماجدلين، أكسفورد.

الثلاثاء

عزيزي كيتين؛

شكر بالغ على ملاحظاتك اللَّطيفة. لدي توقٌ طفولي لبعض الأزهار، لا يهمني أي نوع من الأزهار، المهم ألا تكون أزهارًا مرسومة على الجدار. لو عندك فراغ من الوقت وبوسعك أن تجلب لي شيئًا منها فستسديني صنيعًا طيبًا جدًا يشبه إعطاء زهرة لكناري جائع!

أنا بائسٌ للغاية ومريض، سأُطرَد خارجَ أكسفورد سريعًا، لذا فإنَّ جهدي في الدراسة للكلاسيكيات قد انهارَ أخيرًا وإلى الأبد.

تاكويل وويليام لطيفان بشكل عظيم معي وعليَّ أن أقفز على وحلِ شيرويل(258).

المخلص لك/ أوسكار.

هلا تسرق لي غصنًا من تلك الشجرة المزهرة الحمراء خارج البنايات الجديدة. قلبي يتألم وأنا بأمس الحاجة لبعض العذوبة والجَمال في حياتي.

الرسالة السابعة والعشرون

إلى ويليام وارد: خريف ١٨٧٧

كلية ماجدلين، أكسفورد،

الإثنين.

عزيزي بونسر؛

آمل أن تأتي قريبًا، أنا أقرأ بجد من أجل المركز الرابع في الكلاسيكيات (انظر إلى الطالب العظيم كيف تحطّم!).

لم أتذكر لطفك في إقراضي ٥ جنيهات في روما حتَّى التقيت غريزيل قبل أيام (واتصلت الأفكار ببعضها).

آمل ألا تعتقد أنني مهمل. أرجوك اصرف الشيك الموجود في الظرف لو أن صرافك لا يزال يرى أن اسم وايلد يستحق ٥ جنيهات.

كم أدين لك مقابل القماش اليوناني؟ آمل أن تجلبه معك.

المخلص لك أبدًا/ أوسكار وايلد.

تكلم دانسكي عن القدوم يوم السبت.

الرسالة الثامنة والعشرون

إلى ريجنالد هاردنك: ١٨٧٧

كلية ماجدلين، أكسفورد.

عزيزي كيتين؛

لو أن هناك ما يمكن أن يعزيني لبقائي مريضًا فهو سلة الزهور الساحرة التي بعثتها ورسالتك الرائعة.

لقد أعطتني الورودُ إحساسًا فريدًا بالجَمال الغضِّ وضوء الربيع، إنَّها ورودٌ مذهلة للغاية.

لقد سمعت خطواتك الخفيفة وأنت تنزل الممر هذا الصباح، أنا مَدينٌ لك بشدة لأجلِ سرقتك الغصن ذي الزهور البِيضِ والوردية لأجلي.

بوسعي أن أدفن وجهي في هذه الزهور وأحلم كم ستكون العودةُ للخروج رائعةً.

أنت ألطفُ قطٍّ صغير!

المخلص لك أبدًا/ أوسكار.

الرسالة التاسعة والعشرون

إلى ريجنالد هاردنك: ١٨٧٧

كلية ماجدلين، أكسفورد.

أيها الصبي العزيز؛

أفترض أنك في كنيسة تنعمُ بهدوءٍ روحيٍّ.

الأرواح الملعونة بائسة بالفشل. ما من أخبار تستحق النقل.

المخلص/ أوسكار.

الرسالة الثلاثون

إلى ويليام وارد: شتاء ١٨٧٧-١٨٧٨

المنزل الأول شمال ساحة ميريون، دبلن.

ويلي العزيز؛

أنا آسف للغاية لعدم تمكني من القدوم لحفلتك الراقصة، لكنني عدت بالأمس فقط إلى أكسفورد، وبقدر ما أرغب بمغادرة الكلية لكن لا أريد أن أُجبَرَ على ذلك. في الحقيقة لن

يكون ذلك إنصافًا لمايلز. إنَّها خيبةُ أملٍ كبيرة لي لكن لا أظن أن من الحكمة مغادرة أكسفورد بينما لا أزال أريد الدراسة.

آمل أن أكون قادرًا على القدوم، ورؤيتك في الصيف، بعد أن أكمل امتحاني الرابع.

وجدت أنني لا أعرف أبدًا كيف أقرأ، فلدي الكثير للتفكير به.

أبتهل لك لتعبر لوالدتك، كم أنا آسف لتفويت دعوتكم اللَّطيفة.

المخلص لك أبدًا/ أوسكار.

الرسالة الحادية والثلاثون

إلى ريجنالد هاردنك: ١٨٧٨

نادي سانت ستيفان، ويستمينستر.

عزيزي ريجي؛

كنت في كامبريدج لليلة فقط مع أوسكار براوننغ (أتمنى لو لم يكن اسمه أوسكار)، وغادرت في الصباح التالي إلى شاطيء هايكس في هامشاير لقتل الوقت وصيد الدراج. كم مضجر أنني لم أشعل النار في هذا العالم بعد. سوف آتي يومًا ما وأبقى معك، رغم أن رسائلك هي ما يسميه الصبيان خطبة فيلبية(259).

أنا ذاهب الليلة مع روسكن لرؤية إيرفنغ وشايلوك، وبعد ذلك إلى حفل ميلياس الراقص، كم غريب ذلك.

عزيزي ريج،

المخلص لك أبدًا/ أوسكار.

اذكرني عند توم بايتون.

الرسالة الثانية والثلاثون

إلى ويليام وارد: حزيران/ يونيو ١٨٧٨

نادي سانت ستيفان، ويستمنيستر.

الثلاثاء

أيُّها الصَّبي العزيز؛

لم لا تكتب لي؟ لا أعرف في أي حال أنت.

أما أنا فمحطم، القضيةُ قائمة ضدي وأخشى أن أدفع الثمن مما يعني مغادرة أكسفورد وإنجاز بعض الأعمال الفظيعة لكسب العيش. العالم يثقلني.

على أي حال فقد رأيتُ اليونانَ، وقد عشت بعض الأيام الذهبية للشباب. أنا ذاهبٌ إلى أكسفورد مباشرة من أجل الامتحان الشَّفهيِّ ثم أفكر بالتجديف بالنهر إلى المدينة مع فرانك مايلز؛ هل تأتي معنا؟

المخلص لك/ أوسكار.

الرسالة الثالثة والثلاثون

إلى ويليام وارد: تموز/ يوليو ١٨٧٨

كلية ماجدلين، أكسفورد.

ولدي الكبير العزيز،

أنت أفضل الأصدقاء في برقيات التهاني، ما من تهنئة تهمني أكثر، إنه أمر منعشٌ أشبه بعروض الألعاب النارية مكافأةً على نهاية عملي. لا أستطيع تفسير حصولي على المركز الأول إلا بفضل مقالاتي وأنا جيد للغاية في كتابتها، أما الامتحان الشفهيُّ فقد كان معقَّدًا للغاية.

الطلاب «مصدومون» بشكل يفوق الكلمات، في النهاية يحسن الصبي السيء صنعًا! لقد جعلوني أقف في العيد السنوي وقالوا أشياء لطيفةً عني. أنا بأفضل حال مع الكلِّ حتَّى مع آلان(260) الذي أظن أنه نادم على معاملته السيئة لي.

ثم جدفت إلى بانغبورن مع فرانك مايلز في قارب من لحاء شجرة البتولا!

لقد جدفنا بسرعة في سواحل صخرية وصنعنا العجائب في كلِّ مكان، لقد كان أمرًا مبهجًا.

أخشى أنني لا أستطيع ركوب اليخت معك. أنا مثقل بقضيتي والتي فزت بها لكن وجدت أنها كلفتني الكثير رغم أنني مكَّنتُهم مني. يجب أن أكون في أيرلندا.

أيها الصبي الكبير العزيز آمل أن أتمكن من رؤيتك مجدَّدًا.

المخلص أبدًا/ أوسكار.

الملحقُ الثَّاني (أوسكار وايلد: ذكرياتُ أكسفورد)

بقلم: ويليام وارد

واحدٌ من أعظم أصدقائي في أكسفورد، وبالتَّأكيد الأقرب لي في سنتي الأخيرة، كان أوسكار وايلد. بودي أن أقصَّ على من جاءوا بعدي شيئًا عن سِحر رفقتهِ والحديث معه من أجل أن يروه للحظةٍ كما عرفتهُ في تلك الأيام البعيدة في الكلية، شخصية مضحكة، لكنه مثير للاهتمام على الدوام.

كم كان ذكيًا ومشرقًا، لعوبًا وساحرًا! كم كان متقلب المزاج ومبهجًا على الدوام! يعيش اللحظة ويعترف بصراحة أنه هو الذي صممها. بوسع المرء أن يرى الآن وهو يقرأ شخصيته في ضوء حياته اللاَّحقة، بدايات تلك الميولِ والتي تنامتْ لتحطِّمَه. ثمَّة حبٌّ للتكلف والتظاهر، رغبةٌ لإثبات نفسه، وغرور، لكنها بدت كهفوات أكثر من كونها أخطاء، وندمه الصَّريح وضحكه من نفسه تلهيك عن انتقاد مثل تلك الهفوات، إذ يذهب منها كلُّ ما يستحق اللوم. أجرؤ على القول إننا كنا مبهورين قليلاً بتوجهاته، وقد أدهشتنا الزاوية الغريبة التي ينظر بها للأشياء. كان غريبًا عمَّن عرفناهم من قبلُ، خارجًا عن المألوف بمزاج تفكيره، مثله مثل اللَّكنة الأيرلندية في تلفُّظهِ للكلمات وصياغتهِ للجُمل بشكل مختلف عن البقية. لم تكن خصالُه عاديةً، ونحن بوصفنا أصدقاءه المقربين لم نحكم عليه بالمقاييس المعتادة للشَّخص الاعتيادي. بالطبع مقَتَهُ الكثيرونَ، لا سيَّما أولئكَ الذين أشعرهم بالإهانة طبعًا بخروجهِ عن التَّقاليد، الأمر الذي لم يحاولْ إخفاءه. لكن بالحديث بشكل عام، أستطيع القول إنه خلال سنتي الأخيرة في ماجلين اكتسبَ قدرًا كبيرًا من الشعبية، وذلك بحسب ظني يعود جزئيًا لحقيقة أن في تلك الكلية الصغيرة تتركز الأهمية الأكبر على القابليات الاجتماعية لا التقدم الشَّخصي أو الرِّياضي. وبالطبع كان أوسكار وايلد مميزًا اجتماعيًا، من المستحيل ألاَّ يلفتَ النَّظرَ في أي مجموعة من طلاب الكليات. ربما يمقته البعض بحجة تكلفه، ولكونه واثقًا ومعجبًا بنفسه لكنَّهُ مُتحدثٌ مُذهلٌ، ينطقُ بأذكى الكلام، وبوسعه لو أراد أن يجعل من نفسه رفيقًا محبوبًا للطلاب العاديين ولديه سمعة بكونه خارجًا عن المألوف. لذا بالحديث عن الوقت الذي قضيته معه بوسعي القول إنَّ الكلية افتخرتْ به، ورغم وجود بعض الكارهين له فقد عقدَ صداقاتٍ جيدةً خارجَ حلقةِ المقرَّبينَ، وقد كان على وفاق كبير معهم. ربما اختلف الأمر فيما بعدُ، وأعتقد أنه أصبح أكثر تطرفًا في سلوكه، فقد تخرج أصدقاؤه الأكبر سنًا وتراجعت شعبيته. ويجب أن أقول إنه في العام ١٨٧٦ كانت لديه قلة قليلة من الأصدقاء المقربين والعديد من المعارف داخل وخارج الكلية.

كنتُ أقرأ مؤخرًا حزمة رسائل قديمة، أرسلها إليَّ خلال أيام دراسته الجامعية في أكسفورد وهي تظهره، كما يحيا في ذاكرتي، مشرقًا ومحبًّا للمزاح، عاطفيًّا وطبيعيًّا. العديد ممن كتبوا عنه في السَّنوات الأخيرة وصفوه كمنحلٍ ذي عقلٍ لامعٍ، لكن أظن أن الاستخلاص التالي من الرسائل المكتوبة من القلب مباشرة والمنتعشة بندى الشباب، تقدم صورة عنه لم

يعرفها إلا قليلون ولم يعد يتذكرها إلا القلة. أعتقد أن هذهِ الرسالة قد تعرض شيئًا من سحر محادثته ورفقته وومضة من عقله اللاَّمع.

إنَّها تظهر كذلك أن قراره الأخير في أن يجد ملجأ في الكنيسة الرومانية لم يكن تحولاً مفاجئًا لرجل يغرق على خشبةٍ من حطام السفينة بل عودةً لحبٍّ أوَّل، حبٍّ مرفوض. إنه حبٌّ حقيقيٌّ لكنه ممنوعٌ أو على الأقل مرفوضٌ في التطور المأساوي لعملية استكشاف الذات؛ وتلك اللعنة التي طاردته منذ أيامه الأولى.

أتذكَّرُ جيدًا أحدَ الصباحات المعتمة في غُرفي في كلية ماجدلين، عندما كنت أنا وهو وهانتر بلير الذي تحول عن قريب إلى الكاثوليكية الرومانية، كاثوليكي جديد ومتحمس، رجل لا مثيل له في حيويته وحماسه للكاثوليكية، وقد تحدث خلال ليل الصيف القصير حتَّى لم يعد من صوت لعصفور على الأشجار هناك على ضفة نهر شيرويل، وأوسكار حائر ومعلق بين الشك والعقيدة، أتذكر أن هانتر بلير ضربه فجأة على راسه وقال: «ستكون ملعونًا، ستكون ملعونًا، لأنك رأيت النور ولم تتبعه!»، سألت: «وأنا؟» أجابني: «سينقذك جهلُك الذي لا يمكنك هزمه». تعشينا معًا أحيانًا في مطعم رومانو أو في بيت والدته عندما كان يخبرني بأفعاله وكيف قدم روسكن إلى السيدة لانغتري وهكذا. جاء للبقاء معي في فرانشي وفي كومبي، المرة الأخيرة من أجلِ محاضرة يقدمها في غُرف فيكتوريا(261) قبل وقت قصير من جولته الأمريكية. وأتذكر النظر إلى غرفه من الممر في أحدَ الصباحات وأنا في طريقي إلى معهد لينكولن عندما وجدته لا يزال في الفراش وغرفة جلوسه في فوضى كبيرة. فسّر ذلك بكونه قد أقام حفل عشاء في الليلة السابقة وقد حضرتها سارة برنارد والتي أرادت أن ترى إلى أي علوٍ بوسعها أن تقفز وتكتب اسمها بالفحم على الحائط. ومن الشخبطة على جانب الغرفة والتي لم تكن بعيدة عن السقف يبدو أنها قد نجحت نجاحًا معتبرًا في محاولتها.

هو يستخدم عبارة «المزاج الفني» في كتابه (من الأعماق)، وفي تلك الفترة أراد المالَ مثل أي رجلٍ آخر لأن الفاقة كانت لعنة. لكنه رأى أن الحصولَ عليه بعد عملٍ شاقٍ وطويلٍ بثمن خسارةِ الحريةِ تضحيةٌ لا معنى لها، ما فائدة الباب المفتوح للطير الذي قُيِّدَ طويلاً حتَّى خسر قدرته على الطيران؟ الكدح في العمل من وجهة نظره يغيِّر الناسَ ويجعلهم يرتدون أقنعةً تُحاكي الطَّبيعةَ لكن أرواحهم تصبح كسولةً بلا حياةٍ. لقد رأى الحياة بحدِّ ذاتها عملاً فنِّيًّا، وهو الفنان الحرُّ والسَّعيدُ الذي يضفي على الحياةِ شكلاً ولونًا وفقًا لفكرته وأسلوبهِ.

فيما بعد رأيته بشكل متقطع لسنوات قليلة عندما تصادف وجودي في لندن، وبعدها تباعدت طرقنا أكثر وأكثر ومات التقارب بيننا ولم نعد نلتقي أو نتراسل أبدًا. آخر مرة رأيته فيها كانت مصادفة في العرض الأول لمسرحية كتبتها الآنسة فليتشر التي أشار في رسائله إلى أنَّه تعرف عليها في روما، وموهبة ذكائها وخِطبتها الرُّومانسية للورد وينتورث -خِطبة فسختها هي - قد جذبتنا معًا. حينها وجدته قد تغيَّر كثيرًا!(262) والكارثة القادمة

ألقتْ بظلالها عليه فعلاً، وأدركتُ أنه خسرَ –بالنسبة إليَّ على الأقل - طبيعته البهيجة السابقة وصراحته القلبية، بدا أن مظهره قد تغيَّر لأسباب تتجاوزُ مرور الوقت وحده. أنا سعيد لكون اللَّمحة العابرة لذكرياتي معه مرتبطة بالفترة السَّعيدة والمشرقة من شبابهِ المبكِّر.

ربما يكون من قلة الذوق أن نخمِّنَ سببَ تراجيديا حياته. ثمَّة قانونٌ يقولُ إن العقول العظيمة حين تفسد فهي تفسد بشكل عظيم أيضًا(263)، وهو خير مثال على هذا القانون في كتابه (من الأعماق). أعرف أن البعض قد يقولون إنهم حددوا في هذا الكتاب نغمة شفقة زائفة على الذات، صرخة نيرونية(264): «أي فنان سيخسر هذا العالم برحيلي!»(265) لكنني لم أسمع مثل ذلك عند قراءتي إياه. كما يبدو لي فقد صنع أوسكار عامدًا مزاجاتٍ ومشاعرَ ورغباتٍ وحالاتٍ فكريةً متناقضةً جدًا وعاش في حرب مستمرة مع ذاته حتَّى انفرط في النهاية عقدُ التعقل عنده وفقد السيطرةَ على الذات. جعلَ من عقله خشبةَ مسرحٍ تتوالى عليها مشاهد متناقضة وتتغيّر باستمرار، تظهر على الخشبة شخصيات غريبة، كل واحد منهم يمثل لحظة واحدة يمر فيها ثم تمر شخصية أخرى في كرنفال من الاعترافات المجنونة بينما هو جال يتفكر بشغف، وهو يظن أنه مفتش في أعماق النفس، يتفرج على المسرحية بالمشاعر المناسبة وهي تمضي دون أن يلعب بها دورًا أو يتأثر بها. لقد حوَّلَ عقله لمختبر ليتمكن من اختبار تجربته وسقط ضحية لتجاربه الخاصة. لأن البحث عن تلك الخطوط «اعرف نفسك»(266) في الفردية أو الوعي الذاتي كما يسميه، وذلك حجره الفلسفي أو بالأحرى هيلينه(267) التي خسر كل شيء لأجلها. لقد ازدرى دورَ «الشخصية التي تتحرك في العوالم غيرَ مدركةٍ لذاتها»، ها هنا كان العالم المدهش والجميل في جهة وأوسكار وايلد في جهة أخرى، فقد تمثَّلت موهبته في سبر أعمق أعماق روحه، خلال الفترة القصيرة التي يحياها الإنسان، الأمر الذي طمح إليه منذ أيام شبابه. وجهة نظر غراماريان(268) الميت لبراوننغ نقيضٌ لرؤيتهِ عن الحياة. بالنسبة له كل ما يهم هو اللحظة الآنية وأهميتها الفائقة، «الآن» برأيه هي الحقيقة العليا، الحقيقة الملزمة، وهي الأم الرؤوم العادلة مع كل أبنائها. قد تسقط السماء كما سقطت عليه لكن الحطام لن يجعل إيمانه بتلك الحقيقة يهتز. السنتان التي قضاهما في زنزانة ريدنك لم تحطم إيمانه بتلك العقيدة، التي عاش عليها طَوال حياته بل كانت هي عزاؤه في السِّجن وقد منحته رؤية جديدة للحياة. بجرأة وإصرار حافظ على نظريته بأنَّ إدراك الذات لؤلؤةٌ باهظة الثمن، هي البداية والنهاية لحياة تستحقُ أن تُعاش. حدثَ الخطأُ بالفعل وقد فسر ذلك منطقيًّا بأنه لم يسعَ إلى غير السَّعادة.

عبر قضبان السِّجن مرَّ هذا الضوء الجديد. الساعات الطويلة على المصطبة في الزنزانة فعلت فعلها، فعلها الرحيم. الحكمة عبر المعاناة، نزف القلب من خلال الساعات المظلمة للألم والندم، تلك هي الرحمة الصارمة التي أخبرنا الشاعر العظيم أنها تفرض على الرجال رغم إرادتهم بقوى رهيبة شائكة.

لذا رفع إلى شفتيه كأس المرارة بخشوع جل، وببطء تجرعها حتَّى الثمالة، قطرة إثر قطرة رشفَ خمرَ الإذلال ومرَّره بتريثٍ على لسانه ليشعرَ بمذاقه اللاَّذع الرهيب إلى أقصى حدٍّ ممكن. لقد جعل معاناته أبيقورية(269) نتيجة لا مفر منها لحكم البائسين(270)، لقد قصَّ أشواكَ تجربته البائسة(271) بحساسيةٍ أكثر حيويةً وتمييزًا وتسجيلاً نقديًا أكثر من أي وقت مضى، سار في مسار زهرة الربيع(272) على صوت المزامير. قد مرَّ عبر بوابة السِّجن كمن يدخل بابَ حياةٍ جديدة(273)، نفس ذلك الرجل لانت عريكته وانحنى في ذلك المسعى لإدراك الذات، لكن بدهشة كدهشة مكتشف العالم الجديد وبذات جديدة -وذلك أهم شيء بالنسبة له - سافر في بحور غريبة وتحت سماوات متغيرة «على عتبة سماء غريبة، والسحب والنجوم تحت أقدامه»(274). إلى كم استمر هذا التوجه العقلي؟ آه! هذا هو السؤال الذي يصعب سؤاله وتستعصي إجابته. للحظة شعرت بصدقه العميق لكنني لا أعرف الحقيقة وليس بوسعي أن أخمّن ولا أجرؤ على الاستفسار.

في ربيع ١٨٧٧ كنت في روما؛ هانتر بلير كان هناك أيضًا، وقد جاء أوسكار وايلد في عطلة الفصح للانضمام إلينا. اعتدنا التجول كثيرًا سوية، نركب العربة مع الآنسة فليتشر التي تكتبُ تحت اسم جورج فيلمنغ، نقوم بالاستطلاع سويًا ونتناول طعامنا في المطاعم الإيطالية أغلب الوقت، وقد يرافقنا غريسيل وواغيلفي فيرلاي اللذين كانا مثل هانتر بلير متدينان للغاية. لم يكن أوسكار وايلد معتنقًا الكاثوليكية وقد منح مقابلة خاصة مع البابا بيوس التاسع، وكتب له كما أظن سوناتا وقد اُستُقبِلتْ باهتمامٍ في مجتمع روما.

في أحد الأيام تلقى هانتر بلير هدية من مانحٍ بلا اسم، وهي حجرُ الماسِّ الخامِ، حجرٌ جميل للغاية. وجده على طاولة زينته، كانت الهدية غامضة، وافترضنا أنها أرسلت إليه من قبل معجبة، فهو رجلٌ جذاب ومحظوظ للغاية، بكلِّ شكلٍ من الأشكال. في النهاية قدم الحجر إلى واغيلفي فيرلاي وقال له إنه في حال تحول أوسكار وايلد إلى الكاثوليكية سيتوجَّب عليه تقديم الحجر قربانًا للتمثال الشهير للسيدة العذراء في كنيسة القديس أوغسطينوس. مرَّتِ السنوات وتضاءلت فرصة حدوث ذلك، في الحقيقة عُدِّلَ الحجر وارتدته السيدة التي تزوجها فيرلاي. لكن جاءت السقطة العظيمة، وانتهتْ مدة السِّجن، وانتهت بسرعة أيضًا حياةَ المنفى القصيرة، وقرأ العالمُ كلُّه في الجرائد أن أوسكار وايلد قد ماتَ على المذهب الروماني الكاثوليكي وقد تلقَّى الغفران الكامل من الكنيسة على فراش موتهِ. الماسةُ الآن في حفظ كهنة كنيسة القديس أوغسطينوس، وهي بالتأكيد هدية ليست بالرخيصة من بين كل تلك القرابين والهدايا التي تزيِّن تمثالَ تلك الأمِّ المحبوبة(275).

عندما ذهبتُ إلى روما زرتُ ذلك الضَّريح. في آخر مرة رأيت على الأرض رجلاً إيطاليًا مُعدمًا، رثَّ الثياب ومخشوشنَ الأطراف، كان يصلي ويتضرع بألمٍ عميق تحت أنظار ذلك الوجه الجميل للأم؛ وهي تصوب نظرات الشَّفقة العميقة نحوه. بدا الرجل كأنه يقول:

«ذنوبي فظيعةٌ

لكنَّ الخيرَ المتناهيَ

له أيادٍ عظيمةٌ لا عدَّ لها،

تتلقَّف كلَّ مَن يمدُّ لها يديه»(276).

الملحقُ الثَّالث قصائدُ نثرٍ(277) غير منشورةٍ لأوسكار وايلد

الشَّاعرُ

عاش الشَّاعر في بلد بين المروج والغابات؛ لكنه يمضي كلَّ صباح إلى المدينة الكبيرة، على بعد أميال عديدة، بعيدة فوق التلال التي يطوقها الضباب الأزرق، ويعود مع المساء. وفي عتمة الغروب يتجمع الأطفال والناس حوله بينما يخبرهم بالأشياء العجيبة التي رآها خلال النهار في الغابات، وعند النهر وعلى قمة الجبل.

سيخبرهم كيف حدقت به الفاونات(278) البنية الصغيرة من بين الأوراق الخضراء في أرض الغابة.

سيخبرهم عن الحوريات ذوات الشَعر الأخضر، يرفعن رؤوسهن من البحيرة الرقراقة ليغنين ويعزفن له على القيثارات.

سيخبرهم كذلك عن القنطور(279) العظيم الذي التقاه على قمة التَّلِّ، والذي ولَّى ضاحكًا في غيمةٍ من غبارٍ.

تلك العجائب والكثير غيرها قصّها الشاعرُ على مسامع الأطفال والناس بينما تجمّعوا حولَه كل مساء، بينما الظلالُ تتكاثف ويبهت ضوءُ الغروب.

أخبرهم بحكاياتٍ مذهلةٍ عن الأشياء العجيبة التي يخلقها عقلُه، ذاك المملوء بخيالاتٍ جميلةٍ.

لكن في أحد الأيام عاد الشاعر من المدينة العظيمة عبر الغابة، ورأى بالفعل فاونات بنية صغيرة تسترق النظر إليه عبر الأوراق الخضر، وعندما جاء إلى البحيرة طالعته الحوريات

ذوات الشعر الأخضر حقًا، وغنين له على القيثارات، وعندما وصل إلى قِمّة التلِّ رأى قنطورًا عظيمًا يسابقُ الريحَ ضاحكًا وخلفه غيمةٌ من غبارٍ.

في تلك الأمسية عندما تجمع الناس والأطفال حوله في ضياء الشفق الخافت لسماع كل الأشياء العجيبة التي رآها ذلك اليوم قال الشاعر: «لا شيء عندي لأحكيه لكم، فاليوم لم أرَ شيئًا»، لأنه في ذلك اليوم وللمرة الأولى في حياته رأى الواقع، وبالنسبة للشاعر فالخيال هو الواقع والواقع لا شيء.

المُمَثِّلةُ

كانت هناك ممثلة عظيمة. امرأة حقَّقت من الإنجازات ما جعل عالم الفن كله ينحني عند قدميها مبجِّلاً إياها. تملُّقُ معجبيها ملأ حياتها لسنواتٍ عديدة، وأعمى عينيها عن كلِّ شيء، فلم تأمل بأي شيء آخر.

رغم ذلك فقد حل اليوم الذي لقيت فيه رجلاً أحبته بكل ذرة من روحها حتَّى أضحى كل فنها وكل إنجازاتها، وسحابات المعجبين بها بلا قيمة في نظرها، فقد صار الحب كل حياتها. كل هذا الحب لم يمنع غيرة الرجل الذي أحبته، غيرته من الجمهور الذي لم تعد المرأة تكترث له.

طلب منها التخلي عن عملها وترك المسرح إلى الأبد. فعلت ذلك بسهولة، فقد قالت: «الحب أفضل من الفن، أفضل من الشهرة، أفضل من الحياة ذاتها»، لذا تركت المسرح وكل منجزها فيه بسعادة وتخلت عن كل حياتها فداء لذلك الرجل.

مضى الوقت بسرعة، وتضاءل حب الرجل شيئًا فشيئًا، وعرفت بذلك المرأة التي منحته كل شيء، معرفتها تلك جعلتها كتلة بيضاء باردة في الأماسي، وغلّفتها من الرأس إلى القدم بوشاح اليأس الرمادي. لكنها امرأة شجاعة وقوية، لقد حدّقت في وجه الرعب دون أن ترمش. لقد علمت أن حياتها تأزّمت ومصيرها معلّقٌ بما ستصير إليه هذهِ الأزمة.

رأت الموقف بوحشية حادة قطّعت نياطَ قلبها. لقد ضحّت بحياتها المهنية من أجل حبّها، والآن هذا الحب يخذلها. لم تتمكن من إيجاد وسيلة لإحياء شعلة الحب، والتي صارت تبهت الآن وستنطفئ قريبًا بشكل كامل، ستعيشُ منعزلة كئيبة وسط بقايا حياتها الخَرِبة.

المرأة التي كانت ممثلة عظيمة أدركت أن فنها بدلاً عن مساعدتها وإلهامها في أكثر المواقف ظلامًا في حياتها، أعاقَها وشوَّشَ عليها. إنها تفتقد لتوجيهات مخرج المسرح وأفكار المؤلف وكلماته. لم تكن لتفعل شيئًا بدونهم، كل فكرة، كل حركة، كل بادرة كانت من توجيهاتهم لأن ذلك هو فن التمثيل. والآن حين حان وقت التفكير والابتكار والتصرف بنفسها شعرت أنها عاجزة وبلا مصادر مثل طفل واجه فجأة معضلة عظيمة. لكن مع كل يوم يمر، ومع كل لحظة تزداد ضرورة التحرك، ضرورة فعل جاد وقوي تفرض نفسها عليها أكثر وأكثر، في أحد الأيام إذ باتت هي ألعوبة لمشاعر اليأس الموحش الذي يتراكم في داخلها مع كل ثانية جاء لرؤيتها رجل. كان مخرجًا للمسرح الذي مثّلت فيه في الأيام الخوالي. جاء يطلب منها التمثيل في مسرحية جديدة. رفضت ذلك، ما الذي ستفعله في المسرح؟ هذا الفن الزائف الذي يحوّل من يمارسونه إلى دمى، دمى عاجزة، تحركها الخيوط في يد مدير المسرح أو المؤلف.

هي اليوم في مواجهة مأساة الحياة الحقيقية بينما كل المآسي الزائفة التي تُعرَض على خشبة المسرح ليست سوى بهرجة لبيت من ورق. لكن المخرج أصرَّ وألحَّ، فوجودها سيدرُّ عليه المال، وحام حولها مثل ذبابة في الخريف لا يمكن هزيمتها.

لو تفضلتِ بقراءة المسرحية على الأقل؟ وللتخلص منه قرأتْها، وإذا بها تجد أن مأساة المسرحية هي مأساة حياتها. القصة تماثل قصتها، وفي ثنايا العمل يوجد حل المشكلة.

ها قد جاء القدر لمساعدة الممثلة عن طريق مسرحية. درست الدور وتدربت عليه حتَّى أتقنته غاية الإتقان، وسرعان ما مثَّلتها أمام جمهور كبير. مثَّلت بشغف لم تعهده من قبل في عملها كله امتنانًا منها لعبقرية العمل، هدر التصفيق من كل جانب، وضجت القاعة بصيحات الإعجاب والتقدير النابعة من قلوب وعقول الجميع.

عندما انتهى كل شيء عادت إلى المنزل منهكةً وشبه خدرة من الدموع والصيحات التي لا تزال ترن في أذنيها. لقد قدمت أفضل ما عندها، وصبَّت قوة روحها وموهبتها عند أقدامهم، تركها كل ذلك مع إحساس بالعجز والضعف. وصلت منزلها منزعجة ومحملة بأكوام الزهور. فجأة لاحظت المكانين المجهزين على طاولة العشاء، وتذكرت أنَّ الليلة كانت لتقرير مصيرها. لقد نسيتْ ذلك حتَّى حانت اللحظة التي وصل فيها الرجل الذي تحبُّه، فقال:

«هل وصلتُ في الوقت المناسبِ؟».

نظرتْ إلى السَّاعة وقالتْ: «لقد وصلتَ في الوقت الصَّحيح؛ لكنَّكَ متأخِّرٌ للغاية فحسب!».

سِمعانُ القورينيُّ(280)

جلسَ الرَّجلَ العجوزُ برأسٍ منحنٍ وظهرٍ هدّه التعبُ بينما تصبّ زوجته الغضبى على مسامعه شتى أشكال التهم بلا طائل.

مثل شلال لا ينقطع صبّت عليه توبيخها: «أيها الأشيب المنعدم الإحساس، لِمَ ضيّعت وقتك في التسكّع على قارعة الطريق؟ والدك وجدك ووالده من قبلُ كلهم كانوا حراسًا لبوّابة المعبد، لو أنك تعجلت الذهاب عندما استُدعِيتَ لصِرتَ حارسًا مثلهم بلا شك، ولكن الآن أُختِيرَ رجلٌ أكثر استعدادًا».

«آهٍ! يا أكثرَ الرجال حمقًا، يا من تفضل التسكُّع على الطريق، لتحمل الصليب بدلاً عن نجَّار شابٍّ، مجرم يريد إثارة الفتن».

«هذا صحيح» رد الرجل العجوز، ثم أردف: «نعم، التقيتُ شابًّا على وشك أن يُصلب، وقد أمرني قائد الجيش الرُّوماني بحمل صليبِهِ. وبعد أن حملته إلى قمة الجبل تريَّثت بالرُّجوع بسبب الكلمات التي قالها، لقد جلَّلَهُ الأسى والألم، لكن أساه لم يكن على نفسه بل الآخرين، وعجيبة كلماته، أبقاني هناك وأنساني كل شيء سواه».

«نعم، ذلك حقٌّ، لقد نسيتُ كلَّ شيء، يا لقلَّةِ إحساسكَ، أن تصل متأخرًا للغاية وتطلبَ العملَ حارسًا للبوابة! ألا تخجل عند التفكير أن والدك وجدك من قبل كانوا حراسًا لبوابة الرب، وقد كُتبت أسماؤهم هناك بحروف من ذهب، وسيقرأها كل من سيأتي من بعدهم إلى أبد الآبدين، أما أنت أيها العجوز المتبطل، فوحدك دونًا عن أقاربك لن يسمعَ بك أحدٌ في العالم، فمن ذا الذي سيعرفُ من هو سِمعان القوريني؟».

إيزابل (281)

وقفت الملكةُ مكلَّلةً بتاجها البلّوري تحدق في الأراضي الجميلة الممتدة حول قصرها على مد البصر. كان شَعرها أحمر بلون الدم، مجدولاً بضفائر سميكة على جانبي وجهها الأبيض، تتلفع من رأسها حتَّى أخمص قدميها برداء حِيكَ من خيوط الذهب، تطوقها أشرطة طويلة من الزمرد، تضيء وتلمع في الغسق وكأنها أفعى خضراء تتمايل وترقص. يداها الطويلتان الشاحبتان طوقتهما الجواهر، وقد بدت مثل آلهة مذهلة في جمالها الأخّاذ المميت.

ندّت عنها تنهيدة عميقة ومثقلة للغاية، فقال لها الملك آخاب:

«لماذا التنهُّدُ يا ملكة الجَمال؟ أينقصكِ شيء يبتغيه قلبكِ، أيًّا كان في السماء أمْ في الأرضِ؟ أوليس عندكِ كلُّ ما يمكن أن يشتريه الذَّهبُ، وكلُّ شيءٍ صنعته يدُ الإنسان؟ لكن لو أنَّ هناك ما يشتهيهِ قلبُكِ فأنا هنا لأهبَكِ إيَّاه لأنني عبدُكِ، وإن كنتُ ملكًا لسوريا».

أجابتِ الملكةُ ببطءٍ، وبكلماتٍ واهنةٍ، مثل من هدَّهُ قلقٌ عظيمٌ حتَّى صارَ على شفا الموت مَكروبًا لعدم تلبيةِ رغباتهِ:

«ذلك حقٌّ، آهٍ، أيُّها الملكُ! لدي كل ما يمكن أن تمنحه الأرض، عندي الجواهر والذهب وثياب بلون الأرجوان من مدينة صور، لدي الفضة المسبوكة، وقصور من رخام ملئت بالعبيد والفتيات الراقصات، كلها ملكي. وأملك حدائق من ورد وأشجار نخيل وشجيرات برتقال يتصاعد شذاها عند الظهيرة..

عندي جِمال يتمايلن ويمشين الهوينى عبر الصحراء العظيمة، بحمولة قيمة من العطور والكنوز وكل ما اشتهته نفسي. وقد بات كل رجل عبدًا لي، فأنا عظيمة الجَمال. حتَّى أنت أيها الملك تجثو أمامي على التراب، وأنت آخاب ملك سوريا..

لكن عند بوابة قصري كرومًا من العنب؛ أرضًا خضراء يحلق فيها الحمام، وتلك ليست ملكي، لذا..».

فقال آخاب:

«لا تتنهدي يا إيزابل! بكل تأكيد ستكون الكروم والأراضي الخضر التي يحلّق فيها الحمام لكِ. إنها كرمة نابوت اليزرعيلي، حامل لوائي، ورفيق دربي، الرجل الذي أنقذ حياتي مرتين في المعركة».

ثم أرسل في طلب نابوت اليزرعيلي.

كان نابوت شابًا في العشرين من العمر، يروق مرآه للناظر إذ يقف أمام الملك بكل قوته ومكانته، قال له الملك:

«الملكة راغبة بكرمتك، لذا سأمنحك قطع الذهب والأحجار الكريمة بدلاً عن الأرض أو أيًا ما تشير له يدُك من شرفٍ أو كنوزٍ تبغيها، فالملكة تريد الكرمة».

لكن نابوت قال:

«كلا، أيها الملك، إن الكروم هذه كانت ملكًا لآبائي وقد أورثوني إياها، وهي كل ما أملك ولن أفرِّط بها، كلا، لن أتخلى عنها ولو مقابل كنوز الأرض كلها».

ثم تكلمت الملكة إيزابل بصوتها الخفيض الناعم مثل نسيمٍ عليلٍ في ليلة صيفٍ:

«لا تزعجه، الكروم ملكه، ولا يجب أن تسلبه إياها. لا تضايقه، وليمضِ بسلام».

ومضى آخاب وكذلك فعل نابوت.

لكن في وقت لاحق من ذلك اليوم دعت إيزابل نابوت إليها، فحضر أمامها وقالت:

«تعال هنا، واجلس بجانبي على هذا العرش المسبوك من العاج والذهب».

لكن نابوت رد عليها:

«كلا، أيتها الملكة، ليس ذلك من شيمي، فعرش العاج والذهب إنما هو عرش آخاب ملك سوريا، ولا يحق لرجل الجلوس عليه، فهو محفوظ للملك».

لكن الملكة أجابت:

«أنا إيزابل، أنا الملكةُ، وآمرك بالجلوس».

جلس جوارها على العرش، وعندها قالت له الملكة:

«ها هو كأس الشراب المحفور من حجر الأمثيست، اشرب منه!».

رفض نابوت فعل ذلك وقال:

«كلا، إنه كأس آخاب، ملك سوريا، ولا يصح لرجل الشراب منه، فهو محفوظ للملك وحده».

لكن الملكة أجابت:

«أنا إيزابل، أنا الملكة وآمرك بالشراب منه».

بعد أن شرب من كأس الأمثيست المحفور قالت الملكة لنابوت:

«أنا في غاية الجَمال، ما من امرأة على وجه الأرض أجمل مني، هلم قبّلني!».

رد نابوت:

«لكنكِ زوجة آخاب ملك سوريا، ما من رجل له الحق في تقبيلك سوى الملك لا غير».

قالت الملكة:

«أنا إيزابل، أنا الملكة، لذا قبّلني».

طوّقت رقبته بذراعيها العاجيتين لذا لم يتمكن من الإفلات، وعندها صاحت بصوت عالٍ ونادت:

«آخاب! آخاب!».

سمعها الملك وهرع إليها ليرى شفتيها على شفتي نابوت وذراعيها العاجيتين تتطوقان رقبته. أعماه الغضب فطعن برمحه جسد نابوت اليزرعيلي، الذي سقط مضرجًا بدمائه على الأرض الرخامية. وحين رأى الملك رفيق دربه يسبح في دمه مقتولاً بيديه زال عنه غضبه وامتلأ قلبه بالندم وغاصت روحه بالألم وصاح:

«آه يا نابوت! يا حامل لوائي، وصديق عمري، يا من أنقذت حياتي مرتين في المعركة، أقتلك بهاتين اليدين، أهذا الدم دم قلبك الشاب، ما قتلت إلا نفسي، وما الدم الذي أقف فيه الساعة سوى دمي!».

أكل الحزن روحه وهدها بينما صرخات رثائه لرفيقه تملأ الهواء، لكن الملكة إيزابل ابتسمت ابتسامة غريبة حلوة، وقالت وصوتها مثل نسيم عليل في أمسية صيف، صوتها الخفيض للغاية والناعم للغاية:

«دعْ عنك هذا أيها الملك، إنما الرثاء حمق، والبكاء عبث لا فائدة منه، إنما يجدر بك الضحك، لأن كرومَ العنب حيث العشب الأخضر تلك التي يحلق فوقها الحمام باتت ملكًا لي».

الملحقُ الرَّابع رسائل اللُّورد ألفريد دوغلاس

عزيزي السَّيد هولاند؛

وصلتني من أمريكا نسخة مستخلصة من رسالة كتبتَها أنت إلى السيد غيرتز، الذي يكتب كتابًا عن فرانك هاريس، ويقتبس منها قولك إنَّ كتاب هاريس (حياة واعترافات أوسكار وايلد) يحوي على حقيقة صلتي بوالدك. هل بوسعي الإشارة إلى كونك أولاً لستَ في موضعٍ للحُكم بخصوص ذلك؟ لقد كنتَ طفلاً صغيرًا عندما حدث الأمر ولا يمكن أن تكون لك معرفةٌ مباشرة بالموضوع، ثانيًا لقد اعترف فرانك هاريس أن حكايته عني غير حقيقية في كل جزئياتها تقريبًا. صحيح أنه يحاول الآن التملص من اعترافه ذاك لكن تبقى الحقيقة أنه اعترف بكذبه (أو خطأه إذا أحببت)، وهذا الاعتراف اعتمدَ بشكل رئيسي على قوة الأدلة كالمال الذي أعطيته لوالدك في مناسبات سابقة. هذه الأدلة لا تزال متوفرة، ويمكنني عرضها في أي لحظة.

أيضًا، اقتُبِسَ قولَكَ إن هاريس لم يكن بوسعه المجيء إلى إنكلترا «لأسبابٍ سياسية»، لكنك ربما لا تعرف حتَّى أن ما منع هاريس من المجيء إلى أمريكا لم تكن السياسة بالذات، لقد كان «مطلوبًا للشرطة»، صدرَ بحقِّهِ أمرُ إلقاء قبضٍ واحدٍ على الأقلِّ، إن لم يكن أكثر، لزجِّهِ في الأغلال حالمَا يخطو خطوةً داخل إنكلترا.

سأتجاوز ما قلته عن روس، لأنه وبالرغم من كون كلامك ليس حقيقيًا؛ فإنَّ بوسعي تقدير مشاعر الإخلاص لديك تجاهه. من ناحية أُخرى؛ ما من سبب يجعلك مخلصًا لرجل دوني مثل هاريس الذي سرق من والدك مسرحية (السيد والسيدة دافنتري) الأمرُ الذي كان إلى حد كبير سببًا في وفاته، فقد سرَّع غضبُه تُجاه هاريس موتَه إن لم يكن قد تسبَّبَ فيه. القصة الكاملة لهذا الحدث كتبها السيد بيل، وهو سِكرتيرُ هاريس الخاصُّ في ذلك الوقت، وقد نُشِرتْ مختصرةً.

أشعر بالأسف الشديد لأنك تحمل عداءً مستمرًّا ضدي. كنت أقرب أصدقاء والدك وصديقًا قريبًا لوالدتك كذلك وقد عرفتُكَ طفلاً. الأسطورة التي تشرَّبت بها عني وعن علاقتي بوالدك زائفةٌ بالكامل تقريبًا. نعم لقد تهجَّمتُ عليه في كتابي (أنا وأوسكار وايلد) لكنني فعلت ذلك تحت ضغط مفزعٍ، وأنا الآن أتبرأُ من هذا الكتاب.

ألن تستطيع أن تخلِّص عقلَك من الشعور المريض الذي يبدو أنك مستمتع به؟ لدي مشاعر طيبة لك لا غير.

المخلص لك/

ألفريد دوغلاس.

من حسن الحظ أنني احتفظت لنفسي بنسخة كربونية من رسالتي التي أرسلتها إلى الكاتب الأمريكي. وقد أرسلت تلك النسخة إلى ألفريد دوغلاس لأخبره في الوقت ذاته أنني قد سمعت بقصصٍ متناقضةٍ كثيرةٍ للغاية عن أبي، وقد قرأتُ الكثير من البيانات والتصريحات حتَّى بت أشك بحقيقة وجود أي شخص يدعى أوسكار وايلد! أضفتُ لذلك أنني لا أعتقد بوجود فائدة لأي لقاء بيني وبينه ما دمنا على ما يبدو في معسكرينِ متعارضين فيما يتعلق بروبرت روس. أجابَ ألفريد دوغلاس على ذلك بالتالي:

عزيزي السيد هولاند،

شكرًا على رسالتك التي تشرح بشكل مرضٍ كلَّ شيء يخصُّكَ. مع ذلك فإن اقتباس غيرتز لشظايا من رسالتك ودمجها ببعضها بين تعليقاته قد نجح في إعطاء الانطباع الذي اشتكيت منه في رسالتي الأولى لك، أي أنك تدعم هاريس ضدي. غيرتز، كما تقول، مزعج للغاية، لقد ألحَّ عليَّ بالأسئلة التي وجدت نفسي مجبرًا للإجابة عليها في معرض الدِّفاع عن

النفس لأنه قد أفهمني أنني إن لم أجب فسيطبع نسخةً أكاذيب هاريس دون وجود ما يناقضها. ربما كان بوسعي ألاَّ أجيبه، فتحيُّزُه المسبق لهاريس واضحٌ، مع ذلك فإنَّ ذلك بالطبع لا يجب أن يشغل بالك. الشيء الوحيد الذي أتمنى منك فعله هو أن تكتب له بأنك ترفض الاقتباس منك بطريقةٍ تجعلك تبدو مسانداً له ضدي. أخشى أن تهديدك له بإصدار أمر قضائي بحقه في هذا البلد لن يمنعه من طباعة رسالتك في أمريكا.

هناك شيء واحد في رسالتك لي، أشعرُ بوجوب الاعتراض عليه، لقد قلت «إن إعلانك في عدة مناسبات جعلَ من المستحيل لأي صديق من أصدقاء روس أن يكون صديقًا لك». لكن العديد من أصدقاء روس السابقين هم الآن أصدقائي، على سبيل المثال ريجي تيرنر الذي كتبَ لي رسالة مؤثرة عن كتاب سيرتي الذاتية، وروي كينارد الذي صار صديقي منذ رأيته مرة أخرى عام ١٩٢٥، بوسعي أن أشيرَ إلى ثلاثة أسماء أخرى على الأقل. بضعة أصدقاء آخرين لروس غيَّروا آراءهم مُذْ قرأوا كتابي رغم عدم معرفتهم بي. قضيتُك مختلفة، أدرك ذلك، رغم أنني غير قادر على الاعتراف بأنني قد فعلت أي شيء يوجب امتناعك من أن تكونَ صديقي.

المخلص لك/ ألفريد دوغلاس.

كتبتُ إلى أمريكا كما اقترحَ لكنني لم أتلقَ ردًّا على رسالتي. الكتابُ المقترح عن هاريس صدرَ في موعدِهِ، وقد كان قطعًة مذهلةً من الأكاذيبِ والوقاحاتِ كما لو أنها من كتابة هاريس نفسه.

الملحقُ الخامس مراحل تغيُّرِ موقفِ الرَّأي العام من أعمالِ أوسكار وايلد

بعد مرور قرنٍ على ولادة أوسكار وايلد يبدو من المناسب أن نمرَّ بمراجعة سريعة لمراحل تغيّرِ الرأي العام بخصوص أعماله ومكانته في الأدب.

بعد محاكمته عام ١٨٩٥ انتهجت الصحفُ بالإجماع موقفًا يدين أعمال وايلد سواء أكانت دراما أم شعرًا أم نقدًا.

جريدة (إيكو)، وهي واحدة من الجرائد المسائية الرئيسية في لندن، ظهرتْ في ظهيرة يوم إصدار الحكم في قضية التشهير ضد كوينزبيري، نشرت التالي:

«وهكذا تنتهي أكثر القضايا بؤسًا، قد انتصر اللورد كوينزبيري، والسيد أوسكار وايلد «لُعِنَ وانتهى أمره». أفضل شيء لفعله الآن نسيان كل شيء عن أوسكار وايلد، مواقفه، تعليماته الجَمالية، ونتاجاته المسرحية. دعوه يذهب في صمت، ولا تسمعوا له بعد الآن».

في يوم الإثنين اللاحق لإثار الحكم صدرت الدايلي تليغراف وكُتب في مقالتها الافتتاحية:

«ها هو الرجل يذوق عاقبة أعماله الآن، وربما ينزلق من منصة الشهرة التي أحبها إلى قعر الجحيم حيث سوء السمعة والنسيان الذي يستحقه، إن قبر النسيان الذي سيدفن فيه قد بني على أساس فخره الأحمق وعباراته المتناقضة الفارغة وغروره الذي لا يمكن أن يشفى منه».

في مدرسة بورتورا رويال(282) أُزِيلَ اسمُهُ من «مجلس الشرف».

حوالي عام ١٩٣٣ أعاد مديرُ مدرسة بورتورا رويال المبجل أي. جي. سيلي اسمَ أوسكار وايلد إلى مجلس الشرف. وفي أيلول سبتمبر عام ١٩٥٣ كتب لي المبجل دي. إل. غراهام الذي كان في حينها مديرَ المدرسة ليقول:

«صورة لأوسكار وايلد معلقة الآن في المدرسة، وفي الثلاثين سنة الأخيرة كنا نقوم من وقت لآخر بإعادة تمثيل واحدة من مسرحياته».

عام ١٨٩٥ سُحِبتْ كتبُ أوسكار وايلد من التداول، مسرحياته سُحِبتْ من المسارح، وفيما بعد صمتت الجرائد وتجاهلت أخبارَه حتَّى ظهور (أنشودة زنزانة ريدنك) في عام ١٨٩٨.

كما لو أن ذلك ليس كافيًا فبعض ناشري الكتب البذيئة الفاحشة مثل تلك الكتب التي يمكن أن تجدها في البوليفارد في باريس، بدأ هؤلاء بنسب تأليف الأعمال التي في جعبتهم لأوسكار وايلد، كان ذلك مثيرًا للحنق بالذات لأصدقاء أبي، فمعروف عنه جدًا امتناعه عن استخدام أي كلمة فاحشة أو حتَّى بذيئة في كتاباته أو حتَّى في أقواله.

للإمعان في إذلاله أُشهِرَ إفلاسُ أبي بعد وقتٍ قصير من بدء محكوميته، وعلى الفور أعادَ ناشرون مثيرون للريبة في إنكلترا، فرنسا وأمريكا، طباعةَ كتبه وبيعها علنًا من دون الاكتراث لحقوق النشر. لم يكن هناك شيء لمنعهم من فعل ذلك. حقوق أبي الأدبية كانت بيد المخوَّلين الرسميين على قضية الإفلاس، فقد اعتبروا أن الكتب بلا قيمة، وما دام النَّاسُ حمقى بما فيه الكافية لتضييع الوقت والمال في طباعتها؛ فلهم الحرية بفعل ذلك.

(أنشودة زنزانة ريدنك) نفسُها استُقبِلتْ بحذرٍ كبير من قبل الصحافة، لكنَّ مراجعاتٍ في صالحها ظهرت في كل من الدايلي تليغراف وفي إيكو، رغم أن كلا الجريدتيين راكمتا على مدى ثلاث سنوات سابقة كمية كبيرة من النقد العنيف لأعماله. أما التايمز فقد تجاهلت القصيدة كليًا.

في الأول من كانون الأول ديسمبر ١٩٠٠ بعد يوم من وفاة أبي نشرت (التايمز) إشعار نعي طويل، وفي سياق نعيهِ كُتبَ المديحُ التالي لمسرحياته:

«ملأى بأقوالٍ فطنةٍ، وذكاءِ المؤلَفِ منحَهُ ذات يوم موقعًا ذا شأنٍ في عالم الدراما»، لكنَّها استمرت بالقول: «بالطبع فإن الكشوفات التي تبدت من المحاكمة عام ١٨٩٥ جعلت عرض مسرحياته أمرًا مستحيلاً لبضع سنوات، رغم أن مسرحية (أهمية أن تكون أرنست) كانت بالفعل قد بدأت تعرض في المقاطعات الإنكليزية».

في عام ١٩٠١، بعد وقتٍ قصيرٍ من وفاة أبي، توجَّه روبرت روس بطلبٍ إلى محكمة الإفلاس لتعيينه الوكيل الأدبي لأوسكار وايلد. ابتسمَ له الموظف في المحكمةِ، وأكد له: «أعمالُ وايلد لا تسترعي انتباهًا من أيِّ نوعٍ»، مع ذلك لُبِّيَ طلبُهُ، وكان أمرًا يستحق السَّعي، ومن ثمَّ بدأ النِّضالُ الطَّويلُ لروس ضد قراصنة الأدب والمكاتب الحكومية. نضالٌ قال عنه روبي خلال خطاب قدَّمَهُ على عشاء أُقِيمَ على شرفه عام ١٩٠٨: «أعترفُ أنني لم أستطعْ أبدًا إتقان قوانين الإفلاس. كل ما استطعتُ استخلاصه وفهمه منها حتَّى الآن أنه في حالة إعلان الإفلاس ستُصبح حقوق المؤلف مَشاعًا للجميعِ ما عدا صاحبَ العمل أو عائلتَه أو وكيلَهُ الأدبيَّ، ويستمرُّ ذلك لأربعين سنةً أو أطولَ تبعًا لمزاج المكتب الرسمي لاستحصال الدُّيون».

نجحت جهود روبرت روس نجاحًا جيِّدًا حتَّى أنه في منتصف عام ١٩٠٦ تمكَّنَ من سداد دُيون الإفلاس وأوفى حقَّ كلِّ دائني أبي من الفرنسيين وقد كانتْ تلك آخرَ أمنياتِهِ.

بحلول كانون الأول ديسمبر ١٩٠١ عُرِضتْ مسرحية (أهمية أن تكون أرنست) والتي اشترى جورج ألكسندر حقوقها من مكتب استحصال الديون. عُرِضتْ إلى جانب (مروحة الليدي ويندرمير) في مسرح كورونيت، ثمَّ انتقلت إلى مسرح سانت جيمس عام ١٩٠٢ وأُعيدَ عرضُ هذه المسرحية عشرات المرات في لندن منذ ذلك الحين.

عام ١٩٠٥ نشر روبرت روس جزءًا من رسالة أبي إلى ألفريد دوغلاس تحت عنوان (من الأعماق) وقد تُرجِمتْ إلى كل اللغات الحية في العالم وبدأت تعيد أحياء اسم وايلد، وفي عام ١٩٠٨ نُشِرتْ أعماله الكاملة من قبل ميثيونين وشركائه، أُفتُرِضَ أن تكون تلك نسخة محدودة لكن بِيعتْ ألف نسخة من الكتاب من قبل أن يصدر حتى.

في الأول من شباط فبراير ١٩١٠ حلَّتِ الذِّكرى العِشرونَ لإدارة جورج ألكساندر لمسرح سانت جيمس، وقُدِّمَ عرضٌ خاصٌّ لمسرحية (أهمية أن تكون أرنست) في تلك المناسبة، وقد أعطى جورج ألكساندر لكلِّ واحد من الحضور نسخةً مطبوعةً من المسرحية.

عام ١٩١١ شُيِّدتْ قاعة مدينة تشيلسي الجديدة، وتقرَّرَ أن تُزيَّنَ قاعةُ المجلس بأربع لوحات تذكارية تمثِّلُ مشاهيرَ من التاريخ والعلم والأدب عاشوا في تشيلسي، وقد أُجرِيتْ منافسة بين فناني تشيلسي لإنجاز اللوحات، وأُخبِرَ المتنافسون بقائمةٍ المشاهير التي بوسعهم الاختيار منها؛ وفي اللَّوحة التي تخصُّ الأدبَ طُلِبَ رسم واحد من هؤلاء، سويفت، سموليت، كارليل، لي هانت، سانت إيفرموند، أوسكار وايلد، جورج إيليوت وشارلز

كينغسلي. اَختِيرتْ لَوحةُ رسمها جورج ولواي(283) وعلتْ بعضُ أصوات الاحتجاج في تشيلسي -كان مصيرُها التجاهل - بسببِ تضمين أوسكار وايلد في قائمة الشخصيات المُحتَفى بها.

بين الحربين العالميتين نُشِرتْ مرارًا مسرحياتِ وكتبِ أوسكار وايلد، وتكرر تقديم أعماله في العروض المسرحية حول العالم بأسره. في بداية الحرب الأخيرة قُدِّمَ عرض لمسرحية أهمية أن تكون أرنست دام لتسعة أشهر متواصلة، وهذا واحد من أطول فترات العرض في تاريخ المسرح الإنكليزي.

في الحادي عشر من نيسان/أبريل ١٩٤٦ قدم عرض خيري خاص لمسرحية أهمية أن تكون أرنست، ذهبت عائداته لتمويل صندوق الملك جورج لتقاعد الممثلين والممثلات، حدثَ ذلك في مسرح الهاي ماركت وقد حضرها الملك جورج السادس والملكة إليزابيث وأميرتان من البلاط الملكي.

في مناسبة الذكرى الخمسين لوفاة أوسكار وايلد، في تِشرين الثاني/نوفمبر١٩٥٠، كرَّس ملحقُ التايمز الأدبي الصفحاتِ الثلاثةَ الأولى له ولأعماله ملخِّصًا مكانته في الأدب الإنكليزي.

في هذا العام، عام ١٩٥٤ بمناسبة مرور قرن على ولادة أوسكار وايلد، أُطلِقَ اسمُهُ على عدة طرق في بلدانٍ مختلفة. وقد وضعَ مجلس مدينة لندن لوحة زرقاء(284) في شارع تايت عند المنزل الذي عاش فيه.

وأخيرًا فإنَّ معرضًا خاصًّا من المخطوطات والكتب التي تخصُّ أوسكار وايلد سيُقام هذا الصيف في مكتبة كلية ترينتي في دبلن.

لوحة مشاهير الأدب لجورج ولواي،

في قاعة الشرف بمجلس مدينة شيلسي يتوسطها أوسكار وايلد بين الغيوم

يوم وضع اللوحة الزرقاء لمسكن أوسكار وايلد

في شارع تايت بمدينة شيلسي

المُترجِمةُ

رغد قاسم (ولادة: بغداد، العراق - ١٩٨٩)

- كاتبة ومترجمة من العراق.
- أستاذة العلوم الأساسية والتغذية بمعهد الصِّحة العالي - بغداد.
- حائزة على شهادة الماجستير في اختصاص المُختبرات الطِّبية.

صدرَ لها:

- (تفاصيلُ المربَّع الأسود)، مجموعة قصصية نالت عنها جائزة الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق لعام ٢٠١٨، ضمن أفضل المجاميع القصصية للكُتَّاب الشَّباب.

من أعمالها في الترجمة:

- رسائلُ السِّجن – سلافوي جيجك وناديا.
- موجزُ تاريخ الدماغ والرُّوح – ماتياس إيكولد (عن الألمانية بالتعاون مع آلان بيري).
- الأجندة النيوليبرالية لغزو العراق - كريس دوران.
- الجنَّةُ والنَّار- نيرينا رستومجي.
- التَّمييز الجنسي والعِلم – إيفلين ريبد.
- مشاكلُ تحريرِ المرأة – إيفلين ريبد.
- البقاءُ للأشدِّ مرضًا – شارون مولم.
- هل هم أغنياءُ لأنَّهم أذكياءُ؟ – جاك بارنز.
- قبلَ آدمَ – جاك لندن.
- سنواتُ التَّكوين – جاك لندن.
- كنتُ اِبنًا لأوسكار وايلد – ڤايڤيان هولاند.

(215) هارفورد مونتغمري هايد، سياسيٌّ أيرلنديٌّ وعضو سابق في برلمان المملكة المتحدة. فُصِل من الحزب وخَسِر مقعدَه في مجلس العموم عام ١٩٥٩ بسبب موقفه المؤيد لعدم تجريم المِثلية الجنسية.

(216) منطقةٌ تاريخيةٌ في ريف أوكسفورد في إنكلترا.

(217) المبجَّل جون ماكسويل وايلد، الأخ الأكبر للسير ويليام وايلد. كنيسة ويست أشبي. [هامش الأصل].

(218) كروكيه أو الكروكيت، لعبةٌ على العشب تُضرب فيها الكُرات بمطرقة وتُحرزُ الأهداف عندما تمرُّ الكرة عبر حلقات مثبتة في الأرض.

(219) درسَ أوسكار وايلد الفصل الأول في الكلاسيكيات بكلية ترينتي عام ١٨٧٦. [هامش الأصل].

(220) باس هو لقب جيمس جي هاردنك، الأخ الأكبر لريجنالد هاردنك. [هامش الأصل].

(221) في الأصل عن اللاتينية (bellus homo).

(222) جورج فرانسيس مايلز، فنانٌ نال بعض السُّمعة في عصره. رسمةٌ بقلم الرصاص من عمله لأوسكار وايلد نهايةَ هذه الرسالة. [هامش الأصل].

(223) شاعرٌ لاتينيٌّ شهيرٌ، ينتمي لعصر الإمبراطورية الرُّومانية المتأخرة.

(224) اللورد رونالد شاترلاند جوير [هامش الأصل].

(225) هكذا في الأصلِ، تعبيرٌ عاميٌّ، بمعنى (مثلي).

(226) كونان مايلز، مدير مدرسة بينغهام، والدُ الفنان فرانك مايلز الذي كان صديقًا مقربًا جدًا لأوسكار وايلد في أكسفورد، وقد تشاركا فيما بعدُ منزلاً في كيتس، المنزل رقم ٣، في شارع تايت، تشيلسي. [هامش الأصل].

(227) كاتب إيطالي (١٤٢٨-١٤٩٨) ومهتم بالتراث اليوناني.

(228) عقيدةٌ مسيحيةٌ تندرجُ ضمن العلوم المريمية (أي المرتبطة بالسيدة مريم أمِّ المسيح) تنصُّ على عصمتِها من الخطيئة وذلك ببركة ولدِها. أُقِرَّ ذلك بشكل رسمي خلال بابوية بيوس التاسع في الثامن من كانون الثاني/ ديسمبر عام ١٨٥٤.

(229) إدوارد بوفيير باوسي (١٨٠٠-١٨٨٢)، أسقف إنجليكاني وأستاذ العبرية في جامعة أكسفورد. أمَّا هنري ليدون فهو باحث لاهوتيٌّ ورئيس الدراسات الإنجيلية في جامعة أكسفورد. كلاهما مرتبطان بما يعرف بـ(حركة أكسفورد) لإعادة الكنيسة الإنجليكانية إلى أحضان روما، وقد نتج عن ذلك إنشاء الكنيسة الكاثوليكية الإنجليكانية.

(230) الإشارة هنا لقصيدة الشاعر الروماني غايوس فاليري كاتلوس، حيث يموت الكاتب الذي جهدَ في جمع أعماله، وفي آخر الأمر تُلَفُّ الأسماكُ بأوراق كتبِهِ.

(231) في ذلك الوقت كانت رواية وليام هارول مالوك (الجمهورية الجديدة أو الثقافة والإيمان والفلسفة في منزل ريفي إنكليزي) تنزل بشكل متسلسل في مجلة (بيلغرافيا)، وهي رواية تغلب عليها الحوارات وتسخر من شخصيات المجتمع الفكري الإنكليزي؛ لا سيما أساتذة أكسفورد.

(232) روايةٌ شِعرية ملحمية للشاعرة الإنكليزية إليزابيث باريت براوننغ، الشَّاعرة الإنكليزية الأهم في عصرها والأكثر قراءة. وقد اعتبرَ جون روسكن هذا العمل أعظم قصيدة في القرن التاسع عشر.

(233) قصيدة طويلة للشاعر الإنكليزي ألفريد تينسون، الذي قُلِّدَ عام ١٨٥٠ منصبَ شاعر البلاط، وقد كان أستاذًا للشعر الغنائي في عصره. للشَّاعر تأثير كبير على جماعة (ما قبل الرفائيلية).

(234) في بعض الفواكه مثل الكرز والخوخ والمشمش، تكون البذرة في داخل الفاكهة مغطاة بطبقة صلبة لحمايتها تُعرَف هذه الطبقة بالصخرة، رغم أن الكثير من الناس

يعتقدون مخطئينَ أنَّها والبذرةُ سَواء؛ فإنَّها في الواقع طبقةُ حمايةٍ للبذرة التي في الدَّاخل.

(235) القديس كريستوفر هو شفيع المسافرين، لذلك تُحمَل صورته من قبل العديد من المسيحيين على شكل تمائم وقلائد، وهو من شهداء المسيحية في القرن الثالث الميلادي، وتعترفُ بقدسيته أغلبُ الطوائف المسيحية.

(236) قديس ألماني (١٣٨٠-١٤٧١)، اشتُهرَ بأعماله العديدة التي تضمنت التراتيل والعِظات، ومن أعماله (صلوات وتأملات في حياة المسيح) و(تجسيد المسيح).

(237) في الأصل عن اليونانية، مقتطفٌ من مسرحية (أغمانون) لأسخليوس.

(238) يرمز زهر اللوتس إلى الحب والارتباط، ويجسد اللوتس الأبيض واللوتس الوردي النقاء والتفاني. بمعنى أن الجسد مخصصٌ لذلك الشريك الذي سيتزوج هذا الشخص.

(239) مولي، عشبةٌ قيل إنها أُعطيت من قبل هِرمِس إلى أوديسوس كتعويذةٍ ضدَّ شعوذات سيرسي. [هامش الأصل].

(240) شخصياتٌ في ملحمة الأوديسة لهوميروس. أمَّا سيرسي فساحرة وآلهة ثانوية، عاش معها أوديسوس لعام ونصف وأنجب منها. بينما كاليبسو حوريةٌ أحبَّت أوديسوس وعاشا معًا سبعَ سنوات.

(241) في ذلك العام صدر ديوان (الزواج وقصائد أخرى) لجون سيموند أودل، وهو كاتب ورياضي وسياسي من جمهورية فيجي، بريطانيُّ المولد.

(242) في الأصل عن اليونانية (Αναρχία).

(243) صخرةٌ عالية الانحدار كانت تقع عند أطراف مدينة روما، وهي مكان للإعدام حيث يرمى المدان من أعلى نقطة ليتحطم جسده على الصُّخور.

(244) السير ديفيد هانتر بلير بارت، أصبحَ فيما بعد رئيس دير دانفرم لاين. [هامش الأصل].

(245) إشارة إلى ملاحظات الفلسفة التي طلبها أوسكار وايلد في الرسالة الثالثة عشر. [هامش الأصل].

(246) إشارة دينية من العهد القديم، في سِفْر يشوع [يش ٢٠: ٩]. وهو نص يتحدث عن أهالي (جبعون) قرب القدس الذين حاولوا خداع يشوعَ فحكم عليهم بأن يكونوا عبيدًا

يحتطبون الحطب ويسقون الماء لبيتِ الرَّب طَوال حياتهم: «فَالآنَ مَلْعُونُونَ أَنْتُمْ. فَلاَ يَنْقَطِعُ مِنْكُمُ الْعَبِيدُ وَمُحْتَطِبُو الْحَطَبِ وَمُسْتَقُو الْمَاءِ لِبَيْتِ إِلهِي».

(247) في الأصل عن اليونانية (φιλίας μνημοσύνου) وكما يذكر [هامش الأصل] فإن الخاتمَ موجودٌ الآن في كلية ماجدلين، أكسفورد.

(248) يستخدم أوسكار وايلد هنا صفة (The Old Maters)، وهي بالعموم صفة تطلق على أي فنان عمل في أوروبا قبل عام ١٨٠٠، وكذلك تطلق على أعمال ذلك الفنان.

(249) منحة العميد لأيرلندا وقدرها ٥٠ جنيهًا في السنة. الموضوع هو تعلم الكلاسيكيات والذوق. [هامش الأصل].

(250) يستخدم أوسكار وايلد هنا وصف (بيغاسوس Pegasus)، وهو حصان مجنح أسطوري من الميثولوجيا الإغريقية، يستخدم ككناية عن الإلهام الشعري.

(251) من غير الواضح قصد أوسكار وايلد عدا أن يكون البرطمان الذي أعطاه لجوب يحوي مادةً مخدرة. فهو يستخدم عبارات عامية مثل جونز وهو يصلح كاسم وفي نفس الوقت كان وصفًا عاميًا لمن يتعاطى المخدرات. والكلام بينه وبين جوب تلاعبٌ لفظي في الخلط بين اسم جونز وصفة جونز (المدمن) وبين استخدامين لكلمة (Exhibition) التي قد تأتي بمعنى إعانة وبمعنى معرض. كما يمكن أن يكون هناك معنىً مبطنٌ عن ممارسةٍ مِثلية الجنس لكن السِّياقَ غيرُ واضحٍ. يجدر الذكر أنني اخترتُ ترجمة (ابن الساحرة) لاسم كليبان، وهو شخصية ابتكرها شكسبير لوحشٍ مشوَّهٍ، وابنٍ لساحرةٍ.

(252) ذهب أوسكار وايلد إلى اليونان مع مهافي في نيسان/ أبريل ١٨٧٧ وتأخر عن دراسته شهرًا. بعد عودته غُرِّمَ ٤٥ جنيهًا وفُصِلَ مؤقتًا. مع هذا أُعيدَ له المبلغ حين حقَّقَ المركز الأول في مادة الكلاسيكيات. [هامش الأصل].

(253) الآنسة فلورنس بالاكومب، في نهاية هذه الرسالة رسمةٌ لها أنجزها أوسكار وايلد بنفسه. [هامش الأصل].

(254) في الأصل عن اليونانية (άναισθησία).

(255) يبدو أن أوسكار وايلد كان في شبابه يظنُّ أن (التُّرك) من نسلِ (العرب).

(256) ضاحيةٌ في مدينة بريستول، حيث عاش ويليام وارد. [هامش الأصل].

(257) يسخر أوسكار وايلد للمرة الثانية من هاردنك (كيتين)، بسبب تشتُّتِ أفكاره مرةً، وأخرى بسبب إهماله عند الكتابة إذ يتطاير الحبر منه على الصَّفحات كما لو أنَّ محبرته بدأت تنفد.

(258) إشارة إلى نهر شيرويل، قرب كلية ماجدلين التابعة لجامعة أكسفورد، وضفافِه الموحلةِ أغلب أيام الشِّتاء بسببِ ميله للفيضان. إنَّها استعارة لتوضيح مدى كرهه للجامعة.

(259) الخُطَبُ الفِيلبيَّة، هي الخطب الهجائية الغاضبة وتستعمل للعنِ العدو وإبطال حججه. والاسم مشتق من الخطب القاسية التي وجهها الخطيب اليوناني القديم ديموستينس (٣٨٤ ق.م. - ٣٢٢ ق.م.) لفضح الملك فيليب الثاني ملك مقدونيا الذي كان يريد توسيع مملكته واحتلال المزيد من الأراضي ومنافسة أثينا.

(260) المبجَّل دبليو دي. آلان، أمين الصندوق في كلية ماجدلين. [هامش الأصل].

(261) اسم يطلق على بناية قسم الموسيقى في جامعة بريستول الإنكليزية. وهي بناية صُمِّمَتْ على الطراز اليوناني القديم وسُمِّيتْ تيمُّنًا بالملكة فيكتوريا.

(262) في الأصل عن اللاتينية (Quantum mutatus ab illo).

(263) في الأصل عن اللاتينية (Corruptio optimi).

(264) نيرونية نسبة إلى نيرون، قيصر روما الذي تشير بعض المصادر إلى كونه حرق المدينة ليعيد بناءها من جديد لكنَّ الأمر انتهى بكارثةٍ أودت بحياة الآلاف من السكان، بينما يوجد بين المؤرخين اليوم من يرفض هذهِ النظرية ويعتبرها محاولةً لاحقةً من أعدائه لتشويه سمعته، وأن الحريق حادثٌ غير مقصود خصوصًا وأنه كان خارج روما وقت الحريق، وقد عاد لينظِّمَ فرق الإغاثة للسكان عكسَ ما تقوله بعض النصوص الأدبية بأنه جلسَ يغني وهو يسمع صرخات شعبه!

(265) الجملة «أي فنان سيخسر هذا العالم برحيلي!» ذُكرت في النص الأصلي باللاتينية (Qualis artifex pereo)، وهي كما يقالُ الكلمات الأخيرة لنيرون، قالها وأنهى حياته مُنتحرًا.

(266) في الأصل عن اليونانية (γνώθι σεαυτόν).

(267) نسبةً إلى هيلين التي كانت أجمل نساء الأرض، زوجة الملك مينيوس ملك إسبرطة. وقد تسبب اختطافها (وقيل إغواؤها) من قبل باريس الطروادي بحرب طراودة التي دامت عشر سنوات، وانتهت بموت باريس وتحطيم مدينة طروادة.

(268) إشارة إلى قصيدة (جنازة غرامنيان) للشاعر روبرت براوننغ، وهي مونولوج طويل عن حياة رجل متعلم أفنى شبابه وأيامه دون أن يستمتع بأيِّ شيءٍ فيها، وذلك في سبيل سعيه لبلوغ المعرفة، ورغم كلِّ الملامة فقد مات سَعيدًا وفخورًا بسعيهِ.

(269) من أساسيات الفلسفة الأبيقورية (لا تخفْ من الألم) لأنَّ الألم نتاج طبيعي لتطور الحسِّ لدى الإنسان، ويُنظَرُ إليه بوصفه أداةً لتنقية النفس وخلاصِها.

(270) في الأصل عن اللاتينية (arbiter miserarum).

(271) في الأصل عن اللاتينية (Via Dolorosa).

(272) مسارُ زهرة الربيع (primrose path) وصفٌ يطلق على مذهبِ المتعة والتجربة الحسية القائمة على السَّعي وراء السعادة فقط، رغم كل المخاطر، لأنَّ الحياةَ قصيرة كقِصَرِ أعمار زهور الربيع.

(273) في الأصل عن اللاتينية (janua vitae novae).

(274) في الأصل عن اللاتينية (insuetum miratur limen Olympi)، مقتطفٌ من النشيد الخامس من (أناشيد الرعاة) لفيرجيل.

(275) في الأصل عن اللاتينية (mater amabilis).

(276) اقتباسٌ من (الكوميديا الإلهية) لدانتي، قسم (المَطْهَر)، وقد ورد في النص الأصلي باللُّغة الإيطالية:

«Orribil furon li peccati miei;

ma la bontà infinita ha sì gran braccia

che prende ciò che si rivolge a lei».

(277) يَنتمي هذا النَّوعُ، من قصائدِ النَّثرِ، إلى نمطِ قصيدةِ الحكايةِ بحسبِ توصيفِ كتابِ (مقدِّمةٌ لقصيدةِ النَّثرِ) لبريان كليمنس وجيمي دونام، الذي نقلَهُ إلى العربية المترجمُ محمد عيد ابراهيم. ورغمَ أنَّ الكاتبَ يذكرُ بأنَّها «غيرُ منشورةٍ»، فإنَّ بعضَها نُشِرَ في حياةِ وايلد، ويعودُ أقدمُ تاريخٍ لها إلى العام ١٨٩٣.

(278) مفردُها فاون، وهو كائنٌ أسطوريٌّ من الميثولوجيا الرُّومانية (يماثل السَّاتير والإلهَ بان في الميثولوجيا الإغريقية). عبارةٌ عن رجلٍ نصفهُ العِلويُّ بشريٌّ ونصفهُ الأسفلُ على

هيئة جسد الماعز. آمنَ الرُّومانُ أنه يبثُّ الخوفَ في نفسِ مَن يسافرُ وحيدًا في الغاباتِ.

(279) القنطورُ، كائنٌ أسطوريٌّ من الميثولوجيا الإغريقيَّةِ لرجُلٍ له رأسُ ويدا وصدر إنسانٍ، وباقي جسدهِ على هيئة حصانٍ له أربعُ قوائمَ.

(280) قورينا، من أجمل مدن ليبيا، وواحدة من أجمل المدن العربية. تأسِّستْ عام ٦٣١ ق.م من قبل اليونانيين، ولا تزال تحوي الكثير من الحمامات اليونانية والمعابد وبعض الكنائس القبطية الأثرية. تسمى اليوم (شحات) وتقع في محافظة الجبل الأخضر. من أسمائها الأخرى كيرين، سيرين، قيرنيون. وقد ذُكرت في الإنجيل والتوراة، وزارها أفلاطون. وسِمعان هذا شخصية لها حضورٌ إنجيليٌّ بروايات مَتَّى مرقس ولوقا، [مت ٢٧: ٣٢؛ مر ١٥: ٢١؛ لو ٢٣: ٢٦]، كونه الرجلَ الذي حملَ الصَّليب نيابةً عن المسيح. ويعتبره البعضُ أوَّلَ قدِّيسٍ إفريقيٍّ، بينما يَرى الغنوصيِّونَ أنه شُبِّه للنَّاس فصُلبوهُ بدلاً عن المسيح؛ ممَّا تعدُّه الكنيسةُ هرطقةً. له ابنان، ألكسندر وروفس، وكلاهما من السَّبعين رَسولاً الذين اختارهم المسيحُ.

(281) شخصيةٌ مذكورة في التَّوراة بوصفها ملكةً ذات أصلٍ فينيقيٍّ، كانت زوجة (آخاب) ملك إسرائيل، وقد نشرت عبادة (بعل) بين الإسرائيليين، وهذا النَّص يستندُ على وقائع القصَّة التي ذُكرتْ بسِفر الملوك الأول، في العهد القديم.

(282) مدرسة أيرلندية عامة درس فيها أوسكار وايلد، وفي سنةِ سجنِ أوسكار وايلد حُذف اسمه من قائمة طلاب الشرف التي كان ضمنها لفوزه بمنحة ترينتي وكونه من الخريجين المتميزين، بل حتَّى الشباك الذي حفر أوسكار وايلد اسمه عليه أُزِيلَ. جديرٌ بالذكر أن الكاتب المسرحي صامويل بيكيت الفائز بنوبل ١٩٦٩، الذي ولد بعد ست سنوات من وفاة وايلد، خريجُ هذهِ المدرسة أيضًا.

(283) رغم أنَّ الكتاب، في نصِّهِ الأصليِّ، لم يدرج هذهِ اللوحة، فإنَّني تمكنت من الحصول على نسخة منها وأدرجتها نهاية هذا الملحق لغرضِ الاطِّلاع عليها. وهي لوحة تحوي على عدة شخصيات أدبية منها الكاتبة جورج إليوت، وتوماس كارليل، تتوسطهم لوحةٌ لأوسكار وايلد وقد رُسِم عاريَ الصدر كأنما هو يصعد إلى السماء.

(284) اللَّوحةُ الزرقاء علامة توضع لتمييز الأماكن التي عاشت فيها الشَّخصيات التي أثَّرت في التاريخ البريطاني، وقد وضعتُ في آخر الكتاب صورةً التُقِطَتْ يومَ وضعِ اللَّوحة.

1. الغلاف
2. كنتُ ابنًا لأوسكار وايلد
3. مقدمةُ التَّرجمة(1)
4. مُخَطَّط زمنيٌّ لحياةِ أوسكار وايلد
5. تصدير
6. استهلال
7. (10) محافظة تابعة لأيرلندا اليوم، وهي ال...
8. المنفَى
9. ألمانيا
10. مُوناكو
11. العودةُ من المنفَى
12. المُراهَقةُ
13. سنواتٌ سعيدةٌ قادمةٌ
14. الآنَ
15. الملاحق
16. بقلم: ويليام وارد